

جامعة الجيلالي اليابس – سيدي بلعباس-

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية



قبائل بني عامر في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ.

تخصص: التاريخ المعاصر للمجتمع الجزائري - التطورات و التحولات.

تحت إشراف:

إعداد الطالب

أ.د كريم ولد النبية

تيرش محمد

لجنة المناقشة

رئيساً	جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس	أستاذ	عسال نور الدين
مقرراً/مشرفاً	جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس	أستاذ	كريم ولد النبية
مناقشاً	جامعة وهران-أحمد بن بلة/ وهران 1	أ.محاضر.	بن جبور محمد
مناقشاً	جامعة بلحاج بوشعيب ع/ تموشنت	أستاذ	محمد قنانش
مناقشاً	جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس	أستاذ	قادة لحمر
مناقشاً	جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس	أ.محاضر.	جبران لعرج

السنة الجامعية:

1442هـ / 2020-2021م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة شكر

أحمد الله عز وجل الذي منّ علينا بفضله وكرمه لانجاز هذا العمل ،

أتوجه بأسمى عبارات التقدير والشكر إلى الأستاذ المشرف

أ.د "كريم ولد النبية"

الذي كان كريما معنا ولم يبخل علينا بوقته ونصائحه ودعمه لنا في هذه الرسالة.

وأقدم بعظيم امتناني وجزيل شكري للجنة الموقرة التي تحملت عناء قراءة

هذا البحث وإثرائه.

والشكر موصول إلى كل من مدنا بيد العون ونخص بالذكر قسم التاريخ جامعة بلعباس

وهران وعمال مركز التوثيق ومتحف وهران وكل من ساهم من قريب أو بعيد في انجاز

هذا العمل.

إهداء

أهدي هذا العمل إلى روح والدي الإمام وإلى الوالدة الكريمة

وكل الإخوة والأخوات

وإلى كل الأصدقاء ورفقاء الدرب

إلى روح شهداء المقاومة الذين ضحوا بحياتهم لأجل الوطن

إلى هؤلاء أهدي هذا العمل.

قائمة المختصرات

ج:	جزء
ص:	صفحة
ط:	طبعة
كلم:	كيلومتر
م:	ميلادي
هـ:	هجري
تر:	ترجمة
تح:	تحقيق

Ibid:	ibidem
Op cit:	ouvrage précédemment cité
P:	page
Vol:	volume
Bo:	bulletin officiel
Ra:	revue africaine
T:	tome
Awo:	archives wilaya oran

مقدمة

مقدمة

تعتبر البحوث والدراسات المحلية بالغة الأهمية في حياة الأمم والشعوب لما تلعبه من دور في المعرفة الإنسانية وتفسير الحوادث التاريخية المهمة وفق منظور علمي أكاديمي إذ لا يمكن الاستغناء عنها في بناء الحقيقة التاريخية. ولا تزال العديد من الجوانب في هذه الدراسات غامضة أو لم تستوف حقها من الدراسة، وتحتاج إلى المزيد من البحث لإزالة اللبس والغموض عنها. ولعلّ تاريخ قبيلة بني عامر في الجزائر هو جزء من هذه الدراسات التي لم تنل حظها من الكتابات التاريخية، قبيلة بني عامر التي هاجرت من بلاد الحجاز مع الهجرات الهلالية إلى بلاد المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي، حيث أقطعهم يغمراسن بن زيان منطقة تسالا وبذلك لعبوا دورا بارزا في الدولة الزيانية، وبقوا على حالهم هذه إلى غاية دخول العثمانيين إلى الجزائر لنجدة سكان المغرب الأوسط من هجمات الإسبان، حيث وجد بنو عامر أنفسهم بين مطرقة الإسبان وسندان العثمانيين، من موالة ومعاداة تارة حسب الظروف والمتغيرات، إلى غاية دخول الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر الذي زاد من معاناة هذه القبائل، ليتحقق له بذلك تفكيكها النهائي إلى وحدات صغيرة بفعل ترسانة القوانين التي سنّها والتي ضربت الوحدة القبلية في الصميم واستبدلتها بما عرف بالدوار لاحقا، هذا التنظيم الجديد الذي ضاعت معه الهوية القبلية وما يندرج ضمن إطارها من أرض وترابط اجتماعي وثقافي وعرفي وديني.

إن سبب اختيارنا لهذا الموضوع يعود لرغبة قديمة منا في المساهمة في كتابة تاريخ الجزائر وخاصة منطقة سيدي بلعباس بحكم انتمائنا إليها، ولدحض الافتراءات والادعاءات التي روجت لها الإدارة الاستعمارية حول قبائل بني عامر.

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى ما يلي:

- تسليط الضوء على التاريخ المحلي للمنطقة الذي هو الانطلاقة الفعلية لبناء تاريخ عام وشامل للجزائر.
- التعمق في دراسة التاريخ الاجتماعي للجزائر من خلال دراسة مسار إحدى أشهر القبائل في شمال إفريقيا.
- الدور الهام للقبائل الجزائرية في مقاومة الاستعمار أولا ثم الصمود في وجه هذا الاستعمار بكل الوسائل الممكنة.
- محاولة دراسة حيثيات السياسة الاستعمارية في المنطقة من خلال الدراسة المنوغرافية وذلك بالتركيز على التحليل السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي.
- توسيع ما تم دراسته حول الموضوع واستكمال الدراسات التاريخية التي أنجزت حول قبائل بني عامر.

الإطار الموضوعي للدراسة: تحاول الدراسة اكتشاف المسار التاريخي لأحد مكونات المجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية.

ومن هنا تتضح لنا أهمية هذا الموضوع الموسوم "قبائل بني عامر في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية" ودراسته دراسة تاريخية بالتركيز على الدور الذي لعبه بنو عامر في المسار التاريخي للمنطقة منذ ظهورها وكيف دافعت عن الجزائر ضد كل التحرشات والعدوان الذي ضرب استقرار المنطقة .

أما الإطار الزمني للموضوع: كان من الصعب جدا تحديد إطار زمني للموضوع واكتفينا بعبارة خلال الفترة الاستعمارية لأن تفكك بني عامر جاء في فترة طويلة لا يمكن تحديد بدايتها ولا نهايتها، لما لها من علاقة بجوانب كثيرة جدا مثل العامل الديمغرافي، الاجتماعي، الثقافي،... وغيره إضافة إلى أن مشروع البحث يدخل ضمن التاريخ المعاصر

للمجتمع الجزائري التطورات والتحولات ، كما أن تتبع تاريخ قبائل بني عامر هو بمثابة تتبع تاريخ المجتمع الجزائري المعاصر ودراسته بكل تطوراتهِ وتحولاتهِ وربطها بالعامل الزمني والمكاني لهذه القبائل التي كان لزاما علينا تقصي جذورها منذ دخولها إلى الجزائر مرورا بالفترة العثمانية والاحتلال الاسباني إلى غاية الاحتلال الفرنسي، وكل هذا حتى يتسنى لنا معرفة وفهم مختلف التغيرات التي طرأت على بني عامر والعوامل التي أثرت في سلوكها وانتمائها الروحي وموقفها من الاستعمار الفرنسي، وقد يطرح تساءل عن تغييب دور بني عامر في الثورة التحريرية الكبرى ومساهمتها فيها وهو ببساطة لا يعدو أن تكون هذه القبائل قد نشئت خاصة بعد هجرتها إلى المغرب في 1845 وواصلت السلطات الاستعمارية تفكيكها مع سيناتيس كونسيلت 1863/04/22 ووزعتها على الوحدات الإدارية والمراكز الاستيطانية وبالتالي فقدت هويتها القبلية وواصل قانون الحالة المدنية في 23 مارس 1882 تفكيك العائلات الجزائرية ومعها قبائل بنو عامر .

أما الإطار المكاني للدراسة: فهو الجزائر التي قدمت إليها قبائل بني عامر من الحجاز ووجدت مكانا لها بها، حيث استطاعت كسب ثقة الزنانيين والعثمانيين الذين منحوهم أراضي بالقطاع الوهراني خاصة، وقد سمته الإدارة الاستعمارية إقليم وهران أو القطاع الوهراني وهو ما كان يعرف في العهد العثماني ببابليك الغرب، ويضم ولايات وهران وعين تموشنت ومعسكر ومستغانم وغليزان وسعيدة إضافة إلى سيدي بلعباس وتلمسان وتيارت، وهو يعتبر من أهم الأقاليم في الجزائر من جميع النواحي اقتصاديا وجغرافيا وبشريا، ولذلك كان محط اهتمام السلطات الاستعمارية لتحويله إلى منطقة استيطان ليس للفرنسيين فقط وإنما للأوروبيين أيضا وبكل الوسائل، وقد تحول القطاع الوهراني إلى فضاء خصب لتطبيق السياسة الاستعمارية المتمثلة في تهجير سكان قبائل بني عامر من هذا الإقليم عن طريق مصادرة الأراضي وبناء المراكز الاستيطانية به.

إن الإشكالية الأساسية التي ظلت تقود البحث:

هل كان اضمحلال ثم اندثار قبائل بني عامر خلال الفترة الاستعمارية ظاهرة حتمية بدأت قبل 1830 أم أن الاستعمار الفرنسي هو الذي عجل بالقضاء عليها نهائيا عند تفكيكه للمجتمع الجزائري منذ 1863؟

ولتفكيك هذه الإشكالية ومعالجتها بما يكفي من دراسة اتبعنا المنهج التاريخي الذي هو أساس الدراسات التاريخية المبني على استرجاع الوثائق التاريخية من الماضي واستقراءها، تحليلها، نقدها وتركيبها في معرفة أكاديمية ممنهجة من أجل الخروج بنظرة عامة حول قبائل بني عامر وعلاقتها بالسلطة العثمانية والفرنسية وفهم الظروف والأسباب التي كانت وراء تقلب مواقفها ومدى انعكاس ذلك على التفكك النهائي لها.

إن موضوع قبائل بني عامر استقطب مجموعة من الباحثين الأكاديميين الذين أنجزوا أعمالا في شكل مقالات أكاديمية سواء كانت كتابات وطنية باللغة العربية أو الأجنبية تصدرها أقلام المؤرخين الفرنسيين.

اعتمدنا في دراستنا على مجموعة الدراسات المتخصصة على غرار مونسي حبيب: في مقاله "بنو هلال: المسيرة والتاريخ"، والذي جاء ضمن الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية، نوفمبر 2001، جامعة سيدي بلعباس حيث تتبع الجذور التاريخية للقبائل الهلالية وتصنيفاتها وصولا إلى الدور الذي لعبته في المنطقة. كذلك نجد عبد القادر حلوش ومقاله "قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1843" والذي ركّز على مقاومة بني عامر للاحتلال الفرنسي منذ دخوله إلى الجزائر إلى غاية نهاية مقاومة الأمير عبد القادر وتفكك هذه القبائل. وإبراهيم لونيسي "محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ قبائل بني عامر من بطش السلطان المغربي سنة 1846-1847" ذكر فيه الجهود التي بذلها الأمير عبد القادر من أجل إنقاذ حلفائه بني عامر من إبادة السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن وتأثير هذه الإبادة على نفسية الأمير وبني عامر. أما

كريم ولد النبية: اهتم بدراسة قبائل بني عامر في منطقة تسالا عبر الزمن الطويل سنة 2016 باللغة الفرنسية في مقال متخصص في مجلة عصور، كما كتب مقالا من قبل بعنوان "دوار برقش (منطقة سيدي بلعباس)" والذي فسّر فيه التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لسكان هذه الدوار المنتمين إلى بني عامر من تأسيسه إلى تفكيكه، وقد أفردت مجلة أضواء التي تصدرها مديرية المجاهدين لولاية سيدي بلعباس ثلاثة مقالات حول قبائل بني عامر، الأول في العدد 01 سنة 1998 تحت عنوان "استنجد يغمراسن بقبيلة بني عامر لإنقاذ دولته" والعدد 02 سنة 1998 "بنو عامر بين الإسبان والأتراك"، أما العدد 03 لسنة 2000 فجاء بعنوان "بنو عامر ومقاومة الاحتلال الفرنسي"، أما قوراري عيسى فكتب أطروحة دكتوراه بعنوان "قبيلة حميان من القرن 8-5 هـ/11 إلى 14 م" ورغم أن الدراسة تناولت الجانب الاجتماعي والاقتصادي لحميان وبني عامر إلا أنها أفادتنا في فهم التركيبة الاجتماعية والثقافية لبني عامر، هذا إضافة إلى كتاب عبد القادر عزة "مصطفى بن إبراهيم شاعر بني عامر ومداح القبائل الوهرانية" الذي جمع فيه أشعار مصطفى بن إبراهيم الذي تولى منصب قائد لدى أولاد سليمان، هذه الأشعار التي جاءت أغراضها متعددة وتحاكي الواقع المعيشي لبني عامر قبل الهجرة وبعدها. وبالرغم من افتقار هذه الدراسات إلى الكثير من المعلومات والإحصائيات، إلا أنها مفيدة لنا في تحديد أطر الدراسة وتوجهاتها المبنية على إخراج العمل في قالب علمي بحت.

ومن خلال المادة العلمية التي جمعناها في الدراسة، اعتمدنا على الخطة التالية من أجل الإجابة على الإشكالية الأساسية والتساؤلات الفرعية التي جاءت في أذهاننا طيلة فترات البحث، وبذلك احتوت الأطروحة على مقدمة، مدخل للموضوع وأهميته، وأربعة فصول.

- مدخل: غطينا فيه مفهوم القبيلة من خلال مفاهيم عامة عند الأنثروبولوجيين واللغويين، بدون أن ننسى ابن خلدون ونظرته إلى القبيلة، ثم لمحة ومفهوم حول

تطور القبيلة في شمال إفريقيا، وعرّجنا على ذكر بعض الأسس التي تقوم عليها القبيلة مثل العصبية والنسب والبناء القبلي، محاولين إعطاء صورة عن توفر هذه العناصر لدى قبيلة بني عامر وبالتالي تكذيب الادعاءات الفرنسية حول همجيتها وتوحشها وعدم انتظامها داخل وحدة محددة ، هذا كلّ إضافة إلى الحديث عن التركيبة الاجتماعية والثقافية لبني عامر داخل هذا الفضاء القبلي البحث.

- الفصل الأول: قبائل بني عامر عشية الاحتلال: حاولنا فيه تتبع بعض الأوصاف لها عند ابن خلدون والمشرقي والمزاري وأخيرا نظرة المؤرخين والرحالة الغربيين، ثم عرّجنا إلى المعارك ضد الإسبان ومع الأتراك والدور الذي لعبه بنو عامر في الدفاع عن الجزائر، والأسباب التي أدت بهم إلى موالة الإسبان، ثم الجذور التاريخية للانقياد الذي بدأ مع قمع السلطة العثمانية (بايلك الغرب)، إلى الاضطهاد المغربي لهم، أما عن الولاء الروحي لهم فكان للدقاوية حيث شاركوا في ثورتها ونتج عن ذلك هجرتهم إلى المغرب، ونلفت الانتباه هنا إلى ضرورة رجوعنا إلى تتبع الجذور التاريخية لبني عامر حتى يتسنى لنا فهم تطور الأحداث وفهم المواقف من هذه القبيلة خلال الفترة الاستعمارية.

- الفصل الثاني: المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر (1832-1847): حيث كانت بنو عامر ممن بايعه، أدى ذلك إلى احتلالهم مكانة مرموقة لدى الأمير، هذا الأخير الذي اعتمد عليهم في أغلب معاركه التي شاركوا فيها، إضافة إلى ما عانوه من تسلط السياسة الاستعمارية عليهم، وصولا إلى تجسيد الاستيطان الاستعماري على أراضيهم بمصادرتها وبناء المركز الاستيطاني بلعباس وقمع أولاد إبراهيم، هذا القمع والاضطهاد وتراجع مقاومة الأمير دفعهم إلى الهجرة إلى المغرب وتعرضهم هناك إلى الإبادة من طرف السلطان المغربي ما حتم على الأمير القيام بمحاولة إنقاذهم منه.

- الفصل الثالث: بنو عامر بعد العودة من المغرب: ذكرنا فيه عوامل التفكك بعد 1945 من ظروف العودة وصعوبتها وفقدانهم للأراضي وما انجر عنها من مآسي، حيث انعكس ذلك على ظروف معيشتهم وزاد ذلك الضرر من التشريعات العقارية التي أعادت توطيئهم حسب المصلحة الفرنسية، وفي الأخير ذكرنا أمثلة عن تطور بعض الفصائل من أولاد إبراهيم والحجز وأولاد علي وأولاد سليمان واقتصرنا على هذه النماذج بحكم أنها من الفصائل الكبرى التي تسكن في القطاع الوهراني.

- الفصل الرابع: استمرار التفكك في سياسة نابوليون الثالث: في هذا الفصل بيّنا استمرار تفكك بنو عامر في سياسة نابوليون الثالث الذي جاء بمشروع المملكة العربية وتقلب مواقفه من الجزائريين، إضافة إلى الأهداف والغايات التي جاء بها القرار المشيخي 22 أبريل 1863 والذي جاء في ظروف خاصة، وكيف انعكس تطبيقه على بني عامر والدور الذي لعبه في الإيقاف المؤقت لمصادرة الأراضي، وما إلى ذلك من تفتيت للملكية الجماعية التي ظهر على أنقاضها الدوار الذي لعب دورا كبيرا في محو الهوية القبلية وتغيير عقلية البدو وتشتيتهم، إضافة إلى الإشارة إلى المواطن الحديثة لبني عامر بعد تقسيم سيناتيس كونسيلت.

أما الخاتمة فكانت عبارة عن استنتاجات لما سبق، وقد طعمنا الرسالة بملاحق متنوعة خدمت الموضوع.

اعتمدنا على مصادر ومراجع متنوّعة تاريخية واقتصادية وأنثروبولوجية وأدبية وعسكرية، حيث أمدنا الأستاذ ولد النبية كريم بمجموعة مهمة منها حتى يتسنى لنا إخراج العمل في صورة عامة وواضحة، حيث نلخصها فيما يلي:

الوثائق الأرشيفية:

مجموعة وثائق من أرشيف ولاية وهران مثل:

- AWO- B:I 21/2261
- AWO- B: A 1442
- AWO- A: 1497

والتي تضمنت مجموعة من التقارير حول شؤون الأهالي والمعاملات الإدارية، إضافة إلى مراقبة سلوكهم وتصرفاتهم وكل ما يتعلق بالحياة اليومية داخل الدوار.

ومع هذه الوثائق الأرشيفية اعتمدنا على مصادر مطبوعة منها: "Bulletin officiel de la gouvernement d'Algérie" والتي تضمنت القوانين والتشريعات والمراسيم التي رسمت حدود القبائل خاصة بعد سيناتيس كونسيلت 1863، و "Tableaux de la situation des établissements français dans l'Algérie" ويستفاد كثيراً منها في معرفة الإدارة الأهلية وتطوراتها وكيفية تجسيد الاستيطان والأشغال العمومية المرتبطة به، إضافة إلى تزويدنا بطريقة معيشة القبائل وعلاقتها مع السلطات الاستعمارية، مع إحصائيات عامة حول الوضعية الاجتماعية.

المصادر:

- "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانين بوهران من الأعراب كبني عامر" لعبد القادر المشرفي، وهو مصدر أساسي ومهم في الدراسة كونه ذكر العلاقات التي جمعت هذه القبائل بالإسبان وبايلك الغرب، وذكر أصولها وانتمائها، ثم يبين الموقف منها محدثاً من التعامل معها، هذا المصدر نشره "مارسيل بودين" في المجلة الإفريقية سنة 1924، وهو المصدر الوحيد تقريباً الذي بني عليه معظم المؤرخين حكمهم حول بني عامر وألصقوا بهم تهمة الكفر

والخيانة وموالة الكفار بالرغم من أنّ المشرقي ذكر بعض الفصائل المتعاونة مع الإسبان وليس كلها، وهنا يجب أن نفرّق بين قبائل بني عامر والفصائل من بني عامر الموالية للكفار، أيضا لا يجب أن ننسى بأن المشرقي هو موظف في الدولة العثمانية وبالتالي نجده يتعصب للأتراك ضد قبائل الغرب الوهراني دون مراعاة للظروف التي كانت محاصرة لهذه القبائل من كل جهة.

- عبد الرحمن بن خلدون: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" المسمى بـ "مقدمة ابن خلدون"، وقد تناول فيها نظرية العمران البشري وحياة البدو المتمثلة في قبائل الهضاب العليا الغربية ومن ضمنها قبائل بني عامر، حيث نجده يصنّفها ضمن البداوة الجزئية وهذا نجده خاصة في الجزء السادس والسابع يصف قبائل بني عامر والدور الذي لعبته في المناطق التي انتقلت إليها خاصة المغرب العربي، وهو يحتوي على معلومات تتحدث عن الجانب الاجتماعي وأسلوب المعيشة والحروب، والدور العسكري لبني عامر في الدولة الزيانية، ووصف أصولها وبطونها.

- بن عودة المزاري: "طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر"، وهو مصدر مهم عن تاريخ وهران وباياتها، وقد اشتمل على تراجم للعديد من الشخصيات وذكر وقائع مختلفة. ونجد المزاري يفرد وصفا لقبائل منطقة الغرب والعلاقة القائمة بينها وبين السلطة العثمانية، والإسبان، حيث انعكست الوظيفة التي أداها على كتابته ووصفه للقبائل، إذ كان آغا لدى الفرنسيين، ويستند المزاري في وصفه لبني عامر على كتابات ابن خلدون أيام الدولة الزيانية، لقد أفادنا هذا المصدر في مقارنة الأوصاف والأخبار المتعلقة بقبيلة بني عامر خاصة أواخر الفترة العثمانية

وبداية الاحتلال الفرنسي للجزائر والدور الذي لعبته القبائل العامرية في مقاومة الأمير عبد القادر.

- "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" لابن سحنون الراشدي الذي عاصر محمد الكبير باي وهران، حيث ركز على الدور الذي لعبه في تحرير وهران من الإسبان عام 1792، ومسألة الشرع في القبائل الخارجة عن الطاعة وما أوصلت إليه المنطقة من انعدام الأمن وعدم الاستقرار في بايلك الغرب.

- "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" لأبي راس الناصر الذي كان في تونس زمن تحرير الباي محمد الكبير لوهران، وحول قصيدته المشهورة "نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران" إلى هذا المصدر الذي تحدث فيه عن حصار وتحرير وهران وذكر القبائل المتعاونة مع الإسبان مثل بني عامر حيث قام بدمها وانتصر لبايات وهران إضافة إلى ذم المنتمين إلى الطريقة الدرقاوية المعاصرين لسلطة العثمانيين.

- "دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران" لمحمد بن يوسف الزباني الذي تحدث فيه عن الثورات التي اندلعت ضدّ بايات وهران خاصة ثورة درقاوة وتأثر السكان بها خاصة من القبائل التي تبنت المرابطية ورأت فيها خلاصها من ظلم الأتراك لهم، إضافة إلى ذكره أخبار الباي المقلش ونزوله عند أولاد علي وأولاد زابر لصعد الدرقاوي.

- "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر" لمحمد بن عبد القادر، والذي قسم هذا الكتاب إلى قسمين: تناول الأول سيرته السيفية والثاني سيرته العلمية وهو يعتبر مصدرا أساسيا في معرفة علاقة الأمير بالقبائل الموالية له والعوامل المتحكمة في هذه العلاقة.

- "حياة الأمير عبد القادر" لصاحبه "شارل هنري تشرشل" والذي ترجمه أبو القاسم سعد الله وعلّق عليه، هذا الكتاب يذكر الأحداث المرتبطة بالأمير منذ ولادته في 1807 إلى غاية 1864 بعد عودته من فريضة الحج، ونجد فيه بطولته الحرية ومواقفه الإنسانية.

المصادر الأجنبية:

- كتاب "ليون أدو" مدينة سيدي بلعباس، حيث شغل هذا الأخير العديد من المناصب مثل مفتش للسكك الحديدية، كتابه اشتمل على مقدمة وثلاثة فصول، حيث يقدم في البداية لمحة جغرافية وجيولوجية وأثرية للمنطقة التي تأسست عليها مدينة سيدي بلعباس، إذ يشير إلى أصول السكان الذين كانوا على التوالي تحت سيطرة الرومان والعرب والأتراك والإسبان، ويؤكد على أنّ بداية تأسيس بلعباس كان في 1843، وتناول في الفصول الأخرى الجوانب الإدارية للمدينة وبناء السدود وإنشاء الحدائق العامة وبناء مساكن المعمرين، وقد سمحت لنا دراسته بربط العلاقة بين أهمية أراضي بني عامر وإقامة مركز استيطاني عليها، إضافة إلى إعطاء تفاصيل حول مقاومة أولاد إبراهيم وإحصائيات عامة حول القبائل العامرية في المنطقة.

- "فانسان أويت" وكتابه "عذراء بني عامر" *La vierge des Béni Amer* حيث احتوت هذه الرواية على العديد من الفصول وجاءت في 184 صفحة، تناولت الحياة الاجتماعية والعسكرية ووصفا دقيقا للحياة اليومية لهذه القبائل، وتدور الأحداث التاريخية لها في إحدى بطون قبائل بني عامر، وتحكي قصة عذراء بني عامر إحدى بنات شيوخ القبائل وتسمى "وريدة" و"قدور" أحد أبناء القياد المسمى "مصطفى"، إذ أن قدور أحبّ وريدة وحاول الفوز بها دون الخروج عن الأعراف القبلية آنذاك، حيث نجد وصفاً للعادات والتقاليد في القبيلة مثل مكانة المرأة

والمناسبات والأعياد، ومكانة الخيل وطقوس السحر والشعوذة وكل ما يتعلق بالحياة اليومية لبني عامر. وقد ساعدنا هذا المصدر في معرفة واستقصاء الوضع الاجتماعي خاصة بعد العودة الكبرى من المغرب ومدى تأثير الهجرة ومرارتها على حياتهم وسلوكهم.

- كتاب "ليون باستيد" "Bel Abbés et son arrondissement" الذي ركّز فيه على بناء مدينة سيدي بلعباس وتعميرها واستصلاح الأراضي وزراعة الكروم، إضافة إلى إعطاء لمحة عن قبائل بني عامر بعد 1845 وتوزيعهم، وبالرغم من أن هذا المصدر يحمل في طياته أفكاراً عنصرية تمجد الاستعمار وتخدم إيديولوجيته الرامية إلى تحطيم المجتمع الجزائري ولكن حاولنا التعامل معها بحذر شديد ومقارنتها بمصادر أخرى وما يخدم الموضوع.

- كتاب "ليون روش" المسمى "اثنان وثلاثون عاما في الإسلام" "Trente deux ans à travers l'Islam" والذي خصّصه للحديث عن الفترة التي قضاها في الإسلام وعمله كمستشار للأمير، وقد أفادنا هذا المصدر في معرفة طريقة عودة بني عامر إلى الجزائر بعد الهجرة والصعوبات التي تلقوها وحالتهم النفسية، لكنه لم يخلو من المغالطات التاريخية والمبالغة في وصف وإذلال بني عامر.

- "مراسلات النقيب دumas قنصل بمعسكر" لـ "George Yver" هذا النقيب الذي شغل منصب قنصل فرنسا لدى الأمير من 1837 إلى غاية 1839، حيث دونت مراسلاته تحركات الأمير عبد القادر وحلفائه وشملت مراقبتها وقد أفادنا في معرفة جانب من الحياة اليومية والعسكرية لبني عامر، إضافة إلى علاقتها مع مختلف القبائل المجاورة، وكذا حالة التضيق والحصار التي عانت منها هذه القبائل وتعرضها إلى المساومة قصد إخضاعها لفرنسا.

- كتاب "شارل أندري جوليان" "Histoire de l'Algérie contemporaine" والذي نجده يقدم معلومات هامة تتعلق بتاريخ الجزائر بين 1832-1847، وبالرغم من أنه ركز على الجانب العسكري وطرحه هو ذاتي إلا أنه يعتبر مصدرا هاما في الدراسة.
- "بول أزون" "L'Emir Abdelkader 1808- 1883" والذي تعكس كتاباته النظرة الاستعمارية، حيث خصص هذا الكتاب الحديث عن الأمير وشخصيته والجوانب السياسية والعسكرية ويحتوي على مادة علمية هامة احتاجت إلى التمهيد والتدقيق قصد الابتعاد عن المغالطات.

المراجع باللغة العربية:

- "عزة عبد القادر": "مصطفى بن إبراهيم شاعر بني عامر ومداح القبائل الوهرانية"، الذي تنوّعت فيه الأشعار التي جاءت في عدة أغراض ووثقت للحياة اليومية لبني عامر، وقد استطعنا استنباط بعض المعلومات من هذه الأشعار وبحسب المناسبة التي قيلت فيها، لذا كان لزاما علينا التأكد من التاريخ الذي ذكرت فيه والغرض الذي جاءت لأجله كون الشاعر شغل منصب قايد لدى الإدارة الاستعمارية.
- مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: "القبائل العربية في المغرب": وبالرغم من أنه اعتمد في كتابه على ابن خلدون، إلا أنه أفاد الموضوع وخدمه.
- عبد الحميد خالدي: "الوجود الهلالي السليمي في الجزائر" والذي يعالج موضوع القبائل الهلالية بطريقة مفصّلة، إذ يتناول أصولها ونسبها ولمحة عنها قبل الإسلام والدور الذي لعبته في نشر الإسلام وصولا إلى هجرتها ونزوحها إلى المغرب، ثم ذكر بعضها من جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لها في المغرب الأوسط وتأثيرها عليه.

- مصطفى الأشرف: "الجزائر الأمة والمجتمع": يشير فيه مؤلفه إلى مسألة جدّ مهمة وهي ميلاد الأمة الجزائرية الحديثة تحت الاستعمار الفرنسي الذي حاول بكل الوسائل نفي وجود الكيان الجزائري واتهم حركات المقاومة بالطابع الديني المحض وهو ما حاول مصطفى الأشرف توضيحه في كتابه حيث يعلن خلافه مع المؤرخين الفرنسيين الذين زيفوا الحقائق وألغوا كيان المجتمع الجزائري. واعتمدنا عليه في فهم ترابط القبائل ومدى تمسكها بالهوية الوطنية.
- الهواري عدي: "الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي 1830-1960" وفيه التقسيم الاجتماعي للعمل وتساؤلات حول مدى تعمق هذا التقسيم خارج حدود الجماعات العائلية أو القبلية وبقائه محصورا فيه إضافة إلى سرد لأهم القوانين والتشريعات التي ساهمت في تفكيك وتحطيم الترابط الاجتماعي داخل المجتمع القبلي في الجزائر.
- أبو القاسم سعد الله: "تاريخ الجزائر الثقافي" هذا المرجع الذي يعتبر بمثابة موسوعة ثقافية للجزائر، اشتمل على تراجم لشخصيات وعلماء وأعيان، ناهيك عن أهم الأحداث السياسية التي رافقت حياتهم وقد استخدمنا الأجزاء: 2-4-5-6-7، والتي احتوت على ذكر بني عامر في الفترة الإسبانية خاصة الجزء الثاني، أما الجزء 4 فاستفدنا منه في فهم سبب موالاة الدرقاوية والثورة على الترك، أما الجزء 6 و7 يتحدث عن هجرة بني عامر وموقف الشرع منها.
- كريم ولد النبية وكتابه "تاريخ الإدارة الاستعمارية المحلية في الجزائر 1830-1954 من خلال الوثائق الأرشيفية" وهو كتاب ذو قيمة علمية كبيرة كون اعتماد المؤلف على وثائق أرشيفية في تتبع كرونولوجيا الإدارة المحلية في الجزائر وأهم التحوّلات التي مرّت بها.

- أمّا كتابه الثاني فهو: "البلدية الاستعمارية في الجزائر 1863- 1947 من خلال الوثائق الأرشيفية" وهو لا يقل أهمية عن الكتاب الأول من أجل فهم طريقة تسيير الشؤون المحلية في الدوار والبلدية، وتتبع مشاريع البلدية في الجزائر والتي بنيت كلها في قالب استعماري بحث على حد تعبيره، وتجميع السكان الجزائريين في دواوير بعد القضاء على البنية القبلية وتفكيكها.

المراجع الأجنبية:

- "والسون استيرازي" "De la domination turque dans l'ancienne régence d'Algérie" حيث شغل صاحب هذا المؤلف منصب عقيد في القوات الاستعمارية، وكان نائب المدير المكلف بالشؤون العربية في وهران. هذا المرجع اشتمل على معلومات هامة حول منطقة الغرب الجزائري والعلاقة القائمة بين القبائل والسلطة العثمانية والصراعات التي كانت قائمة بينها.

- رضوان ثابت والطيب نهاري وكتابهما: "Histoire d'Algérie Sidi Bel Abbés de la colonisation..."، هذا المرجع الذي حاول المؤلفان فيه دراسة تاريخ الجزائر من فترة الاحتلال إلى اندلاع الثورة التحريرية وركزا على سيدي بلعباس والولاية الخامسة، وقد تمّ تخصيص جزءا للحديث عن سكان بلعباس ودورهم في المقاومة بدءا بالأمير ووصولاً إلى الثورة التحريرية.

- بوعمران الشيخ "L'Emir Abdelkader résistant et humaniste" تحدث فيه عن مقاومة الأمير عبد القادر بدءا بالبيعة وتحليل خطابها الموجه إلى القبائل ووصولاً إلى نهاية المقاومة متضمنا أحداث تاريخية عن الجانب العسكري والسياسي للأمير.

- لحسن خليل البركاني "Les insurrections en Algérie (1830- 1900)" وفيه يذكر الانتفاضات والمقاومات الشعبية التي قامت في الجزائر، وقد أفادنا خاصة في معرفة

ملايسات موت البوحميدي في المغرب بعد أن أرسله الأمير لإنقاذ بني عامر من بطش السلطان المغربي إضافة إلى إعطائنا ترجمة للبوحميدي الولهاصي وسيرته.

المقالات باللغة العربية:

مجموعة من المقالات منشورة ضمن كتاب الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية بتاريخ 2001:

- مونسي حبيب: "بنو هلال المسيرة والتاريخ".
- عبد القادر حلوش: "قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847".
- إبراهيم لونيبي: "محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ بني عامر من بطش السلطان المغربي سنة 1846-1847".
- بلعربي خالد: "المدينة والمقاومة سيدي بلعباس في مواجهة الاحتلال"، وإذا كانت هذه المقالات قد ركزت على مقاومة بني عامر وأهملت الجوانب الأخرى لها فإنها تعتبر ذات قيمة معرفية.

المقالات باللغة الأجنبية:

- "Pierre Boyer" ومقاله المنشور في مجلة الغرب الإسلامي والبحر المتوسط، والمتضمن تاريخ بني عامر إلى غاية ظهور قانون سيناتيس كونسيلت، حيث شرح فيه أصول وانتماءها منذ دخولها إلى المغرب الأوسط ودورها في الدولة الزيانية وتقلبها بين الإسبان والأتراك، وصولا إلى الاحتلال الفرنسي ودورها في المقاومة إلى غاية هجرتها وتفككها النهائي مع سيناتيس كونسيلت، و"بوير" يقدم لنا معطيات إحصائية حول الأراضي وتعداد بني عامر، كما أنه يشكك فيها في نفس الوقت، كما لم يخلو مقاله من الأحكام القاسية على بني عامر.

- "يزيد بن هونت" ومقاله: "La tribu comme champ social" ويعالج فيه القبيلة ومفهومها وتركيبها الاجتماعية في المغرب العربي.
- "Didier Guignard" ومقاله "Conservatoire revolutionaries" وأهمية مقاله تكمن في ذكر تقسيمات سيناتيس كونسيلت وإحصائيات عامة حول الأراضي، إضافة إلى ذكر مقارنة بين التشريعات المطبقة في فرنسا والجزائر، ومحاولة الاستعمار تطبيقها على القبائل.
- أما عن صعوبات البحث: خلال إنجازنا لهذا البحث واجهتنا بعض الصعوبات، لكن وبحمد الله استطعنا تجاوزها، فمن بين هذه الصعوبات:
- قلة الدراسات السابقة التي عالجت موضوع قبائل بني عامر بصفة مباشرة، وهذا ما صعب من الحصول على المادة العلمية.
- انعدام المصادر المحلية الموضوعية ما عدا ما كتبه المشرفي حول بني عامر والذي حتم علينا الغوص في أسباب هذا التحامل على هذه القبائل، ولم ننسى أن صاحب هذا المؤلف هو موظف في الدولة العثمانية.
- الاعتماد على المصادر والمراجع الأجنبية والتي اهتمت بالجوانب المتعلقة ببايلك الغرب مثل الأرض ونوعية الملكية والطرق الدينية إضافة إلى العادات والتقاليد والطقوس، هذه الكتابات التي تمثل النظرة الاستعمارية القائمة على تهميش دور العنصر المحلي وازدراءه وتخدم السياسة الاستعمارية، وقد اعتمدنا عليها بحذر شديد حتى لا نقع في المغالطات التاريخية.

- العراقيين الموجودة في دور الأرشيف الجزائرية والتي لم ترق إلى الروح العلمية المتمثلة أساسا في تسهيل مهمة الباحثين وتذليل العقبات لهم، حيث منعنا من الدخول في عديد المرات وتم منعنا من التصوير أيضا باستخدام حجج واهية.
 - أما الأرشيف الذي وصلت أيدينا إليه فحاولنا بناء معارف منه للوصول إلى بناء الحقائق التاريخية.
 - جائحة كورونا التي نتج عنها عدم الاحتكاك بالأساتذة والباحثين إلا من خلال الهاتف أو مواقع التواصل الاجتماعي، وكذا غلق كل المكاتب مما صعب علينا الوصول إلى المصادر والمراجع.
 - ضيق الوقت واتساع الموضوع، مما صعب علينا الإلمام بشكل كامل بالموضوع.
- في الأخير لا يسعنا إلا أن نقول بأن هذا الموضوع هو من اجتهاد طالب مبتدأ، لا يزال يتدرج في سلم العلم، فهو قابل للنقد بل يحتاج إليه، وهذا تصحيحا للأخطاء التي يمكن أن ترد، وكذلك ترمينا للنقاط الإيجابية التي تطرق إليها البحث، كما أنه يحتاج إلى توسيع واستزادة في التعمق أكثر في الموضوع.
- ونحن لا ندعي الكمال في هذا العمل الذي يعتبر محاولة متواضعة منّا لإثراء تاريخ الجزائر، ويحذونا أمل كبير في أن نكون عند حسن ظن أساتذتنا الأفاضل، شاكرين لهم على تفضّلهم في مناقشة هذا العمل، ونحن على أتم الاستعداد لتصحيحه وإثرائه ليرقى إلى أفضل ما هو عليه، من خلال الملاحظات والتوجيهات المقدمة لنا.

مذخل

مدخل

أولاً: مفهوم القبيلة.

1- مفاهيم عامة حول القبيلة

2- القبيلة في كتابات ابن خلدون.

3- القبيلة في شمال إفريقيا

ثانياً: أسس النظام القبلي.

1- العصبية القبلية.

2- أهمية النسب في القبيلة.

3- البناء القبلي.

ثالثاً: التركيبة الاجتماعية والثقافية لبني عامر.

1- اقتصادياً.

2- اجتماعياً.

3- ثقافياً.

أولاً: مفهوم القبيلة.

تعدّ القبيلة من أقدم المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وهي أصل التجمعات البشرية منذ القدم وتحظى بمكانة هامة تتجلى في كونها معبرة عن انتماء الفرد إلى الوحدة الاجتماعية التي يتشكل منها المجتمع ، ونظرا لأهمية هذه الأخيرة فقد حظيت بالعديد من الدراسات التي حاولت صياغة مفهوم دقيق وشامل لها، هذه المفاهيم التي تعددت بتعدد أهل الاختصاص الدارسين لها من أنثروبولوجيين ومؤرخين ولغويين.

1- مفاهيم عامّة:

تشكل القبيلة الحاضنة الأساسية للمجتمع¹ وقد أدّى اختلاف سياقات التناول لدى الدارسين في العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى الاختلاف في تحديد مفهوم القبيلة، هذا المفهوم وعلى الرغم من اتساع استخدامه، فإنه لا يحظى بالاتفاق على الدلالة والمعنى نفسهما. فكثيرا ما يحدث الخلط بين القبيلة (tribu) والأثنية (ethnie)، كما يحصل الخلط أحيانا بين الوحدات الاجتماعية المدروسة بما يساوي بينها، على رغم اختلاف حجمها وأسس بنائها ووظائفها. لقد أدى هذا الخلط اليوم إلى تسرب مفهوم القبيلة إلى الخطاب الإعلامي والسياسي ليدل على أيّة مجموعة منغلقة وخصوصا إذا كانت دينية أو حرفية أو طائفية². وللوقوف على مفهوم القبيلة حاولنا معرفة مدلوله في المعاجم والدراسات الأنثروبولوجية الغربية والعربية.

ففي "لسان العرب" لـ"ابن منظور" يعرفها "الجوهري": «القبيلة واحدة قبائل الرأس وهي القطع المشعوب بعضها إلى بعض تصل بها الشؤون، وبها سميت قبائل العرب، الواحدة قبيلة»، والقبيلة من الناس: بنو أب واحد.

¹ - محمد الترسالي، "القبيلة الصحراوية قراءة في النشأة والتطور"، مدارات تاريخية، المجلد 2، العدد الخامس، مارس 2020، ص 89.

² - محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002، ص 53.

ويرى "ابن الكلبي" أن الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ، والقبيل: الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى، كالزنج والروم والعرب، ولعلّ من الأفضل هنا أن نحدّد معنى كلمة عربي وأصولها، التي اختلف فيها المفسّرون، فذهب فريق من علماء العربية إلى أن يعرب بن قحطان كان أوّل من أعرب في لسانه، كما أنّ العربية هي لسان أهل الجنّة، كما هي لسان آدم، ويذهب الألوسي إلى أنّ لفظ العرب إنّما يطلق أصلاً لقوم جمعوا عدّة صفات¹.

وقد يكونون من نحو واحد، وربّما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة². وقد وردت في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: قبيلة: Tribe، أما النظام القبلي: Tribalism³.

وينطلق عبد الله حمودي من تعريف إجرائي محض لـ "قبيلة" وهو كالتالي: بصفة عامة، يتعلق الأمر بمجموعة يشار إليها غالباً بكلمات قبيلة أو تقبيلت، ولأعضاء هذه المجموعة عموماً مجال ترابي يعتبرونه ملكاً جماعياً لهم، ويشغلون موارده بناء على انتماءهم الذي يتفقون هم بأنفسهم على أنه يأتي من أصل مشترك، كما يعتبرون أنفسهم متضامنين في الدفاع عن ذلك المجال. ومن ناحية أخرى، يمارس هؤلاء نمط عيش مرتبط بفهمهم لإكراهات هذا المجال⁴. والقبيلة في النظام الأبوي تمثلها في الأصل جماعة ينتسب جميع أفرادها إلى جدّ مشترك ويعتقدون أن رابطة الدم الواحد تجمع بينهم⁵. وقد اختلف المحتوى النظري لمفهوم القبيلة من مدرسة إلى أخرى، فالتفسير التراثي: ورد المصطلح في القرآن في صيغة الجمع، وتعرض إليه "النويري" في ترتيبه النوعي للمجموعات البشرية، إذ تدرج من الجذم إلى الجمهور إلى الشعب إلى القبيلة إلى العماثر، ثم البطون فالأفخاذ فالعشائر والفصائل وأخيراً الرهط، وقال فيما يخصّ

¹ - بيومي مهران محمد، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ب ت، ص ص 137-141.

² - أبو الفضل محمد جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، ج 11، بيروت: دار صادر، د ت، ص 541.

³ - الجوهري محمد، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية انجليزي، عربي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010، ص 605.

⁴ - عبد الله حمودي، "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية، خطوة في طريق تأسيس خطاب أنثروبولوجي مستقل"، عمران، العدد 19، 2007، ص 20.

⁵ - إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار البيضة العربية، ب ت، ص 57.

القبيلة «هي دون الشعب، تجمع العمائر، وإنما سميت قبيلة لتقابل بعضها بعض واستوائها في العدد»¹. وقد أعطى الإسلام للقبيلة قيمة ثقافية واجتماعية أي أنها معنى أيضا، حيث جاءت الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)، والآية تشير إلى أربعة عناصر، كل واحد منها يمثل دلالة جوهرية في صياغة المعنى، وهي: 1- الناس، 2- شعوبا وقبائل، 3- التعارف، 4- الأكرم². وفي كتاب الجزائر الأمة والمجتمع لـ"مصطفى الأشرف" نجد المقصود بالعرض في الجزائر القبيلة أو الأرض التابعة لها، وربما كانت هذه الكلمة مشتقة من "عرش بالمكان" أي أقام به³.

وفي هذا الصدد يقول "جاك بيرك" في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا: «ينبغي أن نقوم بكتابة تاريخ كلمة "قبيلة" وأن نتبع استعمالاتها في الوثائق الرسمية أو الخصوصية التي تتصل باحتلال الجزائر... إلى حد الآن، لم يحاول أحد القيام بهذا العمل. لنفترض مؤقتا أنه في سنة 1830 كان المصطلح - وهو أيضا صورة وبرنامج- يلخص عند الفرنسيين ثلاثة جوانب: التصور الحدسي بأن البلد المعني يثير في الذاكرة إرث الإنجيل، وتركاة الإدارة التركية، والتصنيفات السريعة التي كانت سائدة لدى الأهالي، وهي تضع تحت تسمية "عرش" و"قبيلة" تشكيلات شديدة التنوع»⁴. ولعلّه من المفيد هنا الرجوع إلى ما كتبه "جورج غورفيتش" حيث قسم أنماط البنى والمجتمعات للتفريق بينها:

- 1- القبائل ذات الهيمنة العشيرية نجد عينات منها في أستراليا وبين هنود أمريكا الجنوبية.

¹ - محمد بن حسين، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس: دار الرياح الأربع، 1986، ص 11.

² - عبد الله محمد الغدامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، ط2، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2009، ص ص 73-77.

³ - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ت: حنفي بن عيسى، الجزائر: دار القصة للنشر، 2007، ص 17.

⁴ - ليليا بنسالم، كليترارنس وأخرون، الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ت: عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، ط1، المغرب: دار توبقال للنشر، 1988، ص 113.

2- القبائل المشتملة على تجمعات متنوعة وقليلة التراتب (عشائرية، سحرية، عائلية، محلية، عسكرية، مهنية...) يركز تشكلها على الانقياد لقائد ذو سلطة أسطورية.

3- القبائل المنتظمة وفقا للتقسيمات العسكرية وللأسر المنزلية والروحية وأحيانا وفقا للعشائر المندثرة تماما بوجه عام مثل أقصى شمال الولايات المتحدة¹.

4- القبائل التي تحافظ جزئيا على التقسيمات العشائرية، لكنها تجد تعبيرها المنتظم في الدول الملكية مثل إفريقيا السوداء². إن القبيلة هي تركيبة بشرية اجتماعية مكونة من عدة وحدات صغرى، قد تكون أسرا، أو عشائر، أو أفخاذا... الخ، على أن تلاحم تلك الوحدات، بفضل الاعتقاد في الانتماء الدموي (النسب)، وتبعا لمقتضى المصلحة المشتركة، كما يشترط في القبيلة أن يعيش أفرادها معاً ويخضعون إلى عرف وعادات متفق عليها³، ولنا مثال عن القبيلة المغربية في كتابات عبد الله العروي حيث يركز على ثلاثة محاور قدمها "مونطان" في كتابه المخزن والأمازيغ: «أولا تشتغل القبيلة بوصفها مؤسسة مرتبطة بالفلاحة والملك الجماعي خارج مفهوم دولة المخزن. ثانيا تعتمد على عمقها الاثني لتدبير نفسها وإعادة بناء السيرة التطورية التي تحكمها، ثالثا أدمج العروي المحورين في نظرية القبيلة الأمازيغية تقوم على العرف والمخزن»⁴.

وإذا كان استعمال مفهوم القبيلة في الأدبيات والممارسات العربية له تاريخ وماضي عريق، فإن توظيفه في الأنثروبولوجيا هو مرتبط ارتباطا عضوي ببرز هذه

¹ - جورج غورفيتش، الأطر الاجتماعية للمعرفة، ت: خليل أحمد خليل، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1981، ص 165.

² - نفسه، ص 166.

³ - بوزياني الدراجي، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، الجزائر: مؤسسة بوزياني للنشر، 2013، ص 118.

⁴ - محمد مرفوق، "في مفهوم القبيلة لدى عبد الله العروي"، مجلة حكمة، الموقع الإلكتروني: <https://hekma.org>، تاريخ الدخول:

الأخيرة، خاصة من طرف رواد النشؤوية والتطورية¹ لكن تبقى المقاربة التي قام بها "إيفنس بريتشارد" لقبائل النوير بجنوب السودان، من أهم الدراسات الأنثروبولوجية التي درست مجتمعات بشرية من زاوية قليلة وتحليلها من خلال التحليل الانقسامي² واعتبارها الفاعل المحدد للنسق الاقتصادي والسياسي خاصة، الذي تحدد ملامحه الظروف الإيكولوجية والمعاشية (الفلاحة والري)³. ويؤكد "الهرماسي" على كون الوحدات التي ظلت تشكّل بنية المجتمع الريفي في المغرب، سواء كانت ناطقة بالعربية والبربرية وسواء كانت خاضعة للسلطة أو ثائرة عليها، هو في أصلها قبلية، واستمرت كذلك في بداية القرن العشرين⁴. وهذا ما استندت إليه الموسوعة العربية الميسرة حينما عرّفت القبيلة باعتبارها تتكون من «مجموعة من الناس يتكلمون لهجة واحدة ويسكنون إقليما واحدا مشتركا يعتبرونه ملكا خاصا بهم». ومن خلال التصنيفات المعتمدة في اللغات الأجنبية خرج الباحث بوطالب نجيب بالمقابلة التالية⁵:

الجزر	الجمهور	الشعب	القبيلة	العمارة	البطن	الفخذ	العشيرة	الفصيلة	الرهط
Race	Ethnie	Peuple	Tribu	fraction	Sous fraction	Segment	Clan	Lignage	Famille

¹ - الفكر التطوري هو الاعتقاد بأن الأنواع تتغير مع الوقت، له جذور في العصور القديمة وله وجود في الفكر اليوناني والروماني والصيني، من أبرز رواده تشارلز داروين وألفراسل والاس.

² - يعتبر النظام القبلي في النظرية الانقسامية حسب "إيفانس بريتشارد" نظاما متناظرا متوازنا، أي أن أجزائه المختلفة والتي تكون القبيلة تكون متناظرة ومتعادلة في الصفات العامة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. انظر:

منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، مقاربة أنثروبولوجية، ط1، الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع، 2015، ص 122.

³ - فتحي سيرات، البنى الاجتماعية للسياسي في الجزائر (حالة ولاية وهران)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف: الزاوي مصطفى، قسم علم الاجتماع، جامعة وهران 2، 2018-2019، ص 88.

⁴ - الطاهر عميري، بنية الريق والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، ضمن كتاب التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، أعمال الملتقى الدولي للتاريخ يومي 23-24 نيسان (أفريل) 2001، الجزائر: دار الهدى، ب ت، ص 214.

⁵ - محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 54.

وهذا ما يتطابق مع التقسيمات السابقة للعرب حيث قسّموا القبائل إلى ستة فروع مختلفة (الشعب- القبائل- العمائر- البطون- الافخاذ- الفصيلة)¹.

ومن خلال المفهوم الموجود في معجم علم الاجتماع حول القبيلة، نجد تطابق بين مفهومي القبيلة والأثنية، إذ ينفي مسألة القرابة نظراً لاعتماده على النموذج الإفريقي للقبيلة². أما قاموس علم الاجتماع فيحدد 3 مفاهيم:

- هي نسق في التنظيم الاجتماعي يتضمن عدة جماعات محلية، مثل القرى والبدنات والعشائر، وتقتن القبيلة عادة إقليماً معيناً ويكتنفها شعور قوي بالتضامن والوحدة يستند إلى مجموعة من العواطف الأولية.
- هي تجمع كبير أو صغير من الناس يشغلون إقليماً معيناً ويتحدثون اللغة نفسها وتجمعهم علاقات اجتماعية خاصة متجانسة ثقافياً.
- هي وحدة متماسكة اجتماعياً ترتبط بإقليم، وتعتبر في نظر أعضائها ذات استقلالية سياسية³.

وها هو "بول باسكون" (P. Pascon) يعتبر القبيلة جمعية سياسية مبنية على عوامل اقتصادية-جغرافية، أي علاقات الإنسان بالأرض والطاقة البشرية والثروة الطبيعية لفضاء ما في مستوى تكنولوجي معين. ويذهب "الفضل شلق" في تعريفها إلى القول بأنها مجموعة علاقات اجتماعية تنتج عن نمط معين للإنتاج تفرضه ظروف البيئة الطبيعية⁴. أما القبيلة في رأي "بيير بونت" (Pierre Bonte) يمكن أن تظهر ككتلة واحدة يحركها الولاء لأجل تحقيق أهداف متعددة، سياسية منها خاصة كما يمكنها أن

¹ - Élie Tabet, Ethnologie arabe, Note sur l'organisation des tribus et l'ethnologie des noms propres, Oran, imprimerie de l'Association ouvrière, 1862, pp 12- 14.

² - دينكت ميتشيل، معجم علم الاجتماع، ت. ومراجعة: إحسان محمد الحسن، ط2، بيروت: دار الطليعة، 1986، ص 247.

³ - محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 59.

⁴ - منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 34.

تظهر كوحدة سياسية مستقلة، تفاوض من أجل تحالفاتها وتحل بذلك صراعاتها، أو أنها يمكنها الانتماء إلى مجموعات سياسية أكثر اتساعاً، ناتجة عن التنظيم القبلي¹. ويؤكد "إدموند ر." «أن القبيلة هي كيان محدد ليس فقط من علماء الأنثروبولوجيا ولكن من قبل المجتمعات نفسها». إن القبائل كما يقول الباحث "يزيد بن هونت" كيانات اجتماعية خاضعة للتاريخ².

إن غالبية التعريفات المعاصرة تؤكد على الانتماء لمجموعة موسعة تنحدر من جدّ مشترك، هذا الانتماء يميزها ويفصلها عن مجموعة أخرى تشابهها، بحيث تصبح العلاقة بين المجموعتين علاقة تضاد وتنافس وصراع³.

إن أبرز من تكلم عن القبيلة في الثقافة العربية هو ابن خلدون، ولا يمكن لنا أن نتحدث عن القبيلة دون أن ننظر في مقولات ابن خلدون، وهي مقولات جاءت بالثبوت ونقيضه إذ تراه يمنح القبيلة صفات إيجابية حيناً ويذمها حيناً آخر.

2- القبيلة في كتابات ابن خلدون:

شغلت القبيلة حيزاً كبيراً من أبحاث العلامة ابن خلدون، بل يمكن اعتبار ما قدمه بمثابة مقدمة لا يمكن تجاوزها بحكم انتمائه إلى المغرب الإسلامي، وعلى الرغم من المسافة التي تفصلنا عن هذه التجربة التاريخية، إلا أنها إطار نظري هام لفهم الروابط القبلية والعشائرية في المنطقة⁴. لا تتحدد القبيلة بالنسبة لابن خلدون بكونها جماعة متفرعة عن جدّ أول، كما لا تتحدد فقط بما يجمع بين أعضائها من روابط الدم، كما حدد ذلك الأنثروبولوجيون الكلاسيكيون، إن النسب في معناه الضيق لا يعدو أن يكون معطى وهمياً لا يصمد أمام واقع الاختلاط وعلاقات الجوار والتعايش في المكان. أما الإطار

¹ - منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 35.

² - Ben Hounet Yazid, « La tribu comme champ social semi-autonome », *études essais*, 2010, pp 57- 59.

³ - محمد نجيب بوطالب، المرجع السابق، ص 54.

⁴ - ربيعة شلي، مزري عبد القادر، "السلطة والقبيلة من خلال كتاب المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون"، *الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية*، عدد 06، ديسمبر 2017، ص 19.

الحقيقي للقبيلة عند ابن خلدون فهو النسب في معناه الواسع والرمزي وما يمثله من أشكال التحالف والولاء والانتماء. فابن خلدون يؤكد دور المكان، أي الأرض، الذي يشكل محور التحام الجماعة. و مما يذكي الإحساس بالانصهار ضمن الجماعة القبلية ويعزز تلاحمها الداخلي، الخطر الخارجي الذي قد يهدد استمرار وجودها، سواء كان ناجما عن عصبية زاحفة من خارجها أو عن تدخل سلطة مركزية. كما أن علاقات القرابة والتحالف الموجودة بين أعضاء القبيلة الواحدة تؤدي إلى إقامة الفوارق بين المجموعات القبلية، التي كثيراً ما تتسبب في عمليات التنافس الحاد والصراع على الموارد ومصادر العيش، وهذا ما يدفع إلى إضفاء طابع الصراع الدائم والمستمر على المجتمع القبلي¹.

وعن هذا يقول ابن خلدون في المقدمة، «... بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام، حتى تقع المناصرة والنصرة، وما فوق ذلك مستغنى عنه، إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له، ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام، فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعمة كما قلناه، وإذا كان إنما يستفاد من الخير البعيد ضعف فيه الوهم، وذهبت فائدته، وصار الشغل به مجاناً، ومن أعمال اللهو المنهي عنه...»².

إن ما يحدد مفهوم القبيلة عند ابن خلدون هو الاجتماع على أساس العلاقات الدموية وهو الشرط التأسيسي لقيام الجماعة، وإذا ما توفرت القرابة بين أفراد الجماعة تؤسس للعصبية وهي الصفة الثانية والضرورية الضامنة لوحدة القبيلة³ والتي تمثل منطلقاً منهجياً لتفسير توليد الدولة من رحم القبيلة في المغرب الوسيط. ويمكن سحب النموذج الخلدوني على الفترات السابقة له، باعتبار أن القبيلة بقيت إحدى الثوابت الأساسية في تاريخ المغرب الوسيط، وعنصراً هاماً في البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، رغم أنها أخذت أشكالاً مختلفة ولعبت أدواراً متباينة

¹ - محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 56.

² - عبد الرحمن بنخلدون، مقدمة ابن خلدون، ج 1، ت: عبد الله محمد الدرويش، ط 1، دمشق، داريعرب، 2004، ص 256.

³ - منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 37.

مرتبطة بالظروف التاريخية¹. ويظل الإطار القبلي غير مكتمل طالما لم تعززه عناصر الألفة والتعامل الطويل، وطالما لم يكتسب الفرد عادات وأعراف القبيلة، ولم يتبلور لديه الوعي بوجود مصلحة عامة ومشاركة تشده إلى بقية أعضاء جماعته². والقبيلة عنده هي البدو، والبدو أقرب إلى الخير كما يقول- وذلك لأنهم أقرب إلى الفطرة ومعاشهم يقوم على الضروري ولم يدخلوا بالكمالي والترفي. ولذا يرى ابن خلدون أن البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، كما أنه يرى البدو³ أشجع من الحضر لأن الحضر وكلوا أمر حمايتهم للوالي وجند السلطان⁴.

ويفرق ابن خلدون بين أهل الإبل وأهل الغنم حيث يكون أهل الإبل أشد بداوة وبالتالي أعلى في الشجاعة مثلما هم أكثر صفاء في نسبهم لقلّة اختلاطهم وشدة توحشهم ومن ثم ارتفاع فطريتهم، ولكن ابن خلدون الذي مدح البدو بقرهم من الفطرة والخير وبالشجاعة عاد ليصفهم بالتوحش في تعاملهم مع الحاضرة، وجعل حياتهم المتوحشة في الصحراء سببا لولعهم بالخراب وكلما دخلوا بلداً خربوه⁵.

من المؤكد إذن القول بجهل البدو لأية سلطة سياسية ولعيشهم في فوضى قول غير علمي ولا يمتّ للحقيقة بصلة، إننا هنا إزاء موقف يتناول تحليله القبائل البدوية وكأنها منعزلة تماما عن المحيط العام الذي تعيش فيه، سواء تعلق الأمر بالمحيط الوطني أو المحيط العربي والإسلامي بصفة عامة⁶.

¹ - محمد بن حسن، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، المرجع السابق، ص 12.

² - لعبيدي لصفر، "أهمية الرجوع إلى ابن خلدون في تحليل وتفسير القبيلة"، الموقع: www.philosophes.net/2013/10/blog-post_7218.html

³ - هذا ما ينطبق على قبيلة بني عامر والتي تميزت بالشجاعة، إضافة إلى تبنيها المقاومة تحت لواء الزيانيين، ثم العثمانيين وبعد ذلك الدخول تحت طاعة الأمير عبد القادر وأصبحوا جندا له، وهو ما ساهم في التخفيف من النظرة المتعلقة بالخيانة لهم بمواليتهم الإسبان.

⁴ - عبد الله محمد الغدامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 155.

⁵ - نفسه، ص 154.

⁶ - حليم عبد الجليل، "البدور والسلطة السياسية"، الثقافة، العدد 79، فبراير 1984، الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة، ص 185-186.

ولا يزال ابن خلدون يشكل نقطة انطلاق التفكير في مفهوم القبيلة حيث يظل بحسب تعبير "ليفي شتروس" «صالحا لأن نفكر معه». إن ابن خلدون يسهب كثيرا في الحديث عن الأواصر المتينة السريعة التطور داخل المنظومات القبلية، والناجئة عن الولاء والعصبة، إلا أنه من المجحف التسليم بأن ملاحظاته تتعلق فقط بالمناطق النائية أو بالمناطق القروية أو أنها تركز على قرابة الدم. إن ابن خلدون لا يزال يشكل نقطة انطلاق جوهريّة، وفهمه للعصبة كدال استعاري على الانتماء يمتاز بالمرونة بحسب الملابسات ولكن ظاهريا يصير مقبولا ومطلقا مع مرور الوقت¹.

إن الإشكال الأساسي في الدراسات الإثنو-أنثروبولوجية التي درست موضوع (القبيلة والقبلية) في المغرب العربي هو محاولة تشبّثها بكل ما هو تقليدي ومناقض للبناء المجتمعي الحديث، من خلال الاعتماد على مسلمة التنافر بين محاولة بروز الفرد واستقلالته ومقاومة البناء التقليدي القبلي عامة لهذه النزعة. ويعدّ الإرث الكبير من الدراسات والتقارير والوثائق المنجزة خلال فترة الاستعمار لأقطار بلاد المغرب مادّة مهمة لدراسة الواقع الاجتماعي بمختلف أبعاده، من ذلك تغطيته لفترة طويلة ومنطقة جغرافية شاسعة.

3- القبيلة في شمال إفريقيا:

لقد استطاع البحث الاستعماري أن يصوغ مفاهيم وأن يقدم تصورا متماسكا عن الريف والقبيلة في المغرب العربي². ويرى "جاك بيرك" أنه لم تنتبه أية دراسة إحصائية حول مجموع شمال إفريقيا، لجرد أصول أهم المجموعات، أو على الأقل تلك الأصول التي ترعاها ذاكرة هذه المجموعات. ولا يوجد كذلك على سبيل التجربة المضادة، جدول جغرافي يحدد مواقع تكرار الأسماء، أو على الأقل أشهرها، كما أن قابلية كافة

¹ - أيلكمان ديل، "الانتماء القبلي في وقتنا الراهن التداعيات والتحولت"، عمران، العدد 19، 2017، ص ص 58-59.

² - محمد مكحلي، "إشكالية القبيلة في الدراسات الاجتماعية المغرب العربي أنموذجا"، مجلة آفاق فكرية، العدد 01 ديسمبر- جانفي 2014، ص 05.

المجتمعات المغربية للتفتت تتجلى فيه أكثر مما تتجلى في غيره من المستويات¹. تتكرر نفس أسماء المجموعات هنا وهناك عبر مجال المغرب الكبير، إنه تقاطع جغرافي تبلغ كثافته درجة يصعب معها تشخيص الظاهرة على الخريطة، فيكفي أن تنزل إلى مستوى العائلات، لكي تبرز الأسماء في مواقع غير مرتقبة. في بعض الحالات تعلق عودة الأسماء محليا بواسطة أحداث تاريخية: التكاثر المطرد، والتشتت انطلاقا من جذع أصلي، والهجرات... الخ، لكن في معظم الأحيان، يغيب التفسير أو يضيع. إن نسيج المجموعة في المغرب الكبير، هو عبارة عن معادلة تشمل عدة عناصر مجهولة، وهذه العناصر هي الأسماء وكل اسم يحيلنا على أسماء مماثلة².

أما "غليزر" فهو يتميز بتخصيصه في القبيلة المغربية، وعلى اتفاقه مع "إيفانز بريتشارد" في منحى التحليل الانقسامى³، فإنه تنبه إلى وجود كثير من المفاهيم المتميزة وغير المتطابقة، خصوصا تلك التي ترتبط بموضع "القبيلة". يرى "غليزر" أن وجود قبائل عربية وأخرى بربرية يمنع من اعتبار مجموع عرب شمال إفريقيا قبيلة أو مجموع بربر المنطقة يمثلون قبيلة، والسبب هو وجود تواصل ثقافي واجتماعي وتداخل قرابي بينهما فرضته الأحداث⁴. هذه التجربة انتقلت إلى الدراسات الأنثروبولوجية المغاربية (المغرب الأقصى بالضبط) مع "أرنست قالنار" من خلال تطبيقه للنظرية الانقسامية على القبائل المغربية، فقد استعمل "قالنار" مفهوم القبيلة للإشارة إلى التجمعات اللغوية الثقافية الصغيرة والقديمة أو تلك التي تفتقد إلى كينونتها وتكوينها الخاص كأمة، فالنموذج الذي

¹ - ليليا بنسالم، كليترانست وآخرون، الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، المرجع السابق، ص 115.

² - نفسه، ص 117.

³ - إن القبيلة لدى "إيفانز بريتشارد" هي النسق السياسي الذي تحدد ملامحه الظروف الإيكولوجية والمعيشية (الفلاحة والرعي) هذه الظروف هي التي تحدد أشكال العلاقات وأنواعها، ويرتكز هذا النسق على القرية كوحدة صغرى يتم النفوذ السياسي داخلها بحسب شبكة المصاهرات وهذه الشبكات تنقسم إلى فروع قبلية أولية وفروع قبلية ثانوية تتحدد أحجامها بحسب امتلاكها للأرض، أما العلاقات بين مكونات النظام القبلي فتقوم على الانقسام والتعارض، ويلعب نظام الفأر دورا أساسيا في الحفاظ على النسق السياسي الداخلي للمجتمع القبلي. انظر:

- محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 61.

⁴ - نفسه، ص 61.

قدمه "قالنر"، هو امتداد لنموذج "إيفنس بريتشارد"، مع تركيزه على أن نموذج القبيلة في شمال إفريقيا يتميز بخاصيتين أساسيتين هما: الهامشية والانقسام.¹ وقد تكون القبيلة هي الوحدة الاجتماعية والسياسية الكبرى في بلاد المغرب حسب "بوزياني الدراجي"²، هذه المجتمعات القبلية التي بنى دارسو الحقبة الاستعمارية عليها فرضيات واهية حول انعدام التربية الاجتماعية والسياسية ومعلوم أن هذه الصفة التصقت بالمجتمعات البربرية بهدف تكريس مبدأ الاختلاف والانقسام داخل البناء الاجتماعي المغاربي.³

ولا تتحدد القبيلة عند "مونتاني" بانتمائها إلى جدٍ مشترك فقط بقدر ما تتحدد أيضا في وحدة التسمية ومجال العيش وفق تقاليد وأعراف موحدة، بما يؤدي إلى تمحور أطرافها حول سوق أسبوعية أو ضري أو ولي أو بما يجمع بين فرقها من عدااء للقبيلة المجاورة. لقد بحث "مونتاني" عن مواطن القوة والضعف في النظام القبلي للمغرب في الفترة الاستعمارية⁴، ويرى "فضة مصطفى" أن مفهوم القبيلة نشأ داخل زمن الخروج الإثنولوجي الغربي، زمن البحث عن فضاء حيوي وبوادر خطاب إثنولوجي متمركز على ذاته، ولذلك يتساءل لماذا نجد غزارة في استخدام مفهوم القبيلة في الكتابات الكولونيالية، فهل هي نقيض المدينة؟ الإجابة عن ذلك لا تتم إلا في إطار التعرف على نشأة الممارسة الأنثروبولوجية في المرحلة الاستعمارية، فالتركيز على القبيلة يهدف أساسا إلى إظهار الطابع التقليدي والبدائي لمجتمع قابل لـ"رسالة حضارية" التي تكفل الغرب بنشرها في المغرب العربي. فكان الهدف هو توظيف المعارف الاجتماعية والاستفادة منها في التعرف على الميكانيزمات الداخلية لهذه المجتمعات للتمكن من السيطرة عليها.⁵ ويتجاوز "العروي" فكرتين شائعتين عن القبيلة: الأولى مفادها أن للقبائل المغربية

¹ - فتحي سيرات، المرجع السابق، ص 89.

² - بوزياني الدراجي، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، المرجع السابق، ص 130.

³ - سلمة مجبري، مجبري حسان، "تاريخ القبيلة في الجزائر مفهوم خلدوني"، مجلة تاريخ العلوم، العدد الخامس، ص 323.

⁴ - محمد نجيب بوطالب، المرجع السابق، ص 57.

⁵ - نفسه، ص ص 59-60.

الأصول الجينالوجية نفسها، والفكرة الثانية مفادها أن للقبيلة بعد اثني يتمثل في العمق الأمازيغي. حيث يعترف "العروي" بأن أطروحة "مونطان" هي الأطروحة الوحيدة التي اقترحتها الإثنولوجيا طيلة فترة الاستعمار، إذ تؤسس لنظرية تفسر بشكل عام المجتمع الشمال إفريقي، بما تحمله من إيديولوجيا وتضمنه لجغرافية المؤسسات¹، هذا ما تعيش عليه حسب "عبد الجليل حليم" سواء عن "روبير مونطاني" في دراسته للفوف بالأطلس، وعند "جيلنر" في دراسته لقبيلة احنصال. والملاحظ أنهما، مثل غيرهما ممن اهتم بدراسة البدو والقبائل في المغرب العربي، كانا يلحان على التقابل بين العرب والبربر، فمونطاني يصرح في خاتمة كتابه² بأن البربر ينتظرون من فرنسا أن تتدخل لحمايتهم من القيود التي تكبلهم فيها الدولة الشريفة، ويبرز "جيلنر" بدوره المساواة التي تميز المجتمع البربري عن المجتمع العربي³.

ولا بأس بالعودة هنا إلى ما كتبه "بيرك" الذي استعرض مختلف التجارب البحثية في المنطقة خلال المرحلة الاستعمارية، وأطلق عليها تسمية: علم الاجتماع الشمال الإفريقي، مركزا على الأعمال البحثية التي أنجزها كل من هانوتو وغوتي وكارين وبيليبي حول الجزائر ومونتاني حول المغرب⁴، حيث وصف "بيرك" وضع المغرب الكبير بقوله: «لا يزال المغرب الكبير يمرّ بأزمة تعيد تشكيل معالمها الطبيعية والاقتصاد والأعراف بشكل دوري، وقد فرض التوسع البدوي أسبقية الراعي المتنقل على فلاحي القرية»⁵. استنتج بيرك أن المجتمع المغاربي بشكل خاص والعرب المسلمين بشكل عام، لديهم قيمهم الحضارية الخاصة ومعاني قواعد القانون. وكانت مسألة العلاقة بين مفهومي الوضع

¹ - محمد، مرفوق في مدلول القبيلة لدى عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 05.

² - كتاب مونطان، « La vie sociale et la vie politique berbères » الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر، ترجمة: الدكتور محمد ناجي.

³ - حليم عبد الجليل، البدو والسلطة السياسية، المرجع السابق، ص 185.

⁴ - صلاح الدين فافي، القبيلة والمجال الحضري علاقات التفاعل والصراع، دكتوراه غير منشورة، قسم علم الاجتماع والديمقراطية، جامعة باتنة 1، 2015، 2016، ص 69.

⁵ - Berque Jacques, « Droit des terres et intégration sociale au Maghreb », cahiers internationaux de sociologie, vol. 25 juillet- décembre 1958, p 38.

والعقد تثير اهتمامه، ويرى أن الرهان بالنسبة إليه يكمن في تحديد إنسانية الأطراف الفاعلة في المجتمع، كما أن الانساب والرابطة الاجتماعية في المجتمعات العربية البربرية والمسلمة هي الحاسمة للهوية والعلاقات الاقتصادية والثقافية. أدرك بيرك أن قانون الأحوال الشخصية يسود في المجتمعات المسلمة، وهو قادر على تحمل التدخلات الخارجية، وأنه مرتبط بشبكات تضامن تقليدية¹. لقد تحدث بيرك عن مشكلة مورفولوجية أي عن ضعف الدراسات الميدانية حول القبيلة في الفترة الاستعمارية، فأغلب الأعمال الأولى كانت عبارة عن مونوغرافيات تندرج في المهمات العسكرية الملحة (خصوصاً في الجزائر)، كما يشير إلى النقص في الدراسات الإحصائية والتوزيعات الجغرافية حول القبائل. ويؤكد محمد نجيب بوطالب أن بيرك قد وقف في دعوته إلى القيام بكتابة تاريخ مصطلح "قبيلة" وتتبع استعمالاته، كما استطاع إلى حد ما المساهمة في إجلاء هذا الإشكال والقيام بجزء من الدراسة، لكنه لم يغط ميدانياً الخارطة الاجتماعية والجغرافية المغاربية، ما أدى به إلى بعض الإسقاطات للتجربة المغربية².

من الأكيد أن النظام الحكومي على الطريقة العربية، ساعد على انتشار النمط القبلي الذي ارتبط إلى حد ما بنزوح بني هلال. وبطبيعة الحال، أثر ذلك النظام الحكومي في الواقع الاجتماعي كما أنه تأثر بذلك الواقع الاجتماعي وتأثر بردود فعله في نفس الوقت. مثلت ظاهرة القبيلة مرحلة تتوسط عدداً من المستويات: تطور عام مرتقب، واختيار إداري، وحركات محلية تتسم في الغالب بالقوة. فالقبيلة إذن ظاهرة ثانوية حسب بيرك، اصطناعية إلى حدٍ ما. ولعل هذا ما يفسر قابليتها للانقطاع والانكسار ويجعل فهمها حسبها أمراً مستعصياً³. ورغم ما وصفت به التنظيمات التقليدية، وعلى رأسها القبيلة، بأنها تنظيمات جامدة وعتيقة سواء من قبل الاستعمار أو من قبل الكثير من السلطات المركزية بعده، لم يمنع ذلك القبيلة من التواصل والاستمرارية في ظل

¹ - شريف مصطفى، جاك بيرك، المركز الثقافي للكتاب، ط1، المغرب، 2019، ص ص 10-11.

² - محمد نجيب بوطالب، المرجع السابق، ص 58.

³ - ليليا بنسالم، كليزارنست وآخرون، الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، المرجع السابق، ص 125.

عمليات التحديث التي عرفها المغرب العربي، وعلى الرغم من محاولات الاحتواء والإذابة هذه، لم يكن في وسع المحاولين القضاء على الروح القبلية وعصبيتها، ولم يستطيعوا عزل التنظيمات التقليدية الممتدة بجذورها في أعماق التاريخ العربي والإسلامي¹.

¹ - منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 116.

ثانياً: أسس النظام القبلي.

العصبية في تعريف أهل اللغة هي: «أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين»، وهي مشتقة من التعصب أي التجمع. ولما كان أقارب الرجل يعصبون به، أي يلزمونه ويطوفون به، سموا عصبه. وقد أطلق هذا اللفظ على أقارب الرجل من جهة أبيه، وهم قومه الذين يتعصبون له، وقيل للرجل الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم ويعينهم ولو على الظلم: عصبي.

1- العصبية القبلية:

العصبية في المجتمع القبلي لا تكون لقراة الرجل وذوي رحمه الأدنى فحسب، وإنما تكون للقبيلة بأسرها، على تفاوت في شدة هذه العصبية تحدده درجات القرابة في إطار القبيلة الواحدة، فالعصبية لذوي الرحم أقوى منها للبعداء¹. وقد تكلم ابن خلدون في مقدمته عن العصبية لاعتبارها قوة وشوكة للجماعة البانية للدولة والداعمة لها، ولكنها قوة وشوكة مؤقتتان ثم ما تلبثان أن تتبددا وتسقطا برفاه الملك، والتنعم به². وقد جعل ابن خلدون العصبية شرطاً أساسياً لقيام الملك، وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب والغلب إنما يكون بالعصبية، وهي في أبسط معانيها ذلك الشعور المعنوي بالانتماء للقبيلة والغاية منها، كما وضحها، اتفاق الأهواء على المطالبة، ولكن الوصول إلى هذه الغاية يكون بالارتكاز على الوازع الذي يوحد الأهواء³. وما يزيد من قوة العصبية حسبه هو تعرض القبيلة للخطر الخارجي، وإذا ما انضاف العامل الديني إلى العصبية ازدادت هذه الأخيرة قوة ومتانة وتلاشت الانقسامات الداخلية داخل القبيلة⁴، وفي ذلك يقول: «العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه، بمعنى أن النسب إذا

¹ - إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، المرجع السابق، ص 105.

² - سلمة مجبري، مجبري حسان، تاريخ القبيلة في الجزائر بمفهوم خلدوني، المرجع السابق، ص 328.

³ - شلي ربيعة، مزري عبد القادر، السلطة والقبيلة من خلال كتاب المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون، المرجع السابق، ص 20.

⁴ - لصفير لعبيدي، أهمية الرجوع إلى ابن خلدون في تحليل وتفسير القبيلة، المرجع السابق، ص 02.

خرج عن الوضوح، وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس، وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ»¹.

وبذلك جعل ابن خلدون العصبية ركيزة أساسية ومنبعا للفعل التاريخي في تأسيس الدول ودوامها وزوالها². وقد تناول محمد عابد الجابري الجدلية القائمة بين العصبية والدولة، معتمدا في ذلك على نظريات المعرفة المعاصرة وعرف العصبية بكونها «رابطة اجتماعية- سيكولوجية- شعورية ولا شعورية معاً، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطاً مستمرا يبرز ويشدد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة، وبالتالي فالأساس الذي تركز عليه العصبية هي المصلحة المشتركة، المساهمة في السلطة السياسية والمشاركة في الثروات الناجمة عن الغنائم. ويعتبر هذا العامل أساسياً في تطور الدورة العصبية³ ووصولها إلى الملك⁴. ومن هنا نجد أن التبعات التي فرضتها العصبية كالثأر والعقل تتناسب كذلك مع درجات القرابة، دون أن يخل هذا التفاوت في وحدة القبيلة. فالعصبية القبلية تصدم جميع أفراد القبيلة في إطار واحد وتفرض عليهم تبعات ووجائب مشتركة، وكل رجل في القبيلة يشعر أنه مسؤول عن جماعته كلها. كما أن القبيلة كلها تشعر أنها مسؤولة عن كل من ينتهي إليها⁵. ويعزو ابن خلدون فساد العصبية واندثارها إلى الاختلاط في الحواضر مع العجم، ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم، وفسدت الأنساب بالجملة وفقدت

¹ - عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 256.

² - محمد مرفوق، في مفهوم القبيلة لدى عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 04.

³ - يستوجب توفر شرطين لضمان النقلة من طور التجمع القبلي إلى الملك، وهي:

- هرم الدولة، أي وجود ظروف موضوعية مساعدة على التغيير.

- الدعوة الدينية، وهي الإيديولوجية التي تستقطب القبائل وتحفزهم على التغيير. وتمثل مرحلة الوصول إلى الملك طور القوة في الدولة العصبية. انظر:

- محمد بن حسين، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، المرجع السابق، ص 13.

⁴ - نفسه، ص ص 12-13.

⁵ - إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، المرجع السابق، ص 105.

ثمرتها من العصبية، فاطّرحت، ثم تلاشت القبائل ودرثت، فدرثت العصبية بدثورها، وبقي ذلك في البدو كما كان»¹.

والمتتبع لأوضاع العالم العربي بصفة عامة، والمغرب العربي بصفة خاصة، يلاحظ التداخل بين مجموعة من العصبية المختلفة، الاجتماعية والسياسية والدينية... الخ. إن العصبية بما هي مفهوم مركزي عند ابن خلدون، والذي يقوم على أساس القرابة والولاء، يمتد نفوذه عبر البنى الاجتماعية التي ينظر إليها بما هي بنى تقليدية (القبيلة)، غير أنه يعبر عنها بالعشائرية خاصة إذا تعلق الأمر بطريقة في الحكم أو سلوك سياسي أو اجتماعي يعتمد على القرابة بالمعنى العرقي الدموي أو بمعنى الجوار، حتى وإن كانت ذات الشحنة العصبية مثل الانتماء إلى مدينة أو مقاطعة، أو محافظة، ويضيق نطاق الانتماء إلى الحيّ، المحلة، الجهة، العرش، الريف، القرية²... والعصبية القبلية من أخطر الظواهر الاجتماعية التي عرفت المجتمعات البشرية القديمة، فهي قوام المجتمع القبلي وعماد نظامه السياسي والاجتماعي، ولها أثرها في جميع مرافق حياته، والعصبية في المجتمع القبلي تذكرنا بالاتجاهات القومية الغالبة في النظام السياسي الحديث، فكما أن القومية المتطرفة تتعصب لجنسها وتؤمن بتفوقها على سائر القوميات، فكذلك العصبية القبلية تقوم على هذه العقيدة، فكل قبيلة تتعصب لنفسها وتؤمن بتفوقها وفضلها على سائر القبائل³، إلا أن العصبية تبقى على الرغم من ذهابها كقوة مؤقتة، تبقى كنظام قيم، ينصرف فيه الأخ أخاه ظالما أو مظلوما، والأخ ليس دائما أخ الرحم، بل قد يكون أخ الإيديولوجية الدينية أو الحزبية وتورث هذا النظام القيادة والزعامة رحميا، ويستمر هذا النظام عبر الزمن محركا للسلوك الفردي والجماعي، إلى أن يحدث تغيير في الثقافة والتربية والحضارة، فيتبدل نظام القيم بغيره، فيتبدل معه الإنسان ويتغير.

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 258.

² - منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 128.

³ - إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، المرجع السابق، ص 106.

والعصبية تتحدد حيويتها وتدوم بالتعبير عنها، سواء كان التعبير عنها كقوة أم كنظام قيم، والعنف يضحها بكل الأسباب المجددة لحيويتها ودوامها¹.

2- أهمية النسب في القبيلة:

إن فائدة معرفة الأنساب والقبائل هي التعارف بين الناس حتى لا يعتزى أحد إلى غير آبائه وألا ينسب إلى سوى أجداده².

يعتبر النسب بمثابة الركيزة الأساسية في النظام القبلي³، وكان القدماء مولعين باستقراء صفات السيادة فلا يزالون يسألون المسود في قومه عن الصفات التي ارتقت به إلى هذه المنزلة. وقد ذكر الجاحظ أن مضر كانت تسود ذا رأيها وربيعه من أطعم الطعام وأما اليمن فعلى النسب⁴. وهو ما يعبر عنه بقراءة الدم لأن الصلة التي تربط بين الأقارب تبني على تسلسل الدم من شخص إلى آخر. وبحسب "غودلي"، تمثل القبيلة «شكلا من أشكال المجتمع، يتكون عندما يتحد ويتضامن رجال ونساء يعتبرون أنفسهم أقرباء - على أساس حقيقي أو افتراضي- عبر التناسل أو المصاهرة، من أجل السيطرة على مجال ترابي محدد، وتملك موارده التي يستغلونها بصفة مشتركة أو خاصة، مع الاستعداد للدفاع عنها بالسلاح. والقبيلة تحمل دائما اسماً خاصاً تعرف به. ويضيف "غودلي" أن هناك ثلاثة أنواع من الوظائف الدائمة الحضور في هذه المجتمعات: التعريف بالهوية، الدفاع والحكم، والدين الذي يخترق جميع علاقات القرابة، ليكون بذلك مصدر تضامن يتجاوز التضامن الذي يفترض أن القرابة تحققه. ويذكر بعد ذلك بالمجموعات التي يترابط الأفراد داخلها على أساس القرابة (تسمى باللاتينية gens):

¹ - مجبري سلمة، مجبري حسان، تاريخ القبيلة في الجزائر بمفهوم خلدوني، المرجع السابق، ص 328.

² - Élie Tabet, Ethnologie arabe, op.cit., p 11.

³ - بوزيانى الدراجي، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، المرجع السابق، ص 120.

⁴ - إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، المرجع السابق، ص 73.

عشائر أو سلالات أو بيوت، والفكرة الأساسية هي "التوالد والتوليد"، وبتجميعها تكون هذه الوحدات تشكيلة أوسع هي القبيلة¹.

وقد وصف "جاك بيرك" في هذا السياق أنه انتبه باحث حاذق إلى أن التسمية المشتقة من الجد المشترك تخفي تنوعا كبيرا في أصول السكان، ومن ثم عبر نفس المؤلف عن تشككه إزاء التفسير الذي يعتمد على عامل السلالة الواحدة، فاتضح إذن أن الالتجاء إلى الجد الذي ينتمي إليه اسم السلالة هو في الواقع مجرد وهم، إذ تتقاطع عبره عدد لا حصر له من الأصول. وتبين أن تفسير هذه الظاهرة يكمن في الانتشار المبكر لفروع أساسية رمت بأغصانها صوب كل الاتجاهات². هذا ما قام به بعض الباحثين، فقد اعتمد بعضهم على الوهم النسبي الذي ينتشر الأبناء بمقتضاه بعيدا عن الأب، بينما اعتمد البعض الآخر على التفسير التاريخي الذي يقوم على تناثر المجموعات³. وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون في حديثه عن النسب حيث يؤكد أنه أمر متوهم ويجب على العباد ألا تشتغل به باعتباره علم لا ينفع وجهالة لا تضر⁴، حيث يقول في المقدمة: «...أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم». وشدد ابن خلدون على المحافظة على النسب ومعرفته رغم ما وصفه بهم، واستدل في ذلك بحديث عمر، «قال عمر رضي الله عنه: «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السّواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا»⁵. وبين ابن خلدون أيضا أن الانساب تندثر وتختلط وتزول بطول الزمان وبذلك تختفي، «اعلم: أنه من البين أن بعضا من اهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقراية إليهم أو حلف أو ولاء، أو الفرار من قومه

¹ - عبد الله حمودي، "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية، خطوة في تأسيس خطاب أنثروبولوجي مستقل"، المرجع السابق، ص 18.

² - ليليا بنسالم، كلينر إرنست، الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، المرجع السابق، ص 114.

³ - نفسه، ص 116.

⁴ - محمد الترسي، "القبيلة الصحراوية قراءة في النشأة والتطور"، المرجع السابق، ص 90.

⁵ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 207.

بجناية أصابها، فيدعي بنسب هؤلاء ويعدّ منهم في ثمراته من النعرة والقود¹ وحمل الدايات وسائر الأحوال، وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء، ومن هؤلاء إلا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه، وكأنّه التحم بهم، ثم إنّه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان، ويذهب أهل العلم به، فيخفى على الأثر، وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب، ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم². وثمرات النسب جاءت تعبيراً، ونتيجة لاستحالة التحقق - بيقين - من صحة النسب، ضمن سلسلة طويلة ومتشعبة من الآباء والأجداد. فمجرد الاعتقاد في النسب الواحد وفي القرابة يكفي لتعزيز وتقوية الأواصر، وتمتين اللحمة، ولولا الاعتقاد التام في النسب - حتى وإن كان وهماً - لتفككت عرى القبائل، بانحلال الأواصر الداعية للقرابة والالتحام³.

ولفهم كيفية استيعاب سكان القبيلة مجتمعهم، من المهم أن نلاحظ أنهم لا يشددون على النسب الأبوي مجدداً لعلاقاتهم ببعضهم بعض، على الرغم من ارتباط هذا المفهوم بإشعارات الشكل الاجتماعي التي توفرها رموز الدم وأجزاء الشجرة. وقد عبّر أحد سكان القبيلة عن ذلك بقوله: «نحن مثل فروع الشجرة، ولكن كل فرع مستقل بذاته». وأكد أن التذرع بحجة الأصل المشترك لا يؤطر بالضرورة حدود التحالفات العشائرية والسياسية. في الواقع، يلجأ سكان القبائل في غرب المغرب بشدة إلى مفهوم "القرابة" عند تفسيرهم العلاقة بين استعارات أجزاء الأشجار وجسم الإنسان وبين البنية الاجتماعية التي ينتمون إليها. هذا المصطلح لا يعني بالضرورة القرابة الحقيقية أو المفترضة، فالقرابة تصبّ في روافد متباينة، إذ يمكنها أن تتطوّر من خلال التعاون مع الجيران وترتيبات الرعي المتبادلة وعلاقات القرابة والموالة، وغيرها من أواصر المصالح المشتركة. وفكرة القرابة مهمة، ولا تقتصر على السياقات القبلية وحدها، وعلى الرغم من

¹ - أي القصاص. انظر، عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، هامش 1، ص 259.

² - نفسه، ص 259.

³ - بوزيان الدراجي، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، المرجع السابق، ص 120.

كون سكان القبائل يتصورون أن العلاقات بين الأفراد والجماعات قائمة في البنية نفسها (أي بنية استعارة الشجرة أو "الدم") فإن هناك اختلافات في كيفية تطبيق هذه المفاهيم المنهجية على جماعات حقيقية¹. ولعلّه من المفيد هنا التذكير استناداً إلى باحثين أنثروبولوجيين أن القرابة في المجتمعات القبلية «لا تنحصر في العلاقات العائلية، كما هو الشأن في المجتمعات الحديثة، بل إنها تشمل أيضاً على ما يقوم في تلك المجتمعات من علاقات سياسية، إن الأشخاص الذين تقوم بينهم علاقات سياسية خاصة، هم أولئك الذين تربطهم أيضاً بعضهم ببعض علاقات أخرى أخلاقية أو دينية أو تعليمية، وهكذا فالروابط التي تشدّ الناس بعضهم إلى بعض في هذه المجتمعات، ليست وحيدة بل هي عبارة عن شبكة من العلاقات تندرج مجملها تحت مفهوم "القرابة"². ومن هنا ندرك هذه العلاقة العضوية بين النسب ونمط المعاش وبين مفهوم الحرفة ومفهوم الطبقة وعلاقة ذلك كله بالنظام الاقتصادي للحياة، وكلما تمكنت شروط المعاش في بيئة من البيئات وتركزت في نظام واحد غير متعدد نتج عنها نظام ذهني أحادي التفكير والتصور³، فالنسب وقرابة الدم تمثلان دعامة أساسية للمجتمع القبلي.

يتجلى النظام القبلي من خلال بنائه الشكلي أو الهيكلي، وذلك بتركيب وحداته الاجتماعية وتسلسل مراتبه، في شكل هرمي تظهر عليه البساطة وعدم التعقيد. وهذا البناء لا تخلو منه النظم القبلية في المجتمعات البشرية كلها. والاختلاف بينها قد يكون في عدد الوحدات وفي أسمائها. وعلى الرغم من بقاء النظام القبلي في بلاد المغرب إلى الآن، فقد ظل موضوع البناء القبلي، والعشائري في هذه الديار يتطلب اتفاق في الرأي وتوحيداً للمصطلح، وهذا الاتفاق غير وارد إلا في بعض الحالات.

¹ - إيكلمان ديل، الانتماء القبلي في وقتنا الراهن، المرجع السابق، ص 65.

² - الطاهر عمري، بنية الريف والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص 216.

³ - عبد الله محمد الغدامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 173.

3- البناء القبلي:

إن التقسيمات المعروفة بالبناء القبلي، والتسميات المتداولة لمراتبه هي تقسيمات ومسميات عربية الأصل، ويتجلى الاختلاف في صورة البناء القبلي عند العرب في وجهات النظر التي سجلت في كتب الأنساب، والموسوعات الأدبية، حيث جعل بعضهم حلقات ذلك النظام ست حلقات، بينما أضاف بعضهم الآخر إليها حلقة سابعة، وقد توسع آخرون إلى حد جعل المراتب في عشر حلقات، ولم يقتصر الاختلاف على عدد المراتب فحسب، بل تباينت آرائهم أيضا في أسمائها، وكل هذا بالطبع يبعث على الاعتقاد بأن تلك المراتب من وضع النسابة العرب في صدر الإسلام، وقد يكون ما ورثوه هي التسميات التي وردت في القرآن الكريم، مثل: الشعب¹، والقبيلة، والعشيرة، والفصيلة، والرهط.

والبناء القبلي في بلاد المغرب لا يختلف عما هو عليه في المشرق، على أنه لا يستبعد حدوث بعض التباين والاختلاف الذي يعود إلى حقبة تاريخية سبقت الفتح الإسلامي². ويرى "عدي الهواري" أن القبيلة هي إطار اجتماعي سياسي ترجع إلى منطق البنى الاجتماعية التي تنشأ التوازن، وهي مجموع مكون من مجموعات عائلية، أو مجموعات نسبية ملفقة، مجموع يمتص الفرد بإخضاعه إلى ضرورات أخلاقية، دينية، وبتدوينه في بنية تراتبية لا تعرف شكلا محددا، وتؤمن له، في المقابل، ضمانه بالتضامن والتماثل الاجتماعي، بنسبة أرقى مما تؤمنه العائلة الموسعة³.

¹ - أشار عدد من المفسرين إلى أن معنى كلمة شعوب تعني القبائل الكبيرة، وذلك في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، ولا شك أن لهذا المعنى وجها كبيرا من الصواب إذا أخذناه بمعناه المفاهيمي والثقافي، فالشعب قبيلة كبيرة، فالناس إذا ما صاروا شعبا فإنما يكونون كذلك بناء على روابط اجتماعية أولها اللغة المشتركة مع منظومة المصالح البشرية الأساسية في المعاش والأمن ونظام العلاقات الداخلي، وهم إذا ما كانوا شعبا فإن مصالحهم ستوحد حسهم الوجداني. انظر:

عبد الله محمد الغدامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 85.

² - بوزياني الدراجي، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، المرجع السابق، ص ص 123-125.

³ - عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكير الاقتصادي الاجتماعي 1830-1960، ت: جوزيف عبد الله، ط1، دار الحداثة، 1983، ص 18.

وعلى أن النظام القبلي يحتفظ بسمات مميزة تظل واضحة فيه عبر الزمن سنرى أن تطوراً واضحاً طرأ على كيان القبيلة العربية منذ العصر الإسلامي¹. ولو نظرنا في أدبيات أي تكوين قبائلي فإننا سنلاحظ بسهولة أنه تكوين لا يختلف عن أي تكوين اجتماعي آخر، والشبه بين العائلة الكبيرة مثلاً والقبيلة يكاد يكون في تطابق تام، وكذا فإن سلوك أي شعب سيكون مثلاً سلوك أي قبيلة ثقافياً واجتماعياً². ومع ذلك فإنه يمكن إجمال القول في التأكيد على أن مراتب البناء القبلي ليست واضحة كل الوضوح، ولنا مثال في المغرب الذي وعلى الرغم من قياس النسابة ما عرفوه من التقسيمات المعروفة لدى العرب، فإنهم لم يهتموا كثيراً بالتصنيف الاصطناعي الذي وضعه النسابة في المشرق كالتقسيم السداسي أو العشري مثلاً، وحتى بعض المؤرخين كابن خلدون - على سبيل المثال - فإنه كان يخلط في المراتب المعروفة، فأحياناً يستعمل مرتبة بطن في محل قبيلة، ومرتبة قبيلة في محل شعب، وجذر في محل قبيلة، وبطن في محل فخذ، وحسبما يبدو فإنه يعتبر تلك المصطلحات مترادفات تؤدي إلى معنى واحد هو القبيلة³. فمن هذا المنظور يصبح المستوى القبلي عند العروي هو الضامن والدافع لدوام البنية القبلية، إذ أن هذا المستوى لا يهبها ولادتها التاريخية وإنما يتوسط بين مستويات القاعدة البيولوجية، التبرير الإيديولوجي، والمستوى فرق الحربي-السياسي.

فالمستوى القبلي يعيد فقط إنتاج البنية القبلية في مضمونها الاجتماعي وفي علاقة الفرد بمحيطه الإيكولوجي، إلا أنه لا يعيد إنتاج النظام القبلي الكلي، وذلك كون هذا النظام هشاً من جهة، ومن جهة أخرى رهين بالسيرورة السياسية والاقتصادية والظواهر الطبيعية⁴.

¹ - إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، المرجع السابق، ص 59.

² - عبد الله محمد الغدامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 87.

³ - بوزيانى الدراجي، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، المرجع السابق، ص 126.

⁴ - محمد مرفوق، "في مفهوم القبيلة لدى عبد الله العروي"، المرجع السابق، ص 05.

وقد اقترن تطور النظام القبلي بمقاومة القوى الدخيلة المستعمرة لبلاد المغرب، مما أوجد جدلية قائمة بين الاثنين، بين التنظيم الاجتماعي والسياسي-العسكري للقبائل من جهة وأنظمة المستوطن الأجنبي التي تركز على بنية اجتماعية حضرية وجهاز سياسي متطور وآلة عسكرية متقدمة من جهة أخرى¹. أما الجزائر فتظهر البنية الاجتماعية فيها انطلاقة لفهم تشكيلة المجتمع الجزائري، حيث أنّ القبيلة في هذا المجتمع أو البنية الاجتماعية في إطار هذا المجتمع هي الوحدة السياسية والإيديولوجية، والاقتصادية فكل قبيلة أو قرية لها حدود معينة، كل قبيلة مقسمة إلى أجزاء وكل جزء مقسم إلى عائلات، فالقبيلة اكتسبت دوراً تاريخياً فاعلاً في المجالات التي اقترنت بنمط العيش، مشكلة بنية اجتماعية وثقافية مميزة².

إن المجتمع الجزائري هو جزء من المغرب العربي وبالتالي فقد ظل، وإلى بدايات القرن العشرين، منظماً تنظيمياً قبلياً، وقد استمر هذا التنظيم بالجزائر والمغرب عموماً إلى غاية ما بعد الاستعمار الفرنسي³.

¹ - محمد بن حسين، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، المرجع السابق، ص 17.

² - مجبري سلمة، مجبري حسان، "القبيلة في الجزائر بمفهوم خلدوني"، المرجع السابق، ص 329.

³ - عمري طاهر، بنية الريف والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص 214.

ثالثاً: التركيبة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لبني عامر.

لعبت العوامل الطبيعية وطبيعة الأراضي والاستقرار السياسي دوراً بارزاً في الحياة الاقتصادية لبني عامر، التي اعتبرت من القبائل البدوية الممارسة لحرفة الرعي وتربية الموشى حيث ظلت تنقل بحثاً عن الكلاً والعشب، كذلك مارست الزراعة حيث كان أفرادها مزارعين ماهرين، وقد مارست التجارة نظراً لقربها من أسواق مدينة تلمسان حيث زودتها بالحبوب ومختلف المنتوجات، إضافة إلى ذلك كانوا يرتادون أسواق مدينة وهران خلال الفترة الاستعمارية.

1- اقتصادياً:

بعد أن نقل يغمراسن عرب بني عامر بني زغبة إلى ضواحي تلمسان ليكونوا حاجزاً بينه وبين عرب المعقل، استقروا هناك ولكنهم اضطروا للتقلب في قفار صحاري تلمسان، جنوباً في المشاتي، واللجوء إلى التلول في المرباع والمصايف بسبب أنعامهم¹. وقد ساهم بنو عامر في النشاط الاقتصادي في دولة بني زيان في تنمية الثروة الحيوانية خاصة الأغنام، وتربية الخيول والإبل، وفي تجارة القوافل التي كانت من العوامل التي أدت إلى تقوية اقتصاد الإمارة، وأيضاً في تزويد أسواقها التجارية بما كانت تحتاجه من صوف ووبر ومشتقات الألبان واللحوم، ورؤوس الماشية، وكذلك في دفع الضريبة لتعزيز ميزانيتها². وكونهم قبيلة بدوية هلالية كانت تعيش ولا تزال على حرفة الرعي والنشاط التجاري. فالعوامل الرئيسية المحددة لملاح اقتصاديات المجتمعات البدوية هي الحيوان والتجارة والآبار والعيون، لقد ذكر المؤرخون أن القبائل العربية وهي عرب زغبة بما فيهم بنو عامر وحميان³ وسعوا نطاق هذه التجارة بين التل والصحراء، واحتكروا تموين

¹ - "بنو عامر بين الإشبان والأثراك"، مجلة أضواء، مديرية المجاهدين، سيدي بلعباس، عدد 02، 1998، ص 08.

² - عيسى قوراري، قبيلة حميان من القرن 5-8هـ/ 11 إلى 14 ميلادي، دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2006/2005، ص 481.

³ - حميان: نسبة لجدهم "حميان" بن غقبة بن يزيد بن عيسى ابن زغبة الهلالي. وكانت لهم الإتاوة على أرض بني حسن والاموص (إقليم وادي بجاية)، وحمزة من قبل دولة الموحيدين ورياستهم كانت لأولاد لاحق ثم صارت لأولاد امعافا ثم صارت في بيت سعد بن=

بعض المدن الإفريقية مقابل توزيعهم لمنتجاتهم وذلك منذ هجرتها إلى صحراء تلمسان في عهد الإمارة الزيانية سنة 1236م¹.

والغالب على الظن أنّها كانت تزود أسواق تلمسان بما تحتاجه من منتجات غذائية حيوانية كالسمن واللبن المجفف، والماشية والصوف والوبر، وكل ما يتعلّق بالإنتاج الحيواني، وربما كانت قوافلهم تستورد من تلمسان الأغذية والبرانس والقمح والشعير وغيرها، ولم يقتصر نشاطهم التجاري على المناطق الداخلية، بل ساهمت في ربط قصور الصحراء بقصور بني عامر، حيث صدروا المنتجات الغذائية الحيوانية كالسمن واللبن المجفف ورؤوس الماشية والصوف والوبر، والشاي والقبعات المزخرفة بريش النعام ونسيج الصوف والأقمشة وفليج الخيام والبرانس والأغذية والحبوب التي كانت تستوردها من المنطقة التلية². وارتبط بنو عامر بالأنعام خاصّة فيما يتصل بالإبل والخيول، وتعتبر الخيول أهمّ عندهم من الإبل³، لأنّهم كانوا يدافعون بها عن ما يملكون، وأعانهم على الإغارة والنجاة⁴.

ولم يتوقف دور بني عامر على تربية الخيول، واختصار الأصيلة منها، بل ساهمت أيضا في تربية المواشي وفي اختيار السلالات منها، كذلك في تنميتها وزيادة عددها حتى أضحت المنطقة غنية بثروتها الحيوانية خاصة الأغنام، وقليل من الأبقار، وعددا لا بأس

=مالك من ذرية مهدي بن يزيد بن عيسى بن زغبة، وهم يزعمون أنّهم من ذرية مهدي بن عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق، ونسبتهم باطلة. وإنما ذلك ممن تشارك الاسم وتوافقه. ومسكن هؤلاء الفرقة من ملاتة بأرض الحفرة وما والاها، وهؤلاء أتوا مع بني عامر وانتقلوا بانتقالهم إلى ضواحي تلمسان. انظر:

اعبد القادر الجزائري المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسيانيين بوهران من الأعراب لبني عامر، ت. وتقديم: محمد بن عبد الكريم، بيروت: دار مكتبة الحياة، ب.ت، ص ص 26-17.

وأیضا انظر:

- عيسى قوراري، قبيلة حميان، المرجع السابق، ص 42.

¹ - نفسه، ص 295.

² - نفسه، ص 296.

³ - تظهر أهمية الخيل لدى بني عامر كونهم كانوا يستخدمونها في أغلب معاركهم لما له من مكانة كبيرة أكسب شهرة لفرسان بني عامر وبالتالي كانوا يولونها أهمية كبيرة مقابل الإبل.

⁴ - عيسى قوراري، نفسه، ص 298.

به من الماعز. أما الجمل فليس وسيلة للنقل فحسب بل يمكن استهلاك لحمه واستغلال وبره¹. إنّ تفاعل قبيلة بني عامر مع البيئة الطبيعية والمناخية من جهة وتفاعلها مع القبائل الأخرى العربية والزناتية من جهة أخرى، جعلها تكتسب ثقافة بدوية²، إضافة إلى تعلّقها بالأرض، وهو ما ذهب إليه "بوير" "Boyer" حيث أكّد على أنّ ذلك حدث نتيجة للتغيرات العرقية المستمرة منذ أربعة قرون ونتيجة لاختلاط بني عامر بالقبائل الأخرى خاصة البربر جعلهم يتعلقون بالتربة التي يزرعونها بالرغم من استمرارهم في العيش تحت الخيمة³.

وقد زواج بنو عامر بين البداوة وممارسة الزراعة إلى جانب امتلاكها قطعانا هامة من الماشية واهتمامها بتربية الخيول⁴، هذا ما أعطى عنهم انطبعا بأنهم يعيشون في نظام اقتصادي جيّد خاصة قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر⁵. حيث كان لكل قبيلة حدود لأراضيها والجميع يعرف ممتلكاته وحقوقه التقليدية من أجل استغلالها، هذه الحدود الطبيعية كانت ممثلة في الدوم والبصل البري، فكان لكل عائلة الحق بالتمتع بهذه الأراضي وزراعتها⁶. وإبان الاحتلال الفرنسي للجزائر أسالت قطعان بني عامر ومخزونهم من القمح لعاب السلطات الاستعمارية الفرنسية إذ كانت في كلّ مرّة توجّه ضربة لهم للاستيلاء على مؤونتهم التي كانت توفر تزويد الحاميات العسكرية لعدة أيام. ونلاحظ أنّ بني عامر وقفوا بالمرصاد لكل من يتعرض لمخزونهم من القمح⁷، وبحكم انتشار بني عامر

¹ - عيسى قوراري، قبيلة حميان، المرجع السابق، ص 299.

² - نفسه، ص 300.

³ - Boyer Pierre, « Historique des Beni Amer d'Oranie des origines au senatus consulte », *revue de l'occident musulman et la méditerranée*, n°24, p 54.

⁴ - خالد بلعربي، المدينة والمقاومة سيدي بلعباس في مواجهة الاحتلال، الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1954، الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ص 124.

⁵ - كان بنو عامر يملكون أراضي خصبة وشاسعة في القطاع الوهراني قبل تغير المعادلة بدخول الاحتلال الفرنسي وتجريدتهم منها.

راجع لاحقا: المعاناة من السياسة الاستعمارية، وأيضا فقدان الأراضي. الفصل الثاني ص 128 و الفصل الثالث ص 166

⁶ - Boyer Pierre, *Historique des Beni Amer*, op.cit., p 80.

⁷ - Les illustrations du XIX siècle, Paris : Librairie Bloud et Burral, p 46.

في أراضي المكورة الخصبة نشطوا في الزراعة إلى غاية التعمير الأوروبي للمنطقة¹، أين أصبحت الزراعة منتعشة وازدهرت التجارة بالرغم من تضيق الخناق على هذه القبائل².

حافظ بنو عامر على نمط الحياة البدوية التي ورثوها عن أجدادهم مثل النظام القبلي والعادات والتقاليد، إضافة إلى اللباس العربي الأصيل والمسكن والفروسية ومكانة المرأة، كل ذلك كان يمثل بالنسبة لهم هويتهم القبلية، وهو ما دفع بالاستعمار الفرنسي إلى محاولة هدم البنية الاجتماعية العربية لهم وإحلال محلها النظام الاجتماعي الغربي.

2- اجتماعياً:

تمكّن بنو عامر من نشر نمط الحياة الاجتماعية البدوية العربية وحافظوا عليها، كالبدوة والنظام القبلي والنظم الاجتماعية كالزواج والأسرة والقيم الاجتماعية والحياة الاقتصادية كالرعي والترحال والإغارة والسلب³. فعيشتهم البدوية⁴ وحياة الترحال المتعبة⁵ فرضت عليهم إتباع نمط معيّن في حياتهم اليومية كغيرهم من القبائل التي اعتمدت في طعامها على الأنعام، يحصلون منها على الألبان واللحوم. أما الملبس فقد كانت القبائل سواسية في لبس المخيط وربما ألقوا رداء على ظهورهم والتفوا بإزار وهم يتفاوتون في ذلك بتفاوت المراتب الاجتماعية لا بتفاوت العشائر والقبائل، وكانت العمائم لباس الرأس المألوف عندهم، ويستخلص مما رواه القلقشندي عن العرب في العصر الموحيدي، أنّ الأشياخ والعامة كانوا على زيّ واحد لا يمتاز بعضهم إلاّ بشيء واحد لا يكاد يظهر ولا يبين وهو صغر العمائم وضيق القماش، كما أنّهم يلتزمون تحت أذقانهم

¹ - راجع لاحقاً التعمير الأوروبي للمنطقة في الفصل الثاني ص 142.

² - Reutt Georges, La région agricole de Sidi Bel Abbes, direction des services agricoles des département d'Oran, p 35.

³ - عيسى قوراري، قبيلة حميان...، المرجع السابق، ص 481.

⁴ - Reutt Georges, La région agricole, op.cit., p 35.

⁵ - BASTIDE Léon, Bel-Abbés et son arrondissement, Oran : Typographie et lithographie AD. Perrier, 1880, p 12.

بأطراف عمائمهم متأثرين¹ في ذلك بزناثة². وقد وصف "Vincent Huet" لباس أحد فرسان بني عامر في العهد الاستعماري بأنه يرتدي صدرية حمراء وحزام قرمزي وسروال بني فضفاض وحذاء طويل³. ووفقاً له كانت المرأة ترتدي ثوباً مزركشاً باللونين الأحمر والأصفر، خلفيته برتقالية مشدودة على الخصر بحزام قرمزي علقت أطرافه بشكل غير مربع⁴.

إضافة إلى البرنوس الذي كانت تنسجه النسوة، وينسج معه غطاء الرأس وما يسمى بالقلمونة، ثم يقدم للخياطة، ناهيك عن صناعة الزربية أو الفراشية والوسادة وتختلف الرسومات والأشكال الموجودة فيها حسب ذوق كل امرأة⁵. أمّا مساكنهم فكانت خيام العرب من الوبر والصوف، يسهل فكها عند سفرهم، لغزواتهم وحروبهم، ثم تحولت لسكناهم في أسفارهم أما ثياب الكتان يصنعون منها بيوتاً مختلفة الأشكال، متعددة الألوان، المستطيلة والمربعة وهم يتفننون في تزيينها. ويدير الأمراء، وقواد العساكر السياجات من الكتان على الفساطيط والغزوات، وهو ما يسمى بلباس بربر أفراك⁶. ويرجع سكنهم في الخيام إلى تحمل مشاق المناخ الصحراوي، فالبادية ليس بها مسكن ثابت، بل هناك بيوت شعر ترحل مع البدوي أينما حلّ، وتقوم المرأة بغزلها ونسجها، وتختلف خيمة بني عامر عن خيمة الطوارق فخيمة بني عامر تصنع من صوف الغنم وشعر الماعز، في حين خيمة الطوارق من وبر الإبل وشعره. ويلاحظ أن أدوات

¹ - "بنو عامر بين الإسبان والأتراك"، مجلة أضواء، المرجع السابق، ص 7-8.

² - انتشرت قبيلة زناتة في كامل ربوع بلاد المغرب، وكان انتشارها أهم وأكبر في المغرب الأوسط، وقد اختلف الباحثون في اسم زناتة ودلالاته، بين من يرى أنه لم يظهر مع اسم القبائل البربرية التي وجدت في كتابات المؤرخين اليونانيين والرومانيين والبيزنطيين، وبين من يعتقد أن "كلوديوس زناتوس" "Claudius Zenatus" هو اسم لشخص من قبيلة زناتة في العهد الروماني. انظر: إلياس حاج عيسى، "زناتة المغرب الأوسط القبيلة والمجال"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، المجلد 3، عدد 04 يناير 2020، ص 117.

³ - Huet Vincent, La vierge des Béni Amer, Paris : A-L. Guyot, édition, p 20.

⁴ - Ibid., p 16.

⁵ - عيسى قوراري، المرجع السابق، ص 328.

⁶ - "بنو عامر بين الإسبان والأتراك"، المرجع السابق، ص 08.

الخيمة التي تستخدم في الطبخ أو في مجالات أخرى تمّ صنعها بتكنولوجية بسيطة، وتتميز بالخفة ومادتها الأولى الجلد والحلفاء. إلى جانب خيمة السكن توجد خيم الرعاة الذين يتم توظيفهم عند صاحب الخيمة لغرض رعي الغنم¹. وبخاصة كان بنو عامر في الفترة الاستعمارية يوظفون الزوج الذين يجلبون معهم زوجاتهم اللواتي يخدمن السيدة، وزوجها، ويصف "Vincent Huet" انتشار عادة التدخين لدى بني عامر حيث كان الزوج يشعلون الدخان لأسيادهم²، وقد جيء بهؤلاء الزوج من الجنوب حيث كانوا يعاملون معاملة حسنة ومتعلقين باليد التي تغذيهم بشكل وثيق³.

وفي العهد العثماني كانت قبائل بني عامر تعيش في شبه بداوة في سهل المكرة، تعيش في الخيمة ولكنها تنتقل أحيانا بسبب عدم ثقتها في الأتراك⁴. وقد كانت الخيمة تتنوع ما بين 04 و 10 أشخاص لكل واحدة أي عائلة أو عائلتين في المتوسط في كل خيمة⁵. لقد كانت حياة البادية تعتمد بشكل كبير على المرأة، حيث أنّ نساء البادية كنّ يقمن بجميع الأعمال فيما أنّ الرجل لا يهتم إلاّ بحصانه وسلاحه وزراعة الأرض ولكنه يشارك في جمع الغلّة في أوقات الحصاد ويقضي بقية أوقاته في الصيد. وقد يجتمع الرجال ويجلسون في ظل شجرة من أشجار التين أو الزيتون ويقومون بضفر الحصائر والسلال⁶. وقد حظيت المرأة العامرية بمكانة كبيرة لدى الرجل، حيث اهتمت بجمالها وأنوثتها عن طريق الحرص على النظافة واستخدام الكحل على العيون⁷، ولا تقيم النساء النساء شعيرة الصلاة في العلن إلا نادرا، حيث كنّ يلتوين في بطانيات دافئة، ووجوههنّ

¹ - عيسى قوراري، المرجع السابق، ص ص 314-316.

² - Huet Vincent, La vierge des Béni-Amer, op.cit., p 15.

³ - Ibid., p 14.

⁴ - Reutt Georges, La région agricole, op.cit., p 35.

⁵ - مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف: مجاود محمد، قسم التاريخ، جامعة الجيلالي ليايس- سيدي بلعباس، 2012/2011، ص 23.

⁶ - يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر، ت. وتقديم: أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 1997، ص 116.

⁷ - Huet Vincent, op.cit., p 17.

لا تظهر منها إلاّ الأعين في حال خروجهنّ¹. وبذلك فقد أولى بنو عامر الاهتمام بنساء القرابة وجعلهنّ أولى من الغريبة عنهم ووظفوا ذلك في أمثالهم التي خلّدت ذلك "امشي مع الطريق إذا دارت، وادي بنت عمك إذا بارت" ويعكس هذا المثل موقفاً من الزواج الداخلي القرابي لأنه يصون وحدة العائلة. وكان يمقت المرأة التي لا تنجب، وتشبهها بالخيمة بدون أوتاد². ويصف أحد المؤرخين بعض العادات المتعلقة بركوب الخيل حيث يقول: «كان هناك سباق وطلقات، وألقيت البنادق في الهواء واشتعلت بيد واحدة، وشكلت سحابة ودخان وغبار، وكان هذا المشهد رائعاً، وعندما انتهت الفنتازيا تباطأ حماس الفرسان»³.

ويظهر ذلك الاهتمام الكبير الذي حظي به الخيل لدى بني عامر، فمن خلال خيولهم ومظهرها وطريقة حملهم لأسلحتهم كانت توحى دائماً بأنهم على استعداد للهجوم في أيّ لحظة⁴. حتى أنّ الحصان كان يعتبر هدية ثمينة بين القبائل في مراسلة "Daumas" إلى "Rapatel" مؤرخة في 11 مارس 1838 يخبره بأنّه شكر الأمير بنفسه بعد إهدائه الحصان⁵. ولأهميته البالغة وقيمتها المادية الكبيرة كان يتعرض إلى السرقة من طرف القبائل التي تعتمد عليه في حلّها وترحالها ومعاركها، وكثيراً ما كان يلجأ بنو عامر إلى ما يسمى بالشواف أو العراف من أجل تحديد مكان الفرس المسروقة⁶، وهو ما يوحى بانتشار نوع من العادات السيئة لدى هذه القبائل مثل السرقة والتدخين والدجل والسحر والعرافة وهي التي لا يكاد مجتمع قبلي يخلو منها.

¹ - Huet Vincent, op.cit., p 09.

² - عيسى قوراري، المرجع السابق، ص 356.

³ - BERTHET A., La femme du Kaid épisode des guerres d'Afrique 1837- 1848, Mare Barboue imprimeurs, 1890, p 117.

⁴ - BERTEUIL Arsène, L'Algérie française, histoire- mœurs- coutumes- industrie- agriculture, tome second, Paris : Dentu librairie éditeur, 1856, p 518.

⁵ - Yver Georges, correspondance Capitaine Daumas consul à Mascara (1837- 1839), Alger: Adolphe imprimeur, 1912, p129.

⁶ -Huet Vincent, op.cit., p 19.

ساهم بنو عامر في نشر اللغة العربية بين قبائل زناتة إلى جانب حميان في إمارة بني زيان، وفي الوقت نفسه تأثروا باللغة الزناتية وبعادات وتقاليدها قبائل زناتة التي تفاعلت معها داخل إقليم الإمارة. وكذلك استطاعوا نشر الموروث الشعبي الهلالي، وعاداتهم وتقاليدهم العربية البدوية بين القبائل الزناتية المستقرة بمنطقة تلمسان وقصور بني عامر، من فنون تقليدية كصناعة الخيمة وأدوات المطبخ وأفرشة صوفية وملابس وأدب شعبي من شعر ملحون وحكايات شعبية والأمثال والألغاز.

3- ثقافياً:

كان لبني هلال الفضل في نشر اللغة العربية، وتعريب قبائل زناتة وصنهاجة في المغرب الإسلامي. كما أدخلت الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب النمط المعيشي البدوي، والعادات الشرقية والموروث الشعبي الهلالي من شعر بدوي وحكايات وأمثال شعبية وغيرها من أشكال الحياة البدوية¹. وعندما نزح بنو عامر إلى صحراء تلمسان في عهد الإمارة الزيانية سنة 1236م احتكوا ببني عبد الواد وبني مزين وسكان قصور الأطلس الصحراوي². وككل أهل المغرب الأوسط كان الاقتصار على تعليم القرآن الكريم فقط فهم لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب. ومن العلماء الصوفية الذين أسسوا الزوايا وشيدوا المساجد، ونشورا الكتابات ذكر ابن خلدون: «عامر بن أبي يحيى بن يحيى، شيخ أولاد يحيى بن سعيد بن بشيط بن شكر، له فهم ذكر وشهرة وكان ينتحل العبادة وحجّ ولقي بمصر شيخ الصوفية لعصره "يوسف الكوراني" وأخذ عنه ورجع إلى قومه وعاهدهم على طريقته»³. أمّا الموروث الشعبي عندهم فيتمثل في الفنون التقليدية التي وجدت نتيجة

¹ - عيسى قوراري، المرجع السابق، ص 301-302.

² - نفسه، ص 304.

³ - "بنو عامر بين الإسبان والأتراك"، المرجع السابق، ص 08.

التفاعل بين الأفراد والجماعات والبيئة المحيطة¹. فوجدت الحكاية الشعبية والحكاية الخرافية والشعر الشعبي والأمثال الشعبية والألغاز الشعبية التي كانت تتداول بكثرة في مجتمع بني عامر²، وقد اعتمدت المرأة في صناعتها لأدوات الطبخ ووسائل التخزين على المواد الأولية المتوفرة في البيئة الطبيعية كالحلفاء وعلى جلد الشاه والمعز، وتتمثل أدوات الطبخ في الكسكاس والطبق ووسائل التخزين كالعكة والشكوة والقربة والقنينة والمحقن والقراوش والحلاب والمخفية والشداد والضفيرة³. أما الألغاز الشعبية المتداولة فقد استخدمت فيها الألفاظ والمفردات المحلية الدالة على لغة الداريجة وعلى البيئة الاجتماعية السائدة التي تبرز مدى التفاعل والتأثير والتأثر مثل: "طها كي كتاب ولونها لون غراب" والتي تعني الخيمة، "أمي بركانة لابسة عباية والركبة عريانة" ومعناها النعجة أو الخروف، وهذه الألغاز تبين الخصائص البدوية والوسائل المستخدمة في مثل الخيمة والمطمورة والشكوة وتدل على المستوى الثقافي ومحدودية التفكير الذي اقتصر على المحيط البدوي الضيق، وقد كان الهدف منها الترفيه واختبار الذكاء، وربما كانت الألغاز وسيلة أساسية من وسائل التربية والتعليم من أجل إراحة نفسه من جهة، والمحافظة على تماسك الأسرة وتمتين العلاقات الاجتماعية الأسرية⁴. إلى جانب الألغاز، عرف بنو عامر الأمثال الشعبية التي استخدمت فيها مفردات وألفاظ محلية، تتكوّن من كلمتين إلى ثماني كلمات مثل: "الي حرثها الجمل دكه" ومعناه ضياع الجهد المبذول سدى، و"اضرب الحديد ما دامه حامي" هي بقصد النصيح والإرشاد، "الهدرة والمغزل" ومعناها الكلام والفعل في نفس الوقت، أما عن المعاملة الاقتصادية فنجد مثل "الشركة هلكة" حيث يقدم هذا المثل صورة سلبية عن كلّ ما يتعلّق بنتائج المشاركة الجماعية⁵.

¹ - عيسى قوراري، المرجع السابق، ص 309.

² - نفسه، ص 313.

³ - نفسه، ص 332.

⁴ - نفسه، ص 344.

⁵ - نفسه، ص 355.

إضافة إلى ذلك نجد الحكاية الشعبية التي تستمد غالبا من أحداث واقعية سبقت، حيث يبدأ الراوي الحكاية بـ"قال لك" بمعنى شخص مجهول دون تحديد إطار مكاني أو زمني للحكاية والتي كانت ما تروى غالبا في السهرات مع قالب التشويق فيها. وكانت هناك فنون شعبية أخرى تزخر بها كالرقص والغناء والموسيقى للترويح عن النفس في المناسبات والحفلات، حيث تؤدي الرقصات الشعبية الخاصة بالرجال والنساء مثل الزواج والأعياد وعودة المحاربين¹. وكانت هناك عادة في الزواج وهي تزويج الشباب في سن مبكرة حيث أنّ ذلك في نظرهم يحمهم من العواطف السيئة وهي الحب، حيث صوّر لنا "Vincent Huet" في روايته "عذراء بني عامر" قصة حبّ "قدور" و"وريدة" والتي تخللها صعوبات وعراقيل مرتبطة بثقافة بني عامر المحرّمة لمثل هذه العلاقات²، كون أنّ المرأة في نظر العرب لها قيمة كبيرة مثلما توجد هذه المشاعر تجاه الفرس³، حيث كان يصل الأمر بهم إلى الاستعانة بما يسمى "الشواف" في حال سرقة الفرس من أجل إيجادها⁴، هذه الخيول التي كان يمتطيها بنو عامر وهم في كامل زينتهم مرتدين برانيسهم الصفراء وأحذية مميزة عند ركوبها⁵، إذ يمكن تمييز لباسهم عن البرابرة⁶، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على الاهتمام الكبير بالحفاظ على الموروث الشعبي المتمثل في الزي التقليدي. أمّا الشعر عندهم كان يقتصر على الملحون والملحون كما قال ابن خلدون، وإن كان خالياً من الإعراب فهو مشحون بأنواع البلاغة وأصناف الحكم وضروب الأمثال، وبهذا صار الملحون شريكا في المحاسن وشقيقا للموزون وأوضح دليل على ذلك، أنّ البعض من العلماء الأعلام قد نظموا بالشعر الملحون مثل أبي ساكن

¹ - عيسى قوراري، المرجع السابق، ص 359 - 360.

² - Huet Vincent, op.cit., p 21.

³ - Ibid., p 22.

⁴ - Ibid., p 24.

⁵ - BERTEUIL Arsène, L'Algérie française, op.cit., p 315.

⁶ - LORRAIN Jean, Heures d'Afrique, Paris, Eugène Fasquelle, éditeur, 1889, p 47.

بن محمد بن عسكر الهلالي، ناهيك عن شعراء المنطقة المشهورين، مثل ولد الزين بن حراث، بن شعبان، ومصطفى بن إبراهيم¹.

هذا الأخير الذي يرتبط اسمه بقبائل بني عامر فهو شاعرها ومداحها، إذ ساعده في ذلك حفظه للقرآن وأخذه الفقه عن سي محمد البطيوي الذي اشتهر في منطقة أولاد سليمان كقاضي وأستاذ للفقه² وولي القضاء هو بنفسه بأبي جهة، وتثبت بعض التلميحات في ديوانه أنه كان محصلا على ثقافة الطالب المتوسط، وهذا الصنف من المثقفين طبقة عادية معروفة تشمل غالبا ثقافتها حفظ القرآن العظيم ما يستوجب حوالي عشرة أعوام من العناية وتحتوي أيضا على دراسة العبادات والفقه في مختصر سيدي خليل وربما حفظوه عن ظهر قلب مثل القرآن، وتتضمن كذلك قراءة التوحيد والأحاديث المتداولة. أما الأدب العربي فإنهم لا يعيرونه أي اهتمام تقريبا، فإذا كنا نجد في كثير من أبيات الشاعر الاقتباس أو الشرح لبعض الآيات البيّنات «بأمر ليلاه تداول شهر وسنة» إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أو الأحاديث الشريفة «يا مسافات خير م اليوم» إشارة إلى الحديث: «ما من يوم مضى إلا والذي بعده أشر»³. وقد تنوّعت قصائد الشاعر ومواضيعها مثل:

● الحرية:

قبلوا بالحرية أداو مزوز الغزلان

قبلوا بالسحرية سلفت شاو القومان⁴

¹ - "بنو عامر بين الإسبان والأتراك"، المرجع السابق، ص 08.

² - عبد القادر عزة، مصطفى بن إبراهيم شاعر بني عامر ومداح القبائل الوهرانية، تلمسان: موفم للنشر، 2011، ص 12.

³ - نفسه، ص 13.

⁴ - نفسه، ص 81.

● والحب:

من عشق بدرة مصطول بغرامها منها مدروس مانيش في حالي
 بدرة على بدر الزين سماوها يا قصة الريح أنت اسمك فالي
 جاني الحب مع جن عقارها هاضوا علي الامحان من تالي.¹

● والشوق:

شاش القلب اشتاق لولاد سليمان وتوحشت أنا رجالي
 للخطرة عولت وكتببت العلوان راني قادم يا أبطالي
 نحضر للوعدة نזור أهل البرهان نشوف مهاجة بأنجالي.²

وغيرها من القصائد التي جمعها الدكتور عبد القادر عزة في ديوان واحد. ولا تزال قصائد هؤلاء الشعراء تحفظ عند الكبار وغنى لهم العديد من المطربين كالشيخ المدني، والشيخ عبد المولى والشيخ حمادة والشيخ الخالدي، بالإضافة إلى مطربي الوهراني أمثال أحمد وهبي، بلاوي الهواري، وارد بومدين، الصايم الأخضر، الشيخ المقلش، دزيري كادري وغيرهم.³

¹ - عبد القادر عزة، المرجع السابق، ص 99.

² - نفسه، ص 179.

³ - بنوعام بين الإسبان والأتراك"، المرجع السابق، ص 8.

الفصل الأول:

قبائل بني عامر عشية الاحتلال

الفصل الأول: قبائل بني عامر عشية الاحتلال

أولاً: وصف قبائل بني عامر.

- 1- بنو عامر في كتابات بن خلدون.
 - 2- بنو عامر في كتابات المشرفي.
 - 3- بنو عامر في كتابات بن عودة المزاري.
 - 4- بنو عامر عند الرحالة الأوروبيين.
- ثانياً: المعارك ضد الإسبان ومع الأتراك.

- 1- دور بني عامر في الدفاع عن الجزائر.
- 2- المقاومة مع الأتراك العثمانيين.
- 3- سبب موالة الإسبان. في وهران
- 4- الموقف من موالة الإسبان.

ثالثاً: مظاهر انهيار وتفكك بني عامر.

- 1- قمع السلطة العثمانية (بايلك الغرب).
- 2- السيطرة الإسبانية على بني عامر.
- 3- اضطهاد سلاطين المغرب لبني عامر.
- 4- موقف المغرب من بني عامر.

رابعاً: الولاء للدرقاوية والهجرة الأولى إلى المغرب 1805-1809.

- 1- الولاء للطريقة الدرقاوية.
- 2- المشاركة في ثورة الدرقاوية.
- 3- الهجرة الأولى إلى المغرب.
- 4- الشيخ محي الدين وبنو عامر.

أولاً: وصف قبائل بني عامر.

يعتبر بن خلدون من بين المؤرخين الذين أفردوا وصفا شاملا لقبائل بني عامر وبطونهم، حيث تتبع جذورهم وأصولهم التاريخية، إضافة إلى الدور الذي لعبوه في الحياة السياسية منذ دخولهم إلى المغرب، وكل ما يتعلق بنشاطهم الاقتصادي وعقليتهم البدوية التي نقلوها معهم والتي أدت بهم إلى الصراع مع القبائل الأخرى قصد حماية أراضيهم وقطعانهم التي تمثل مصدر رزقهم.

1- بنو عامر في كتابات بن خلدون:

فسّر المؤرخون سبب ابتعاد القبائل الهلالية عن مكة والتزامهم أطرافها العالية إلى ابتعادهم عن الدين الجديد، وتأخر دخولهم في ظل رايته، كما يفسرون استمرارهم في حياتهم الأولى إلى اضطراب موقفهم من تعاليمه، فقد خاض بنو هلال في نجد الحجاز مع بني سليم وبني عامر يغيرون على كل قوافل الحجيج والقبائل الأمر الذي أكسبهم سمعتهم في القتال والصبر عليه. وقد استغل بعض المؤرخين هذا الجانب لوصف القبائل الهلالية بالهلب ومنه كانت هجرتهم إلى المغرب سببا في خرابه الاقتصادي¹، حيث كان للأحداث السياسية والاقتصادية الدور الفعال في تحريك الجموع الهلالية. وقد رأى المؤرخون أن انقلاب المعز بن باديس الصنهاجي على الفاطميين سنة 440هـ ودعوته للخليفة العباسي بدل الفاطمي المستنصر أثر في حقد هذا الأخير ودفعه إلى التوجه للقبائل الهلالية انتقاما منها. وقد وجد المؤرخون الغربيون في هذه الحادثة فرصة لوصف قبائل بني هلال بأبشع الأوصاف حيث قالوا عنها أنها: «حدث فاصل وكارثة عظيمة، التدهور الكبير الذي ليس له علاج، وفاة المغرب المتوسط المصاب بالفالج»².

¹ - حبيب مونسي: "بنو هلال: المسيرة والتاريخ"، الملتقى الوطني الأول للكتابة تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية، نوفمبر 2001، جامعة سيدي بلعباس، ص: 2.

² - حبيب مونسي: نفسه، ص 4. للمزيد حول آراء المؤرخين في بني هلال ينظر إلى: أندريه برنيان، أندري نوسي، ايف لاكوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، ت: اسطمبولي رايح والمنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص 108.

وقد تضاربت أرقام المؤرخين حول أعداد القبائل التي دخلت إلى إفريقيا حيث دخلت بنو رياح، بني زغبة، بنو عامر التي تعد جزءا من بني هلال، وفي نهاية القرن الخامس عشر وصل أعداد العرب الوافدين على المغرب حوالي أربعة ملايين حسب "مارمول" توزعوا بين الجزائر والمغرب وتونس¹.

وتعتبر بنو عامر من القبائل الأولى التي قدمت إلى القطاع الوهراني بعد الفتح العربي، وقد أضعفتهم صراعاتهم مع القبائل الأخرى².

ويذكر الحسن الوزان في وصف إفريقيا أن هلال تنقسم إلى أربعة فروع: بني عامر، رياح، سفيان، هوازن، ويتفرع بنو عامر إلى: عروة وعقبة وهبرة ومسلم³. وجاء في معجم القبائل العربية لعاتق بن غيث البلادي أنهم يقال لهم العوامر حيث يطلق هذا الاسم على ثلاث قبائل من سبيع بني عامر: بنو عامر وبنو عمر وبنو عمير⁴. ويقدم لنا بن خلدون في مقدمته وصفا لهته القبائل فيقول: "...بنو عامر بن زغبة فمواطنهم في آخر مواطن زغبة من المغرب الأوسط قبالة تلمسان مما يلي المعقل، وكانت مواطنهم من قبل ذلك في آخرها مما يلي المشرق، وكانوا مع بني يزيد حيا جميعا، ولما نقلهم يغمراسن إلى مواطنهم هذه بمحاذاة تلمسان ليكونوا حجزا بين المعقل وبين وطنها، حيث كان ذلك بعد استيلاء يغمراسن على تلمسان وانتقال زناتة على التلول والارياف، وباستيلاء المعقل على مواطن زناتة القديمة بالصحراء، وكثرة فسادهم بها، نقل يغمراسن بني عامر من أوطانها بجوار بني يزيد إلى جواره بصحراء تلمسان لمنافسة عرب المعقل، وتبع عرب حميان من بني يزيد عرب بني عامر حيث كانوا ناجعة ولم يكونوا حلولا مستقرين فصاروا في عداد

¹ -Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842, présentée par ordre du gouvernement, paris imprimerie impériale, pp 433- 434.

² -Robert Tinhoïn, Colonisation et évolution des genres de vie dans la région ouest d'Oran de 1830 à 1885, étude de géographie et d'histoire coloniales, pp 33- 34.

³ - الحسن الوزان بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ت: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج1، دار الغرب الإسلامي، ب.ت، ص49.

⁴ - عاتق بن غيث البلادي، معجم القبائل العربية (المتفقة اسما المختلفة نسبا أو ديارا)، ج1-2، ط1، دار النفائس، لبنان، 2002، ص 122.

بني عامر¹، استقروا هناك يتقلبون في قفارها في المشاتي، ويظهرون إلى التلول في المربع والمصايف. وكان فيهم ثلاثة بطون: بنو يعقوب بن عامر وبنو حميد بن عامر وبنو شافع بن عامر، وهم بنو شقارة وبنو مطرف، ولكل واحد من البطينين الآخرين أفخاذ وعمائر، ولبني حميد فصائل أخرى فمنهم: بنو حميد، ومن عبید الحجز وهم بنو حجاز بن عبید، وكان له من الولد جحوش وهجيش ابني حجاز، وحجوش حامد ومحمد ورباب²، ومن محمد الولادة بنو ولاد بن محمد، ومن رباب بنو رباب وهم معروفون لهذا العهد. ومن عبید أيضا العقلة بنو عقيل بن عبید والمحارزة بنو محرز بن حمزة بن عبید، وكانت الرياسة على حميد لعلاق من هؤلاء المحارزة، وهم الذين قبل حجوش جد بني رباب، وكانت الرياسة على بني عامر كافة لبني يعقوب على عهد يغمراسن³ وابنه لداود بن هلال بن عطا بن رداد بن رkish بن عياد بن منيع بن يعقوب منهم، وكان بنو حميد أيضا برئيسهم وشيخهم إلا أنه رديف لشيخ بني يعقوب منهم، وكانت رياسة حميد لأولاد رباب بن حامد بن حجوش بن حجاز بن عبید ابن حميد ويسمون الحجز⁴.

ويعطي بن خلدون وصفا لقبائل بني عامر خلال العهد الزياني حيث يظهر الصراع الذي كان قائما بينهم وبين القبائل الأخرى، وكان ذلك سببا في تفرقهم، فيقول: «ووفد على السلطان أبي ثابت من ملوكهم يؤمل به الكرة، فلم يصادف لها محلا ورجع إلى قومه، وكانوا مع ذلك حيا جميعا ولم تزل السعاية بينهم تدب حتى عدا إبراهيم بن يعقوب بن معروف بن عامر بمجالاته، وتعصب عليه أولاد رباب كافة فافترق أمر بني عامر وصاروا حيين، بنو يعقوب وبنو حميد، وذلك لعهد أبي حمو موسى بن عثمان من

¹ - "استنجد يغمراسن بقبيلة بني عامر لحماية دولته"، مجلة أضواء تاريخية، العدد 01، مديرية المجاهدين لولاية سيدي - بلعباس، 1998، ص 05.

² - عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، ج 6، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000، ص 68.

³ - يغمراسن بن زيان: هو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد العبد الوادي، أول من استقل بتلمسان من سلاطين بني عبد الواد، بوع سنة 633 هـ. انظر: بن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق: كافي سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2001، ص 59.

⁴ - انظر تصنيف بن خلدون لقبائل بني عامر، المصدر السابق، ص 74.

آل زيان¹، وقام بأمر بني يعقوب بعد سعيه ابنه عثمان، ثم هلك بعد حين إبراهيم بن يعقوب شيخ بنو حميد وقام مقامه من قومه ابنه عامر بن إبراهيم² وكان شهما حازما وله ذكر³، ولما تغلب السلطان أبو الحسن على تلمسان⁴ فرّ بنو عامر إلى الصحراء⁵ وهنا يتجلى واضحا الدور الذي لعبه بنو عامر في الدفاع عن مضارب الدولة الزيانية بالرغم من تخليهم عن أراضيهم وتشردهم في الصحراء في عديد المرات خاصة في فترات اضطراب المغرب الأوسط. لقد فصل ابن خلدون في هذه الأحداث وكيف كان بنو عامر موالين لبني عبد الواد ومتحملين سلطتهم عليهم والذل والهوان على الوقوع تحت سلطة بني مرين. «كان بنو عامر بن زغبة شيعة خالصة لبني عبد الواد من أول أمرهم، وخلص سويد لبني مرين»⁶.

لقد شنّ بن خلدون هجوما لاذعا على قبيلة بني عامر، حيث وصفهم بأسوأ الصفات والنعوت، ولعل ذلك يرجع إلى كونه أردفهم مع قبائل بني هلال التي هاجرت إلى المغرب العربي، حيث أنهم حسبته يتنافسون فيما بينهم على الرياسة ويستخدمون كل الطرق للوصول إليها من إثارة للفتن والتأثر والقتل، إضافة إلى إقامة التحالفات مع القبائل الأخرى⁷ وصولا إلى استخدام الدسائس⁸. ولم يشذ يحيى بن خلدون عن أخيه عبد

¹ - أبو حمو الثاني (1322-1389م): هو بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان وهو مجدد الدولة الزيانية العبدواوية في تلمسان وثالث ملوكها في دورها الثاني. استرجع تلمسان من المرينيين في 1359م، وعرف عهده الرخاء والازدهار، له كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك". للمزيد انظر: عادل نويس، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، لبنان: مؤسسة نويس الثقافية، ط2، 1980، ص ص 125-126.

² - يصور لنا بن خلدون صورة من أسس النظام القبلي المتمثلة في توريث الحكم في القبيلة للابن الأكبر. انظر: بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 69.

³ - حسب بن خلدون لا بد أن يتحلى قائد القبيلة بالشجاعة حتى يستطيع إدارة شؤونها والدفاع عنها. -- انظر: بن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص 69.

⁴ - المصدر نفسه، ج7، ص 70.

⁵ - نفسه، ج7، ص 70.

⁶ - نفسه، ج7، ص 178.

⁷ - نفسه، ج6، ص ص 68-69.

⁸ - نفسه، ج7، ص 178.

عبد الرحمن في وصف قبائل بني عامر بالمكر والخديعة، ففي وصفه للصراع الزباني المريني وصفهم بأصحاب الخديعة فقال: «فخدعت كعادتها بنو عامر واغتالت محلات بني عبد الوادي من وراء صفوفهم»¹.

ولم تشذ كتابات عبد القادر المشرفي في كتابه "بهجة الناظر" الذي نشر في المجلة الإفريقية سنة 1924 عن بن خلدون في وصفه بعض الفصائل من قبائل بني عامر حيث نجده يصفهم بأبشع الأوصاف مثل الخيانة والغدر وموالة العدو ويعطي الموقف الشرعي منها ولم ننسى بأن المشرفي يعتبر عاملا لدى السلطة العثمانية التي كانت دائما في صراع مع هذه القبائل في منطقة القطاع الوهراني.

2- بنو عامر في كتابات المشرفي:

خلال مدة ثلاثة قرون لاحتلال وهران، تحدث المؤرخون عن الدور الذي لعبته بعض القبائل المحاربة مع الإسبان وأحيانا ضدهم، وتحدث السيد مارسيل بودين عن تسعة قبائل متعاونة مع الإسبان وهم: كرشتل، بنو عامر، شافع، حميان، غمرة، قيزة، أولاد عبد الله تلي، أولاد علي، الونازرة. حيث أصبحت هذه القبائل مؤهلة لخدمة الإسبان، فبنو عامر أصبحوا أداة حقيقية في يد الإسبان، فالمشرفي كتب كتابا حول مخالفتهم تعاليم الإسلام وتعاونهم مع الكفرة، حتى أصبحوا في مصاف العبودية بالنسبة لهم. ومن خلال كتاب المشرفي وترجمة السيد بودين تمكنا من معرفة أصل ودور هذه القبائل التي كانت معروفة بالمساعدة القوية والخيانة حسب². وقد ألف عبد القادر المشرفي كتابه لدم القبائل المتعاونة مع الإسبان وخرجت عن طاعة المسلمين وسمى كتابه بـ "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر"، وقد اشتمل على ثلاثة عناصر:

¹ - يعي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق: عبد الحميد حاجيات، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، 1980، ص 246.

² - Société géographique et d'archéologie, La Province d'Oran frondée en 1878, tome XLIV, imprimerie typographique et lithographique, Oran, p 309.

- العنصر الأول: ذكر الإسبان وأصلهم ومواطنهم.
 - العنصر الثاني: وقد ذكر فيه قبائل بني عامر وأصلهم، ونسبهم وموطنهم، وأعمالهم تجاه سكان ضواحي مدينة وهران خلال فترة استيلائهم عليها.
 - العنصر الثالث: الحكم الشرعي بالنسبة لمن وقف من بني عامر بجانب الإسبان وبقي متعاوناً معهم، أو تاب توبة نصوحاً وندم على ما فرط منه¹.
- وحتى يتسنى لنا فهم الأحكام التي أطلقها المشرفي على بني عامر لا بدّ من معرفة انتمائه ونسبه الذي أثر بشكل كبير على وصفه لهذه القبائل. جاء في معجم أعلام الجزائر لعادل نويمض أن المشرفي (1192هـ/1778م) هو عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي الغريسي، بحث له اشتغال بالتاريخ، من فقهاء المالكية، من آثاره "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر" حققه الدكتور محمد بن عبد الكريم²، وهو من المشارف ويتصل نسب هؤلاء بإدريس. وعبد القادر المشرفي صاحب زاوية الكرط بمعسكر، وحفيده ابن عبد الله سقاط (سقط)، وهاجر إلى المغرب بعد 1843³. ومن خلال انتماء المشرفي الديني فإنه أثر على أحكامه ضد بني عامر، فهي هو يصف قبيلة فيزة فيقول: « ومن جملة الإشبانيين الذين بوهران من الأعراب قبيلة فيزة⁴ فقد كانوا أهل بأس شديد، ولهم قوة وبطش وفتك بالمسلمين، قد نزع الله رحمته من قلوبهم عليهم، ويسمون اللصوص، وإذا اشتد الحصار بالنصارى

¹ - عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، دار مكتبة الحياة، لبنان، ب.ت، ص ص 5-6.

² - عادل نويمض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، لبنان: مؤسسة نويمض الثقافية، ط2، 1980، ص303.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، 1830-1954، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، ص 325.

⁴ - قبيلة فيزة: ويقال لهم "جيدزة" وهم فرقة من بني عامر، من أولاد عامر بن إبراهيم نسبة لجدهم: فيزة بن عامر بن إبراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد بن زيان ابن حامد بن حجوش بن حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة الهلالي. انظر: عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص ص 28-29.

فيسكنون معهم بالأبراج، وكانت لهم رئاسة عظيمة مع الإسبانين، ومحبة شديدة، ولا يثقون في الإسلام بقية، فكم لهم من تطلع على عورات الإسلام، والأخبار بهم للكفرة اللئام، وتطلع شديد وعتو مديد، وكم لهم من غارة على المسلمين، وسبي لهم وفتك بالمؤمنين، نسأل الله تعالى السلامة من طمس البصيرة ومسح القلوب»¹.

ولم يكتف بنو عامر بمساعدة الإسبان فقط بل تعداه إلى أذية المسلمين ونفع الكفار، حيث كان منهم ما يعرف بالمحنشون والذين كانوا يسمون في المغرب الأقصى "الحنانشة" كانوا يسرقون رجال المسلمين وصبيانهم الذين يسكنون الشواطئ ويبيعونهم للإسبانين والبرتغاليين، إضافة إلى ذلك يورد لنا المشرفي وصفا آخر لهم وهم المغطسون الذين كانوا يجمعون الأخبار الصحيحة والكاذبة ويدفع لهم الإسبان 05 دورو إسباني (25 فرنك) مقابل ذلك، كما تحول ما بين 150 و200 فارس من هذه القبائل الحليفة إلى كشافين سهلوا تنقلات الإسبان ويذهبون أحيانا إلى الريف، فإذا ألقوا القبض على أحد أخذوه عبدا إلى وهران، كما كلفوا بشراء المواد الضرورية أو سرقتها، وإذا وقع أحدهم في قبضة القبائل المعادية للإسبان قطعت يده ثم قتل². ويروي لنا أبو راس الناصر، في عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، أنباء محاولة الباي شعبان الزناقي 1686 تحرير وهران- فيقول: «ولقد أخبرنا شيخنا الأكمل وأستاذنا الأمثل خاتمة أهل التحقيق وأعمدة أهل التوفيق الشيخ سيدي بن عبد القادر بن عبد الله المشرفي أن الكفرة لما تكامل عسكرهم في البرّ وبقي جلّ مددهم في البحر، لم يعملوا صفا للقتال ولم يطلبوا مجادلة الرجال وإنما حفوا للبلد بجميع الرجالة والفرسان وهم كهيئة الرحي في الدوران، بارودهم كرعده متصل ورصاصهم كمطر منهطل لا يستطيع أحد قهرهم، ومع ذلك لم يرجع منهم إلا قليل وأن الباي مصطفى سقط ذلك اليوم عن فرسه، وكتائب بني عامر واقفون وللمسلمين

¹ - عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص 29.

² - كان أغلب هؤلاء من قبائل بني عامر، وكانوا من الخيالة، وكانوا تحت سلطة الملك الإسباني كارلوس الثالث (1759-1788) مباشرة، حيث اهتم اهتماما خاصا بها. انظر:- نجيب دكاني، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الأفعال الجزائرية خلال القرن العاشر الهجري 10 هـ/السادس عشر ميلادي 16م، رسالة ماجستير، إشراف: ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر، 2002، ص

خاذلون فلم يصلوا المدينة حتى خلا جوها وهرب سكانها وأخبرني الشيخ المذكور أنهم لما ظهروا أولا نحو الحرشية واجتمع المسلمون فصاروا يرمونهم بالكور حتى كسفوهم عن شاطئ البحر وقال: وأول كورة أتت من أعداء الله نزلت مّي في الأرض بقدر ذراع أو باع، أي أنّ أخذهم لوهراّن في المرة الأولى كان بخداع ومكر واحتيال ونقض ميثاق»¹.

إنّ هجاء المشرفي لبني عامر لم يقتصر على المرحلة التي احتلت فيها وهران وإنما تعداه إلى عهد الدولة الزيانية حيث يصور لنا غدر خالد بن عامر بن إبراهيم حيث يقول أنّ خالدا هو أمكر الماكرين وأغدر الغادرين، حيث مات طريدا من طرف أبي حمو موسى بن يوسف الزياني². وتعدى وصفه لهم بجعلهم رعية للنصارى لا جندا لهم، أما أولاد عبد الله التالي³ فقد كانوا يعيشون في ذل مع اليهود والإسبان ويقبلون أيديهم فقد كانوا من المنافقين والجالبين للكفر وهم من الزنادقة⁴. هذا ولم يخلو كتاب بهجة الناظر من أبشع الأوصاف وأقبحها لبني عامر من كفر ونفاق وموالة للكفار وهذا ما أكسبهم الذل والهوان والتصرف المطلق للإسبان واليهود فيهم بالرغم من قوتهم وعددهم، فيقول في ذلك: «ولقد كانوا أهل عدد وعدد ونجدة وشدة ومدد ومع هذا إذا خرج نحوهم النصراني في ثلاثمئة أو أربعمئة يلحقهم منه الذل والإهانة والصغر والاستكانة ما لا يصفه عقل ويذهل عنه كل ذاهل فينزل في أوسع حلقهم ويتفكه في غلهم فإذا أمر فعلوا وإذا نهى امتثلوا وإذا وجد أجنبيا بين أظهرهم أسره جهارا ولا يراعي لهم فيه حرمة ولا جوارا»⁵.

¹ محمد بن أحمد أبي راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق: محمد غالم، ج 1، وهران: منشورات CRASC، ص 179-180.

² -Revue Africaine, volume 65, 1924, p 206.

³ أولاد عبد الله التالي: وهو فرقة من بني عامر نسبة لجدهم عبد الله بن سغير بن عامر بن إبراهيم ابن يعقوب بن معروف بن سعيد بن رباب بن حامد بن حجوش بن حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة الهلالي. للمزيد ينظر: R.A., op.cit., p 213.

⁴ ولعل هذا يعد أبرز موقف ذل وإهانة وصغار أمام اليهود والإسبان صوره لنا المشرفي في كتابه فعلى الرغم من امتلاك بني عامر للعدد والعدة إلا أن خضوعهم للإسبان أكسبهم ذلا ومهانة وصلت انتهاك حرمتهم. انظر: R.A., op.cit., p 214.

⁵ -R.A., op.cit., p 214.

بعد أن ذكرنا وصف كل من عبد الرحمن بن خلدون وعبد القادر المشرفي لقبائل بني عامر نقدم وصفا من طرف الآغا بن عودة المزاري صاحب طلوع سعد السعود الذي اعتمد أيضا على كتابات بن خلدون في وصفه خاصة في العصر الوسيط، كما تطرق إلى فترة المقاومة مع الأمير عبد القادر، ومعروف عن المزاري أنه تولى وظيفة آغا لدى الإدارة الاستعمارية حسب ما ذكره أبو القاسم سعد الله بالرغم من أن هذه الشخصية بقيت مجهولة لدى المؤرخين .

3- بنو عامر في كتابات بن عودة المزاري:

عرف بن عودة المزاري بكتابه "طلوع سعد السعود" الذي وضعه عن تاريخ وهران وبساتينها ومخزنها، وضمه عرضا بأخبار ملوك فرنسا، مما جعل منه موسوعة تاريخية اشتملت على تراجم العديد من الشخصيات ووجد لأحداث ووقائع مختلفة مع اقتباسات متعددة أغلبها جاء في شكل نوادر وقطع شعرية، وهذا ما أخل بتوازن المادة التاريخية مما جعل كتاب "طلوع سعد السعود" يبتعد على التسلسل التاريخي والمنطقي للأحداث¹. وقد أفرد المزاري في كتابه وصفا لقبائل منطقة الغرب الجزائري وعلاقتها مع السلطة العثمانية والإسبان. وقبل التطرق إلى الصفات التي وصف بها المزاري قبائل بني عامر في كتابه كان لزاما علينا معرفة شخصيته، هذه الشخصية التي بقيت مجهولة الهوية لدى المؤرخين ولا يعرف عنها إلا القليل، حيث يذكر في هذا الشأن أبو القاسم سعد الله أنه بذل جهودا مكثفة للحصول على سيرة مؤلف "طلوع سعد السعود" ولم يوفق، حيث يقول في ذلك: «راجعنا مجلة الجمعية الجغرافية والأثرية لمدينة وهران، ورجعنا إلى ما كتبه مارسيل بودان عن المخطوط، ولم نحصل على شيء وزدنا أفراد عائلة المزاري في سبدو ومغنية واستجوبناهم فلم يفيدونا في شيء ويجهلون أصلا هذا الرجل، والشيء المعروف عنه أنه هو ابن الحاج محمد المزاري الذي هو ابن أخ مصطفى بن إسماعيل، وكلاهما توليا وظيفة للأمير عبد قادر، ثم الفرنسيين بعد أن انضموا إليهم

¹ ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم ومؤرخين ورحالة جغرافيين، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999، ص 568.

في حدود عام 1835 ومن بعدها تولى المؤلف ابن عودة المزاري وظيفة الآغا لدى الفرنسيين¹ ومعروف عنه انتمائه إلى أسرة البعثاوي، هذه الأسرة التي تولت الوظيفة في بايلك الغرب ومن الراجح أنه ظل على قيد الحياة إلى ما بعد عام 1897.²

اعتمد بن عودة المزاري في وصفه لقبائل بني عامر في العصر الوسيط على ما ذكره عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته، حيث وصفهم بالمخادعين فيقول: «تم قتل مغراوة بعض بني عبد الوادي غيلة فتوجه لهم أبو ثابت وهم بالجبل المطل على تنس وهجم عليهم ففرّ علي بن راشد لتنس واقتحمها عليه فذبح علي نفسه وبه انقرض ملك بني ثابت بن منديل واستولى أبو ثابت على بركش والمدينة ومليانة والجزائر ورجع لتلمسان وكتب له أبو عنان المريني على الإقلاع عليهم فأبي وسمع بموت علي بن راشد فأنف وتحرك لتلمسان ولقيه أبو سعد وأبو ثابت بجيش بلغ منه الإعجاب بأنقاد ونزلوا بسيلي فكان مصاف القتال بوادي الغضب ولما حمي الوطيس خدعت بنو عامر على عادتهم الذميمة وجرت الهزيمة على أبي سعد وكب به فرسه فأخذ وقتل يوم السبت حادي عشرين جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة»³. ورغم المكر والخديعة من طرف بني عامر إلا أنهم كانوا دائما سندا وعونا للدولة الزيانية مثل ما حدث بعد عودة وهران للدولة الخامسة الزيانية أين جاء رئيس بني عامر سفير بن عامر الهلالي من المغرب بقبيلته⁴، وأثناء غزو المرسى الكبير ووهران من طرف الإسبان كانوا يخرجون بني عامر لقبض الضريبة وبعد لمس الخديعة منهم طالبوا بطردهم خوفا أن يفعلوا بالنصارى ما فعلوه بإخوانهم المسلمين، وكان طاغية النصارى بوهران اسمه دك، ولما استقل قدمه بها صاريشن الغارات على المسلمين إلى أن دخل في طاعته كرشتل، وبنوزيان، والونازرة وقيزة وغمرة وحميان وشافع، وأولاد عبد الله، وأولاد علي، وغيرهم من بني عامر، وصار

¹ - بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ب.ت، ص 07.

² - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 568. للمزيد حول سيرة آغا المزاري مراجعة نفس المرجع، ص 569-570.

³ - بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 179.

⁴ - المصدر نفسه، ص 181-182.

الداخلون في طاعته شيعته الذين ينصرونه ويعتمد عليهم في جلب الأخبار والمسير بهم الطرق في الليل والنهار، واتخذ منهم الجواسيس الذين يقال لهم المغاطيس، فقويت شوكته واشتدت قوته وتعددت غزواته على الأقربين والأبعدين والأنزلين والأصغرين وخلا له الجو إلى أن صارت ملاتة وسيرات من جملة بلاده التي تحت يده وشدادته، يتردد بها في ليله ونهاره¹.

ويروي لنا صاحب "طلوع سعد السعود" معركة كدية الأخبار التي استشهد فيها الداوي شعبان الزناقي سنة 1696 حيث يقول: «ومن خبره أنه زحف لهم في نحو أربعة آلاف فيهم نحو الثلاثة آلاف فارس وزحف النصارى مع مرده العرب وشياطينهم من بني عامر وقيزة وغمرة وكريتشل وغريهم في أزيد من ثلاثة آلاف فيهم ألف خيل والباقي راجلة»². وخلال مرحلة موالاة بني عامر للأمير عبد القادر، لم يخلو وصف المزارى لهم بالدم والقدح لهم وللقبائل الأخرى الموالية للأمير، حيث أعطى وصفا لها استنادا إلى ما قالته العرب حسب قوله: "وقالت في بني عامر: بنو عامر هو بنو دامر، أهل الخديعة الكثيرة وفعل المناكر، وجرّ الهزيمة على الملك ولو كان هو الطائر، ربّلى النعرات بادئين العورات، هاتكين الحرمات³، داخلين الظلمات، لا يحصل منهم فرق بين ما فيه النفع وما فيه المضرات، ويفرحون بفعل ما فيه المعرات، أشجعهم الأعور، ومدبرهم الأجهر، وجوادهم الأكل الأقر، ألم تعلموا يا هؤلاء إن كل دولة سورها الحصين المخصوص هو المخزن لأنه بنيانها المرصوص، وأندم دائما شأنكم الخلاط، وحرفتكم الخديعة والعباط، وفي القتال من شدة الخوف يدبر فيكم الهروب والصراط فالمخزن هو المخزن، وبه تعز الدولة أو تهن و يقوى ساعدها أو يوهن، فتبسّم الأمير من قوله ضاحكا، وقبل

¹ - بن عودة المزارى، المصدر السابق، ص ص 211-212.

² - المصدر نفسه، ص 229.

³ - يوافق هذا الوصف الذي ذكره المزارى إلى حد كبير وصف المشرفي في كتابه "بهجة الناظر" حيث يقول أن بني عامر انتهكت حريم ولي الله سيدي أحمد الحلفاوي، حيث دعا عليهم وكان هذا سببا في ضعفهم.

- انظر: R.A. volume 65, 1924, pp 212- 213.

كلامه وصار لكلام غيره تاركا، وانفض المجلس في الساعة والحين، وصار الحشم وبنو عامر يدبرون الحيلة لإيقاع قدور بالصحراوي¹ وقدور بالمخفي في شبكة التخزين².

إن الأوصاف التي خص بها الآغا بن عودة المزابي قبيلة بني عامر في كتابه "طلوع سعد السعود"، تدفعنا إلى التمهيد في هذه الأوصاف ومدى الخلفيات التي انطلق منها المؤلف في وصفه هذا. فقد لاحظ المحقق أن مستوى التأليف أيضا ضعيف، فالمقاصد غير متوازنة في مادتها، بالإضافة إلى الحشو والاستطراد والأخطاء التاريخية في كتابه³، هناك أيضا الأخطاء اللغوية وضعف الأسلوب، أما مصادره فكثيرة، إذ بلغت حوالي الخمسين، ولكن الاعتماد عليها غير متوازن أيضا. والغريب أن البوعبدلي⁴ يذهب إلى أن المزابي يتميز بالموضوعية والنزاهة ومحاولة تبرير تصرفات عشيرته وموقفهم من الأمير وقبيلة بني عامر⁵.

وقد دون الرحالة والمؤرخون الأوروبيون من مدنيين وعسكريين في كتاباتهم كل الأخبار والحوادث المتعلقة بالمجتمع الجزائري، حيث درسوا عاداته وتقاليده وأعرافه ونظمه القبلية، إضافة إلى علاقته مع السلطة الحاكمة، إن هذه الدراسات كانت بهدف معرفة مواطن القوة والضعف لدى القبائل الجزائرية التي كانت تشكل التركيبة الأساسية للجزائريين، كما نجدهم يركزون على كل ما هو سلبي لإظهار القبائل على أنها بدائية ومتوحشة ولم ترق إلى مصاف الحضارة الأوروبية المزعومة حسبهم.

¹ - تقلد سي قدور ولد الحاج صحراوي من طرف الأمير الزعامة الدينية وسط قبيلة "لحرار" التي ناصرت، كما عينه قائدا على أولاد سيدي خالد، وينحدر من سلالة سي قدور "سي صحراوي بن قدور". انظر: إبراهيم مهديد، "الأرستقراطية التقليدية الوهرانية خلال القرن 19م والرأسمالية الاستعمارية: إشكالية الاندماج الاجتماعي"، إنسانيات، عدد 4، 1998، ص 13.

² - بن عودة المزابي، المصدر السابق، ج 2، ص 116.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 7، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1998، ص 385.

⁴ - رسالة من البوعبدلي إلى أبو القاسم سعد الله بتاريخ 10 أكتوبر 1979، هامش (1)، ص 385.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 385.

4- بنو عامر عند الرحالة الأوروبيين:

حاول بعض الفرنسيون¹ وصف الشعب الجزائري كشعب بلا ماضي وبلا تاريخ، ومع ذلك يظهر التاريخ أنّ الشعب الجزائري أظهر دائماً قوة وحيوية كبيرة².

لقد تنوعت أوصاف بني عامر لدى الأوروبيين بحسب طبيعتهم من مدنيين وعسكريين ورحالة، ويذكر "دومونت" أنه مهما كانت حالتهم وديانتهم فهم يمتلكون خيولاً قوية، وهم دائماً قلقون، يتمتعون بروح دينية أو وطنية أو حتى فوضوية، على استعداد دائم للتدمير وتصبح جاهزة لأي ثورة في أي وقت. وهناك شبه غريب بينهم وبين القراصنة المستقلين الذين استولوا على عرش الملك "تشارلز الأول" ملك إنجلترا³ بقيادة "كروميل"⁴، فهم موجودون منذ مدة طويلة في الجزائر، متشبعين بنفس المبادئ، وأطلقوا على أنفسهم المستقلين، فبالنسبة للدستور الأرستقراطي للعرب كانوا يرغبون في استبدال الديمقراطية في القبائل، حتى خلطوا العبادة بممارسات غريبة وسخيفة في مقاطعة وهران⁵. ويشير ليون باستيد إلى أن ما حدث لبني عامر من طرف الإدارة الاستعمارية هو نتيجة لسلوكهم السيئ وأن ما حدث لهم خاصة بعد 1845 هو أمر مستحق ويستوجب العقوبة من طرف فرنسا⁶.

وعلى الرغم من ذلك نجد مقارنة بين قبائل بني عامر واللفيف الأجنبي، فبنو عامر هم شباب مزينون بلباس البرابرة المتكبرين، وحتى أنهم متفوقون على اللفيف الأجنبي

¹ - Exposé de la Situation Générale de l'Algérie, présenté par G.G.A, Alger, année (1927).

² - AWO- l'Etoile Algérienne, N°09, 04 juillet 1948, BI21/2261.

³ - تشارلز الأول: ملك بريطانيا (1625-1649) كان حاكماً مستبدًا، حكم إنجلترا واسكتلندا وإيرلندا مجتمعين تحت اسم بريطانيا، نفذ فيه حكم الإعدام.

انظر: أحمد نزيه، تشارلز الأول... ملك بريطانيا الذي أسقطه خلفاء "ويليام والاس"، بوابة أخبار اليوم، 30 جانفي 2018.

⁴ - أوليفر كروميل: قائد عسكري جمهوري، ولد في عام 1599 في كامبريدج شاير، من عائلة نبيلة، قاد البرلمانين الجمهوريين في معارك الحرب الأهلية ضد تشارلز الأول.

- انظر: مي السيد، أوليفر كروميل... القائد العسكري الجمهوري الذي هزم الملكيين في إنجلترا، موقع: أراجيك 2015/06/10.

⁵ - M. DE MNOTROND, Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830 à 1847, tome 2, paris : Imprimerie de E. Marc-Avrel, 1847, p 348.

⁶ - L. Bastide, Bel-Abbés et son arrondissement, Oran, typographie et lithographie, AD. Perrier, 1880, p 213.

القادم من سويسرا وفرنسا والنرويج التي تحاول التوسع في مناطق هذه القبائل التي لم تكن خاضعة للرقابة، كونهم من البدو الرحل المتجولين، لباسهم من الخرق¹، أضعفتهم المنافسات مع القبائل الأخرى، حيث بقوا محصورين في شبه بدواة وبدون مجد، ولا يزالون يعيشون تحت الخيمة ولا يثقون في أحد².

يحكي "أرسين بيرتويل" الرئيس السابق للصيدلية في المستشفيات العسكرية للقوات المسلحة الإفريقية، أن قبائل بني عامر كانوا يملكون خيولا جامحة مقيدة و مفضلة تأكل من الحشائش المزروعة، يلبسون برانس صفراء وأحذية مزدوجة يحملها خاصة الأثرياء عند ركوب الأحصنة³، وخلال جولاته في ضواحي وهران لاحظ أنهم كانوا دائمي الحذر من الفرنسيين، كانوا نظيفي الثياب وأسلحتهم مرتبة، بعضهم يتقن اللغة الفرنسية⁴ مع احتفاظهم بوسائل التواصل باللغة العربية⁵، حياة الرحل جعلتهم يغيرون يغيرون معسكراتهم وتموقعهم وفقا للمواسم أو احتياجات قطعانهم⁶، ومن خلال خيولهم وطريقة حملهم لأسلحتهم كانت توحى دائما بأنهم على استعداد للهجوم في أي لحظة⁷، ومما يلفت الانتباه أن تعداد بني عامر ووقوفهم في وجه المستعمر الفرنسي ودعمهم للأمير جعلها محط أنظار الفرنسيين وأصبح لها شأن وهذا ما أرغم بيجو⁸ على القيام بتدابير خاصة بقبيلة بني عامر التي وصفها بالعظيمة⁹.

¹ -Jean Lorrain, Heures d'Afrique, paris : Eugène Fasquelle, éditeur, 1899, pp 47- 48.

² -George Reutt, La région agricole de Sidi-Bel-Abbès, direction des services agricoles du département d'Oran, p 34.

³ -Arsène Bertheuil, L'Algérie française, tome second, paris, Dentu librairie éditeur, 1856, p 314.

⁴ - إن إتيان بني عامر للإفريقية كان نتيجة احتكاكهم بالإسبان لمدة طويلة ومولاتهم لهم فتعلموا هذه اللهجة حتى يستطيعوا التواصل مع الإسبان، وقد كانت الإفريقية كانت مزيجا من الإسبانية والإيطالية والعربية.

⁵ -Arsène Bertheuil, op.cit., p 315.

⁶ - Oran et l'Algérie en 1887, Notice historique, scientifique et économiques, Oran, Paul Perrier, 1888, p 235.

⁷ -Arsène Bertheuil, op.cit., p 318.

⁸ - بيجو (1784- 1849): مارشال في الجيش الفرنسي جاء إلى الجزائر في 1836، عقد معاهدة خاصة مع الأمير عبد القادر في 1837، انتصر على الأمير في معركة إيسلي 1844، توفي في 1849 بمرض الكوليرا. انظر: بسام العسيلي، مشاهير قادة العالم (المارشال بيجو 1784- 1849)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ب.ت.، ص ص 11-12.

⁹ -Léon Roches, Trente deux ans à travers l'Islam (1832- 1864), tome premier, paris, imprimeurs de l'institut, 1884, p 435.

إن وجود بني عامر في هذه المناطق وسط مختلف القبائل جعلها تتميز بكونها أكثر عدوانية وتلعب دورا عسكريا مهما¹، وهو ما يتضح جليا عندما تم تعيين أحد القياد على قبيلة بني عامر وهو قايد علي² خلال عودته إلى وهران، حيث أعطاه لاموريسياري³ قيادة هذه القبيلة المولعة بالقتال⁴، حين استقبل عند وصوله من طرف شيوخ القبيلة، القبيلة، تم وضع خمسمائة أو ستمائة من الفرسان، من بينهم عشرون أو نحو ذلك على كل جانب من جانبي المدخل الرئيسي جميعهم كانوا يرتدون ملابسهم الاحتفالية وأغلفة النعل والفضة والسترات المطرزة بالذهب والأسلحة التي صنعت باللؤلؤ والعاج والذهب حيث كانت تشهد على ثروة هؤلاء الفرسان الفخوريين بأنفسهم، حيث أعطي أكبرهم سنا وذو لحية بيضاء طويلة مظهرها جديرا بالاحترام⁵.

كان الجنرال لاموريسياري يعرف عاداتهم وفهم أنه ستوجه لهم ضربة قوية إذا أخذ منهم المؤونة التي من شأنها تزويد حامياته لعدة أسابيع، لقد حاول بنو عامر أن يهاجموا من يتعرض لمخزونهم من القمح، حيث كانوا يرغبون في الأمن فقط والدفاع عن محاصيلهم⁶. ومن الأوصاف التي وصفت بها قبيلة بني عامر هي القبيلة المغربية القوية التي كانت تحت سلطة الأمير ورفضت كل من يستعدى على مؤونتها ومحاصيلها ولعل وصفها بالمغربية كون أن الفرنسيين كانوا يطلقون على القبائل المتاخمة للحدود بالمغربية⁷.

¹ -Pierre Boyer, « Historique des Beni Amer d'Oranie, des origines au senatus consulte », revue de l'Occident musulman et le méditerranée, n°24, p 45.

² - كان والد قايد علي قد علم بأن علي خوجة ومحمد بن قدور كانا من بين القبائل المتمردة من أولاد غرابية، فطلب من لاموريسياري أن يكون جزءا من الحملات حيث تميز بشجاعته ومواهبه كجندي ودبلوماسي في آن واحد.

A. Berthet, La femme du Kaid, Marc Barbou, 1890, p 116.

³ - لاموريسياري: ولد في 1806 لأسرة نبيلة، جاء إلى الجزائر في 1830 ككاتب في الحملة العسكرية، ثم ترقى في الرتب العسكرية مقابل خدمته فرنسا، وقع مع الأمير عبد القادر معاهدة لاموريسياري في 23 ديسمبر 1847، توفي في 11 سبتمبر 1865.

Sébastien Frey, Lamoricière (Christophe-Louis- Léon-Guchault de), Info Bretagne.com. للمزيد ينظر:

⁴ - A. Berthet, op.cit., p 116.

⁵ -Ibid., p 117.

⁶ -Les illustrations du XIX siècle, deuxième série, paris, librairie Bloud et Barral, p 45.

⁷ -Ibid., p 56.

والملاحظ أن الأهمية الكبيرة لقبيلة بني عامر جعلها محط أنظار الفرنسيين واهتماماتهم فتعدت وتنوعت أوصافهم لها مثلما سبق، فقد انهر الكتاب والرحالة والأدباء بنمط عيش هذه القبيلة وهو ما يتجلى في رواية "عذراء بني عامر" لـ"فانسان أويت"¹ ويصف لنا مؤلف الرواية حالة رجال بني عامر بعد استسلامهم مع الأمير وعودتهم من المغرب، حيث يقول بأن لهم لحى أكثر بياض تشبه إلى حد كبير لحية الصحابة، وقد ضحوا من أجل استقلال بلادهم، لكنهم فهموا أن القتال ضد فرنسا أصبح مستحيلا، حيث قلدوا قاداتهم ووضعوا أسلحتهم². لقد مرت 20 سنة منذ أن حدث كل هذا، لكن المحاربين القدامى كانوا على مضض تحت نيراننا ولم يوافقوا على خيانة يمين الولاء لقضيتنا بل كانوا جد طموحين من أجل نيل مناصب عليا على حد وصفه³.

أما "وريدة" عذراء بني عامر فوصفها بأنها كانت ترتدي ثوبا ملونا بالأحمر والأصفر، على خلفية برتقالية مشدودة على الخصر بحزام قرمزي علقت أطرافه بشكل غير مريح في الأمام، وعيونها مرسومة بالكحل⁴ وهو مظهر يظهر فتيات القبيلة وهن محتشمات.

وقد اهتم المقاتلون والفرسان بالبستهم وخاصة مظهرهم الأصيل، فهذا قدور كان صاحب بشرة شاحبة، عيونه حمراء كبيرة تحت الحاجبين وشفته حمراء، أما الجزء

¹ - جاءت هذه الرواية في 180 صفحة، تناولت تقريبا الجانب الاجتماعي لقبيلة بني عامر وتأثيره على البنية القبلية لبني عامر. تحدثت هذه الرواية عن قصة عذراء بني عامر، وهي الفتاة الجميلة والحيوية ابنة أحد شيوخ القبيلة، وتسمى هذه الفتاة "وريدة" و"قدور" الذي هو أحد أبناء القياد ويسمى "مصطفى"، حيث أحب هذا الشاب ابنة شيخ القبيلة وحاول الفوز بقلبيها دون الخروج على أطر وأعراف القبيلة، وتتخلل أحداث هذه الرواية وصفا دقيقا لعادات وتقاليده بني عامر مثل الزواج، وركوب الخيل، ومكانة المرأة، والسحر والشعوذة، والفروسية، إلى غير ذلك من تصوير للحياة اليومية.

² - Vincent Huet, Au pays arabe la virge des Beni-Amer, paris, A-L. Guyot, éditeur, p 10 gallica.bnf.fr.

³ - لم يذكر تاريخ محدد للأحداث التي جرت فيها هذه الرواية ومن خلال هذه الجملة "لقد مرت 20 سنة منذ أن حدث كل هذا" نعتقد بأنها كانت تقريبا في 1867 بعد هجرة بني عامر إلى المغرب وعودتهم.

- Vincent Huet, op.cit., p 10.

⁴ -Ibid., pp 16- 17.

العلوي فهو خافت بلون أسود، وقد ارتفع بشكل طبيعي، وكانت راياتهم لها صوف ناعم، وارتدى صدرية حمراء، وحزام قرمزي وسروال بني فضفاض¹. أما محمد فقد كان وجهه يوحى بذكائه وهو ممتلئ الجسم، كان لديه عيون جميلة ولحيته محلوقة بعناية وكان يجيد القراءة وقيل أن علمه ذهب².

¹ - Vincent Huet, op.cit., p 20.

² - يقونا هذا الوصف إلى القول بأن فرسان بني عامر قد اهتموا بشكل كبير بمظهرهم ولباسهم الخارجي، إضافة إلى ذلك كانوا يجيدون القراءة والكتابة، ولعل عبارة "وقيل أن علمه ذهب" دلالة على تأثير القبيلة بمآسي الهجرة والإبادة التي تعرضوا لها إضافة إلى عدم الاستقرار والترحال الدائم.

- Vincent Huet, op.cit., pp 23- 24.

ثانياً: المعارك ضد الإسبان ومع الأتراك.

بحكم استقرار قبائل بني عامر في الجزائر وتملكهم للأراضي حملوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن الجزائر ضد العدوان الخارجي الذي كان يتهدد الجزائر في كل مرة خاصة التحرشات الغربية التي كانت تحاول كل مرة احتلال الجزائر، ولم يكتفوا بصد العدوان الخارجي وإنما تعداه إلى دفع الخطر القادم من دول الجوار، وبالتالي كان حضور فرسان بني عامر قويا في أغلب هذه المعارك.

1- دور بني عامر في الدفاع عن الجزائر:

حظيت قبيلة بني عامر بمكانة مرموقة منذ صدر الإسلام، فقد وجّه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني عامر سرايا بقيادة كل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهذا ما يؤكد اهتمام الرسول بهذه القبيلة حيث كانت السرية في شهر شعبان السنة السابعة¹، وهو ما جعل بني عامر يشاركون في الفتوحات الإسلامية². وبعد إعلان يغمراسن بن زيان استقلاله عن الموحيدين نشبت بينه وبين قبيلة المعقل مشاحنة حيث سخر قبيلة بني عامر لدرأ خطرهما³ فقوي بهم جمعه وزادت قوته وبفضل هؤلاء أضعف يغمراسن المرينيين⁴. وخلال الفترة التي تلت عصر بن خلدون وحتى الاستيلاء التركي على المغرب الأوسط، استمر عرب بني عامر كحلفاء مخلصين لدولة بني عبد

¹ - عبد الرحمن خالدي، الوجود الهلالي السليبي في الجزائر، دار هومة، ب.ت، ص 34.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعث شجاع بن وهب في سرية إلى بني عامر من أربعة وعشرين رجلا، فكانوا يسرون ليلا ويكننون نهارا، فأغاروا عليهم وأصابوا نكبة كثيرة، وكان ذلك في شهر ربيع الأول، السنة الثامنة، المرجع نفسه، ص 35.

² - حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ج1، بيروت: العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط1، 1992، ص 81.

³ - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات الجزائر-المغرب الأقصى- موريتانيا- السودان، ج10، القاهرة: دار المعارف، ب.ت، ص 42.

⁴ - بن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان لابن الأحمر، تقديم وتحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، ط1، 2001، ص 24.

الواد، يساهمون بستة آلاف فارس على الأقل مجهزين بخيولهم وآلاتهم) في جيش سلطان تلمسان¹.

وقد عمل بنو عبد الواد على التحالف مع القبائل العربية التي استقرت بالمغرب الأوسط مثل عرب زغبة من يزيد وحصين ومالك وعامر، وكذلك أبناء عبيد الله من عرب المعقل المجاورين لبني عامر، حيث كان لهم دور ايجابي في مقاومة الغزو المريني للمغرب الأوسط واسترداد أملاك بني عبد الواد وإعادة دولتهم².

ومنذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، خصوصا خلال فترة حكم السلطان أبي حمو، ازدادت قوة عرب بني عامر بالمغرب الأوسط³، حيث لعبوا دورا عسكريا بارزا في عهد هذا السلطان من أجل إعادة بناء الدولة الزيانية إذ كان لهم أقوى يد في نجاح دولته⁴.

وبعد انتصاره على أعدائه تفضل بمساعدة قبائل بني عامر، كافأهم لموقفهم المساند بأن نقلهم وأنزلهم منطقة أخرى جنوب وهران وملاتة إلى عين تموشنت، وبعد أن نزلت القوات الأجنبية بالسواحل الجزائرية في إطار التسابق الاستعماري على القارة الإفريقية كالأسبان خلال القرن السادس عشر، قاوم الجزائريون هذا الاحتلال بكل ما أوتوا من قوة وشجاعة كبيرة، وهم الذين أفضلوا معظم الغارات على السواحل منذ بدء هذه الحملات. وعندما احتلت إسبانيا السواحل الغربية للجزائر تصدت لها قبائل بني عامر

¹ - مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 162.

² - "استنجد يغمراسن بقبيلة بني عامر لحماية دولته"، مجلة أضواء تاريخية، العدد 01، المرجع السابق، ص 5.

³ - عبد الحميد خالدي، الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، المرجع السابق، ص 180.

نوه الشعراء بدور بني عامر في إعادة الدولة اليغمراسية، وكافأ أبو حمو أنصاره ومحالفيه من العرب العامرية والمعلقية حينما وفدوا لتهنئته فكساهم جميعا رغم كثرة عددهم البالغ نحو ثمانية آلاف ووهب رؤساءهم الخيل الأصيلة وسروجها المرفهة والأسلحة المحلاة بالجواهر بجانب ما منحهم من مال. انظر: مصطفى أبو ظريف عمر، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، المرجع السابق، ص 158.

⁴ - عبد الحميد خالدي، المرجع السابق، ص 186.

بكل حزم وشاركت في المقاومة الوطنية لإفشال خططها ومنعها من التوغل في الداخل، وإجبارهم على الاكتفاء ببعض المناطق الساحلية¹. وظلت قبائل بني عامر تتأرجح بين الاستقلالية والانضمام إلى الأتراك أو دولة بني زيان حسب الظروف والملابسات. ومن هنا كان وضعها صعبا للغاية، فمن جهة هناك الإسبان في وهران والدولة الزيانية في تلمسان، وهناك التوسع التركي نحو الغرب. وعندما دخلت الجزائر تحت نفوذ الأتراك العثمانيين شاركت قبائل بني عامر إلى جانب السلطة الرسمية آنذاك في محاربة الأعداء²، ففي سنة 1707 رابط الباي بوشلاغم قرب وهران التي كانت تحت السيطرة الإسبانية، وكانت قبائل بني عامر المتمركزة حول وهران حليفة الإسبان، لكن أمام قوات الباي عرفت تقهقرا وتقربت منه وطلبت منه الأمان³.

واستمرت هذه القبائل في دفاعها عن الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي وكان ذلك تحت ولاية الأمير عبد القادر في أفريل 1832⁴. وبالرغم من إخلاصها ودفاعها عن الجزائر تلقت الكثير من النقد والتهجم عليها، ففي ترجمة لرحلة "مورنيس فاغنر"⁵ وهو رحالة ألماني زار مقاطعة وهران في مارس 1838 اتهم بني عامر بتخليهم عن الأمير عبد القادر، بالرغم من حماسها وشجاعتها في المقاومة وحققها على الفرنسيين⁶.

¹ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1945، جامعة الجيلالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ص 51.

² - المرجع نفسه، ص 52.

³ - بومدين دباب، بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18- دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية، دكتوراه غير منشورة، إشراف: محمد مجاود، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي ليايس، سيدي بلعباس 2016-2017، ص 50.

⁴ - انظر حول مقاومة قبائل بني عامر ودورها في الدفاع عن الجزائر من خلال الفصل الثاني المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر 1832-1847.

⁵ - هذه الرحلة تطلعنا ولا شك على نوع من التفكير كان سائدا في القرن الماضي عند الكثير من المستعمرين، ذلك أن "فاغنر" يتحدث فيها بمنطق عصره حيث يصف من التقى بهم أو رآهم أو سمع بهم بالهمجية لمجرد رفضهم الغرب الدخيل، ولمجرد أنهم يدافعون عن سيادة وطنهم، كما أنه يكشف أسرار عصره عندما يتحدث عن المؤامرات التي تحاك وراء الستار. انظر: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، المؤسسة الوطنية للكتاب، ب.ت، ص 125.

⁶ - أبو العيد دودو، المرجع نفسه، ص 153.

لقد تعرضت الجزائر منذ القرن السادس عشر إلى التحرشات الاسبانية التي حاولت احتلال سواحل الجزائر، لكنها اصطدمت بالتواجد العثماني في الجزائر الذي عمل على دحر الاسبان وطردهم من السواحل، وقد انضمت القبائل الجزائرية إلى المقاومة مع العثمانيين حيث سخرت فرسانها للدفاع عن الجزائر ضد الخطر الاسباني الذي أصبح يهدد أراضي وممتلكات الجزائريين، وقد لعبت بنو عامر دورا بارزا في هذه المقاومة واستطاعت في الكثير من الأحيان ترجيح كفة المعارك لصالح العثمانيين.

2- المقاومة مع الأتراك العثمانيين:

يذكر "بيار بوير" أنه بحلول القرن السادس عشر ميلادي لم يعد بنو عامر يمثلون قوة قبلية كما في القرن السابق، حيث تراجعت مكانتهم وفقدوا امتيازاتهم وانحطت وضعيتهم، وكل ذلك منعهم من التطور نظرا لأن عقيدتهم المرباطية تمنعهم من التحالف مع الكافر، وهنا ظهر منافس جديد ممثل في بني راشد، هذه القبيلة المهمة التي سكنت جبال بني عمور لمدة طويلة وذهبوا إلى غاية تسالة وجبال بني شقران المحاذية لمعسكر. وخلال هذا القرن حدث تنافس بين بني عامر وبني راشد الذين دخلوا ضمن اهتمامات الأتراك والإسبان وملوك تلمسان¹. لقد خدم بنو عامر الأتراك وأصبحوا من القبائل المخزنية، ومن خلال خدمتهم لهم كان بإمكانهم الحفاظ على دورهم في المخزن بسهولة أكثر من الإسبان ومرد ذلك يعود إلى كون أن الأتراك لا يثقون في هذه القبائل إضافة إلى طبيعتها المتقلبة بين الإسبان والأتراك². ويقدم لنا "فالسون استبارازي" بعض القبائل التي كانت خاضعة للسلطة العثمانية وتحت تصرفها، حيث كانت تدفع الضرائب لها فيقول في ذلك: «قرر الباي استخدام سلطة بني عامر ومجاهر ونجوح الذين يشكلون قبيلة بني عامر وهم كالتالي:

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 49.

² -Ibid., p 51.

أولاد خليفة، أولاد الميمون، أولاد عبد الله، أولاد سليمان، أولاد علي، أولاد زاير، أولاد زج، وفي حالة غياب الباي كان يحل محله خليفة الكرسي الذي كان مسؤولا بشكل عام عن جمع الضرائب في هذه القبائل»¹.

لقد عانت قبائل الرعية جراء خضوعها للسلطة العثمانية حيث كثيرا ما نجدها ذهبت ضحية حسابات سياسية ضيقة، حيث تزوج الباي بوشلاغم امرأة من أولاد زاير من بني عامر ولدت له صبيا سماه يوسف، فلما كبر خلف والده على رأس البايك فقرب أخواله على أولاد علي كونهم أيضا من قبيلة بني عامر، وبذلك اضطروا إلى التخلي عن أراضيهم شمال تسالة حيث سيطر عليها أولاد الزاير، الحجز، أولاد عبد الله، وحتى يستعيد أولاد علي أراضيهم لجئوا إلى التقرب من البايك حتى صفح عنهم الباي عثمان، في حين تقرب أولاد عبد الله من الإسبان في وهران².

ويصور لنا الآغا بن عودة المزاري في كتابه "طلوع سعد السعود" كيف تلقى الإسبان هزيمة بسبب أولاد علي: «وحصلت الهزيمة في الإسبانيين بسبب أولاد علي بعدما مات من الإسبانيين عدد كثير ومن أولاد علي ما يزيد على الخمسين. لقد كان لبايات وهران التصرف المطلق في الرعية العربية بكل وجه من القتل والقطع والضرب والسجن والعقوبة بالمال»³. ومع ذلك فقد حافظت هذه القبائل وزعمائها على ولائهم للمخزن حيث كانوا عمالا عندها ومؤيدين لها، كانت هذه القبائل من حيث المبدأ خاضعة للإدارة المباشرة للسلطة العثمانية حيث أطلق عليهم المحاربون، فمنذ الأيام الأولى لاحتلال

¹ -Wolsin Esterhuzy, De la domination turque dans l'ancienne régence d'Algérie, librairie Charles Gosselin, paris, 1840, p277.

تألفت هذه الضرائب عن كل قبيلة: للزمة نقدا، 800 ريال، الخيول والشعير، إضافة إلى الزكاة والعشور، الزيدة المملحة، حيث كان الباي يجني أرباحا كبيرة منها. انظر: المرجع السابق، ص 277.

² - Pierre Boyer, op.cit., p 55.

³ - بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص ص 213-271.

ضواحي وهران كان يستخدم مصطلح زمالة من أجل تسهيل مهمة مراقبة هذه القبائل¹. وقد نقل أمير صنجق الغرب مصطفى بوشلاغم² مركز صنجق من مازونة إلى معسكر وبذلك أصبح قريبا من وهران، ووضع المناطق الجنوبية تحت مراقبته، كما أنه اتخذ موقعا يساعده على شن العمليات الحربية في كافة الأطراف، فلجأ أول الأمر إلى إخضاع قبيلة بني عامر والقبائل المجاورة لحكمه³، وقد فعل الباي ذلك لمواجهة الإسبان وهو ما سيدعم مركز الأتراك، حيث عينوا قادة نبلاء وتركوا للقبائل أراضيها، ففي عام 1727 كان بنو عامر لا يزالون يتواجدون في القطاع الوهراني في سهل ملاتة حيث عادوا إلى الجنوب⁴.

وخلال ثلاثة قرون لاحتلال وهران تحدث المؤرخون الإسبان والفرنسيون عن الدور الذي لعبته بعض قبائل العرب الذين أصبحوا أداة في يد الإسبان وعمالا لهم فقد كانت هذه القبائل محاربة مع الإسبان تارة⁵، وتارة أخرى ضدهم، وهو ما يدفعنا للتساؤل عن موالة بني عامر للإسبان بعد الدور الذي قامت به في الدفاع عن الإيالة مع الأتراك العثمانيين⁶.

وجدت بنو عامر نفسها بين الاحتلال الإسباني والتواجد العثماني في الجزائر، وبحكم توزيعها في بايلك الغرب الجزائري الذي يعتبر منطقة إستراتيجية بما يمتلكه من مؤهلات اقتصادية وطبيعية وجغرافية، فالتواجد الإسباني في وهران لمدة طويلة

¹ -Louis Rinn, Le royaume d'Algérie sous le dernier dey, typographie Gourdan, Alger, 1900, pp 18- 19.

² - اعتبر الباي بوشلاغم خصما عنيدا للأتراك فقد تولى الحكم في عهد محمد بكداش سنة 1686 وحرر وهران في 1708، وبعد الاستيلاء عليها من طرف الإسبان في 1732 عاد إلى مستغانم حيث مات هناك في 1735.

³ - عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالي، ترجمة: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية، ط1، 1989، ص458.

⁴ -Pierre Boyer, op.cit., p 53.

⁵ - موالة بني عامر للإسبان أو الأتراك على حد سواء كانت تتحكم فيه العوامل والظروف المحيطة. للمزيد انظر العنصر الموالي (السيطرة الإسبانية على بني عامر) ص90

⁶ -Société géographie et archéologie, la province d'Oran, Tome XLIV, 1924, Oran, p 309.

ومجاورة القبائل العامرية لها جعلها تدخل في علاقات تجارية وتحالفات سياسية معها قصد الحفاظ على تواجدتها ومكانتها في المنطقة .

3- سبب موالة الإسبان في وهران:

صنف الإسبان القبائل العربية التي تسكن في مناطق نفوذها بالطيب والخبث، فالطيب بالنسبة لإسبانيا مثلاً أولاد عبد الله أما الخبيث مثلاً حميان¹.

كانت المناطق التي تواجدت بها القبائل المتحالفة مع الإسبان أغلبها أراضي منبسطة لم تسمح لهم بالدفاع عنها لعدم وجود الحصانة الطبيعية، مما جعلها معرضة لهجمات الجنود الإسبان، ولم يكن الأمر مقتصرًا على القبائل المجاورة لوهران، بل امتد إلى جوار مدينة تلمسان، حيث بث الرعب بين صفوف القبائل خوفاً من النصارى، وهذا عكس ما حدث في بجاية حيث لم يتمكن هؤلاء الجنود من الخروج من المدينة لطبيعة الأراضي المجاور لها، لأن أغلبها مناطق جبلية يصعب التوغل داخلها فيها، إضافة إلى قلة معرفتهم بتضاريسها، ولهذا كانت قرى هذه المدينة تتميز بشدة تحصينها مما صعب على الإسبان الوصول إليها². وذكر "مونتانوس" في "المجلة الإفريقية" أنه بعد احتلال المرسى الكبير، رأى العرب الذين يسكنون في ضواحي مدينة وهران بأن أوضاعهم قد أصبحت سيئة خصوصاً وأن الإسبان قد وصلوا إلى ديارهم، وأصبحوا يقتلون ويستعبدون الناس، إضافة إلى أنهم هدموا كل شيء استطاعوا الوصول إليه وكان هذا سبباً في طلب هذه القبائل الأمان وإعلان الولاء³.

وهناك شيء آخر ساهم إلى حد كبير في موالة بني عامر للإسبان وهو أنهم فقدوا مكانتهم عند العثمانيين الذين مع حلول 1531 أصبحوا يميلون إلى بني راشد الذين ساعدوهم في مواجهة الإسبان، وبالتالي تعرض بنو عامر إلى هزائم سياسية مضافة إلى

¹ - عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، دار الأمانة، ب.ت، ص 219.

² - عبد القادر فكايير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/1505-1792م، الجزائر: دار هومة، 2012، ص 352.

³ - Montanos, Mers El-Kebir, Revue Africaine, volume 09, 1865, p 351.

الهزائم العسكرية التي تلقوها¹. ولعل مساعدة بني عامر للإسبان كانت طمعا في صلاحيات وامتيازات مقابل تقديم خدمة لهم مثلما حدث أثناء الصراع الميرني الزباني ودعم بني عامر لهذا الأخير الذي ومباشرة بعد انتصار الدولة الزيانية أقطعتهم أراضي في تسالة وعين تموشنت². إن معاداة العثمانيين من طرف بني عامر واضحة وتجلت ذلك عند محاولة الباي شعبان الزناقي³ سنة 1686 تحرير وهران حيث أن حملته باءت بالفشل وتم صدها من طرف الإسبان مستعنيين في ذلك بهذه القبائل، حيث أن شخصا من هذه القبائل أصابه بسهم وأرداه قتيلا، حيث علق بنو عامر والإسبان رأسه على أبواب المدينة بينما تم بعد ذلك استعادة جثته ودفنها⁴. ويرجع المشرفي صاحب "بهجة الناظر" سبب موالاة بني عامر للإسبان بأنه نتيجة تسلطهم على أولياء الله حيث يقول في ذلك: «فكان منهم المخدشون والمغطسون والرفافضة والجند وسائر ما فيه الضرر للمسلمين والنفع للإسبانيين وسبب ضعفهم تسلطهم على ولي الله سيد أحمد الحلفاوي فدعا عليهم بالشرف فتقبل الله دعاءه، كما دعا على إخوتهم الونازرة حيث انتهكوا حريمه فدعا عليهم بما حصل به النقص والضرر بهم، أما أولاد عبد الله فقد كانوا ذو بطش شديد ومكر وبالتالي وقعوا تحت سلطة اليهود حتى أنهم كانوا إذا رأوا اليهودي يقبلون يديه»⁵.

لقد ظلت بنو عامر تتأرجح بين الاستقلالية والانضمام إلى الأتراك حسب الظروف والمناسبات، ومن هنا كان وضعها صعبا للغاية⁶، كما أن الحاجة إلى المؤونة زادت من موالاتهم للإسبان. ويضيف المشرفي: «ولما استقر قدم الإسبانيين بوهران انحاز إليهم طوائف من الأعراب الذين ضعف إيمانهم والعياذ بالله من ذلك فصاروا خدمة

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 50.

² -Léon Basti, Bel-Abbés et son arrondissement, op.cit., p 310.

³ - الباي شعبان الزناقي، تولى بايلك الغرب عام 1679 وبقي على رأسه ثماني سنوات حتى استشهد وقد حاول تحرير وهران.

⁴ - يحي بوعزيز، مدينة وهران عبر التاريخ، دار البصائر، الجزائر: 2009، ص 53.

⁵ -R.A. n°65, 1924, op.cit., pp 212- 213.

⁶ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 52.

لهم، ومن جملة جيشهم وكثرهم السواد على المسلمين، فكانوا لهم عليهم أعوانا، وفي الدين الفاسد لهم إخوانا، فشنوا بهم الغارات، وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات، وسبب ذلك الطمع في غرضهم الفاني، الذي صيّر المسلم مجرما¹. ويدعم هذا القول صاحب "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" أحمد سحنون الراشدي الذي أجمع أن القبائل الداخلة تحت راية الإسبان طوعا أو كرها إنما في طلب لعرض الحياة الدنيا².

ويفرد أبوراس الناصر بحثا مطولا عن الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير مطلع القرن السادس عشر، أسفر هذا الاحتلال الذي دام قرنين ونصف عن نتائج وخيمة على ساكنة الناحية الغربية من الجزائر، إذ لم تتوقف الغارات الإسبانية على الأهالي والقبائل فكان الجيش الإسباني خلالها يهيب ويسلب ويقتل إلى درجة إبادة قبائل كاملة، وتراجعت الحياة الاقتصادية، إذ تحولت أراضي شاسعة من الفلاحة إلى تربية المواشي وانتقل الناس من سكن القرى إلى اللجوء إلى الخيم والاستقرار بالجبال خوفا من غدر الفرق العسكرية الإسبانية، إنه زمن الرعب والخوف كما يشير أبوراس في قوله: «وكان طاغية النصارى يشن الغارات على المسلمين إلى أن دخل في طاعته الونازرة وقيزة وشافع الذين ينصرونه ويعتمد عليهم في جلب الأخبار والمسير في الطرق، واتخذ منهم جواسيس يقال لهم المغاطيس وقويت شوكتهم بهم وتعددت غزاته على الأقربين والأبعدين ... فصارت سيرات وملاتة من جملة بلاده التي تحت يده يتردد بها في ليله ونهاره»³. ولم يعد لدى بني عامر أي حل آخر سوى الإذعان للإسبان وتجلى ذلك خلال هجوم الإسبان على وهران في 1732 أين استسلموا تحت ضربات العدو وانضموا إليهم⁴، وبذلك فقدت بنو عامر تماسكها. وفي 1734 عسكر كل من أولاد علي وأولاد زاير عند

¹ - عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر، المرجع السابق، ص 12.

² - أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق: الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر، 2015، ص 456.

³ - أبي راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تقديم وتحقيق: محمد غالم، وهران: منشورات CRASC، 2005، ص 43-44.

⁴ - De Gramen (H.D), Histoire d'Algérie sous la domination turque (1515- 1830), paris, Emest Leroux, p 289.

أطراف وهران محاولين جذب انتباه الإسبان وذلك في انتفاضة ضخمة ضد الأتراك العثمانيين¹.

وبعد دخول بعض الفصائل من قبيلة بني عامر تحت سلطة الاسبان تعرضوا إلى أشد أنواع الذم والقدح من طرف الجزائريين بسبب مهادنتهم للكفار، حيث تم اتخاذ موقف شرعي منهم متمثل في تكفيرهم وتخوينهم ومعاداتهم، لكن ذلك لم يمنع من ترك المجال مفتوحاً لمن تاب منهم ورجع عن التعامل مع الاسبان.

4- الموقف من موالة الإسبان:

لقد أجمع المؤرخون على أن موالة بني عامر للإسبان كانت خيانة للعقيدة ودخولا تحت طاعة الكافر ولوائه، وقاموا بوصفهم بأقبح الأوصاف وأبشعها. فهذا أبو راس الناصري في حديثه عن الباي مصطفى بن يوسف أثناء حملته على وهران يصف كيف ساعد بنو عامر الإسبان فيقول في ذلك: «وأن الباي مصطفى سقط ذلك اليوم عن فرسه لشدة تحريضه على الجهاد وكثرة عدوه، وكتائب بني عامر واقفون وللمسلمين خاذلون»، كذلك نجده يصفهم بجفاة الأعراب والكفرة ومردة العرب².

أما محمد بن سليمان فقد حذر عربان وهران من التعامل مع الكفار هناك سواء كانوا من الإسبان أو اليهود وإنذارهم بأنهم إن فعلوا ذلك سيصبحون رعية لهم ودعاهم لليقظة ومخافة الله في ذلك³.

ولعل موقف عبد القادر المشرفي هو الأقسى على قبائل بني عامر في كتابه "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر"، إذ نجده يخرجهم من الملة الإسلامية فيقول عنهم: «ولما استقر قدم الإشبانيين بوهران انحاز

¹ - Pierre Boyer, op.cit., p 54.

² - أبو راس الناصري، عجائب الأسفار، المرجع السابق، ص ص 125-146.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، (1500-1830)، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 263.

إلهم طوائف من الأعراب الذين ضعف إيمانهم - والعياذ بالله من ذلك-»، ويلصق بهم المشرفي الخديعة والمكر والغدر «وتلك عادة بني عامر في الغدر والخديعة».

ولا يخفي المشرفي فضل بني عامر في العدة والعدد والشدة والنجدة والفصاحة في اللسان، إلا أن دخولهم تحت طاعة الكافر جرّدهم من هذه الألقاب وأكسبهم حسبه الذل والإهانة والصغار والاستكانة وعدم مراعاة الحرمة ناهيك عن النفاق والكفر الصريح، وهو ما دفع بالعلامة أبي العباس سيدي أحمد بن القاضي¹ إلى معاتبتهم وإغرائهم في نفس الوقت في قصيدته الرائية، فقال في مطلعها:

فمن مبلغ عني قبائل بني عامر ولا سيما من قد ثوى تحت كافر²

وبالرغم من كل ما قدمه بنو عامر للإسبان من خدمة وولاء وإذعان للطاعة إلا أن هؤلاء كانوا حذرين منهم دائماً، ويصور لنا المزارى ذلك: «ولما مكنوهم من المدينة شرطوا عليهم برج المرسى فأنزلوهم بهم وفاء بالعهد وإلهم ينسب برج اليهودي الذي بهيدور، وجعلوا لهم الصولة العظيمة التي لا توصف على المسلمين، فكانوا يخرجون لبني عامر لقبض الضريبة كالمملوك، ثم تخيل منهم النصارى بعد ثمانين سنة ما يكرهونه فأخبروا سلطانهم بذلك فأمر بطردهم مخافة أن يفعلوا بهم ما فعلوا بالمسلمين من الخديعة»³.

لقد وجدت بنو عامر نفسها بعد فتح وهران مشتتة حسب شدة ولائها للإسبان ومدى توبة بعضها ورجوعه إلى صفوف المسلمين، وقد ذهب الونازرة مع الإسبان بعد

¹ - أبو العباس سيدي أحمد بن القاضي بن سيدي عبد الله بن أبي محلي السجلماسي المساوري، وهو شيخ العلامة أبي عثمان سيدي سعيد قدورة الجزائري، ثار على زيدان السعدي والتحق به شيخه سعيد قدورة على رأس وفد من تلمسان وبني راشد وأعان علماء الجزائر في الدعوة إلى الجهاد ومقاومة الإسبان، مات قتيلاً في معركة سنة 1021 هـ انظر: المهدي البوعبدلي، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تأليف: محمد بن يوسف الزباني، تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ب.ت، هامش (1)، ص 205.

² - عبد القادر المشرفي، المرجع السابق، ص ص 12-22-32.

³ - بن عودة المزارى، المصدر السابق، ص 211.

الفتح واستقروا بسببته، وفرقة منهم لجأت للمسلمين وصارت تقاتل معهم العدو، غير أنها في الحقيقة تعلم العدو بأحوال المسلمين وبأمره وبالثبات وتواعده بالرجوع عنده إذا وجدت السبيل، والحكم فيها أنها فرقة الزنادقة يقتل كل من اطلع عليه منها.

وفرقة منهم تابت لله تعالى وأنابت من موالة العدو ومواصلاته وتركت الإعانة له ظاهرا وباطنا وندمت على ما صدر منها سابقا، والحكم فيها أنها واحدة من جماعة المسلمين، إن لم يتقدم منها ما يبيح الدم وهذا التفصيل هو المعول عليه في الشرع لأنه عين النازلة، وهذه الفتوى والحكم هي عكس فتوى الفقيه أبو العباس سيدي أحمد الفيلاي التلمساني الذي أباح مالهم ودمهم¹.

¹ -R.A., op.cit., p 220.

ثالثا: مظاهر انهيار وتفكك بني عامر.

إن التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي ضربت منطقة بايلك الغرب الجزائري وكانت مسرحا لأغلب المعارك بين الأسبان والأتراك جعلت بني عامر يدخلون مرحلة التفكك والانهيار، فقد قامت السلطة العثمانية بفرض ضرائب باهضة عليهم، ومحاولة إخضاعهم بالقوة في كل مرة فطبقت سياسة القمع عليهم خاصة على الفصائل التي كانت مهادنة للأسبانيين.

1- قمع السلطة العثمانية (بايلك الغرب).

جاء في كتاب "إفريقيا" لمارمول كربخال أن قبائل بني عامر كانوا أثرياء مسيطرين على القبائل البربرية، وإذا ما أغضبهم الأتراك لم يترددوا في الدفاع عن أنفسهم، وإن لم يقدروا على ذلك خوفا من أسلحتهم النارية ونبالهم انسحبوا إلى الصحاري¹. وهو ما يدفعنا إلى معرفة طبيعة العلاقة بين السلطة وهذه القبائل، حيث كان للبايات التصرف المطلق في الرعية بكل من القتل والقطع والضرب والسجن والعقوبة بالمال حسب الآغا بن عودة المازاري² الذي يقدم لنا صورة عن قمع العثمانيين لبني عامر في عهد الباي محمد بن عثمان المقلش: «وأجلا عنها أهلها بني عامر فإنهم ذهبوا وتركوا بلادهم خاوية قفرا، وزهرهم غبرا، وللطيور وكرا، لا يلقي فيها سالكها أنسا ولا أنيسا ولا يجد بها حسا ولا حسيسا إلاّ البوم والذئب، تعوي فيها ليلا ونهارا، وهي خراب، وافترقوا على أماكن المغرب»³. وبسبب تمركز بني عامر حول وهران، دمرت أراضيهم من طرف جيش الباي، وقد مارسوا التجارة في هذه المناطق حيث لقبوا أحيانا "بني دامر" (دمّر الله عليهم)⁴. وقد

¹ - مارمول كربخال، إفريقيا، ج1، ترجمة: محمد حجي وآخرون، المغرب: مكتبة المعارف، 1984، ص 103.

² - بن عودة المازاري، طلع سعد السعود، ج1، المصدر السابق، ص 271.

³ - المرجع نفسه، ص 321.

⁴ - M. Walsin Esterhazy, De la domination turque, op.cit., pp 169- 172.

كانت قبيلة بنو عامر مستعدة دائما للثورة ضد السلطة التركية كونها أصبحت مرابطة¹.

لقد رأى بنو عامر أن أراضيهم مهددة من قبل الباي حيث عجز الإسبان حلفائهم عن توفير الحماية لهم ولذلك طلبوا الأمان منه وبعد نجاحه في إخراج النصاري من وهران في 1708، أمر بإبعادهم إلى تسالة عقابا لهم². ويذكر "بوير" "Boyer" أن البايلك ومنذ منتصف القرن 18م، لم يجد أي صعوبة في القضاء على أي محاولة لإعادة تشكيل قبيلة بني عامر، بعدما حدث لها سابقا، واستغل الفوضى التي عاشتها وأنهى كل تحالف بينها وبين الإسبان، وعندما طردها في 1750 جعل محلها قبيلتين "مصطنعتين" تكونت من خيام جاء أصحابها من عدة مناطق مختلفة، خاصة من الزمالة والدواير³.

ونتيجة للتطور الحاصل صار لزاما على بني عامر الاختيار بين الاندماج في البنية الجديدة أو النزوح إلى مكان آخر، وبهذا اختارت شافع وقيزة وأولاد عبد الله الدخول ضمن الدواير، في حين ترك بنو عامر الموجودين في ملاتة أراضيهم بعدما استقروا بها عدة قرون، وبذلك انتهت حالة الاستقرار الفوضوي الذي عاشوه وأصبح البايلك يعاملهم معاملة الرعية، وقد ألحقهم بسلطة الباي وليس بسلطة آغا الدواير، وهذا ليس اعتبارا لماضيهم بقدر ما فيه حذر من مواقفهم المتقلبة⁴، فبنو عامر من جانهم وبفضل تواصلهم في الماضي مع الإسبان كانوا محل ارتياب من طرف البايلك، كما سبق لهم أن شاركوا إلى جانب التيجانيين في مواجهتهم للبايلك، فقد قام محمد مكلش أخ الباي عثمان، الذي كان مكلفا بإعادة النظام في الإقليم المنتفض بمباغثة أراضيهم⁵. ومن أوجه السيطرة على هذه القبائل ما قام به الباي بوكابوس الذي عمل على استغلال

¹ - Walsin Esterhazy, De la domination turque, op.cit., p 207.

² -Ibid., p 172.

³ -Pierre Boyer, op.cit., p 55.

⁴ -Ibid., p 55.

⁵ - الطيب شنتوف، الجزائر السياسية 1830-1954، ترجمة: خليل أوزاينية، ديوان المطبوعات الجامعية، 2017، ص 11.

الرعية، حيث سمح لبني عامر بالرجوع إلى ضواحي وهران من أجل استخدامها ضمن المخزن الداعم له، غير أن ذلك لم يفد هذه القبائل التي بقيت مجرد رعية محطمة تمتلك بعض الأراضي، مع وجود استثناء يتعلق بأولاد إبراهيم الذين عوقبوا بشكل كبير حيث اعتبرت أراضيهم ملكا للبايلك وفرضت عليهم رسوم 2 ريال بوجو لكل زوجة محروقة¹.

وفي زمن محمد المقلش حدثت مجاعة أثرت على أهالي تلمسان وصلت إلى اندلاع حرب بين الكراغلة والحضر، فتدخل الباي وأحضر 900 جمل حمل فيها القمح الذي صودر من مطامير بني عامر عقابا لهم على مشاركتهم في ثورة الشريف الدرقاوي ضد البايلك².

إنّ التحالف الذي تمّ بين الإسبان في وهران وبعض القبائل القريبة منها أمّد في عمر الاحتلال حيث مثل بنو عامر وقيزة وكرشليل وأولاد علي وغيرهم قاعدة خلفية زودت الحاميات الإسبانية بما احتاجت إليه على مدى أكثر من قرنين ونصف القرن، ولذلك كان موقف السلطة والمجتمع على حد سواء منها موقف متصلبا، حيث لم يتوان البايلك في قمعها كلما كانت الفرصة سانحة، ولم يتأخر العلماء في فضح أفعالها والتشنيع بها وبيان موقف الشرع منها³. ومنها كانت الضرورة ملحة للوقوف دائما في استعداد للحرب بالنسبة لبايلك الغرب وعلى استعداد دائم لصدد الاعتداءات، علاوة على ذلك فإن هذه الضرورة كانت موجودة بالنسبة للأتراك لأكثر من قرنين من الزمن بسبب احتلال وهران من قبل الإسبان والمساعدة التي قوبلت في بعض الأحيان ضد بايلك مازونة ومعسكر، فالقبائل غير راضين عن الترك وعن المسيحيين المتحالفين معهم، ونتيجة لذلك كان خضوع القبائل في بايلك وهران كل حسب مصلحته⁴، فبنو عامر بدأ تفككهم من خلال

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 57.

² - Esterhozy, op.cit., p 196.

³ - كمال بن صحراوي، أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري في أواخر العهد العثماني، المرجع السابق، ص 341.

⁴ -Louis Rinn, Le royaume d'Alger sous le dernier Dey, op.cit., p 17.

سياسة الأتراك العثمانيين التي أغرقتهم بالضرائب وقامت في نفس الوقت باستخدام مختلف الطرق والأساليب لجعلهم خاضعين لها وتحت تصرفها، لكن كان ذلك على حساب تفككها وضياع أمجادها القبلية السابقة.

رأى الأسبان في قبيلة بني عامر حليفا لها لما تتمتع به هذه الأخيرة من قوة وبطش في الحروب، وبالتالي بسطت سيطرتها عليها عن طريق إغرائها بالامتيازات والمكاسب القديمة التي كانت تمتلكها قبل الاحتلال الأسباني للمنطقة، فشكّلوا تحالفا مع بعض الفصائل من أجل إخضاع أكبر عدد من القبائل العربية وجعلها تابعة للأسبان.

2- السيطرة الإسبانية على بني عامر:

يذكر الجنرال "ديدي" أن قبيلة بني عامر أصبحت حليفة الأسبان وقامت بمساعدتهم في أعمالهم، وقد كانت تتميز بالعظمة، ويصف لنا أن الرحلة إلى وهران كانت مليئة بالحدائق التي كانت من السهل الاعتماد عليها لإطعام السكان والحصول على القمح، حيث أن بني عامر كانوا يستقرون على المرتفعات باتجاه الصحراء جنوب تلمسان¹.

وقد انتهز الأسبان سيطرتهم على بني عامر من أجل استغلال قوة هذه القبيلة وتشكيل تحالف بينهم والذي كان مبنيا على انتصار الأسبان ضد الأتراك² وهذا على الرغم من الدم والقدح الذي تلقاه بنو عامر بسبب خضوعهم للكفار، ما جعل الشعراء والعلماء يهجونهم، فهذا الشاعر محمد بن سليمان يحذر عربان وهران من التعامل مع الكفار هناك سواء كانوا من الأسبان أو اليهود وإنذارهم بأنهم إن فعلوا ذلك سيصبحون رعية لهم، وفي نفس الوقت دعاهم إلى اليقظة ومخافة الله في ذلك³. لقد ركز الأسبان

¹-Didier (L), Histoire d'Oran, période de 1510 à 1550, imprimerie Jeanne d'Oran, 1927, p188.

²- كان زعيم بني عامر عبد الرحمن بن رضوان مهتما شخصيا بمنطقة تلمسان حيث كان مضطرا إلى وضع نفسه تحت حماية المسيحيين ووضع كل نفوذه وتأثيره على الرؤساء الذين أطاعوه، لكن هذا التحالف لم يكن قويا ليمكنه من البقاء على قيد الحياة طالما كان الأسبان منتصرين حيث أن دعمهم كان مفيدا في وقت النضال ضد عروج.

³- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 263.

أثناء فترة الاحتلال الثاني لوهران على قبيلة بني عامر دون الاهتمام بالقبائل الأخرى، ولعل هذا يعكس الأهمية التي تكتسبها هذه القبيلة التي سكنت بجي الكالبرا بوهران وأطلق عليهم اسم العرب المغطسون وأحيانا بعرب الإسلام¹. ويشير "استيرازي" إلى أن كل العرب المنتمين إلى قبيلة بني عامر كان لديهم وشوم على خدهم الأيسر، وهي علامة تمثل نجمة، وهذا كان دليلا حسبه على الخضوع للإسبان².

وخلال هذه الفترة عمل الأتراك على تقوية الحصون وبناء الاستحكامات مثلما فعل مصطفى باشا وذلك ترقبا لأي هجوم مفاجئ من قبل الإسبان حيث نجده توجه في سنة 1606 إلى وهران محاطا بالجنود والأهالي، لأن الجزائريين منذ سنوات لم يتعرضوا لوهران، وكان الإسبان خلال هذه السنة قد هاجموا المناطق المجاورة لوهران ونهبوها، كما وفقوا في إخضاع قبيلة بني عامر لسيطرتهم، وقد لجأ الإسبان لتكليف اليهود باستخدام الأسرى المسلمين كعبيد لديهم³.

ويشير "بوير" إلى أن بني عامر وبالرغم من السيطرة الإسبانية عليهم فقد تبقى منهم قبائل صنفت ضمن القبائل المستقلة، وقد كانوا يحاولون الفرار إلى المناطق الواقعة تحت نفوذ الأتراك، ففي سنة 1653 زحف كل من أولاد خليفة، أولاد زايير إلى أقصى الشمال للبحث عن المراعي التي نهبت من طرف الإسبان، وبالتالي لم يوجد موقف ثابت لها، فأولاد زايير قضوا مدة زمنية طويلة في خدمة الإسبان، وهو ما ادخل كنفدرالية

¹ - المغطسون: كانوا يجمعون الأخبار الصحيحة والكاذبة، ويدفع لهم الإسبان 05 دورو إسباني (25 فرنك)، كما تحول ما بين 150 و200 فارس من هذه القبائل الحليفة إلى كشافين سهلوا تنقلات الإسبان ويذهبون أحيانا إلى الريف فإذا ألقوا القبض على أحد أخذوه عبدا إلى وهران، كما كلفوا بشراء المواد الضرورية أو سرقتها، وإذا وقع أحدهم في قبضة القبائل المعادية للإسبان قطعت يده ثم قتل، وكان أغلب المغطسين من قبائل بني عامر وكانوا من الخيالة، وكانوا تحت سلطة الملك الإسباني مباشرة، حيث اهتم بها اهتماما خاصا، وقد ساعدهم في أداء مهامهم درايتهم بطبيعة الأرض وأساليب القتال المتبعة من طرف إخوانهم. انظر: نجيب دكاني، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الأفعال الجزائرية خلال القرن العاشر الهجري 10 هـ/ السادس عشر 16 ميلادي، رسالة ماجستير، إشراف: ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر، 2002، ص 114.

وأیضا: عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر، ص 20.

² - M. Walsin Esterhazy, op.cit., p 207.

³ - عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 320.

بني عامر في فوضى ومفارقات سياسية كبيرة¹. إضافة إلى أن كثرة تعامل بني عامر مع الإسبان ولدت أثرا اجتماعيا عليها حيث صار أغلب أبنائها يتحدثون الإسبانية بشكل جيد، كما أن مواقفهم السياسية لم تعد متجانسة، فبينما ارتبط أولاد عبد الله وقيزة بخدمة هؤلاء استقر الجعافرة بعيدا عنهم في أراضي اليعقوبية المنحدرين من بني عامر².

ونظرا لقرب المنطقة الجغرافي من المغرب فقد شهدت اضطرابات عديدة بين العثمانيين وملوك المغرب، هذا الصراع الذي ذهب ضحيته قبائل بني عامر بحكم متاخمتها للحدود المغربية، إضافة إلى التقارب والتداخل الثقافي والاجتماعي بين القبائل المغربية والجزائرية، حيث تعرضت في العديد من المرات إلى الاغارة من طرف سلاطين المغرب بحجة انتهاك الحدود المغربية وقد غدى هذا الصراع العثمانيون في محاولة منهم لبسط نفوذهم على المنطقة.

3- اضطهاد سلاطين المغرب لبني عامر:

كان حسن بن خير الدين مقتنعا بضرورة تدعيم السلطة في الجزائر، وتحت إلحاح سكان تلمسان خرجت حملة من الجزائر سنة 1505 مشكلة من 14600 جندي بقيادة حسن قورصو متجهة إلى مستغانم حيث سينضم لها قبائل بني عامر، وكان الاتفاق مع سلطان فاس "عبد القادر" على إرسال جيش يلتحم مع الجيش الجزائري في عين تموشنت للاستيلاء على وهران، كانت القوات المغربية تحت قيادة ولدي السلطان، بحيث انقلبا على الجزائريين وتوجها إلى تلمسان حيث احتلها الابن الأصغر "مولاي عبد الله" وأقام لها حامية، أما أخوه فواصل غاراته على بني عامر مما يدفع بالقوات الجزائرية للهجوم على الجيش المغربي حيث ألحقوا به الهزيمة في وادي المالح "Rio Salado" وقد واجه أتراك الجزائر تدخلات سلطان المغرب الأقصى في الغرب الجزائري،

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 53.

² - كمال بن صحرّوي، أوضاع الريف في بايكت الغرب الجزائري في أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، 2013، ص 352.

بعد أن سيطر سلاطين تافيلالت العلويين على المغرب الأقصى وجهوا أنظارهم ثانية نحو الجزائر، بعد حملة الشريف مولاي محمد سنة 1648، جاءت حملة مولاي إسماعيل سنة 1693 كان هدفها الاستيلاء على ماشية القبائل بعد أن جمع مقاتليه في إيزلي بالقرب من وجدة، هاجم السلطان قبيلة أنكاد وأوحى للناس أنه يريد أن يستولي على مدينة الجزائر ليطرده الأتراك منها. انضمت إليه قبيلتا بني عامر وبني هاشم الكبيرتان، وسار من ضواحي تلمسان في اتجاه الشرق لما جاءت دعوة الأتراك إلى قبائل بني هاشم وبني عامر وسويد¹. وقاد مولاي إسماعيل الجيش المهاجم بنفسه، فاجتاز الحدود مدعيا أن قبيلة بني عامر الموالية للأتراك تعدت على حدود فاس، وكان قبل تحركه إلى الجزائر قد اتصل بالعلماء وكسبهم لجانبه، وهاجم قبيلة بني عامر، ثم عاد إلى مكناس².

ونظرا لامتداد الحدود الجغرافية بين الجزائر والمغرب الأقصى وتداخلها فإن ذلك كان عاملا مباشرا في نوعية العلاقات المكونة التي كانت علاقات صداقة وود وعلاقات عداوة تارة على حسب الظروف. فقد اعتبر لفظ شراقة في الأصل لقبا لعرب بادية تلمسان ومن انضاف إليهم، وسموا بذلك لأنهم في جهة الشرق عن المغرب الأقصى.

4- موقف المغرب من بني عامر:

يسمى أهل تلمسان أهل المغرب الأقصى مغاربة، وأهل المغرب الأقصى يسمون أهل تلمسان مشارقة، إلا أن العامة يلحنون في هذه النسبة فيقولون شراقة بتخفيف الراء³. ومن الواضح أن مولاي إسماعيل (1672-1727)، كان يضع من بين اهتماماته الكبرى تصفية الجيوب الشاطئية من الوجود العسكري الانجليزي والإسباني والبرتغالي في الجهات التي كانت تئن تحت مناورات الهيمنة الأوربية منذ ثلاثة قرون، لكنه كان يشعر بضرورة صون الأطراف الشرقية من البلاد لأن الأتراك لم يستفيدوا من دروس

¹ - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، دار الألفية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 229.

² - عزيز سامح أتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، المرجع السابق، ص 439.

³ - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج7، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، ب.ت، ص 41.

الماضي، واستمروا في سياسة الدسياسة والخداع لا سيما وأن بعض القبائل كالشراقة وهوارة ومديونة وبني سنوس وبني عامر وأشجع كانت تثور عليهم من حين إلى آخر وتعتبر المغرب دار هجرة¹ ونجدة². وقد تجلت الأخوة بين المغرب والجزائر ممثلة في القبائل المتاخمة للحدود كقبيلة بني عامر، هذه الأخوة الفوضوية التي رفضت السلطة القائمة في الجزائر الممثلة في الأتراك³.

هذه الفوضى والمفارقات السياسية التي سادت في الكنفدرالية، جعلت بني عامر تتبنى موقفا من الغزو المغربي لمولاي إسماعيل الذي لاقى قبولا في بداية تقدمه⁴، وحسب أبي راس الناصر فإن حملة مولاي إسماعيل كانت انتقاما من الأعراب المتعاونين مع الكفرة وتأديبا لهم «ثم إن السلطان إسماعيل لما تحقق أن وهران ممتنعة عليه أفرج عنها وانقلب إلى حضرته بعدما دوّخ الأعراب الموالين للكفرة من بني عامر وغيرهم وكان جلهم دخل مع النصاري في الحصون بالأهل والمال، وبعضهم أعانهم بالسلاح والرجال وزحفوا بين الحصون أمام الكفرة يقاتلون وفي شراك شوكتهم يتخبطون»⁵. ويدعم هذا القول أحمد بن سحنون الراشدي الذي يقول: «فقد غزاهم الأمير إبراهيم خوجة ورمأها من جبل المائدة فلم تدر بين يديه من الفتح مائدة، وغزاها مولاي إسماعيل ملك المغرب فكان فتحها عليه أغرب من عنقاء غرب، فلم يزد على أن قال هذه حية تحت صخرة، وانقلب قاصرا»⁶.

¹ - اعتبرت المغرب دار هجرة بالنسبة لبني عامر نظرا لزوجهم المتعدد إليها في حال لقوا اضطهادا من السلطة العثمانية أو كما حدث مع الفرنسيين.

² - إسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، ج1، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1985، ص 87.

³ -Pierre Boyer, op.cit., p 56.

⁴ -Ibid., p 53.

⁵ - أبوراس الناصر، عجائب الأسفار، المصدر السابق، ص 155.

⁶ - أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق: الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ب.ت، ص 198.

وقد كانت بنو عامر سببا في هزيمة سلطان المغرب مولاي إسماعيل في ناحية من معسكر تسمى غابة مولاي إسماعيل¹، وبذلك اعتبر المغرب عدوًّا، حاول بعد ذلك التقرب من الترك ومن القبائل الحدودية² ليخلق نوعا من الأخوة الفوضوية التي ترسخت فيهم خاصة بعد 1780، إضافة إلى الإهانة التي لحقت ببني عامر في الحصار الثاني لوهران³، ورغم الاضطهاد الذي حصل من طرف سلاطين المغرب إلا أنه كان يعتبر الوجهة الأولى لهم للهجرة⁴.

¹ - سميت بغابة مولاي إسماعيل وبغابة زبوج الوسط وتقع شمال سيق بنحو 15 كلم، حيث كان هذا الهجوم في 1707. انظر أيضا: المهدي البوعبدلي، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، المصدر السابق، هامش 01، ص 195.

² - Louis Rinn, Le royaume d'Alger sous le dernier Dey, op.cit., p 18.

³ - Pierre Boyer, op.cit., p 56.

⁴ - انظر العنصر المتعلق بالهجرة إلى المغرب، الأولى والثانية. الفصل الأول ص 101 والفصل الثاني ص 147.

رابعاً: الولاء للدقاوية والهجرة إلى المغرب 1805-1809.

الدقاوية طريقة صوفية مغربية متفرعة عن الشاذلية وأول من دعا إليها هو الشريف إدريس من جماعة العمرانيين الذين استوطنوا في الشمال المغربي من مدينة فاس، ويعتبر مولاي الدقاوي أحد الذين أخذ على عاتقه تنظيم الدقاوية ووضع أسسها وإكمال نشر تعاليمها، ومع بداية القرن التاسع عشر (19) بلغت الأوضاع الجزائرية ذروة التدهور، و نتيجة لذلك وجدت الدقاوية طريقاً روحياً لها عند قبيلة بني عامر.

1- الولاء للدقاوية:

عاشت الجزائر فساداً للنظام السياسي وتأزماً للأوضاع الاقتصادية، فإلى جانب المستوى المعيشي والثقافي المتدني لمعظم الدايات، فإنهم عاشوا حياة البذخ والترف، وساهموا في تبذير أموال العامة، كما لم يبذلوا أي جهد في تطوير علاقاتهم مع السكان المحليين نحو الأحسن¹. لقد انتشرت الدقاوية بشكل كبير وأخذت طابعاً شعبياً، حيث استغلت هذه الطريقة تمرد بعض القبائل المعارضين للترك من أجل التحالف معها، ومع نهاية القرن 18 استقبلت بنو عامر العديد من الأسر الدينية حيث وجدت مكاناً مناسباً للدعوة، وكانت بنو عامر تعتبر الانتساب إلى هذه الطريقة وسيلة للوقوف ضد السلطة التركية². ولعل تعاليم الدقاوية هي أيضاً من جعل قبائل الغرب وخاصة بنو عامر ينتسبون إليها³، فممارساتهم صارمة، وانضباطهم مثالي⁴، وهم يعيشون حياة العبادة والتطهر الدائم، وعلى المسلم الذي سيقابل درقاوياً أن يتطهر طهارة الصلاة، ويأتي الشيخ فيضع يده بين يديه وينطق الشهادة، ثم يستحلفه على المحافظة على تعاليم الدقاوية

¹ - عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفي 1895، حياته وآثاره، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، ص ص 26-27.

² -Pierre Boyer, op.cit., p 54.

³ - استمر انتساب بني عامر إلى هذه الطريقة حتى بعد تفككهم ما جعلهم يشكلون خطراً على السلطة الاستعمارية، وهذا ما تثبتته وثيقة تقرير حول المدعو درقاوي بخراج ولد قدور وتصنيفه كشخص خطير بالنسبة للأمن الفرنسي في منطقة تلاغ. انظر:

AWO. B: I21/2261.

⁴ - انتساب بني عامر إلى الطريقة الدقاوية والتزامهم بتعاليمها يدحض الادعاءات الفرنسية التي وصفهم بالهمجية والوحشية.

وعلى حب إخوانه، وأن يقدم إليه النصائح المفيدة، ثم يقدمه الشيخ إلى إخوانه الآخرين فيندمج معهم ويدخل الحضرة¹.

وهم من العامة وينتحلون العبادات، ويتلبسون على الناس ببعض الخيالات، يجتمعون في الأسواق والطرق والفنادق ومراح الدواوير والمقابر والمواسم والزوايا حلقا ويذكرون لا إله إلا الله جهرا مناوبة، ثم يذكرون الاسم المفرد بالأصوات المتجاوبة، ثم يقومون للشطح والرقص بعد الأكل الكثير إلى أن يغمرهم العرق والتشجير، ويركبون على القصب والكلخ، ويعلقون القرون والقلائد، ويلبسون الثياب المرقعة² ويرمون المسائل الموقعة، ويظهرون الزهد في الدنيا إظهارا كليا، ويذمون الدنيا وتابعها³.

ويمكن التعرف على أتباع الدرقاوي من خلال لباسهم المرقع وعماماتهم الخضراء ولحاهم المشعثة، بالإضافة إلى المسبحة الخشبية التي يضعونها حول أعناقهم⁴، إن سهولة وبساطة تعاليم الطريقة الدرقاوية، إضافة إلى طبيعة قبيلة بني عامر، جعلت من أرض هذه الأخيرة سهلا خصبا لتلقي تعاليم هذه الطريقة وموالة زعيمها الروحي الدرقاوي⁵، ومساندته في العدو المشترك بالنسبة لبني عامر المتمثل في العثمانيين.

وبعد أن أصبحت بنو عامر تحتضن الطريقة الدرقاوية وتميل إليها تبنتها روحيا حيث مارست تعاليمها وطبقتها، وهو ما جعلها تدعن لمرابطها الذين دعوا إلى الثورة ضد

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج4، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، ص 119.

² - من خلال دراستنا لرأي الأوروبيين والرحالة حول قبيلة بني عامر وجدنا هذه الطقوس، لكن قضية الثياب المرقعة لم نجدها ونعتقد أنها نوع من الاحتقار لهم وإن وجدت فهي تدخل ضمن تعاليم التصوف التي تدعوا إلى الزهد في الدنيا، وقد كان أغلبية بني عامر كانوا محاربين تميزوا بلباس مميز ذو قيمة مادية ومعنوية.

³ - بن عودة المازري، المصدر السابق، ج1، ص 302.

⁴ Karim ouldennebia, histoire et historiographie de tessela (astaciis) sidi-ali-benyoub (sévérian) et robba d'alamiliaria oran, 2021,p209. القدس العربي دار،

⁵ - الشريف الدرقاوي: هو محمد بن عبد القادر الفليتي من نواحي فرندة، قاد انتفاضة ضدّ السّلطة التركية في بايلك الغرب في 1802، وادّعى بأنّه المهدي، سبّب مشاكل عديدة للسلطة التركية. خاض العديد من الحروب والثورات ضدّها. انظر: مسلم بن عبد القادر، أنيس الغرب والمسافر، ت: رايح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 44.

العثمانيين، فلبت هذه القبائل دعوة الشريف الدرقاوي وساندته في دعوته كونها تعرضت إلى الظلم والاضطهاد من طرف العثمانيين الذين أثقلوا كاهلهم بالضرائب.

2- المشاركة في ثورة الدرقاوية:

إنّ سبب قيام ثورة درقاوة هو الولاء لعبد القادر بن الشريف وكان رجلاً متمكناً في جميع العلوم ورعا زاهدا والناس يشيرون إليه بالصّلاح حتى خرج عن ذلك النهج، وصار الأعراب يخرجون إليه محمّلين بالهدايا وهم يشكون إليه من المخزن فيعدهم بالنصر.¹

ساهم كل من درقاوة الشمال الشرقي، والجنوب الشرقي للمغرب، مع إخوانهم في الجزائر ضد فساد الولاة، حتى إنّ الكثير منهم وجدوا بعين الحوت، وفي تلمسان ووهران، بل وقسنطينة²، حيث كانوا دائما يعبرون الجبال من أجل حماية أنفسهم من الأتراك وثبتوا أنفسهم بأعداد كبيرة خاصة عند قبيلتي أولاد إبراهيم والحجز الذين كانوا يشغلون سهل مكرة جنوب تسالة، والتي كان سكانها، ككل سكان الجزائر خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر متأثرين بوعظ المقدمين، وقد وجدت دعوة الشريف الدرقاوي في هذه القبائل المنقسمة والمرهقة فرصة غير متوقعة للاستيلاء على السلطة في بايلك الغرب³، أما أولاد سليمان فقد ثبتوا في منطقة جبلية المحيطة بالجنوب الشرقي. ففي 1803 لم يعد بنو عامر قادرين على القتال تحت راية خاصة بهم، فلبوا بذلك نداء الدعوة الذي كان تحت راية الدرقاوية حيث مونت قائد الثورة الشريف بوحداثها القتالية وتجمعات الكنفدرالية بأكملها. وخلال أربعة سنوات (1805-1809) كان أغلبية أولاد إبراهيم وأولاد سليمان يتبعون الشريف الدرقاوي ويشاركون في ثورته⁴. في عام 1805 تم تعيين الباي المقلش على بايلك الغرب خلفا للباي مصطفى المنزالي الذي

¹ - جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1987، ص 255.

² - عبد العزيز الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج5، القاهرة: شركة ناس للطباعة، ط1، 2006، ص 41.

³ - Karimouldennebia, histoire et historiographie du tessala, op,cit, p210.

⁴ -Pierre Boyer, op.cit., p 57.

عجز عن مقاومة الدرقاوي فقدم إلى وهران بحرا وقام بفك الحصار عنها ممن بقي من الدرقاويين. أما الدرقاوي فبعد أن فشل في اقتحام وهران تعرض لأزمة حادة وتبرأ من شيخه محمد العربي الدرقاوي¹، فكان ذلك سببا في تدهور موقفه فغادر أحواز وهران إلى معسكر، وحاربه هناك البرجية وهزمه، وقتلوا الكثير². وبعد هذا خرج الباي المقلش بنفسه لمحاربة الدرقاوي، فقصده معسكر وأقام لدى البرجية أياما يستعلم عن الدرقاوي وظروفه وأوضاعه وقواته. وبلغه عنه أنه جمع قوات كبيرة من قبائل الصحراء، وتواطأ مع بني عامر والمجاهر، وتمكن البرجية والحشم من هزيمته في عدة معارك، وبعد عدة أسابيع جمع الدرقاوي جموعا أخرى في بني مرياتن، فعلم الباي بالخبر وخرج بنفسه إليه وهزمه وانتقل من هناك إلى أولاد سليمان³ ببني عامر، ثم إلى المبطوح، وثنية ماخوخ لملاحقة العصاة والفتك بهم. فاجتمع بنو عامر بالدرقاوي في بلد أولاد الزاير لمواجهة قوات الباي، فأسرع إليهم ومر بتسالة، ثم انتقل إلى واد الحد بأولاد زاير، وفي هذا يقول صاحب "دليل الحيران وأنيس السهران": «ثم إن الباي ارتحل من مكانه ونزل ببلد أولاد سليمان أحد بطون بني عامر، ورحل في غد ونزل بالمبطوح، ثم رحل ونزل بثنية ماخوخ بلد أولاد علي، أحد بطون بني عامر أيضا، وقد اجتمع بنو عامر كلهم ببلد أولاد الزاير مع الدرقاوي منتظرين لقاء الباي وفي قلبه منهم شيء، بسبب أن (القرغلية) أهل تلمسان ضاق عليهم الحال، حتى عدموا القوت والمال، بمنازلة العدو عليهم بالغدو والآصال، ورسلمهم تتعاقب على الباي بأنهم في النكال والوبال، وافترق التلمسانيون على فرقتين (قرغلية) و(حضر) وشعلت بينهما نار الحرب في البلد»⁴.

¹ - سبب تبرأ الشيخ الدرقاوي منه هو بعد اكتشافه كذبه عليه وتزويره لأشياء ضد الحكام الأتراك اختلقها وابتدعها من خياله لا أساس لها من الصحة والواقع، ومنها ادعاءه بأنهم كفار لا يصومون ولا يصلون، بينما شاهد هو عكس ذلك، وسمع بنفسه الأذان عند الفجر وفي أوقات الصلاة الأخرى، وشاهد الناس يتوجهون إلى الصلاة.

يعي بوعزيز، مدينة وهران عبر التاريخ، الجزائر: دار البصائر، 2009، ص 69.

² - يعي بوعزيز، المرجع نفسه، ص 69.

³ - ذكر بن عودة المزاري أن الباي رحل من مكانه للعثمانيين، ونزل بلد أولاد سليمان أحد بطون بني عامر، ورحل من الغد ونزل بالمبطوح ربضا، ثم ارتحل ونزل بثنية ماخوخ بلد أولاد علي أحد بطون بني عامر أيضا، وقد اجتمع بنو عامر بجمعهم الغاوي وجيشوا ببلد أولاد الزاير مع الدرقاوي. انظر: بن عودة المزاري، المصدر السابق، ج 1، ص 317.

⁴ - المهدي البوعبدلي، دليل الحيران وأنيس السهران، المصدر السابق، ص 286.

وهاجم الدرقاوي وجمعه من بني عامر وقتل معظمهم ولم ينج إلا من فرّ بنفسه إلى ولهاصة وقرارة وغيرهما، وفرّ الدرقاوي إلى اليعقوبية وبلغ عدد القتلى خلال هذه المعارك حوالي 600 شخص.

وفي نهاية هذه المعارك اتجه الباي بقواته إلى تلمسان وأصلح ما بين أهل الحضر والkraغلة من مشاكل وخلافات، ومن هناك عاد إلى وهران حتى سمع بالدرقاوي يجمع جموعه مرة أخرى فتوجه إليه وشتت شمله، وقتل أنصاره من بني عامر¹. وعلى أية حال، فإن الأمور بقيت تسير في هذا الفلك، وتداعت بين المد والجزر، إلى أن هزم الدرقاوي وفشل في دخول وهران، وتراجع إلى معسكر، حيث هاجمته قبائل الغرابة في الطريق ثأراً مما اقترفه في حقها حين ذهابه لحصار وهران، كما هاجمته قبائل البرجية وأهالي بني شقران عند وصولهم لسيدي مبارك، قرب وادي هبرة، وهزم فيها الدرقاوي شر هزيمة، وقتل وسبي في هذه الحادثة الكثير من أتباع الدرقاوي الذي فرّ مع قلة جيشه إلى معسكر².

ولم تتوقف ثورة الدرقاوي عند هذا الحد، فقد عاود الظهور مرة أخرى برفقة ابن الأحرش³، حيث هاجموا سهول غريس وأتلفوها واستنجد أهلها بالباي الذي كان بضواحي مدينة مليانة وهزمهم شرّ هزيمة⁴، واضطر ابن الأحرش والدرقاوي إلى الفرار لينجوا بنفسهما⁵.

ولم يسلم بنو عامر من مشاركتهم في ثورة الدرقاوي، حيث اعتبرت من القبائل العاصية والخارجة عن الطاعة، فقد تباينت المواقف والآراء بين حول هذه الثورة، حيث

¹ - يحي بوعزيز، مدينة وهران، المرجع السابق، ص ص 69-70.

² - عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، المرجع السابق، ص ص 31-32.

³ - بن الأحرش: هو محمد بن الأحرش ينتمي إلى الطريقة الدرقاوية، قاد انتفاضة ضد السلطة التركية في بايلك الشرق معتمداً على إثارة قبائل نواحي جيجل بداية من 1803، وقد خلقت هذه الثورة مشاكل عديدة في عهد عثمان باي. انظر:

ناصر الدين سعيدوني، "ثورة ابن الأحرش بين التمرد والانتفاضة"، مجلة الثقافة، عدد 78، الجزائر 1983.

⁴ - بن عودة المازري، المصدر السابق، ج1، ص ص 220-221.

⁵ - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 71.

لم تلق تأييدا وترحيبا من طرف العلماء، خاصة أبو راس الناصري وابن الفكون، أما المشرفي فقد باركها وأيدها¹. هذه المواقف خضعت للانتماء الديني أو إلى السلطة التركية القائمة آنذاك فمن غير المعقول أن يؤيد موظفو البايك هذه الثورة. ويدعم هذا الطرح الأغا بن عودة المزاري الذي كان موظفا لدى العثمانيين حيث يقول في ذلك: «واجتمع بنو عامر بجمعهم الغاوي، وجيشوا ببلد أولاد الزاير مع الدرقاوي، يرمون لقاء الباي، وما ذلك إلا من تلف الرأي، والباي في قلبه شيء كبير وغم عسير... وبلغه خبر الدرقاوي وبني عامر وأنه يقول لهم أنه هو طبييهم من علة الترك ولها مداوي»². إن مشاركة بني عامر في ثورة الدرقاوي كان بسبب اضطهاد الأتراك لهم ومعاملتهم معاملة حذرة، خاصة بعد موالاتهم سابقا للإسبان ومنه كانت بنو عامر ترى في الدرقاوي المخلص الروحي لها من الترك وسيطرتهم.

وبعد فشل ثورة الدرقاوي التي سخرت لها الدولة العثمانية الباي المقلش للقضاء عليها، لم تكتفي بإخمادها فحسب وإنما عمدت إلى الانتقام من كل من شارك فيها، فهو يعتبر بالنسبة لها عدوا روحيا، فقامت بتخريب ممتلكات بني عامر ومصادرة أراضيهم وهو ما دفعهم إلى الهجرة إلى المغرب والتي تعتبر الهجرة الأولى هربا من بطش العثمانيين.

3- الهجرة الأولى إلى المغرب 1805-1809:

بعد نهاية المعارك بين الباي المقلش والدرقاوي، اضطر أنصاره من بني عامر إلى التوزع والتشتت في جهات كثيرة حتى إلى المغرب الأقصى³، وكعقاب لهم عمد الباي المقلش إلى تخريب أراضيهم التي تخلوا عنها، مع حرق محصول القمح الموجود في المخازن، وتزوده في تلمسان، وخلال أربع سنوات (1805-1809) كان أغلبية أولاد إبراهيم وأولاد سليمان الذين اتبعوا الدرقاوي وشاركوا في أغلب معاركه، قد انتهى بهم المطاف

¹ - عبد الحق شرف، المرجع السابق، ص 33.

² - بن عودة المزاري، المصدر السابق، ج1، ص ص 317-318.

³ - يحي بوعزيز، مدينة وهران عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 70.

إلى الفشل والذهاب إلى المغرب وإتباع نفس الطريقة التي كانت أكثر اعتدالا وقبولا من طرف السلطة الحاكمة في المغرب¹. ويرجع صاحب وجدة وأنكاد أن سبب الهجرة إلى المغرب هو بسبب تعسف الترك وتسلمهم على القبائل خاصة بعد ثورة الدرقاوي الذي كان يحمل صفته نائب للشيخ محمد العربي بن أحمد الدرقاوي، فاعتقد مصطفى باشا، باي وهران أن الأمر دبر بإيعاز من المولى إسماعيل وأنه من المستحسن أن يلتمس منه إيفاد شيخ الطريقة لفض النزاع بحكم هيئته ونفوذه في وسط أتباعه فاستجاب الملك المغربي لهذه الرغبة ووجه هذا الأخير مع الأمين الحاج الطاهر بادو المكناسي إلى منطقة الصراع حيث تبينت له الأضرار التي لحقت بمريديه وإصرارهم على محاربة الأتراك، وعزمهم على مبايعة العاهل العلوي لما سمعوا عنه من حسن السيرة وعلو الهمة وقوة الشكيمة، فرجع إلى فاس مع وفدهم وهداياهم وصك بيعتهم، إلا أن هذا الأخير فضل ألاّ ينفخ في نار الفتنة وأن يصلح بين الطرفين في ظل السلطة التركية، فكلف القائد عياد بن أبي شفرة باطلاع باي وهران محمد المقلش الذي خلف مصطفى باشا على هذا الموقف المتزن والمنصف².

ثم كتب السلطان إلى الباي بما أزال شكه وأبطل وهمه، ولما شارف القائد عياد إلى تلمسان فرّ الشريف إلى منجاته، ودخل القائد عياد المدينة فحجز بين الفريقين وقدم الباي إلى تلمسان فأصلح بينه وبين رعيته، ومكنه من بلده، وانقلب إلى حال سبيله. ومع ذلك لم يتم للترك ما أرادوا من أجل القحط الذي كان قد عمّ حتى عدت الأقوات، وجلا أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب، وكذا عربها وأهل جبالها كلهم جلوا عن أوطانهم، حتى لم يبق لباشا الترك مع من يتكلم فضلا عن أن يتأمر، فجعل يكتب إلى السلطان ويرغب إليه أن يرد عليه أهل تلمسان وعربها، فكلّمهم السلطان في الرجوع فأبوا وقالوا: نذهب إلى بلاد النصاري ولا نجاور الترك فنجمع علينا الجوع والقتل، فرق لهم السلطان وتركهم، بل جبرهم بأن صاريينهم بالعطاء والصدقات المرة بعد المرة، حتى كان عطاؤه

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 57.

² - إسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنكاد، المرجع السابق، ص 93.

إياهم كالراتب المفروض، وعالج داءهم مع الترك إلى أن أخصبت بلادهم ورخصت أسعارهم فتراجعوا حينئذ إلى أوطانهم¹. وكتب السلطان إلى الباي في شأنهم بالعدل وحسن السيرة، فامتثل وكفّ، ولم يبق منهم بالمغرب إلا من كان عليه دين للترك². لقد اعتبرت المغرب محل راحة بالنسبة لبني عامر بعد أن كانوا سابقا يلجئون إلى الخراب في الصحراء، ومع ذلك كان الحنين دائما يراودهم للعودة إلى الوطن، إذ أن لجوؤهم إلى المغرب كان مغامرة جديدة بشكل غير متوقع، فالباي بوكابوس خليفة المقلش الذي كان يعتقد أنه بواسطة التحالف مع السلطان مولاي سليمان يستطيع الاستقلال عن الجزائر، وقد سمح السلطان المغربي بعودة بني عامر من جديد إلى أراضيها في القطاع الوهراني حيث اتخذها الباي بوكابوس قبائل مخزنية³.

وبعد العودة من المغرب في عهد الباي بوكابوس كما ذكرنا سابقا، أصبحت بنو عامر من قبائل المخزن التي تخدم في بايلك وهران، ومع اقتراب الاحتلال الفرنسي للجزائر حاولنا تتبع العلاقة التي جمعت بين محي الدين والد الأمير عبد القادر الذي سيتنازل عن البيعة لابنه الشاب الأمير عبد القادر، وقبائل بني عامر التي تمتلك تعدادا لا بأس به من المقاتلين في صفوفها وهذا من أجل معرفة تأثير هذه العلاقة على موقف الأمير عبد القادر منهم .

4- الشيخ محي الدين وبنو عامر:

لقد لعب الشيخ محي الدين دورا بارزا في صقل شخصية ابنه الأمير إضافة إلى المكانة التي اكتسبها بين مختلف القبائل. إن تجمهر العرب الغريب وغير العادي حول محي الدين قد أنذر الباي حسين⁴ بالخطر، لقد كان يعلم ويكره الشعبية الكبيرة التي يتمتع

¹ - ذكر بن عودة المازري أن بني عامر بعد تفرقهم في المغرب ما بين فاس وغيره، لم يرجعوا إلا في تولية أبي كابوس محمد بن عثمان وبه حصلت لهم الراحة والأمان. انظر: بن عودة المازري، المصدر السابق، ج 1، ص 321.

² - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج 8، ص 110.

³ - Pierre Boyer, op.cit., p 57.

⁴ - هو حسين باشا آخر داي للجزائر عند دخول الفرنسيين 1830. انظر: شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، تونس: الدار التونسية للنشر، ب.ت، هامش 3، ص 44.

بها المرابط، وكان يخشى أن تؤدي به هذه الشعبية إلى أن يصعد إلى مكان المنافس له على السلطة وكان متأكدا أن أي حركة علنية معادية للرجل ستكون خطرا¹. وكان والد الأمير السيد محي الدين حاضرا في غاية المرض ظاهرا للتجلد والقوة، ومتوكلا عن من به الحول والقوة، وقد مات من البرجية بمسرقين الشجاع أبو نواشة وغيره فضلا عن انجرح من الأعيان الذين لهم طواشة، فبينما الناس في ذلك الحال وإذا ببني عامر من جملتهم بني مطهر، غاروا على إبل الدوائر التي تعتبر أقوى قبائل المخزن وأكثرها صلابة في المنطقة، حيث استقرت في السهل الوهراني وملاتة حوالي 1750، واحتلت مساحة تقارب 140 ألف هكتار، وفي عام 1835 خضعوا لفرنسا وتم تحديد أراضيهم²، وأخذوا تلك الإبل بإغراء الحشم فيما اشتهر، ولما سمع الدوائر بذلك رفعوا أمرهم إلى الأمير بمحضر والده الناسك، فقال لهم سيدي محي الدين عليكم بهم لطغيانهم وتعددهم وأنا ضامن لكم عليهم النصر، والعزيمة والظفر، وقال لولده الأمير، إياك أن تنزع المخزن من يدك فإن نزعته فأنت الحقير، وقال للدوائر أني ذاهب لتلمسان لأزور ثم أرجع للمعسكر، وإن زاد الله في عمري على ما رأيت فلأقطعن لبني عامر وغيرهم الأثر، ثم التفت لولده الأمير وقال له يا عبد القادر إياك أن يغرك الزمان فتزع من يدك جنود النحل وتمسك جنود الذبان³. إن كلام محي الدين والد الأمير نابع من خلفية تاريخية أثرت على مكانة بني عامر بين القبائل بحكم الصلة التي كانت مع الإسبان، وأمام الفوضى المتفاقمة شكل والد الأمير فرقة صغيرة عهد بقيادتها إلى أبناءه، وكان يجوب السهول والجبال لحماية الهاربين الذين تركوا وهران، ولفض الخلافات بين القبائل التي هجرها موظفوها الأتراك، أو خضعت لانتقام رؤساء معارضين، وعمت الفوضى ما بين فرسان السلاح، فبرز رجال الدين ليحلوا محلهم. لقد كان استبداد الأتراك قد سحق

¹ - شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص 44.

² - Robert Tinhoen, Colonisation et évolution, op.cit., p 32.

³ - بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، ج 1، المصدر السابق، ص 109.

القوات والفتنة والفوضى في كل مكان بين المسلمين والبنيان الاجتماعي قد انهار¹، والقبائل يصارع بعضها بعضا، ورؤساءها متآمرون جشعون يقاتلون لتوسع مناطق نفوذهم، ومدنيون تمردوا على كل نظام². وبالرغم من الحكم الذي صدر عن محي الدين ضد قبائل بني عامر والذي كان يشوبه الحذر من سلوكهم وتصرفاتهم، إلا أنه بعد مبايعة هذه القبائل للأمير عبد القادر تغيرت نظرته إلهما، إذ كانوا أول من أعلنت الولاء والطاعة له حيث اعتمد والده محي الدين اعتمادا كبيرا عليهم حيث قال: «القبائل هي ملابسي وهاشم قميصي»³.

¹ - الانهيار الذي يتحدث عنه محي الدين هو تفكك قبيلة بني عامر ومعظم القبائل الوهرانية التي فقدت سلطتها وسيادتها مع الأتراك وصولا إلى الإسبان، ليتواصل هذا الانهيار مع السياسة الفرنسية التي هدمت قيم معظم القبائل. انظر: برونو إثنين، عبد القادر الجزائري، ترجمة: ميشيل خوري، لبنان: دار عطية للنشر، ط1، 1997، ص 139.

² - برونو إثنين، المرجع نفسه، ص 140.

³ - Louis De Baudicour, La guerre et le gouvernement, paris, Sagnier et Bray, 1853, p 397.

الفصل الثاني

المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر (1832-1847)

الفصل الثاني

المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر (1832-1847)

أولاً: مبايعة الأمير عبد القادر.

- 1- الدخول تحت طاعة الأمير.
 - 2- مكانة بني عامر لدى الأمير.
 - 3- رفض دفع الضرائب والخروج عن الطاعة.
 - 4- تحريض لنقاد ضدّ بني عامر.
- ثانياً: دور بني عامر في مقاومة الأمير عبد القادر.

- 1- تعداد قبيلة بني عامر.
- 2- المعارك مع الأمير.
- 3- المشاركة في تأديب القبائل الخارجة عن الطاعة.
- 4- المعاناة من السياسة الاستعمارية.

ثالثاً: تجسيد الاستيطان على أراضي بني عامر.

- 1- بناء مراكز استيطانية على أراضي بني عامر.
- 2- الهجوم على مركز سيدي بلعباس.
- 3- قمع أولاد إبراهيم.
- 4- التعمير الأوروبي للمنطقة منذ 1848.

رابعاً: قبائل بني عامر في المغرب 1845-1848.

- 1- أسباب النزوح إلى المغرب.
- 2- القبائل التي لم تهاجر.
- 3- إبادة قبائل بني عامر في المغرب.
- 4- محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ بني عامر.

أولاً: مبايعة الأمير عبد القادر.

تعرضت الجزائر للاحتلال الفرنسي منذ 1830 والذي لاقى مقاومة رسمية ممثلة في السلطة العثمانية آنذاك والتي سرعان ما انهارت أمام زحف وتقدم قوات المستعمر الفرنسي، وهذا ما جعل الجزائريين يتكتلون تحت راية الجهاد لصدد هذا العدوان، وقد توحدت المقاومة الجزائرية تحت راية ولواء الأمير عبد القادر الذي بايعته معظم القبائل ودخلت تحت رايته، وكانت بنو عامر من بين الملبين لنداء الجهاد.

1- الدخول تحت طاعة الأمير:

بعد أشهر من احتلال قوات "دوبورمون" للجزائر، اعترف باي وهران بارتباطه بفرنسا وبدأ في تسيير أموره تحت حماية الاستعمار، قبل أن ينتقل إلى سوريا، إلا أن مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847)¹ بدأت تمتص كل نشاطات الاستعمار في المنطقة، خاصة بعد انضمام عدة قبائل لمقاومته²، فاختارت قبيلة من أهم القبائل وهي قبيلة بني عامر ذلك المرابط الشاب الذي تميز منذ صغره بذكائه وشجاعته وهو الأمير عبد القادر ولد سيدي محي الدين³، إذ وبعد انهيار الحكم التركي شعرت القبائل العربية بحاجتها إلى النظام وسلطة القانون حتى لا تعمّ الفوضى ويقتل بعضها بعضاً، ولذلك انتخبت قبيلة بني عامر القوية المرابط الشاب ليكون سلطانها أو حاكمها المطلق⁴، ومن طبيعة القبائل أنّها مهما بلغ شعورها بالثقة في زعيم شاب، ومهما اعترفوا بأنّ فيه هو

¹ - الأمير عبد القادر الجزائري (1807-1882): عبد القادر بن محي الدين بن المصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد.

ولد الأمير يوم الجمعة 23 رجب 1222هـ/1807م، بالقيطن بمعسكر في بيت علم وتقوى، حفظ القرآن الكريم وقرأ الفقه وأخذ العلم على أهله، بايعته القبائل الجزائرية أميراً عليها في 27 نوفمبر 1832. انظر:

نزار أبابضة، الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر، دمشق، 1994، ص ص 09-10.

² - مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962م، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف محمد مجاود، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2011-2012، ص 9.

³ - يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر، ت وتقديم: أبو العيد دودو، دار هومة، ط2، ب ت، ص ص 49-50.

⁴ - المرجع نفسه، ص ص 72-73.

قد تمثلت القيادة الحقّة التي ستقودها في صراعها مع الفرنسيين، فإنّها قد شعرت بأنّ الهجوم المفكك لم يكن حرباً، لقد رأت بكل وعي بأنّ كل جهة ستكون بلا طائل وبلا نتيجة إذا لم يكن هناك قائد مسؤول عن التنظيم¹، ويعتبر يوم 27 نوفمبر 1832 اليوم الأول لتأسيس الدولة الجزائرية الحديثة، ففي ذلك اليوم بالقرب من معسكر تجمع عشرات الآلاف من الفرسان في انتظار الترحيب والتحية من الحاكم المعين حديثاً²، حيث تم الاعتراف بالأمير عبد القادر أميراً للمؤمنين من قبل أكبر القبائل المتواجدة في منطقته (بنو عامر، مجاهر، بني يعقوب، بني عباس، هاشم) وبمجرد توليه منصبه بعث الأمير برسائل إلى جميع القبائل المجاورة لإخبارهم أنه سيعيد النظام³.

وقد ذكر لنا شارل هنري تشرشل في كتابه "حياة الأمير عبد القادر" تفاصيل بيعة القبائل للأمير عبد القادر حيث يقول: «في اليوم التالي (27 نوفمبر 1832) ذهب عبد القادر إلى وادي خصبية الذي يبعد مسافة عشر دقائق من معسكر، وكان هناك في الانتظار عشرة آلاف فارس عربي للاستقبال والترحيب برئيسهم المنتخب الجديد، كانوا قد اصطفوا في شكل هلال، حسب قبائلهم، حول خيمة ضخمة نصبت وسط السهل، وكان جميع أهالي معسكر حاسبه قد تجمعوا أيضاً في المنطقة، وفي اللحظة التي بدأت فيها أشعة الشمس المائلة تنبسط على جبل مسمط مضيئة هذا المشهد، كانت زغاريد النساء وتهليل الرجال وطلقات البنادق التي لا تنقطع تعلن قدوم الموكب الرسمي. تقدمت أولاً كوكبة من الفرسان حاملة راية الجهاد، ثم تلا ذلك رؤساء بني عامر وبني مجاهر وبني يعقوب، وبني عباس، على صهوات خيولهم المندفعة بعتادهم اللامع وأسلحتهم المصقولة، ثم ظهر عبد القادر الذي كان بسيطاً بلا زينة، يغطي كتفيه برنوس أحمر وممتطياً صهوة جواده الأسود المفضل، وكان رؤساء بني هاشم، قبيلته هو، في

¹ - "بنو عامر ومقاومة الاحتلال الفرنسي" أعضاء تاريخية، مديرية المجاهدين، سيدي بلعباس، عدد 03، 2000، ص ص 09-10.

² _ Redouane Ainad Tabet, Tayeb Nehari, Histoire d'Algérie Sidi-Bel-Abbés, de la colonisation à la guerre de libération en zone 5, wilaya V (1830- 1962), Alger, ENAG édition, 1999, p 53.

³ -LacèneKhelil et Berkani, Les insurrections en Algérie (1830- 1900), Dahlab, 2^{ème} semestre, 2018, p 24.

مؤخرة الموكب العظيم»¹. ويبدو أنه تم السعي لإشراك مجموعات قرابة أخرى ويبدو ذلك واضحاً وأكيداً فيما يتعلق بمجموعات أو قبائل المخزن ببائلك الغرب التي تمت استشارتها مسبقاً، والسعي لنيل موافقتها ومشاركتها. ليس من المؤكد أن نفس السلوك قد تمّ انتهاجه إزاء مجموعات قرابة أخرى لأن أعيان من الهاشميين والغرابة وبني عامر فقط شاركوا في الاجتماع الذي انعقد في بدايات 1832 بالعصبية من أجل تأسيس الدولة الجديدة، بفضل تنازل محي الدين الذي طلب منه تولي السلطة، وقد شكل كل من التجانس والتقارب المكاني وتدخل القادرية عاملاً من العوامل التي سهلت تأسيس الدولة².

ويظهر ذلك جلياً من خلال خطاب البيعة الذي كتبه الأمير الإجماع والقبول الذي حظي به من طرف هذه القبائل، حيث جاء نصه كما يلي: «الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، إلى قبيلة كذا وقبيل كذا، وخصوصاً نبلائها، وشيوخها وأعيانها، وعلمائها هداكم الله وأرشدكم ووجهكم إلى الطريق المستقيم ونجم أعمالكم ومساعدكم، إن أهالي معسكر وشرق وغرب غريس وجيرانهم وخلفاءهم، بني شقران والبرجيين، وبني عباس واليعقوبيين وبني عامر، وبني مجاهر وغيرهم قد وافقوا بالإجماع على تعييني، وبناء عليه انتخبوني لإدارة حكومة بلادنا. وقد تعهدوا أن يطيعوني في السراء والضراء، وفي الرخاء والشدة، وأن يقدموا حياتهم وحيات أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة... ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا أن عليهم دائماً واجب الخضوع...»³. ومن خلال تحليل موجز لخطاب الأمير عبد القادر يتضح لنا أنه لخص برنامج عمله الذي استمدّه من تزكية والده الشيخ محي الدين حيث نجده يوظف السلطة الأخلاقية ويأخذها بعين الاعتبار. لقد اجتمعت القبائل لتحمله مسؤولية حكم الدولة عن طريق تسخير كل من أولادهم وأموالهم والتضحية بحياتهم

¹ - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ت: أبو القاسم سعد الله، تونس: الدار التونسية للنشر، ب.ت، ص 58.

² - الطيب شنتوف، الجزائر السياسية 1830-1954، المرجع السابق، ص ص 9-10.

³ - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص 59.

ضد الاستعمار الأجنبي¹. وقد قبل الأمير هذه البيعة حيث فرض عليهم شروطه المتمثلة في الامتثال لأوامره ونواهيه، وقد كان عبد القادر يشرح الآيات المتعلقة بالجهاد، وكل واحد يستمع إليه بإعجاب². وقد ساعد الأمير على بسط سلطته على قبائل التل وعشائر الهضاب وسكان الجبال، فاعترفت به حتى القبائل التي كانت في السابق مستقلة عن سلطة البايك مثل حميان والأحرار وبني مايدة³، وقد قام الأمير عبد القادر بوضع قبيلة بني عامر تحت قيادة البوحميدي الذي كانت تكرهه كثيراً، ويتجلى ذلك في الجدل الذي كثيراً ما كان يقع بين البشير ولد قلوشة الآغا السابق لبني عامر والبوحميدي، حيث كان نبلاء بني عامر يشاركون البشير ولد قلوشة هذه المشاعر⁴.

وبعد أن استقرت بنو عامر على مبايعة الأمير عبد القادر والدخول تحت طاعته، حظيت بمكانة مرموقة لدى هذا الأخير الذي اعتم عليها في أغلب معاركه وأصبحت مناصرة له في جهاده، وكانت بمثابة الملجأ إليه في الكثير من الفترات العصيبة التي مر بها أثناء المقاومة، فكثيراً ما كان يجد راحته عن بني عامر.

2- مكانة بني عامر لدى الأمير:

إن مبايعة الأمير من طرف معظم قبائل الغرب وموالاته بني عامر له جعلتهم يحضون بمكانة مرموقة لديه، إذ اعتمد عليهم كعنصر أساسي في جيشه فكانت قوة عبد القادر الرئيسية خلال هذا الوقت تتمثل في بني عامر وبني هاشم⁵ الذين دافع عنهم الأمير في عديد المرات من تحرشات الفرنسيين، ففي حدود 1833 بعث الأمير برسالة رداً على ديميشال يعاتبه على مهاجمة القبائل التي كانت تحت إدارته «إنك تفخر بأنك مجانا

¹ -Bouamrane Cheikh, L'émir Abdelkader résistant et humaniste (études avec choix de texte), Alger, édition Hammouda, 2001, pp 28- 31.

² - برونو إتيين، عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص 153.

³ - ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2000، ص 215.

⁴ -Répertoire alphabétique des tribus et douars de l'Algérie, S.P.

⁵ - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص 66.

أطلقت سراح بعض قبائل الغرابة والزماله، هذا حق ولكنك فاجأت أناسا كانوا يعيشون تحت حمايتك، وكانوا في الواقع يمدون أسواقك بالمؤونة، فجاء جيشك وجردهم من كل ما يملكون. فبدلاً من الوقوع على الذين كانوا يقدمون إليكم خدمات، تجاوزتم خطوطكم، وهاجمتم الناس الذين كانوا مشتاقين إلى لقائكم مثل بني عامرو بني هاشم، كان في إمكانكم أن تتحدثوا بحق عن الكرم، إذا أسرتم منهم أسرى ثم أطلقتم سراحهم»¹. إن هذا التحدي الصارخ كان يمكن، في ظروف غير هذه، أن يثير في صدر الجنرال الفرنسي أغلى مشاعر الفروسية فتدق الطبول، وتطلق الصفارات وتنشر الأعلام ويدعى البطل العربي بسرعة إلى المقابلة، ولكن ديميشال رد بمهاجمة قبائل الدوائر والزماله مرة أخرى وسليهم أرزاقهم، وقد كان عبد القادر مع بني عامر² عندما سمع ما قام به ديميشال³. لقد تنبه الفرنسيون إلى المكانة التي تحظى بها القبائل الموالية للأمير، فهذا النقيب دوماس في 1838 يعترف بقوتهم ووظيفتهم، فإذا تخلى بنو هاشم عن الأمير تنتهي قوته لأن هذه القبيلة قوية إلى حد أنها تجر معها بني عامر والغرابة⁴.

وعندما طلب مصطفى بن إسماعيل من الأمير نقل الدواير إلى تيارت بدلاً ملاتة بتلمسان لأنهم من المخزن وحتى يكونوا بعيدين عن النصاري في وهران⁵، سمع الحشم وبنو عامر كلامه فقالوا للأمير لا تثق به فقد سأل المواضع التي تكون بها كلمته مسموعة ويده قوية فيرسل عليه انتقامه، وكان مراد الأمير يدخل الدواير والزماله لبلادهم ولا يضيف أحدا إليهم ويبقى بنو عامر دونهم مجاورين له كالعسة⁶.

¹ - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص 74.

² - يتضح من خلال هذا أن الأمير عبد القادر كان يجد الجو مناسباً للبقاء في أراضي حلفائه بني عامر حيث لقي دعماً كبيراً منهم.

³ - شارل هنري تشرشل، المصدر نفسه، ص 75.

⁴ - الطيب شنتوف، الجزائر السياسية 1830-1954، المرجع السابق، ص 13.

⁵ - أدرك الحشم وبنو عامر أن الأمير إذا أبقى المخزن بتلمسان يكون له الضرر لكونهم لهم ارتباط مع سلطان المغرب وذويه. انظر: بن

عودة المزابي، طلوع سعد السعود، ج2، المصدر السابق، ص 123.

⁶ - بن عودة المزابي، المصدر نفسه، ص 122.

وتظهر لنا رسالة من الأمير عبد القادر إلى ديميشال - مؤرخة في 15 أفريل 1834- دفاع الأمير عن قبيلة بني عامر من هجوم الدواير عليهم¹، ويشرح فيها سبب غزوه للدوائر حيث سماهم بالبغاة²، وبالرغم من المكانة التي خصها الأمير لبني عامر إلا أنه كان حريصا على تطبيق القانون والاقتصاص من كل من خرج عن طاعته منهم، ففي رسالة أخرى إلى ديميشال³ يحثه على تسليم رجل قاتل من بني عامر إليه «الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله، من أمير المؤمنين وناصر الدين مولانا السيد الحاج عبد القادر، نصره الله آمين، إلى جنرال وهران وعظيم جيوشها الفرنسية دي ميشيل، السلام على من اتبع الهدى ورحمة الله وبركاته وخيراته وإحسانه وبعد، الرجل القاتل من بني عامر وهو عندكم في دار القونص بني يخ، لا بدّ تمكنه بيدي المخازنية الواردين عليك، ولا زلنا على العهد والمحبة والميثاق، وكتب بأمر مولانا السيد الحاج عبد القادر نصره الله آمين»⁴.

ومن خلال تحليل مراسلات "دوماس" نرى الأهمية والمكانة التي حظيت بها بنو عامر بشهادة الفرنسيين أنفسهم. ففي مراسلة لدوماس Dumas إلى راباطل Rapatel مؤرخة في 11 مارس 1838 بمعسكر يخبره بأنه شكر الأمير بنفسه بعد إهدائه الحصان، ثم بعد ذلك يذكر السرقة التي تعرض لها من طرف أولاد زاير على مستوى دوار قادة بن خلوفي وفلول، وقد أبدى الأمير الرضا عن بني عامر ووضعهم⁵. وفي مراسلة أخرى من

¹ - كان خروج الأمير عبد القادر ضد الدوائر لمنعهم من الهجوم على قبائل بني عامر فتمكن في بداية الأمر من إبعادهم، لكن أثناء الليل فاجئوه بمعسكره على وادي تيزي عند بني وزان، وتمكنوا من إلحاق هزيمة بجيشه، في حين لم يتمكن هو من الإفلات إلا بأعجوبة. انظر: عبد الحميد زوزو، مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشال ووثائق خاصة بتاريخ الجزائر في عهد الأمير، الجزائر: دار هومة، 2003، هامش 3، ص 68.

² - عبد الحميد زوزو، نفسه، ص ص 68-69.

³ - هذه الرسالة ليس لها تاريخ، ولعلها كتبت في 2 أو 3 فيفري كسابقتها لحملها نفس تاريخ الوصول بالفرنسية (1834). انظر، عبد الحميد زوزو، المرجع نفسه، هامش 2، ص 159. أنظر أيضا الملحق: 14

⁴ - عبد الحميد زوزو، المرجع نفسه، ص 159.

⁵ - George Yver, correspondance capitaine Dumas consul à Mascara (1837- 1839), Alger, Adolphe Jourdan, 1912, p 129.

دوماس إلى راباطال مؤرخة في 14 أفريل 1838 يذكر فيها حضور قبيلة بني عامر في اجتماع قرب غريس من أجل اتخاذ قرار بشأن عائلة الأمير¹.

وقد بعث "دوماس" إلى مونتبيزا Montpezat في 01 سبتمبر 1838 يخبره بأن بني عامر يرفضون الطاعة وحتى الخليفة مصطفى بن التهامي والبوحميدي لا يمكن لهما أن يفعلوا أي شيء لهم، وأن الطريقة الوحيدة لوضع حد لها هي كتابة الأمير لها بنفسه². ويذكر أيضا دوماس في تقرير آخر مؤرخ في 09 سبتمبر 1831³ إلى Baron Guehenneuc عن حادثة أخذ جمال من الدواير من طرف بني عامر حيث أن الخليفة البوحميدي تنصل من سلوكهم إذ أنه لا يستطيع فعل شيء بشأن هذه القبيلة، لكن عند عودة الأمير سيكون حزيننا لما حدث⁴.

لقد كان الأمير عبد القادر يجد راحته عند قبيلة بني عامر، في كل مرة كان يحط رحاله بها، وهذا في مراسلة "دوماس" إلى Guéhenneuc في 19 أوت 1839 حيث أنه وأثناء ذهاب الأمير إلى سعيدة، مر إلى بني عامر من أجل تفقد أعماله هناك⁵. وفي 14 سبتمبر 1839 ذكر دوماس أنه تلقى رسالة من الحاج بوخاري يخبره أن الأمير أقام في المكرة في 11-12-13 من نفس السنة وقام بتفتيش كل قبائل بني عامر واليوم سيتوجه إلى يسر، ويشير "دوماس" إلى أن الأمير طلب من الدواير مقابلتهم وأعطاهم الأمان واختار إقليم بني عامر لذلك عند عودته من تلمسان⁶. وتروي السيدة "لاكتاس" La Ctesse في

¹ -George Yver, op.cit., p 169.

² - Ibid., p 295.

³ - نعتقد أن تاريخ هذه المراسلة كان في 09 سبتمبر 1838 وليس 1831 إذ أنه سبقها مراسلة في 01 سبتمبر 1838 يتحدث فيها دوماس عن هذه القضية وبالتالي فإنه لا يعدو أن يكون خطأ مطبعيا من الناشر.

⁴ -George Yver, op.cit., p 327.

⁵ -Ibid., p 524.

⁶ -Ibid., p 531.

روايتها "تاريخ الجزائر من طرف شابة" أن الأمير عبد القادر كثيرا ما كان يلجأ إلى قبيلة بني عامر عندما تضيق به السبل¹.

أما "بيير بروجير" فيصف في رحلته مع الوفد الفرنسي لمقابلة الأمير عبد القادر، كيف تحول أحد الفرسان الذي يدعى مصطفى من خدمة الفرنسيين في الصباحية إلى خدمة عبد القادر بسبب بزوغ نجمه².

إن هذه الشهادات المستقاة من المراسلات والكتابات الفرنسية والعربية خير دليل على ما خص به الأمير عبد القادر قبيلة بني عامر التي وجد فيها السند والعون والتي دعمته مادياً ومعنوياً ما جعلها تصل إلى مكانة مرموقة عنده.

اعتبرت معاهدة ديميشال الموقعة بين الأمير عبد القادر والفرنسيين في 26 فبراير 1834 بمثابة الحجة التي اتخذتها بنو عامر من أجل التوقف عن دفع الضرائب للأمير عبد القادر كون القتال قد توقف بينهم وبين الفرنسيين فشقت عصا الطاعة وامتنعت عن تأدية الضرائب له ما اضطر الأمير إلى محاولة تأديتها قبل أن تغير رأيها بعد تأثرها بخطاب الأمير الذي قام فيه بتذكير هذه الفصائل بمكانتهم لديه وكيف ساندوه في جهاده منذ بيعته.

3- رفض دفع الضرائب والخروج عن الطاعة:

حاول العديد من زعماء القبائل ممن لم يلقوا نظرة على مفاوضات عبد القادر مع الفرنسيين تشكيل تحالف بينهم وكانوا على استعداد للخروج على كل من أراد السيطرة عليهم³.

¹ -Mme La Cress, L'histoire de l'Algérie racontée à la jeunesse, source Gallica, BNF, Fr, pp234- 235.

² - أدريان بير بروجير، مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838)، ت: أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2005، ص ص 44-45.

³ -I. Derrien, Les français à Oran depuis 1830 jusqu'à nos jours, première partie, imprimerie J. Nicot, 1886, p 64.

بعد توقيع معاهدة ديميشال في 26 فبراير 1834، حاولت قبائل بني عامر التوقف عن دفع الضرائب حيث اعتبروا موقفهم هذا موقفاً شرعياً بحجة التوقف عن قتال الفرنسيين¹، وبحجة أن هذه الضريبة لم يعد لها من موجب بعد توقف الخصومة والعداء²، فأمر الأمير عبد القادر في الحين الدوائر والزمالة بأن يكونوا على استعداد للهجوم على بني عامر عند جمع الحشود الأولى. ولما كانت طبيعته تأبى عليه أن يستعمل القوة إلا إذا فشلت المفاوضات ولم تؤد إلى أية نتيجة، فقد حاول إقناعهم قبل أن يبدأ بمحاربتهم³. وذكر المزاري أن الأمير أمر الناس بإعطاء الزكاة والعشور المأمورين شرعاً بإخراجه وجمعه بمحل معين لتعمر بيت المال بإدراجه، فأبى بنو عامر بين سائر الناس من ذلك، فأمر الأمير مصطفى بن إسماعيل على يد آغة الحاج بالحضري بمقاتلتهم بمخزنه ولا بد لهم إلا بدفع ذلك⁴.

لقد أثار امتناع بني عامر عن أداء الضريبة للأمير استغرابه إذ أنها كانت تعتبر من بين أعظم القبائل إخلاصاً له وأكثرها غيرة بين أتباعه، أي أن نفس الرجال الذين كانوا حراساً ومؤيدي الأمير - والذين بمساعدتهم استطاع أن يكبد العدو خسائر كبيرة - رفضوا الطاعة حسب تعبير تشرشل، إن وقف دفع الضرائب كان في أعينهم نتيجة شرعية لوقف القتال، غير أن عبد القادر لم يتردد لحظة واحدة فبنو عامر يجب إخضاعهم، وقد كتب إلى مصطفى بن إسماعيل في تلمسان وأمره أن يعد قبائل الدواير وقبائل الزمالة للعمل حالاً⁵.

¹ - إبراهيم لونيبي، محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ قبائل بني عامر من بطش السلطان المغربي سنة 1846-1847، ضمن كتاب تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1954، المرجع السابق، ص 28.

² - لم يقتنع مصطفى بن إسماعيل، وهو سليل عائلة من نبلاء السيف، بالإذعان إلى أوامر هذا المرباط الصغير، وأشاع، وهو الذي يتاجر مع الفرنسيين، أن معاهدة دي ميشال مخالفة للجهاد. انظر: برونو إتيين، عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص 181.

³ - أ.ف. دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، دار هومة، ب.ت، ص 52.

⁴ - بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، ج2، المصدر السابق، ص ص 109-110.

⁵ - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص 82.

وهكذا فإن مصطفى بن إسماعيل الذي كان على رأس المخزن التركي رغب في الانتقام من أعدائه القدامى بني عامر، وطمع في الغنائم المنتظرة، قبل بكل غبطة هذه المهمة، ولكن واقعة لم تكن في الحسبان غيرت مجرى الأحداث، فبينما كان عبد القادر يلقي خطبة الجمعة، كعادته في مسجد معسكر، وقعت عينه على بعض شيوخ بني عامر، وفجأة غيّر تيار بيانه وخاطبهم¹، وندد بتهاونهم «ألستم أول من دعاني إلى المهمة التي أشغلها، أتكونون أول من يدعم المؤامرات ضد هذه الحكومة النظامية التي طالبتهم بها لقمع الفساد؟ كيف يمكن لحكومة أن تستمر بدون ضرائب؟ كيف يمكن أن تصمد دون تفاهم مخلص، ودعم من الجميع؟ هل تعتقدون أن أي جزء مهما صغر من الضريبة التي أطالب بها مخصص لنفقاتي الشخصية أو لنفقات عائلتي؟ إن ما أطالب به يمثل ما يلزمكم به شرع النبي صلى الله عليه وسلم، وما يجب عليكم تقديمه كمسلمين صالحين، وهو بين يديّ أمانة مقدسة لنصرة الإيمان، أقسم علانية على ذلك»². عندئذ وعد بنو عامر بدفع العشور³، وهو ما فعلوه فعلا. ولكن الدواير والزمالة المغرمين بالسلب والنهب، الذين كانوا منذ العهد التركي يتولون تنفيذ أعمال القمع، طمعوا في الغنائم فبدؤوا بالعداوة فأمرهم الأمير عبد القادر بالكفّ عن ذلك، غير أنّهم لم يهتموا لأمره⁴، ووقع قتال بين الأمير ومصطفى بن إسماعيل الذي استطاع أن يهاجم الأمير ويلحق به هزيمة تامة، فاضطربت قواته وتفرقت وتم الاستيلاء على خيامه وخيوله ونجا الأمير بأعجوبة من هذه الواقعة ودخل معسكر بمفرده. أما مصطفى بن إسماعيل فحاول التفاوض مع الفرنسيين عن طريق مراسلة دي ميشال⁵.

¹ - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص ص 82-83.

² - برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 181.

³ - تأثر شيوخ بني عامر بهذا النداء الصريح فطلبوا الاجتماع، وهرع الناس إليهم من كل الرتب والأعمار راجين الوفاق. وحين أصبح الشيوخ محاطين بالجمهور تقدموا إلى السلطان الشاب وقبلوا يده، وقد وعدوه باسم قبيلتهم بدفع الضريبة. ومن جهة أخرى أرسل عبد القادر أمره إلى مصطفى بن إسماعيل لوقف مسيرته ضدّ بني عامر. انظر: شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 83.

⁴ - أ.ف. ديبزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، المصدر السابق، ص 52.

⁵ - المصدر نفسه، ص 53.

لم تواجه الضرائب الدينية أي اعتراض ولكن الضريبة الاستثنائية واجهت صعوبات أكبر وبطء في التحصيل، وقد لجأ عبد القادر إليها في مرات عديدة لتغذية الخزانة العامة. ولكن امتداد فترة الأعمال الحربية وارتفاع المطالبات أدى إلى مقاومة القبائل، ورأت من جهة أخرى في مراقبة المبادلات التجارية التي صارت تشكل انشغالا استراتيجيا في دولة عبد القادر وتهديدا لاستقلاليتها، رغم أنها بقيت سهلة إلى حد معين داخل الأراضي المحددة في المعاهدة، ولكنها صارت أصعب في المقابل قرب الحدود، فكل من يقترب من النصارى أو يتاجر معهم، أو يجتهد ليطلعهم على أسرار المسلمين يستجلب الولايات على نفسه، وقد تلقى كل من بني عامر والغرابة ومجاهر أمرا بعدم بيع منتوجاتهم في الأسواق الحضرية¹، ومثال على ذلك وقوع ثلاثين فردا من بني عامر أسرى لدى الأمير، رجال ونساء وأطفال وقد كانوا مكبلين بالسلاسل وحالتهم بائسة من جراء التعب والحرب، وقد باع هؤلاء أنفسهم للفرنسيين حيث تم إيقافهم على الطريق من قبل القوات العربية التي كانت في طريقها للمخيم جنوب معسكر، حيث أخذوا كأسرى لعبد القادر الذي أراد أن يجعل منهم مثالا وليخوف البقية بهم، حيث أدان الزعيمين الرئيسيين لهذه الفرقة وقام بإعدامهما، أما الباقي فقد قام بسجنهم². ويظهر من خلال ذلك أن بني عامر حلفاء الأمير المخلصين له حاولوا تغيير مواقفهم تجاهه. إن موقف الرفض من طرفهم لم يكن في الحقيقة إلا ظرفيا كون بني عامر لم يتوقفوا عن مقاتلة الفرنسيين، حيث أصبحت المواجهة على أراضي بني عامر عند بدايات الاستيطان الأول في مناطقهم³.

لقد جلبت المكانة المرموقة لبني عامر التي حضوا بها لدى الأمير كيد الأعداء، والدسائس ومحاولة الإيقاع بينهم وبين الأمير، وهذا ما فعله شواف لنقاد الشيخ

¹ - الطيب شنتوف، الجزائر السياسية 1830-1954، المرجع السابق، ص ص 30-31.

² - M. A. De France, Les prisonniers d'Abd-El- Kader, cinq mois de captivité chez les arabes, deuxième édition, paris, Des essart et de, 1837, pp 56- 57.

³ - سعاد تيرس، السياسة العقارية الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر، منطقة سيد بلعباس - نموذجاً، ماجستير غير منشورة، إشراف: محمد مجاود، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سيدي بلعباس، 2008/2007، ص 23.

بلغماري الذي كان يشغل وظيفة لدى مخزن وهران ثم دخل تحت طاعة الأمير، فاستغل نفوذه وسلطته من أجل الوشاية بهم عند كل فرصة تسنح له نظرا للعداوة الموجودة.

4- تحريض لنقاد ضدّ بني عامر:

يذكر إستارازي أن بايات وهران فرضوا ضرائب باهظة وثقيلة على القبائل عن طريق مساعدة الشوافين¹، الذين تتمثل مهمتهم الوحيدة في إرشاد البايات إلى القبائل العاصية ورصد تحركاتها، فهذا محمد بلغوماري الزلبوني² كان شواف الصحراء، شواف لنقاد لدى البايات حسن، وكان يصل إلى وهران في أي وقت في الليل أو النهار وهو يحمل الأخبار، حيث يدخل على البايات الذي يعطي الأوامر للفرسان للهجوم على هذه القبائل³. وقد دخل الشيخ بلغوماري شيخ أنقاد تحت طاعة الأمير، حيث كان ذلك سبباً في العداوة بين الأمير والمخزن، حيث أحسن الأمير إليه، وطلب منه النزول عند الدوائر والزمالة خشية من بني عامر نظرا للعداوة القديمة بينهما، وبذلك دخلت أنقاد في حماية الدوائر، وقد أبلغت تخوّفها من بني عامر في حال ارتحالهم وأعلموا مصطفى بن إسماعيل الذي أجابهم وطمأنهم، وشاع بين القبائل بأن الأمير يريد غزو البرجية والزمالة والدوائر وبذلك أوقدت الفتنة بين المخزن والأمير وتغيرت الأحوال.

هذا وإن الشيخ بلغوماري كان بالمعسكر جالسا عند الأمير فرخص بنو عامر بإغراء الحشم لقتال أنقاد بالكبير والصغير، قد أعان المخزن أنقاد⁴. وحصل المصاف بينهما بمحل من بني عامر يقال له قرقر حيث انجلى الأمر بقتل الحاج المزاري لأبي شويشة ولد

¹ - شواف: Chouaf ، من كلمة شاف Chef، رأى، تعرّف، وهو المسؤول عن رؤية، فحص، يدرك. انظر:

- Esterhozy, De la domination turque, op.cit., p 251.

² - ذكر إستارازي أن محمد بلغوماري الزلبوني شواف أنقاد قتله الأمير عبد القادر. Esterhazy, op.cit., p 252.

أما مصطفى الأشرف فقد ذكر أنه ألقى عليه القبض من طرف الأمير، وحوكم أمام مجلس القضاء وأعدم مع سيدي العربي وغيرهما. انظر: مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ت: حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص 56.

³ - Esterhazy, op.cit., p 252.

⁴ - استطاع الشيخ بلغوماري أن يوقد النار ويشتت القبائل عن طريق إيهامها بهجوم الأمير عليها. انظر: بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، المصدر السابق، ص 111.

العسري بعد تجاولها في السروج، واقتلع أبو شويشة الحاج المزاري من سرجه فضربه بحزامه وتركه في دمائه يتخبط وانجرح الحاج المزاري¹.

ولما سمع الشيخ بلغوماري بالواقعة قال للأمير قد ظهر ما قلته لك في بني عامر وسأل منه التسريح. وقد فقد في هذه الواقعة ابنه وابن أخيه، كما مات البعض من الدوائر وخلق كثير من أنقاد، فرجع بنو عامر لمحلبهم منهزمين أما الدوائر وأنقاد فقد خيموا على أراضيهم، ثم وقع قتال آخرين الدوائر وأنقاد وبين بني عامر وانهزم فيه بنو عامر، فطلبوا النجدة من الحشم وسألوا منهم أن يقولوا للأمير أن الدوائر سيتغولون عليه إن لم يبادرها بالغزو حيث ارتبطوا بأهل سيق وهبرة ومينا وشلف وتيارت.

وقد كان رد فعل الأمير أن بعث مكاتبه للنواحي الغربية مثل ولهاسة ونزارة والغسل ومديونة، وأولاد رياح بعدهم فيه يغزو كل من الدوائر والزماله وأنقاد². إنَّ الشيخ بلغوماري الذي رفض الدخول في طاعة الأمير في بدايته³ نجده مستعداً للانضمام إلى سيدي حمادي، حاكم تلمسان الذي كان على صلة بمصطفى بن إسماعيل الذي قاد التمرد ضد الأمير⁴، كان على استعداد لفعل أي شيء مقابل البقاء في السلطة التي كان يحظى بها عند الأتراك، إذ حدث أن شواف أنقاد في أحد المرات دل الباي على قبيلة عاصية، وعند وصول الباي إلى هذه المنطقة لم يجدها، فحول الشواف نظره إلى قبيلة أنقاد التي ينتهي إليها، حيث كان هدفه المحافظة على ثقة الباي بأي ثمن⁵.

لقد كانت هذه المرحلة جدّ صعبة بالنسبة لبني عامر، إذ وجدت نفسها تتخبط بين وشاية وفتنة شواف أنقاد ومحاصرة الدواير لها بقيادة مصطفى بن إسماعيل وبالتالي فوضعها كان صعباً للغاية.

¹ - بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 112.

² - المصدر نفسه، ج2، ص 112.

³ - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 61.

⁴ - المصدر نفسه، ص 84.

⁵ - Esterhazy, Ibid., p 252.

ثانياً: دور بني عامر في مقاومة الأمير عبد القادر.

من خلال كتابات المؤرخين الذين تحدثوا عن قبيلة بني عامر منذ دخولها إلى بلاد المغرب يتضح أنها كانت تمتلك في صفوفها مقاتلين كثر نظراً لطبيعتها البدوية والمحاربة، إضافة إلى مهارة فرسانها في القتال وهذا بشهادة المؤرخين الأوروبيين أنفسهم، وقد كان تعدادهم يشهد تطوراً ملحوظاً في كل مرة، على حسب الظروف السياسية والمتغيرات في المناطق التي كانوا يشرفون عليها.

1- تعداد قبيلة بني عامر.

ذكر ليون الإفريقي أن قبيلة بني عامر كانت تمتلك مع منتصف القرن الخامس عشر حوالي 6000 ألف من أشجع الفرسان، مع مختلف معدات القتال، وهذا الرقم حسب "بوير" يعطي لنا أن عدد بني عامر كان يتراوح ما بين 18000 و20000 فرداً¹. إن هذا التعداد شهد تطوراً عبر مختلف المراحل إذ تحكمت فيه الحروب والاستقرار بالنسبة لهذه القبائل. ففي مراسلة من طرف قنصل معسكر "دوما" إلى بيجو مؤرخة في 03 ديسمبر 1837 بمعسكر يكشف فيها أن بني عامر أغاليك مستقلة عن خليفة الغرب وهي تتشكل من 7.315 خيمة و5150 فارس² و4330 من المشاة³، وقد كانت أعداد مقاتلي بني عامر تفوق بكثير مختلف القبائل الأخرى التي كانت داخلية تحت طاعة الأمير وذلك من خلال شهادة أحد الرحالة الألمان⁴ الذي زار الجزائر ومقارنته بين مختلف القبائل: «وتسكن سهل غريس قبيلة واحدة وهي قبيلة هاشم التي انقسمت قبل حوالي قرن من الزمان إلى قسمين، هما هاشم الشراقة، وهاشم الغرابية، ولكل منها قائد خاص، وتستطيع القبيلتان أن تكونا معاً جيشاً قوامه ثلاثة آلاف فارس وألف راجل، وقد

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 45.

² - مقارنة مع الرقم الذي ذكره ليون الإفريقي لم ينخفض هذا الرقم كثيراً.

³ -George Yver, Correspondance capitaine Dumas, op.cit., p 15.

⁴ - هو مورتيس فاغر الذي زار الجزائر حوالي مارس 1838. انظر: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، المرجع السابق، ص 125.

تكونان أقل عددا من بني عامر، ولكنها أغنى منها بكثير، فلهما الخيول والقطعان الكثيرة، وتفوقانها فوق ذلك في القوة والعزيمة»¹.

إن قبيلة بني عامر وقبيلة فليطة أكثر عددا ولكنهما ليستا محاربتين ولا مرهونتي الجانب مثل قبيلة الغرابة²، وهنا يتجلى قوة بني عامر وتعدادهم مقارنة مع القبائل الأخرى، إضافة إلى تردها في القتال حسب "فاغنر" الذي يتحدث من زاوية النظرة الاستعمارية التي تنظر إلى أن القبائل همجية ولا تقبل الغريب بينها.

ومن خلال الجدول التالي الذي أورده "دوما" في مراسلاته يصنف فيه تعداد قبائل بني عامر من المقاتلين الواقعة في دائرة الخليفة البوحميدي والآغا محمد ولد التامي آغا بني عامر، حيث جاء التعداد كالتالي:

¹ - أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ، المرجع السابق ص 169.

² - المرجع نفسه، ص 132.

الفصل الثاني:.....المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر (1832- 1847)

القوات		اسم القبائل
الفرسان	المشاة	
500	300	أولاد زاير
400	150	أولاد كرفاح
80	50	أولاد سيدي العبدلي
100	85	أولاد إبراهيم
80	30	أولاد سيدي غانم
100	80	أولاد عبد الله
30	20	أولاد سيدي حما بن يوسف
250	125	الحجز
250	125	نمانية
400	200	أولاد سليمان
200	90	أولاد ميمون
50	30	أولاد سيدي بن يوب
20	10	أولاد سيدي معاشو
60	500	قطارنية
60	500	زاوية عبد القادر بن زيان
30	15	أولاد جبارة
20	/	أولاد سيدي مسعود
50	50	أولاد سيدي غرالد
500	/	بني مطار
150	/	أولاد بلاكر

وبالتالي فإنّ تعداد المحاربين من بني عامر يفوق 6270، وهو رقم¹ كبير ينم عن الحضور القوي لهم في أغلب المعارك، مقارنة مع محدودية المقاتلين لدى القبائل الأخرى.

هذا التعداد من المحاربين الذي امتلكته بنو عامر جعلها محط أنظار وتخوّف كل من الأمير عبد القادر والفرنسيين على حد سواء، التي في كثير من الأحيان وجدت نفسها خاضعة لسلطة أحدهم، من أجل الاستفادة من رجالها الأقوياء، ويدعم هذا القول "ليون روش"² الذي يقول: «كان علينا أن نلجأ إلى القبائل الخاضعة، ومن بين هؤلاء بنو عامر الذين كانوا وحدهم قادرين على تزويدنا بأكبر كمية من الجمال والبغال، ولكن هذه القبيلة التي يبلغ محاربوها حوالي 3000 فارس قدمت رسالتها إلى الفرنسيين وإلى عبد القادر بأنها قادرة على صد أي هجوم من طرفهم»³. وقد تعرض الأمير عبد القادر في 22 سبتمبر 1843 إلى هجوم عندما كان معسكرا بالقرب من زاوية المرباط سيدي يوسف على رأس فرقة من المشاة و500 فارس غير نظامي، حيث قاد هذا الهجوم "لاموريسيير" شخصياً وكاد الأمير أن يفقد حياته في هذا الهجوم لولا مباغتته للفرنسيين والرد السريع منه. إن بني عامر قد انضموا إلى الفرنسيين على حد قول تشرشل⁴ وهم نفس بني عامر الذين كانوا لوحوا بأربعة آلاف سيف في الهواء استجابة للبطل الشاب، عندما دعاهم للجهاد⁵.

¹ -George Yver, Correspondance capitaine Dumas, op.cit., p 616.

² - ليون روش: مولود في قرونوبل في 1810، ترك دراسته للقانون من أجل الالتحاق بالجزائر لينضم إلى والده في 1832، كرس نفسه لدراسة اللغة العربية وأصبح مترجماً محلفاً في 1835، وملازم أول في سرب الفرسان التابع للحرس الوطني الجزائري منذ عام 1832، في 1836 رافق الجنرال كلوزيل إلى المدينة، واستطاع أن يكسب ثقة الأمير.

انظر: George Yver, ibid., p 51.

³ -Léon roches, Trente-deux ans à travers l'Islam (1832- 1864), tome premier, Algérie Abd-El-Kader, paris, imprimerie de l'institut, 1884, p 453.

⁴ - حسب تشرشل اعتبر الأمير انضمام بني عامر إلى الفرنسيين خيانة، وقرر أن يهاجمهم، واستطاع قتل عدد منهم والحصول على غنيمة ضخمة. وقد حاولت الفرقة الفرنسية التي كانت تعسكر وسطهم أن تعترض تقدمه لكن دون جدوى. انظر: شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص ص 218-219.

⁵ - المصدر نفسه، ص 217.

لقد شكل بنو عامر اتحادا قبليا، كان تعداد قوته يقاس بعدد الخيام الموجودة عنده وعدد المحاربين، فما بين 1836 و1837 كانوا يملكون حوالي 7400 خيمة، تضم 5200 فارس و4400 جندي من المشاة، لديها طابع مرابط عسكري، وكانت القبيلة المهمة في هذا الاتحاد، وهي الحجز (1400 خيمة)، يتبعها أولاد زاير ب (900 خيمة) وأولاد خليفة ب (800) وأولاد سليمان (700) أما أولاد إبراهيم (500) خيمة، وهم يشكلون جيش الأمير¹. وفي حدود 1845 حدث انشقاق ذو أهمية عن جيش الأمير إذ أن بني عامر الذين كان عددهم 8 آلاف أو 10 آلاف خرجوا عن طاعة الأمير²، وهو ما يعكس الدور الذي لعبته هذه القبيلة في جيش الأمير من حيث إمداده بالمقاتلين.

بعد إرساء البيعة للأمير ودخول معظم القبائل تحت طاعته، تشكل جيش نظامي منذ بدايات المقاومة للاحتلال الفرنسي، وكان على العموم يقدر بـ 8000 مشاة و2000 فارس، ناهيك عن المتطوعين، وقد تم تجنيد الجنود الأوائل من بين قومه هاشم وقبيلة بني عامر الذين كانوا يتميزون بتمرسهم في حروب العصابات، وقد قدر الفرنسيون أن عدد فرسان بني عامر كانوا أكثر من 2400، حيث التزموا بالقتال مع الأمير في أغلب المعارك التي خاضها.

2- المعارك مع الأمير:

يمكن تفسير الأهمية العددية لسلاح فرسان بني عامر من الناحية الاجتماعية بطريقتهم شبه البدوية للحياة في سهل مكرة، إضافة إلى شجاعتهم الأسطورية³. وقد تحالف كل من الهاشميين وبنو عامر بسبب التجانس السابق بينهما والتجاور، ولعبوا دورا رئيسيا مستخدمين قراباتهم مع بني عامر والغرابية⁴. والواقع أن تحالف بني عامر مع

¹ -Tableaux des établissements français dans la régence d'Alger, 1938, imprimerie Royal, paris, p 293.

² -Camille Rousset, La conquête de l'Algérie 1841- 1857 ; tome second, paris, Plon-nourrit, 1904, p 87.

³ -Redouane Aïnad Tabet, Tayeb Nehari, Histoire d'Algérie, op.cit., p 54.

⁴ - الطيب شنتوف، الجزائر السياسية 1830-1954، المرجع السابق، ص 12.

الأمير مكّتهم من جديد في الاستقرار بملاّته حيث طردوا من طرف الدواير أواخر العهد العثماني في بايلك الغرب. واستطاع هذا التحالف مع الأمير من الانتصار في معركة المقطع سنة 1835، وهذا بمساندة أولاد إبراهيم¹. إنّ أغلب المعارك التي خاضها الأمير كانت بمشاركة هذه القبائل.

وكتب "دوماس" في تقرير له في 14 أفريل 1838 أن قبيلة هاشم وبني عامر تقريبا هما القبيلتان الوحيدتان اللتان تقدمان الدعم للأمير²، وبعد خسارته في عين ماضي سعى مصطفى بن التهامي مع جيشه هاشم وبني عامر لتخليص الأمير عبد القادر ودعمه³.

وأثناء هجوم الأمير على وهران في ماي 1833 من أجل نصرة حلفائه بني هاشم ضد الجنرال "ديميشال"، كانت قوته الرئيسية في هذا الوقت تتمثل في بني عامر وبني هاشم، وبعد أن أخذ معه وحدات قوية من هذه القبائل اقترب من تلمسان واستطاع الانتصار على أهلها وعاملهم باحترام⁴.

وقد تجسّد موقف بني عامر ميدانيا وعمليا عبر مشاركتهم في جميع الحروب والمعارك التي خاضها الأمير ضد قوات الاحتلال وعساكره⁵. لقد حاربوا وقاوموا بكل ما لديهم من قوة وشجاعة وكان الأمير عبد القادر الذي قاد المقاومة ضدّ الفرنسيين بحروب عديدة يهدف للحفاظ على بلاده من العبودية، واستطاع تكبيد العدو العديد من الخسائر وصنع التفوق في العديد من المرات⁶.

¹ - حنيفي هلايلي، مدينة سيدي بلعباس، النشأة والتاريخ، المرجع السابق، ص 02.

² - George Yver, op.cit., p 170.

المراسلة كانت من الجنرال Dumas إلى Rapatel بتاريخ 14 أفريل 1838 حيث جاءت هذه الأحداث عند الاجتماع الذي سبق في غريس.

³ - المراسلة مؤرخة في 08 جويلية 1838، هذا الدعم حسب دوماس لم يرجح كفة الأمير للنصر.

⁴ - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 64.

⁵ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 52.

⁶ - AWO, L'étoile Algérienne, op.cit.

لم تكتفي بنو عامر في المشاركة في الجهاد ضد الفرنسيين فقط وإنما تعداه إلى مشاركتها في تأديب القبائل التي شقت عصى الطاعة للأمير وكان على رأسها قبيلة الدواير بزعامة مصطفى بن سماعيل الذي روج في أوساط القبائل أن معاهدة ديميشال قد أوقفت الجهاد، وهو ما جعل مصطفى بن سماعيل يتحصل على الدعم من طرف القبائل المتمردة على الأمير.

3- المشاركة في تأديب القبائل الخارجة عن الطاعة:

بعد توقيع الأمير لمعاهدة ديميشال في 1834، رفضت معظم القبائل الموالية للأمير دفع الزكاة بحجة وجود مانع، فخرج عليه مصطفى بن إسماعيل وأشاع بأن معاهدة ديميشال مخالفة للجهاد، وبعد الخطاب الذي ألقاه الأمير أمام شيوخ القبائل وإذعانهم له الطاعة حيث قبل شيوخ بني عامر دفع الضريبة، وكان على الأمير إيقاف مصطفى بن إسماعيل المدعوم من قبل القبائل المتمردة، لكنه رفض الانصياع، بل وتمكن من أن يهزم رجال عبد القادر¹. وعند ذلك هبت رياح الردّة في السهول واستنسر الخونة والوجلون، والتحق آل سيدي الغمري والعربي وبني أنكاد النافرين دوما بسيدي حمادي حاكم تلمسان.

كان عبد القادر قد ضم إليه بني عامر واعتمد على حشم غريس المخلصين له، وعلى المهاجر، وانقض على تلمسان².

إنّ مشاركة بني عامر كانت إسهاما منها في إرجاع بعض الزعامات والمناطق إلى حظيرة المقاومة الشعبية، بعد أن أغرتها الدعاية الاستعمارية لتوحيد الصفوف وتفويت

¹ - ذكر شارل هنري تشرشل أنه لم يبق سوى عدد قليل من الرجال يحيكون بشخص الأمير، حيث أنهم حاربوا افتداء به، وبعد أن أظهر معجزات من الشجاعة تخرق خلالها برنوسه بالرصاص وتغطى حصانه بالجراح، مرق بين صفوف العدو الذي أحاط به وعاد إلى المعسكر، وقد وصلها في الليل وحده.

انظر: شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص 83-84.

² - برونون إتيين، عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 181.

الفرصة على العدو في خرق المقاومة وتشتيت شملها¹، إذ أن مصطفى بن إسماعيل سعى للخضوع للفرنسيين في 1834 ولكنه فشل في ذلك².

كذلك سعت كل من قبائل المخزن للخضوع إلى سلطان المغرب الأقصى مولاي عبد الرحمن، حيث أنهم لما انشقوا عن القتال مع الأمير في الحناية ذهبوا إلى المغرب وأرسلوا رسلهم إليه لينضموا إليه فأمرهم بالملك في بلادهم وهو يمدّهم بما تكون لهم به العناية. وقد كان السلطان المغربي يبحث عن حل سلمي لهذه القضية حتى لا يصطدم مع الفرنسيين³، وبعد ذلك اصطدم الأمير بتمرد كل من الدوائر والزمالة، وشاركت بنو عامر في هذه الواقعة. يقول المازري: « ولما جمع عنده ما أحبّ من العسكر، وتيقن في نفسه أن يكون له الظفر في الكروالمفر، سأل من البرجية الغزو معه أيضا على الدواير فأبوا وقالوا له لا يحصل منا ذلك ولو آل أمرنا إلى سكن المقابر، ولنا الخبرة بأنك تحب مقاتلتنا طاعة منك للحشم وبني عامر، فافعل ما شئت وما ظهر لك فيه بادر، فجمع جيشا من الحشم والغرابية وبني شقران وبني عامر وعسكره، وغزاهم فقاوموه شديداً مدة من أيام بعد أن أتوه بالقادة فرغب عنها وبالقناتل جزاهم، وكان لهم الظفر به لولا جر الهزيمة الواقعة من أهل الجهة الشرقية»⁴. وبعد حصار الأمير لحصن عين

¹ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة، المرجع السابق، ص 52.

² - بن عودة المازري، طلوع سعد السعود، ج2، المصدر السابق، ص 117.

إلى هذا يشير المازري أن الأمير لما رجع للمعسكر بعث مصطفى بن إسماعيل للجنرال ديميشال بوهران يخبره بأن العداوة قد تمت بين المخزن والأمير وأنهم يريدون الدخول في حماية الدولة بغاية الإذعان. وبنفس الوقت وصول رسل مصطفى للجنرال الذي سجنهم وظن أن ذلك مكيدة من المسلمين ليستعين به على مقاومة المخزن من أول وهلة إلى أن قامت القيامة، وكانت هذه الواقعة في عام 1833، ولما رجع الأمير للمعسكر في أياما وغزا وهران، فكمن الجيش بضاية المرسى وتقدموا للدار البيضاء فأفسدوها كثيرا وكان القتال بين السرسور والعرب في غاية ما كان وقال بعضهم أن تلك المعركة كانت بين الغرابية وحدهم وبعد ذلك أمدّهم الأمير وذلك في 06 جانفي 1834.

بن عودة المازري، المصدر نفسه، ص 117.

³ - المصدر نفسه، ص 118.

⁴ - نفسه، ص 119.

ماضي¹ في 1838 الذي دام حصاره لها حوالي ثمانية أشهر وعشرون يوماً²، حاولت بنو عامر تحت قيادة مصطفى بن التهامي دعم الأمير³. وبعد أن خرج في تأديب الكثير من الخونة ومنعهم من التعاون مع العدو استطاع توحيد القبائل خاصة في الغرب الجزائري⁴.

إن مشاركة بني عامر في حروب الأمير سواء كانت مع أعدائه الفرنسيين أو مع القبائل المتمردة لهو دليل على حجم الولاء الذي كانت تكنه للأمير والاستعداد الدائم للقتال معه في أغلب الظروف.

وككل القبائل الجزائرية فقد جلبت مكانة بني عامر لدى الأمير ومقاومتهم معه، معاناتهم من السياسة الاستعمارية من مصادرة للأراضي وتهجير وقوانين عقارية، إضافة التي محاولة إضعاف عزيمتهم حتى يتخلوا عن المقاومة من جهة ، ومن جهة أخرى حتى يتسنى للاستعمار تفكيكها كعقاب لها

4- المعاناة من السياسة الاستعمارية:

لم تمر مبايعة بني عامر للأمير وموالاتهم له مرور الكرام على الإدارة الاستعمارية التي عمدت إلى التوسع في أراضي بني عامر، وكانت أولى الرحلات إلى أراضيهم في 1835 بقيادة المارشال "كلوزيل" شخصياً حيث استولت قواته على معسكر عاصمة الأمير وتلمسان⁵. إن هدف فرنسا كان واضحاً من خلال التغلغل في أراضي بني عامر، إذ كانت

¹ - ذكر دumas في مراسلته في 01 سبتمبر 1838 أن الأمير في عين ماضي لا يزال في نفس الموقف الذي كان فيه منذ بداية الحصار ولم يستطع أن يكتسب شبراً من الأرض، حيث أنه تلقى رسلاً من رؤساء ومرابطي هاشم لحثه على التراجع عن هذا الحصار الذي حتماً سيطول وقد استدعى الأمير جميع المشاة من تلمسان وزاد المدفعية، ويصف دumas أن بني عامر رفضوا طاعة البوحميدي وهم ملتزمون بطاعة الأمير. انظر:

Georges Yver, op.cit., p 295.

² - بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 173.

³ - Georges Yver, Ibid., p 245.

⁴ - العربي منور، تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، الجزائر، دار المعرفة، 2006، ص 152.

⁵ - Léon Adoue, La ville de Sidi-Bel-Abbès, histoire- légende- anecdotes, Sidi-Bel-Abbès, René Roidot, 1927, pp 37- 38.

تهدف إلى إخضاعها بأية وسيلة، ومن خلال تقرير حول قبائل العرب، معدّ من قبل لجنة الجزائر مؤرخ في 18 جانفي 1834، وفيه تعطي اللجنة تصورا لإحياء مشروع الإتاوات بالنسبة للقبائل التي لا تعترف بسيادة فرنسا والذي حسب اللجنة سيخلق رد فعل عنيف لدى القبائل، وهذا نقلا عن التجربة التركية¹. كما أن عدااء القبائل لا زال قائما وهو يهدد أمن فرنسا خاصة في المناطق القبلية التي ستستقر فيها.. أما الذين يرفضون الاعتراف بفرنسا فسيعتبرون قبائل معادية، في حين أن الذين يقبلون السيطرة سيعيشون في سلام وسيتم تدريبهم ليصبحوا قبائل صديقة². وكأسلوب من أساليب القوة رأت اللجنة التي كانت معينة من طرف الملك³ فرض جزية على القبائل وإجبارها على دفعها بالقوة⁴. وبالتالي وجدت القبائل نفسها مجبرة على موالة الفرنسيين وضمنان صداقتهم أو فرض ضرائب باهظة عليها، وهو ما فعلته السلطة التركية معها.

وتظهر المراسلات التي كان يبعث بها "دوماس" "Dumas" سياسة التضيق التي اتبعتها فرنسا ضد بني عامر، إذ كانت تمنعهم من التجول في الأراضي الخاضعة للسلطة الاستعمارية، فضلا عن محاولة فرض نوع من الوصاية عليهم فيما يتعلق بجرائم القتل والسرقة. ففي رسالة من دوماس مؤرخة في 01 سبتمبر 1838 بمعسكر يذكّر فيها أن بني عامر قاموا بسرقة جمال وقاموا بالتجول في ممتلكات الفرنسيين وأن البوحميدي لا يستطيع أن يفعل لهم شيئا⁵، وسيكاتب آغا بني عامر أو الأمير من أجل إيقاف ما سماه "دوماس" بالاضطرابات التي لها عواقب خطيرة⁶.

¹-Procès verbaux et rapports de la commission nommée par le roi le 07 juillet 1833, paris, de l'imprimerie Royale, 1834, p 435.

²-Procès verbaux, op.cit., p 436.

³- تم تعيين هذه اللجنة في 07 جوان 1833 من أجل جمع بعض الحقائق الضرورية لإفريقيا واتخاذ التدابير التي يتطلبها مستقبلها.

⁴-Procès verbaux, op.cit., p 437.

⁵- في 28 أكتوبر 1838 راسل "Dumas" "Quédenneuc" يقول له: «في الأيام الأخيرة لجأت العديد من بطون بني عامر إلى سهل غريس فارين من الخليفة البوحميدي الذي لا يريد أحد أن يطيعه لأنه قبائلي ويشاع أن العديد من دواوير هذه القبيلة لجأت إلى وهران». نلاحظ أن دوماس استعمل مصطلح دواير يقصد به بكن من بطون بني عامر. George Yver, op.cit., p 296.

⁶- بتين هذه المراسلة المؤرخة في 23 جانفي 1839 حيث يقول دوماس: «أنه في 21 جانفي عاد الخليفة مصطفى بن التهامي إلى معسكر واستقبل جيدا من طرفنا، وأخبرنا عن العرب الذين يهددون أسواقنا وعن اعتقال اثنين من بني عامر الذين تحدثت عنهم في

الرسالة السابقة». الرسالة مؤرخة في 01 سبتمبر 1833. Georges Yver, op.cit., p 409.

وبعد اتهام بني عامر بقضية سرقة الجمال من الدواير وإلقاء القبض على فردين منهم، ها هو "دوماس" يطلب من "Quéhénneuc" - في مراسلة مؤرخة في 14 جانفي 1839- أن يطلق سراح المسجونين من بني عامر بعد أن قبض على السارق وهو من الزوج، وهذا على حسب ما صرح به "محمد ولد قدور" وأنه لا يوجد قاسم مشترك بين الأشخاص المسجونين وبين السرقة لذا يجب إطلاق سراحهم حتى لا يحصل توتر بين العرب وتفاذي التعدي على الأسواق الفرنسية حسب مراسلة "دوماس"¹.

لم يكن إطلاق سراح أفراد بني عامر من هذه القضية تحقيقا للعدالة بقدر ما هو حفظ للمصالح الفرنسية وتخوفا من ردة فعل غير متوقعة من القبائل.

ولم يقتصر تشديد الخناق على قبائل بني عامر داخل القبيلة في حد ذاتها بل تعداه إلى مراقبة علاقاتها مع القبائل الأخرى. وتوضح مراسلة "Dumas" إلى "Quéhénneuc" بتاريخ 19 أوت 1839 هذه النقطة، فيخبر دوماس أن الأغا الزين، آغا بني عامر أرسل إليه برسالة تفيد بأن 70 خيمة من الدواير قاموا بزيارة إلى أولاد علي إذ تعتبر هذه المودة جديدة وليس مستبعدا أن تحذو نفس القبائل حذوها²، وعلى ما يبدو فإن التخوف الفرنسي واضح من التقارب بين القبائل، إذ أن ذلك لا يخدم مصلحة فرنسا التي عملت على تفكيك معظم القبائل وتفرقتها. ونظرا لخطورة هذه الخطوة بين بني عامر والدواير يؤكد "دوما" في مراسلة أخرى ذلك في 14 سبتمبر 1839: «نحن متأكدون بأن 10 خيام من الدواير ودوايرسي حمي ولد قاضي قد أتوا إلى بني عامر» وهو ما يؤكد أن علاقة بني عامر والدواير أصبحت تشكل خطراً على المنطقة.

وكتب "ليون روش" في كتابه "ثلاثون سنة في الإسلام" أن الجنرال بوجو قرر اتخاذ إجراءات خاصة بقبيلة بني عامر، إذ أنهم يصرون على أنهم في أرضهم بالرغم من أن

¹ -Georges Yver, op.cit., p 402.

² -Ibid., p 517.

فرنسا تحميمهم، إلا أنهم مخلصون للأمير، وقد اجتمع كل من بوجو و كافينياك¹ بزعماء بني عامر وخاطبهم بيجو موبخا إياهم وأنه كان بصدد اتخاذ إجراءات ردعية ضدهم، حيث أن المتحدث باسم بني عامر اعترف بكل الأخطاء التي ارتكبوها وحاول إعطاء أسباب مقنعة وعلامات السخط بادية على محياه²، وبذلك وجدت بنو عامر نفسها محاصرة من طرف الفرنسيين ويمارس عليها التهيب والتخويف قصد الخضوع التام لفرنسا والتخلي عن الأمير عبد القادر.

ولم تسلم حتى محاصيل ومخزون بني عامر من القمح والمؤونة، فقد كان "لاموريسيار" يعرف بأنه سيوجه لهم ضربة إذا أخذ منهم المؤونة التي من شأنها أن توفر لهم تزويد حامياته، حيث سيسمح له ذلك بالاستقرار دون الحاجة للتزود بالطعام لعدة أسابيع، وبما أن بني عامر كانوا مستعدين للدفاع عن مخزونهم والهجوم على كل من يتعرض له، فقد فاجأهم الجنرال بحيلة بسيطة، فقد كان الجنود يقطعون الحلفاء مسافة معينة ثم يعودون إلى وهران، وفي أحد الأيام ساروا إلى معسكر بني عامر وفاجئوهم³، وقد رفض بنو عامر الخضوع لسلطة "لاموريسيار" كونهم كانوا موالين للأمير وناشدوه للحصول على دعم⁴. وهكذا فقدت بنو عامر والغربة والقبائل المعادية لفرنسا ما يقارب دائرة نصف قطرها مائة كلمتر حول وهران، إضافة إلى كل ثرواتهم تقريبا من ماشية وحبوب وقطعان وتعدي ذلك إلى أسر النساء والأطفال وإحراق المحاصيل⁵.

أدت تلك السياسة المنتهجة من قبل السلطات الفرنسية بمقاطعة تلمسان إلى خضوع معظم قبائل المنطقة إلى المحتل الفرنسي، فقد استهدفت تلك القبائل لمجرد

¹ - كافينياك لويس أوجين: سياسي وعسكري فرنسي، ولد سنة 1802، كان مرشحا للرئاسة الفرنسية عام 1848، كان حاكما عاما على الجزائر في 1848، توفي في 1857.

² -Léon Roches, Trente-deux ans à travers l'Islam, op.cit., p 436.

³ -Les illustrations du XIX siècle, op.cit., p 46.

⁴ -Ibid., p 56.

⁵ -Rozet et Carette, Algérie, paris, Firmin Didot frères éditeur, 1850, p 308.

إيوائها للأمير أو إعانتته¹، ومن خلال هذا يظهر الخطر الذي شكله بنو عامر الذين كانوا مخلصين للأمير ومرتبطين إلى حد كبير بأرضهم الموجودة في الغرب².

وقد تفاخر الفرنسيون بترويضهم للقبائل الموالية للأمير حيث صرح الجنرال "بيجو"³ قائلاً: «لقد صنعهم في أقل من 3 سنوات، قمت بترويض عرب التل وأجبرت قائدهم إلى اللجوء إلى المغرب، ثم واصل المغاربة المعركة»⁴.

كانت سنوات 1840- 1841- 1842 أليمة بالنسبة لبني عامر، حيث نهبت قطعانهم، ولكن منذ هذا التاريخ كانوا يتدرجون بين القبائل المستسلمة والخاضعة وفي الأخير رضخوا إلى طلبات السلطة العسكرية⁵.

عانى بنو عامر على مضض من السيطرة خاصة عندما وجدوا أن مخزن الدواير كان إلى جانب فرنسا مثلما حدث في زمن الأتراك، ومع ذلك فهم دائماً مستعدون للقتال⁶، وعلى الرغم من هذه المعاناة خاصة ضرورة الحرب بين 1830 و 1847 فهم قادرون على تحمل المعاناة، ونفس الرجال الذين خدموا فرنسا يتآمرون بعد استعادة السلام. فبنو عامر في اجتماعهم مع الجنرال مصطفى عام 1845 كانوا يستعدون للقتال تحت رايته ولذلك فالجنرالات بيجو وكافينياك قادة تلمسان المتعاقبين عليها راقبوا باهتمام سلوكهم واستمر ذلك حتى بعد تفكيكهم وهو ما تظهره إحدى التقارير المتعلقة بوضعية (الأهالي)، وهو أمر بالتحري عن المدعو "حسين بوشناق" من واد آمبار (عين

¹ - عبد القادر زائر، دور خلفاء الأمير عبد القادر في بناء الدولة الجزائرية (1832- 1847)، ماجستير غير منشورة، إشراف محمد الطيبي، جامعة وهران، 2009-2010.

² - Emile Keller, Le général De Lamoricière sa vie militaire politique et religieuse, tome 1, paris, René Haton, 1879, p 322.

³ - بيجو توماس روبير: ولد سنة 1784، جاء إلى الجزائر في 1836/06/06 لمحاربة الأمير وفرض السلم، تميزت سياسته بشعار السيف والمحراث، في عهده نشطت الحركة الاستيطانية، توفي في 1847/06/10.

⁴ - Pierre Montagnon, La conquête de l'Algérie 1830- 1870, paris, Pygmalion Gérard Watelet, p 362.

⁵ - Pierre Boyer, op.cit., p 40.

⁶ - Ibid., p 60.

البرد)¹. وقاموا بإيقاف أكثر قادتهم خطرا، حتى يحولوا دون تأثيرهم على الآخرين، حيث وصفوا بالعناصر المثيرة للاضطراب، والتي كانت تقمع مباشرة خوفا من انتشارها². وكتب أحد الفرنسيين أنه كانت لأولاد علي صوامع مليئة بالحبوب، وفي إحدى المرات أمضت حامية فرنسية نصف يوم في إفراغ هذه المخازن من الحبوب³. واستمرت السلطات الاستعمارية في سياسة التضييق على تحركات الأفراد ونشاطهم خاصة مع بداية القرن العشرين وهذا ما تظهره أحد التقارير السرية حول مرور مدجاي موسى ولد الحاج 32 سنة من بلدية تلاغ المختلطة وبوشليط أحمد ولد عبد القادر 25 سنة من سبدو، حيث يعتبران من الطلبة الذين ينتمون إلى الطريقة الدرقاوية⁴.

¹ -AWO, B121/2261, affaires indigènes n°5114. انظر الملحق

² -M. De Mont Rond, Histoire conquête de l'Algérie de 1830 à 1847, op.cit., p 347.

³ -De Martinprey, Souvenirs d'un officier d'Etat major 1830- 1847, paris, Maison Quantin, 1886, p 88.

⁴ -AWO, B : I21/2261.

ثالثاً: تجسيد الاستيطان على أراضي بني عامر.

ذكرنا سابقاً أنّ قبائل بني عامر قد شاركت في مقاومة الأمير عبد القادر ووقفت سداً منيعاً في وجه التغلغل الاستعماري في منطقة القطاع الوهراني وخاصة في منطقة سيدي بلعباس التي تتركز بها أغلب هذه القبائل، حيث أن السلطات الاستعمارية استغلت فرصة تهجيرهم إلى المغرب وشغور أراضيهم لمصادرتها من أجل بناء مراكز استيطانية.

1- بناء مركز استيطاني على أراضي بني عامر:

قامت السلطات الاستعمارية بإنشاء مركز استيطاني مغتمة فرصة هجرة هذه القبائل إلى المغرب، حتى لا تبقى هذه المناطق فارغة وذلك على الطريق الذي يربط وهران والمكرة¹. وإذا كانت المشاركة العامرية، في المقاومة ضمن قوات الأمير، فإن وصول لاموريسيير إلى أراضيها بأمر من القائد العام للقوات الفرنسية الجنرال بيجو "Bugeaud" غير المعادلة العسكرية لتصبح وقتها المواجهة مع قوات الاحتلال مباشرة خاصة بعد أن أقام جيش الاحتلال حامية عسكرية la redoute بالمنطقة لمراقبة تحركات القبائل². وفي 1843 كانت الحامية أول الاستراتيجيات العسكرية الاستعمارية التي كانت تمشي وفق مقاربة بأن الاستيطان والحرب وجهان لعملة واحدة³. ليصبح أمر إقامة حامية عسكرية بداخلها أكثر من ضرورة لتوسيع رقعة الاستعمار وتثبيتته على الأرض. قام الفرنسيون بتنصيب مخيم عسكري في الجهة اليمنى لواد مكرة على أرض قبيلة العمارنة وهي فرقة من قبيلة أولاد إبراهيم، مقابل ضريح الولي الصالح سيدي بلعباس الذي ستحمل المدينة الجديدة اسمه لاحقاً، لمراقبة تحركاتها وتنقلاتها، ويعتبر سيدي بلعباس البوزيدي

¹ -Georges Reutt, op.cit., p 34.

² - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس، المرجع السابق، ص 56.

³ - Ouldnebia Karim, Le redoute de Sidi Bel Abbes, op.cit., p 49.

من الشرفاء المرابطين، هاجر جده من الجزيرة العربية بعد رحلة قاداته من الحجاز لمصر، فطرابلس، وتونس إلى الجزائر التي وصلها وعمره يجاوز المائة سنة ، كان له 14 ابنا وتوفي وهو في سن 114 وهو مستقر عند قبيلة بني عامر في 1870 حيث أصبح ضريحه مزارا لهذه القبائل¹. وفي 1843 قامت إدارة الاحتلال بخطوة أخرى تجاه حاميتها، بأن حوّلتها إلى مركز عسكري في سابقة خطيرة لم تألفها القبيلة من قبل، فقد وصلت فرقة عسكرية بقيادة الجنرال "بيدو" إلى المنطقة وبدأت فوراً في أشغال البناء في الضفة اليمنى لواد مكرة².

وفي غياب العمارنة، سكان المدينة الأصليين، وتطوّر الأحداث لصالح الفرنسيين سارع هؤلاء لإقامة المدينة الجديدة بأمر ملكي صادر عام 1847 بناءً على تقارير "لاموريسيير" و"بيجو"³.

وقد أصدر الجنرال "بيجو" مرسوما يخصّ الأراضي التي هجرها بنو عامر، تمّ بموجبه إعلان هذه الأراضي ملكاً للدولة ليكمّله "لاموريسيير" بضرورة إنشاء مدينة عسكرية في المركز الاستيطاني سيدي بلعباس⁴. فحسب هذا الجنرال فإن الوقت كان مناسباً من أجل خلق مركز استيطاني في بلاد المكرة وذلك من أجل ضمان مراقبة قبائل بني عامر من جهة وتأمين الاتصال والربط بين تلك المناطق، «إنّ هذه المنطقة لها موقع هام لذا نطالب بإنشاء مركز استيطاني على ضفاف المكرة، ويمكن أن تجلب المنطقة عدداً هاماً من المزارعين بسبب توفرها على أراضي خصبة، فقد أصبحت الظروف ملائمة لتنفيذ ذلك»⁵.

¹ - محمد مكحلي، الأولياء والصلحاء في الجزائر الظاهرة والجذور، تقديم المنصف الوناس، وهران: دار القدس العربي، 2020، ص

ص 117-118.

² - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة ، المرجع السابق، ص 54-55.

³ - المرجع نفسه، ص 56.

⁴ - Léon Adoué, op.cit., p 45.

⁵ - Ibid., pp 56- 57.

إنّ ما نستنتجه من خلال هذه المراسلة للجنرال "لاموريسيير" إلى الحاكم العام¹، هو حرص السلطات الاستعمارية على تضيق الخناق على قبيلة بني عامر ومصادرة أراضيها الخصبة، إضافة إلى محاولة التهدئة في المنطقة التي كانت تعرف ذروة المقاومة مع الأمير، ولتحويل هذه الحامية العسكرية الأولى إلى مركز استعماري، بل إلى مدينة استعمارية تشكّلت لجنة برئاسة النقيب "برودون" "Prudhon" مسئول الهندسة العسكرية للشروع في رسم معالم المدينة الجديدة عام 1848 على أنقاض منازل العمارنة التي هدمتها الجرافات وأرضهم التي أباحتها القوانين الاستعمارية².

كان النقيب "برودون" قد قدم التصميم الذي طلب منه إنجازها الحاكم العام في 10 نوفمبر 1848، وفي هذا التخطيط مساحة بناء المدينة بـ 42 هكتار، منها 16 هكتار خاصة بالثكنات واللفيف الأجنبي من أجل حمايتها من هجمات القبائل المحلية، إضافة إلى سور طوله 3 كلم وعلوه 5 م تحيط به خنادق عرضها 14م³. لقد أوكلت للفيلق الأجنبي ببلعباس مهمة تهيئة وصيانة ومراقبة الطريق الرابط بين التل والصحراء عبر جبال الضايا، حيث شرع بالأشغال به سنة 1842 وانتهت سنة 1844-1845 وهذا قبل إنشاء المركز الاستعماري في مدينة سيدي بلعباس. لقد شارك الفيلق الأجنبي بقواته المختلفة في أعمال بناء مدينة بلعباس في مدة زمنية تناهز 10 سنوات (1848-1857) فقد بنى هذا الأخير التحصينات الدفاعية⁴، وهكذا يتبيّن لنا أنّ بناء مركز استيطاني على أراضي بني عامر جاء لتفكيك هذه القبائل وإضعافها بالرغم من الاعتراف الصريح للفرنسيين بأنّ هذه الأراضي لبني عامر، حيث يقول في ذلك "باستيد" "Bastide": «كل قبائل مقاطعة بلعباس مدرجون في 6 قبائل، بما في ذلك القبائل الأربعة: الحجز، أولاد سليمان، الحساسنة، حميان وهم يشكّلون البلدية المختلطة المكورة، واثنان أولاد سيدي

¹ - كان تقرير الجنرال "لاموريسيير" إلى الحاكم العام "بيجو" في 1843 يطالبه بتأسيس مدينة فرنسية على سهل المكورة.

² - عبد القادر حلوش، نفسه، ص 56.

³ - Léon Adoué, op.cit., pp 45- 47.

⁴ - راجع لحسن، دور اللفيف الأجنبي في منطقة سيدي بلعباس خلال القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 40.

علي بن يوب وأولاد إبراهيم البلدية المختلطة بوخنفيس»¹. وقد شمل تقسيم سيدي بلعباس جميع القبائل التي تضم معا 14 قبيلة، وقد تم إنشاء العديد من المراكز الاستيطانية على أراضي هذا المركز².

ويمكن القول أن إنشاء المركز الاستيطاني على أراضي بني عامر جاء ليعطي الشرعية والصبغة القانونية لاستكمال مصادرة أراضي بني عامر والتحكم فيها، ويستتبع ذلك حركة توطين العنصر الأوروبي³ في المنطقة وهي المرحلة الأخص التي ستزيد من معاناة هذه القبائل، ويكرس المبدأ الاستعماري القاضي بإذابة العنصر المحلي في الأوروبي.

وبعد أن وصل الخطر الفرنسي إلى الأراضي العامرية المتمثل في إقامة حامية عسكرية بها، والتي جعلت الجيش الفرنسي يسيطر على العديد من أراضيها قصد مراقبة تحركاتها ولمنع تواصلها مع الأمير عبد القادر، قامت بنو عامر ممثلة في قبيلة أولاد إبراهيم برد فعل يتمثل في الهجوم على مركز سيدي بلعباس في 1845 والذي كان مفاجئا للسلطات الاستعمارية في المنطقة كونه حمل صبغة مرابطية.

2- الهجوم على مركز سيدي بلعباس:

لقد كان أول رد فعل لقبائل منطقة سيدي بلعباس على التغلغل الاستعماري إلى أراضيهم، هو الانتقال إلى الهجوم العسكري المسلح⁴، حيث أن شعلة الوطنية لم تنطفئ ولم تفقد حيويتها، وبقي الأمل للتخلص من ظلم الاستعمار، إذ كانت الفرصة متاحة⁵.

¹ -Léon Bastide, op.cit., p 209.

² -Octave Teissier, Algérie, géographie, histoire, statistique, description des villes, villages et hameaux, organisation des tribus, nomenclature des Khalifaliks, Aghaliks et Kaïdats, Paris, Hachette et ce, 1864, p 72.

³ - انظر لاحقاً التعمير الأوروبي للمنطقة.

⁴ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 55.

⁵ -« Rebut d'histoire moderne et contemporaine », tome 1, juillet-septembre 1954, Presses Universitaires, France, p 201.

وانطلقت هذه الثورة بإشارة وقعت في سيدي بلعباس في نهاية يناير 1845¹، وقد كان هذا الهجوم بمثابة الاختبار الأكثر خطورة الذي عانت منه الحامية الفرنسية في سيدي بلعباس، إذ أنه كان مفاجئاً وغير متوقع²، بحكم غياب قائد الحامية العسكرية مع بعض قواته الذين كانوا في مهمة تأديبية وعقابية لأولاد سليمان³ تحت قيادة العقيد "فينوي"⁴ "Vinoy" حيث أن بعض اللصوص من أولاد سليمان ارتكبوا بعض السرقات فجاء للبحث عنهم⁵. وكان الهجوم في يوم سوق القبائل العامرية، بحيث تظاهر المهاجمون المهاجمون الذين كانوا يحملون أسلحة مخبأة بإحكام تحت ملابسهم، بالرغبة في زيارة ضريح الولي الصالح بالمكان المقابل للمركز الفرنسي تفاديا لتفطن القوات الفرنسية لحيلتهم وخطتهم، غير أنه سرعان ما تبدلت وجهتهم عندما دخلوا إلى المركز، فانقضوا على عناصره شاهرين أسلحتهم ومكبرين⁶. ويصف لنا "دومونترو" "M. De Montrond" هذه الحادثة بقوله: «انطلق المهاجمون في الساعة 10 صباحا، وكانت أسلحتهم مخبأة وعصيهم في أيديهم، وسبقهم إلى الضريح مجموعة من الأطفال الذين قرأوا الأدعية أمام الجنود حيث كانت توحى هيأتهم بالهدوء. اقترب أحد العرب من الحارس وتحدث معه وحاول هذا الأخير منعه من التقدم ولكن العربي أرداه قتيلا بعبارة ناري، وعند سماع هذه الإشارة، استولى رفاقه على أسلحتهم واندفعوا يهاجمون كل ما وجد في طريقهم، وذهبوا مباشرة إلى مقر القيادة، ونشب صراع عنيف بين الطرفين، وسرعان ما تغلب الفرنسيون على هؤلاء البائسين⁷ حيث كانوا يفوقونهم عددا، وحاولوا الفرار بعد

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، القسم 1، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1992، ص 269.

² - Léon Adoué ; La ville de Sidi Bel Abbes, op.cit., p 40.

³ - عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص 55.

⁴ - Léon Adoué, ibid., p 40.

⁵ - M. De Mont Rond, Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830 à 1847, op.cit., p 350.

⁶ - عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص 55.

⁷ - تكرر هذه الكلمة "بائسين" من طرف المؤرخين الفرنسيين في وصفهم لقبائل بني عامروهي تنم عن الاحتقار والمعاملة التي كانت تتلقاها هذه القبائل من طرف المستعمر.

الاشتباك، لكنهم وجدوا أمامهم مجموعة مسلحة بالحرب وقتلوا 58 منهم¹ وتم حصر 38 جثة في الميدان ووصل القائد "Vinoy" الذي حذرته طلقات المدافع ولم يفهم شيئاً مما حصل وفي الطريق أعاد النساء والأطفال إلى المخيم دون مقاومة لمعرفة الحقيقة منهم في ظل وجود جثث معظم أزواجهن، حيث لم يبدين أيّ انفعال أو تأثر².

وجاءت الخسائر الفرنسية بجرح 26 عسكرياً فرنسياً ومقتل 6 منهم بما فيهم الضابط المحاسب الذي أطلق عليه الرصاص في اليد³.

إنّ المحرّك الأساسي لهذه الثورة هو الوازع الديني بحكم انتماء أولاد إبراهيم إلى الطريقة الدرقاوية، فقد قاد هذه الثورة عبد الرحمن العامري الطوطي، إذ أنّه كان مقدّم الدرقاوية في سيدي بلعباس بتسمية من شيخه محمد بن إبراهيم (ت 1840)⁴. وحسب "بوير" فإن أغلبية بني عامر لم يكونوا معارضين للفرنسيين⁵، لكن مرجعيتهم الدينية فيها عداً كامناً لهم وهو ما تجلّى في الهجوم على مركز سيدي بلعباس، وهو آخر عمل من معارضتهم، فقد كان الهجوم عرضياً نظراً لعدم تكافؤ الصراع بين الطرفين⁶.

¹ يذكرليون أدوي أن عدد القتلى كان 56، ص 41. أمّا "دومونترو" في صفحة 350 فذكر أن عدد القتلى كان 58.

أمّا عدد المهاجمين فذكر سعد الله في الحركة الوطنية، ج 1، ص 269 أن عددهم كان حوالي ستة حيث قتلوا عشرين فرنسياً.

² -M. De Mont Rond, ibid., pp 350- 351.

³ - Léon Adoué, ibid., p 41.

⁴ تذكر المصادر الفرنسية أن محمد بن إبراهيم حاول أن يثني عزم تلميذه الطوطي عن محاربة المسيحيين ففشل مثلما فشل العربي بن عطية في ثني عزيمة الحاج موسى. وتقول هذه المصادر أنّ لا نثق فيها كلّ الثقة، أن الشيخ الطوطي كان أيضاً يتصل بالشيخ العربي بن عطية في الونشريس والحاج محمد بن عبد المؤمن في الريف (المغرب) ثم يظهر لأنصاره أن هذين الشيخين يؤيدانه. وبناء على ذلك فإن العملية الفدائية التي أشرنا إليها والتي أدت إلى مقتل عشرين من العدو واستشهاد المهاجمين من المجاهدين في سيدي بلعباس سنة 1845 (1261) كانت من تنفيذ الطوطي، وكان عدد مجاهدين ستة وستين، حسب هذا المصدر.

ويقول الشعراي: إن الطوطي ثار على الفرنسيين بفقرائه (أتباعه في الطريقة الدرقاوية) في سيدي بلعباس سنة 1261 (1845) وكان ذلك يوم السوق، فكان ماله ومال من معه القتل، ولم تفده ثورته شيئاً. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، المرجع السابق، ص 283.

⁵ يتحدث بوير من الخلفية الاستعمارية القائمة على تخوين القبائل والغريب في الأمر أن بوير يرجع سبب الثورة إلى الولاء للدرقاوية فقط وتناسى الدور الذي لعبته هذه القبائل منذ الأيام الأولى للاحتلال خاصة في مقاومة الأمير عبد القادر.

⁶ -Pierre Boyer, op.cit., p 83.

وقد وصف الفرنسيون المهاجمين بالمتعصبين الذين ينتمون إلى الطريقة الدرقاوية¹. ويرجع التفاوت في الخسائر إلى عدم تكافؤ طرفي الصراع من حيث العدة والعتاد، وتم دفن شهداء المعركة تحت شجرة الحور، واندثرت هذه المقبرة الجماعية بعد أن غرست بها شجرة السرو، لتصبح فيما بعد نواة الحديقة العمومية الحالية².

ذكرنا سابقاً هجوم أولاد إبراهيم على حامية بلعباس، فبعد زوال الخطر وانتهاء القتال بين المهاجمين والحامية الفرنسية وعودة العقيد "Vinoy" على عجل لفتح تحقيق معمق في الحادثة، وذهب عند قبيلة أولاد إبراهيم من أجل تقصي الحقائق حول الهجوم ، كما أنه قام بمعاينة المهاجمين من قبيلة أولاد إبراهيم وقام باضطهادهم مجسداً في ذلك مبدأ تحمل المسؤولية الجماعية في العقاب .

3- قمع أولاد إبراهيم:

بعد الهجوم على مركز سيدي بلعباس أرسل القائد "والسن استيرازي" قائد المكتب العربي بوهران إلى مكان الحادث لتحقيق كونه يعرف عادات وتقاليد السكان الأصليين وتفكيرهم وتمكن من معرفة ما حصل خلال هذا الهجوم³، فالتحقيق خلص إلى وجود تواطؤ بين المهاجمين والمنتمين إلى الطريقة الدرقاوية في مناطق أخرى، لكن لم يعرف بالضبط نطاقها كون الارتباط الروحي بين أتباع هذه الطريقة كان تقليدياً للغاية وقائماً على مبدأ الأخوة⁴. وللانتقام كعادة الفرنسيين دائماً من أصحاب هذه المعركة البطولية والشجاعة، قام قائد الحامية العسكرية العقيد "Viony" بمداهمات وحشية ضد كل من قبيلة العمارنة وأولاد إبراهيم، فقتل زعمائها بدون محاكمة، ودمر منازلهم وخيمهم، وصادر مواشيهم وحيواناتهم باعتبارها مصدر عيشهم ودعامة قوتهم، وسجن

¹ -Pélissier De Reynaud, annales algériennes, tome troisième, Librairie militaire, Paris, 1854, p 159.

² - عبد القادر حلوش، المرجع السابق ، ص 55.

³ - M. De Montrond, op.cit., p 351.

⁴ -Pierre Boyer, op.cit., p 83.

البعض منهم ورهن النساء والأطفال¹. وقد تمّ تحويل قائد الهجوم إلى وهران أين نُقِذ فيه حكم الإعدام في 26 ماي 1845، وأحضرت السلطات الاستعمارية السكان من أجل حضور هذا المشهد²، وهذا لإرهابهم وإقناعهم بالعدول عن رفع السلاح مستقبلاً في وجه الاحتلال³. ويذكر "بوير" أنّه تم اعتقال سبعة من شيوخ قبيلة أولاد إبراهيم ونفهم إلى جزيرة "سانت مارجریت"⁴ في حين تمكن القائد من الهرب إلى المغرب⁵. وتمّ نزع سلاح قبيلة أولاد إبراهيم، وصودرت خيولهم التي يستخدمونها في الحرب، إضافة إلى جميع وسائل النقل لديهم، وتم إخضاعهم للإقامة الجبرية، وتم مراقبة تحركاتهم والتشديد عليهم حيث لا يتم ذلك دون علم الفرنسيين، وكإجراء أخير تم استبدال القائد⁶.

وانتهت هذه الحادثة حسب "De Mont Rond" بفشل صامت وسريع كما بدأت⁷، بدأت⁷، لكن يدحض ادعاءاته هذه أنّها أقلقت مضاجع الفرنسيين وجعلتهم في حيرة من أمرهم كونها حملت الصبغة الدرقاوية في التخطيط والتنفيذ. وقد كانت السبب الأساسي الذي جعل جلّ قبائل بني عامر تغادر أراضيها وتهاجر إلى الأراضي المغربية⁸ بفعل القمع الذي تعرّضت له بعد فشل هذا الهجوم. وبذلك فقد أولاد إبراهيم مصادر رزقهم

¹ - كانت السياسة الاستعمارية الفرنسية قائمة على مبدأ العقوبة الجماعية في حال ارتكاب مخالفات أو خلال القيام بتمرد أو مهاجمة لمراكز العدو وهذا من أجل خلق نوع من الردع لدى القبائل خاصة وهو ما حدث لقبيلة أولاد إبراهيم التي تم معاقبتها من طرف العقيد "Vinoy" بعد فشل الهجوم على حامية سيدي بلعباس.

² - إن إرغام السلطات الاستعمارية السكان على مشاهدة مشهد إعدام قائد الهجوم لهو خير دليل على همجية ووحشية الفرنسيين الذين كثيراً ما تغنوا بشعارات الثورة الفرنسية، لقد كان الهدف من ذلك هو إرهاب السكان وردعهم عن الوقوف في وجه فرنسا وعدم رفع السلاح من أجل المقاومة لكن في حقيقة الأمر هذا القمع لم يزد هم إلا إصراراً على إخراج العدو بمقاومته وهو ما تجلّى فعلاً في الثورات الشعبية التي تبنتها هذه القبائل.

³ - عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص 55.

⁴ - سان مارجریت: جزيرة تقع قبالة ساحل مدينة كان جنوب فرنسا حيث اشتهرت بقلاعها وكنائسها.

⁵ - Pierre Boyer, op.cit., p 61.

⁶ - M. De Montrond, op cit., p 351.

⁷ - De Mont Rond, op.cit., p 351.

⁸ - إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 29.

وحوصروا حصاراً شديداً، إضافة إلى ذلك فقدوا أراضيهم بعد مغادرتها، وهو ما زاد من معاناتهم.

وبعد هجرة بني عامر إلى المغرب، اعتبرت فرنسا ذلك تخلياً عن أراضيهم وبالتالي استفادة الاستعمار والقبائل العربية التي بقيت في المنطقة منها حيث تم اغتنام هذه الفرصة من أجل إحلال العنصر الأوروبي في المنطقة على حساب العنصر المحلي، حيث تم منح قطع من الأراضي والامتيازات لهؤلاء المعمرين الذين وجدوا صعوبة في التأقلم مع الوضع الراهن في البداية ، لكن سرعان ما تم استقرارهم في أغلب المراكز التي بنيت خصيصاً لهم..

4- التعمير الأوروبي للمنطقة منذ 1848:

أمرت قيادة وهران بتعمير كامل المنطقة إلى غاية حدود سهل المكرة حتى لا يبقى هذا الأخير الذي يربط وهران بمركز الضاية فارغاً مروراً بالحامية التي أقيمت مقابل المرباط سيدي بلعباس¹، والذي كما سبق وأن ذكرنا تحولت إلى مدينة جديدة هي سيدي بلعباس. ولم يكتف الاستعمار بذلك بل عمل على إنشاء المزيد من المراكز الاستيطانية في المنطقة قصد استقطاب أكبر عدد من المستوطنين الأوروبيين ليحلوا محل القبائل العامرية، ولتفتيت ما تبقى منها بتغليب العنصر الأجنبي عليها. وفي الواقع اختيرت منطقة سيدي بلعباس لتكون حقلاً لتجارب السياسة الاستعمارية الاستيطانية²، فبعد احتلال أراضي المكرة ومطاردة سكانها من قبائل بني عامر، شرعت الإدارة الاستعمارية في تأسيس مراكز استيطانية ريفية في المرحلة الأولى واتخذتها قاعدة أساسية لتوطين المستوطنين

¹ - Georges Reutt, op.cit., p 34.

² - خلال السنوات الموالية لتأسيس مدينة سيدي بلعباس بموجب المرسوم الرئاسي في 05 جانفي 1849، تم إنشاء مراكز أخرى رسمياً هي: بوحنيضة في 1850- سيدي إبراهيم ((Prudon 1854- تنيرة 1858- بن يوب (Chanzy) وسيدي لحسن (Dertie) 1854- زليفة 1859- واد أمبار 1862- طرامبل وسيدي خالد (Palissy) 1863- مجنط 1870- زروالة (Deligny) 1872- مارسى لأكومب

1874- عين الحجر (Parmentier). pp. 153-158. L. Bastide

- Georges Reutt, op.cit., p 35. وانظر أيضاً:

القادمين من الدول الأوروبية وتشجيعهم على الاستقرار لتثبيتهم بها والتحكم في ثروتها الزراعية¹. لقد سعت الإدارة الاستعمارية جاهدة منذ البداية إلى محاولة تغليب العنصر الأوروبي على العنصر الجزائري ليكون نواة لحكومة استعمارية بأرض الجزائر المسلمة، كانت ترمي هذه المشاريع أساساً إلى تفكيك البنية الاقتصادية المبنية على النمط الاقتصادي العشائري والعلاقات الاجتماعية المؤسسة على المثل الدينية والخلقية²، وهذا ما كانت تتميز به القبائل العامرية في هذه المنطقة، وهو ما كان يشكل خطراً وتهديداً واضحاً للسلطات الاستعمارية.

وخلال 1853 تم إسكان العديد من العائلات الأوروبية، حيث أنه كانت هناك 8 مراكز قيد التأسيس في المنطقة حيث تم الاستحواذ على 9.661 هـ³.

وقد عرفت عملية انتقاء المستوطنين الأوائل صعوبة كبيرة لأن القليل منهم كانت لديه خبرة بالزراعة في منطقة البحر الأبيض المتوسط⁴، إضافة إلى أن المعمرين الذين استوطنوا المنطقة ينتمون إلى جنسيات فرنسية وألمانية وإسبانية وإيطالية وغيرها، وقد شجعتهم السلطات الاستعمارية على الاستقرار في المنطقة عن طريق توفير الأراضي الخصبة وآلات الزراعة والحبوب والمواشي. ففي سنة 1853 استفادت 300 عائلة أوروبية بينها 15 عائلة ألمانية من أراضي فلاحية في سيدي لحسن⁵، حيث قامت وحدتان من الفيلق الأجنبي بمساعدتها من أجل الاستيلاء على سهل سيدي لحسن والاستقرار به وطرده أهله منه، كما قامت هذه الفرقة بإنشاء جسر عسكري من الخشب في هذه المنطقة⁶.

¹ - محمد مجاود، منطقة سيدي بلعباس قرن من الاستيطان، المرجع السابق، ص 90-91.

² - محمد مجاود، منطقة سيدي بلعباس قرن من الاستيطان، المرجع السابق، ص 93.

³ - Redouane Ainad Tabet, Histoire d'Algérie..., op.cit., p 75.

⁴ - Georges Reutt, op.cit., p 35

⁵ - Ainad Tabet, op.cit., p 76

⁶ - رابع لحسن، دور اللفييف الأجنبي في منطقة سيدي بلعباس...، المرجع السابق، ص 41.

وهكذا نلاحظ أن فرنسا قامت بتوطين المعمرين في أراضي بني عامر تحت حماية فرق الليف الأجنبي قصد تثبيت وجودهم وتوفير البيئة المناسبة لهم، ومن خلال هذه الامتيازات نشطت حركة الاستيطان، وتزايدت الهجرة الأوروبية إلى سيدي بلعباس. ففي سنة 1852 كانت هناك حوالي 1728 نسمة لتنتقل إلى 5101 نسمة سنة 1862¹. ويذكر Georges Reutt الأرقام التي نقلها عن باستيد عن الزيادة السكانية في إقليم سيدي بلعباس خلال العقود الأولى من الاستعمار.

سكان إقليم سيدي بلعباس (مركز ضايا غير مدرج).

السنوات	أوروبيون	أهالي	مجموع السكان
1858	4629	822	3451
1862	5101	2349	7450
1867	6478	2415	8902
1872	//	//	18893

ومن خلال هذه الأرقام نرى طغيان العنصر الأوروبي على العنصر المحلي²، الذي كان بالنسبة لفرنسا مجرد أهالي سعت للقضاء على ما تبقى منهم حسب النظرة الفرنسية. ويعكس ذلك التقارير والمراسلات التي كان يرسلها الجنرالات إلى الحكام العامين حول كل ما يتعلق بوضعية السكان وأحوالهم، إضافة إلى مدى ملائمة أراضي بني عامر للاستيطان، وما يؤكد هذا هو ما ذكره المؤرخ جورج إيفار "Georges Yver" في المجلة الإفريقية أن قائد إقليم وهران الجنرال ماكماهون "Mac Mahon" ذكر في تقرير أرسله

¹ - Ainad Tabet, op.cit., p 110

² - Georges Reutt, op.cit., p 36.

إلى الحاكم العام الدوق دومال "Duc Dumal" في 18 جوان 1851 يخبره فيه: «تعتبر سهول سيدي بلعباس وتلمسان فضاء واسعا للاستيطان، فهجرة بني عامر الغرابة إلى المغرب جعلت المنطقة شاغرة. فهناك ما بين 14 إلى 15 منطقة شاغرة في جنوب وغرب سيدي بلعباس، في منطقة قريبة من هذا المركز في طريق 05 إلى 06 كلماتي تم تخصيصها للمعمرين الأوروبيين. والمنطقة المحيطة بها ستخصص لتوطين المارونيين»¹. والجدير بالذكر أن ماكماهون قد حدد المناطق المناسبة لتوطين الموارنة² هي سيدي علي بن يوب وعين الحجر إلى غاية واد مكرة على بعد 22 كلم طريق سيدي بلعباس وتلمسان، فمنطقة سيدي علي بن يوب ذات أهمية اقتصادية وإستراتيجية كونها واقعة في داخل التل وتعتبر منطقة مراقبة تمنع اجتماع الفرسان في الجنوب وهي تعتبر نقطة اتصال وبالتالي إسكان هؤلاء الموارنة فيها³. إن هذا الاقتراح يهدف إلى حماية المارونيين في أراض جزائرية، خاصة أنهم سيجدون أنفسهم وسط أناس ليسوا غرباء عنهم من حيث اللغة والعادات والتقاليد، إضافة إلى أنهم سيستخدمون كوسيلة لتمسيح الجزائريين⁴. ويشير كريم ولد النبية أن وثائق الإدارة الاستعمارية تذكر حدث طرد سكان أولاد زاير في منطقة برقش وتوطين مكانهم مائة وستون فرنسيا (17 عائلة) في مساحة قدرها 150 هكتارا سنة 1879، وفي نهاية 1847 كان الاستعمار قد اغتصب حوالي 30 ألف هكتار في منطقة سيدي بلعباس وحدها غادرتها قبيلة العمارنة وأولاد إبراهيم⁵. ولم يتوان المحتلون لحظة في بذل الجهود لتكييف هاته البيئة الغريبة عنهم، من خلال إدخال النمط المعيشي الأوروبي، بدءا بالعمارة (المراكز الاستيطانية أو القرى) التي حلت محل

¹ -Georges Yver, « Les Maronites et l'Algérie », Revue Africaine, 3^e et 4 trimestres, 1920, p 191.

² - ينتمي المارونيون إلى العرب المسيحيين في لبنان، نسبة إلى القديس مارون أبو الموارنة، وقد حمل اسم مارون الذي يعني بالعبرية "السيد" حسب الأب "ضو" كثيرون حملوا اسم مارون أشهرهم أربعة نساك قديسين (مارون الناسك- مارون الاياتي- مارون الرهاوي- مارون القورشي وهو المعروف بأب الموارنة، والمؤسس للطائفة المارونية التي انتشرت في سوريا ولبنان). للمزيد انظر: عبد الله أبي عبد الله، تاريخ الموارنة ومسيحي الشرق عبر العصور، ج1، مكتبة المهتدين، ط1، 1997، ص 93.

³ - Georges Yver, op.cit., p 192.

⁴ - إبراهيم لونيسي، الاستعمار الاستيطاني في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 74.

⁵ - كريم ولد النبية، تاريخ الإدارة الاستعمارية، المرجع السابق، ص 35.

الخيام أو الدواوير شيئاً فشيئاً مروراً بالحياة السياسية الجديدة، ووصولاً عند الثقافة الأوروبية¹. فبعد أن كانت قبائل بني عامر صاحبة الأرض باسطة نفوذها بفرسانها على المنطقة وجدت نفسها أقلية بين المستوطنين الأوروبيين الذين كرّسوا الهيمنة والسيطرة على الأرض والإنسان معاً في المنطقة.

¹ - خالد بوهند، الوضع الثقافي وتكوين النخبة بمنطقة سيدي بلعباس خلال الاحتلال الفرنسي (1900- 1954)، ماجستير غير منشورة، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2004- 2005، ص 29.

رابعاً: قبائل بني عامر في المغرب 1845-1848.

منذ الأيام الأولى للاحتلال توالى هجرات الجزائريين إلى خارج الوطن، فابتداء من 1832 هجرت عدة عوائل من الجزائر العاصمة إلى مدينة تطوان في المغرب، ومن وهران ومستغانم إلى وجدة وتازة، ومن تلمسان إلى فاس، كما فرّت قبائل الحشم وبني عامر إلى المغرب بعد إنهاء مقاومة الأمير عبد القادر للهروب من الإجراءات العقابية للاحتلال.

1- أسباب النزوح إلى المغرب:

إذا حللنا سبب هذه الهجرات المتزايدة، وجدنا أنها كانت فرارا من الواقع الاستعماري ورفض السلطة المحتل، إضافة إلى الأسباب الدينية وذلك لرفض الجزائريين العيش تحت سلطة الكافر، كما قد يكون السبب بدافع اقتصادي بعد الإفلاس ومصادرة الأراضي والأموال ونهب الأوقاف وأراضي العرش والتضييق على النشاط الرعوي¹. وقد كان للعلماء والمتصوفة موقف من الهجرة، حيث يرى أحد المتصوفة، وهو الشيخ الحبيب بن سيدي موسى العامري - من بني عامر-²، أن الهجرة الصورية (البدنية) قد انقطعت ولم تعد واجبة، أما الهجرة الروحية فهي باقية بقاء الدنيا³. وعندما كان كتاب الأمير يدعون المسلمين ولا سيما العلماء والطلبة إلى الهجرة كان ليون روش، الذي كان يتجسس على الأمير، يتابع المراسلات ويطلع على ردود الأفعال. وعند استئناف الحرب مع الفرنسيين (1839) وجد ليون روش الفرصة للهروب من حاشية الأمير إلى الماريشال "بوجو"، وقد كشف له في تقاريره عن عورات المسلمين ولا سيما

¹ - هوارى قبائلي، "حركة الهجرة بين الجزائر وفرنسا 1830-1962"، مجلة المرافق للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، عدد رقم 05 ديسمبر 2010، ص 285.

² - كان الشيخ الحبيب من رجال تصريف، كما قيل، وحيد الخروج إلى سيخة وهران عند هجرة قبيلته الشهيرة بني عامر إلى المغرب الأقصى، ولما رجعت القبيلة بعد هزيمة الأمير عبد القادر رجع هو أيضا واجتمع الشمل، وقد توفي الشيخ الحبيب سنة 1287هـ، ويبدو أن الأمير عبد القادر قد غير موقفه بعد هزيمته وسجنه وإقامته في المهجر، فلا يعلم أنه شجع على الهجرة بعد 1847. انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، 1830-1954، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1998، ص ص 362-363.

³ - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 362.

مخططات الأمير وأسراره، ومن ذلك أن المسلمين كانوا يعتبرون الأرض الواقعة تحت الإدارة الاستعمارية دار حرب بعد الخروج منها، وكان ذلك هو أساس حركة الجهاد عندهم¹.

واستقبل المغرب الأقصى أعدادا كبيرة من المهاجرين الجزائريين، سواء أولئك الذين وردوا عليه بنية الإقامة أو الذين اتخذوا منه منطقة عبور، ومن الجزائريين من هاجر إلى المغرب ثم عاد منه بعد تغير الأحوال في الجزائر لأسباب مادية أو عائلية. والهجرة إلى المغرب أخذت تتضاعف مع الاحتلال سيما من النواحي الغربية، فهناك أفراد وحتى عائلات وقبائل بأسرها لجأت إلى المغرب، و آخر العهد كان مع الأمير سنة 1847، وكان الجزائريون يجدون في المغرب ما يجده الأخ من أخيه، وقلما حدثت أمور تعكّر جو الأخوة، وإذا ما وقع ذلك فإنه يكون لسبب سياسي عابر أو تنافس شخصي سرعان ما ي زال، وقد عطف المغاربة على الجزائريين من جهتين، الأولى كونهم إخوانا يعانون من البؤس والاحتلال الأجنبي، والثانية كونهم مجاهدون في حاجة إلى الإيواء والسلاح وكل أشكال المساعدة². واعتبرت الهجرة في تلك الفترة فعلا مضادا ضد تشريعات الاستعمار، وارتبطت بالوضع العام الذي ساد الجزائر، حيث مسّ كيان المجتمع الجزائري وثقافته وهويته الوطنية، ولم يستطع تحمل عبئ المقاومات الراضية للسيطرة وانتزاع الأراضي³. وكان بنو عامر قد ارتحلوا من دائرة الأمير إلى المغرب الأقصى بسبب ما أحدثته دسائس البوحميدي ضد مصطفى بن التهامي أمين الدائرة، والبوحميدي هذا هو الذي كان سببا في نزوح بني عامر إلى المغرب الأقصى بما ألقى في قلوبهم من الرعب، وبتحريضهم على إعلان العصيان في وجه الخليفة ابن التهامي⁴. وحسب "دوما" فإن الخليفة البوحميدي كان يحكم بقبضة من حديد، وأصبح أسوأ من

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، 1830-1954، المرجع السابق، ص 363.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، 1830-1945، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1998، ص 486.

³ - محمد بليل، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساتها على الجزائريين بين 1881 و 1914، الجزائر: وزارة الثقافة، 2013، ص 365.

⁴ - عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 5، دار الأمة، ب.ت، ص 77.

أي وقت مضى مع قبيلة بني عامر، حيث أنه استغل نسبه لفرض الطاعة على هذه القبائل مستخدما في ذلك أسلوب القسوة¹.

وبعد واقعة سيدي إبراهيم في 1845 هرب بنو عامر إلى المغرب بعد حرق محاصيلهم التي لم يسلم منها حتى العشب²، إضافة إلى التضيق الذي مورس عليهم ونهب ماشيتهم وهذا ما ساهم في تفكيكها. وكان هذا بعد اتصال الخليفة البوحميدي بشيوخ بني عامر في أكتوبر 1845 وإقناعهم بضرورة الهجرة إلى المغرب رفقة الأمير الذي أخذ معه أولاد إبراهيم والحجز، الجعافرة من اليعقوبية كما رافقته خيام من أولاد سليمان³. لقد استقبل المغرب الكثير من القبائل الموالية لعبد القادر حيث عبر كل من بني عامر والحشم الحدود وطلبوا أراضي من إمبراطور المغرب عبد الرحمن الذي سمح لهم بالإقامة في نواحي فاس⁴. وبذلك خسر ابن التهامي 1200 فارس و800 جندي من المشاة كانوا يؤمنون حراسة المعسكر وازداد الوضع الدفاعي سوءا في الدائرة⁵. ولعل الأسباب التي جعلت بني عامر يتزحون إلى المغرب هو تفاقم الخلافات بين الأمير والسلطان المغربي⁶، وتطورت المواجهات إلى صدامات، واستعمل السلطان المغربي وسائل عديدة من أجل زعزعة الأمير حيث راح يستميل القبائل الجزائرية إليه وإغرائها بترك المقاومة والتنصل في الجهاد في صفوف الأمير، وقد أفلحت تلك المساعي بمغادرة بني عامر إلى

¹ - المراسلة من Dumas إلى Quéhenneuc ونهي مؤرخة في 09 فيفري 1839 بمعسكر، حيث يذكر فيها توظيف البوحميدي لنسبه وحسبه من أجل السيطرة على قبائل بني عامر من أجل إخضاعها. انظر:

Georges Yver, op.cit., p 486.

² - Camille Rousset, La conquête de l'Algérie 1841- 1897, op.cit., p 68.

³ - حنفي هلايلي، مدينة سيدي بلعباس النشأة والتاريخ، المرجع السابق، ص 05.

⁴ - Louis De Baudicour, La guerre et le gouvernement de l'Algérie, op.cit., p 397.

⁵ - أديب حرب، التاريخ السياسي والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ج2، الجزائر: دار الرائد للكتاب، ط3، 2005، ص 557.

⁶ - كانت العلاقات الجزائرية مع سلطان المغرب حسنة وتظهر مراسلة لدوماس في 31 ديسمبر 1837 بمعسكر، طبعة هذه العلاقات من خلال المبادلات التجارية اليومية ويبدو تخوفه منها خاصة بعد زيارة شقيق الأمير والآغا الزين آغا بني عامر إلى فاس. انظر:

Georges Yver, op.cit., p 486.

المغرب¹، حيث أخلت موقعها في الجبهة وتركت الجهاد مع الأمير بسبب دعاية السلطان بيطلانه².

إن نزوح بني عامر للمغرب هو نتاج تراكمات كثيرة فمن جهة السلطات الاستعمارية وتضييق الخناق عليها ومن جهة أخرى قسوة البوحميدي عليها، إضافة إلى إشاعة بطلان الجهاد كلها عوامل ساهمت في هجرتها للبحث عن وضع أفضل في المغرب.

وبالرغم من نزوح عديد الفصائل إلى المغرب طلبا للأمان إلا أن البعض منها فضل البقاء على الهجرة مثل أولاد علي وأولاد زاير الذين رفضوا الهجرة وبقوا في أراضيهم يمارسون النشاط الزراعي فيها، لكن ذلك لم يمنع دخول عناصر غربية عليهم ، إضافة إلا أنهم لم يسلموا من ظلم السياسة الفرنسية.

2- القبائل التي لم تهجر:

في عام 1839 كان لزاما على الأمير التخلي عن معسكره، وكان أمام القبائل الموالية له اختبار سياسي، خاصة وأن بني عامر كانت موالية للدقاوية وتشبثوا بها خاصة في 1841 بعد أن اجتمعوا وراء المنافس "محمد بن عبد الله" الشريف المستقبلي لورقلة في 1849 والذي حاول في العديد من المرات الوقوف في وجه الأمير، هذا الأخير الذي سارع إلى إرسال القادة الرئيسيين لكونفدرالية بني عامر إلى وجدة، وبعد 1842 رافق عدد قليل من خيام أولاد زاير الأمير عبد القادر إلى الحدود المغربية، وقد عادوا بعد فترة وجيزة وهم يحملون خيبة أمل كبيرة نتيجة التدمير الذي تعرضوا له، وربما تكون هذه السابقة سببا في امتناعهم في المشاركة في هجرة بني عامر الكبيرة في 1845³. فخلال هذه

¹ - سليمان عشراي، الأمير عبد القادر السياسي قراءة في فريدة الرمز والريادة، الجزائر: دار القدس العربي للنشر والتوزيع، 2011، ص 277.

² - لا ينبغي الاقتناع بما يشاع من أن قبائل بني عامر رحلت إلى المغرب مغاضبة للأمير بسبب ما نالها على يد خليفته، فالأمر أبعد من ذلك السبب، إذ ساهمت يد السلطان في مفاقمة الخلاف.

سليمان عشراي، المرجع السابق، هامش 1، ص 277.

³ -Pierre Boyer, op.cit., p 60.

السنة اتصل خليفة الأمير عبد القادر البوحميدي بشيوخ بني عامر الشراقة في أكتوبر حيث أقنعهم بضرورة الهجرة إلى المغرب رفقة الأمير فأخذ معه أولاد إبراهيم والحجز والجعافرة من اليعقوبية، كما رافقه خيام من أولاد سليمان¹، لكن أولاد علي رفضوا الانضمام إلى حركة الهجرة الكبيرة²، فأولاد علي كانت مناطقهم محصورة في جبال تسالة وبالتالي كانوا يمارسون زراعة محدودة، حيث كان مستوى معيشتهم أقل بكثير مقارنة بالقبائل الأخرى التي كانت ميسورة الحال³، وقد وصف أولاد علي بأنهم يتميزون بقوة البربر وهم مرابطون لذلك لم يشاركوا في الهجرة ومع ذلك فلم يحتفظوا بتركيبتهم البشرية نظرا لتدفق بعض الخيام الأجنبية عليهم. ويظهر جدول لإحصائيات بين 1844 و1851 بأن أولاد علي لم يهاجر أي فرد منهم وأن تركيبتهم البشرية كانت في تطور مستمر⁴.

لقد اختارت الفصائل التي تم تهجيرها من طرف الاستعمار الفرنسي وسياسته المغرب كدار هجرة واستقرار كما ذكرنا سابقا لما لمستته فيه أمان، حيث وجدوا ترحيبا كبيرا من طرف المغاربة، وقام السلطان المغربي بإقطاعهم أراضي للاستقرار بها، لكن الوضع تغير بعد شعوره بالتهديد القادم من شرق الجزائر فأقدم على إبادة قبيلة بني عامر بالمغرب.

3- إبادة قبيلة بني عامر في المغرب:

مع بدايات سنة 1845 شرعت العديد من قبائل بني عامر في الهجرة من سيدي بلعباس إلى الأراضي المغربية خاصة بعد فشل ثورة أولاد إبراهيم⁵، وهو سبب جعلها

¹ - حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص 05.

² -Pierre Boyer, op.cit., p 62.

³ -Ibid., p 78.

⁴ -Ibid., p 73.

⁵ - انظر لاحقا الفصل الثالث: قمع أولاد إبراهيم.

تغادر أراضيها¹. كانت العلاقات الجزائرية المغربية قبل 1845 جيدة فمثلا بعد سقوط عاصمة الأمير عبد القادر الزمالة سنة 1843 اضطر هذا الأخير إلى الدخول إلى الأراضي المغربية كما سمح للعديد من أنصاره وعلى رأسهم قبائل بني عامر² بالعبور مع الحشم إلى الحدود وطلبوا أراضي من إمبراطور المغرب عبد الرحمن الذي سمح لهم بالإقامة في نواحي فاس، إضافة إلى الاستقبال الذي حظي به الأمير حيث عومل من طرف المغاربة كبطل³. لكن الوضع تغير حيث ذكر "برونو إيتين" أن مولاي عبد الرحمن اضطر إلى أن يوقع في طنجة في 18 سبتمبر 1844 معاهدة صلح بين مراكش وفرنسا التي تنص بموجبها على اعتبار عبد القادر خارجا عن القانون.

حدّدت كل من فرنسا ومراكش حدود الجزائر بموجب اتفاقية لالا مغنية في 18 مارس 1845، وانهارت جميع جهود عبد القادر، إضافة إلى أن السلطان فرض عليه أن يستسلم له، وكان السلطان المراكشي خلال سنة كاملة يناوش قبائل الأمير الملتجئة إلى مراكش في دائرته بينما حرسه الأمين يتجول بين الريف وفاس ليحمي هؤلاء⁴. إضافة إلى أن فرنسا كانت تضغط من خلال المعاهدات السابقة على السلطان المغربي لطرد الأمير، وكانت بريطانيا أيضا تحثه على ذلك حتى لا يكون حضوره سببا في احتلال فرنسا للمغرب، ولكن السلطان نفسه أصبح خائفا من الأمير، فلم يعد هذا بالنسبة إليه لاجئاً أو مجاهداً فقط ولكنه أصبح في نظره منافساً. وقد غدّى الفرنسيون هذه الفكرة عند السلطان⁵، وبلغ سلطان المغرب بأن الشعب المغربي يريد أن يسند الملك للأمير وأن الأمير امتنع بدعوى أنه لم يقصد المغرب برغبة استيلائه على الملك وإنما الضرورة هي التي

¹ - إبراهيم لونيسي، محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ قبائل بني عامر، المرجع السابق، ص 29.

² - المرجع نفسه، ص 30.

³ - Louis De Baudicour, La guerre et le gouvernement de l'Algérie, op.cit., p 398.

⁴ - وصف برونو إيتين قبائل بني عامر بالتعساء إذ تجنبنا ذكر ذلك لما وجدنا فيه من التحيز لصالح السلطان المغربي وإلقاء اللوم على الأمير عبد القادر وعلى بني عامر لما حل بهم.

انظر: برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 234.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992، ص265.

الجاته إلى دخول المغرب، فذكر السلطان لجلسائه أن رفض الأمير للسلطة لدليل على نبلة ويجب أن يدعوه للقيام بواجب الضيافة، فرد الأمير بشكر السلطان على كرمه¹.

أما صاحب الاستقصا فيرى بأن عبد القادر كان يطمع في ملك المغرب من خلال إرساله قبائل بني عامر والحشم إلى المغرب ويقول في ذلك «قد قدمنا ما كان من فساد نية الحاج عبد القادر وأنه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب، فلما كانت الهزيمة بإيسلي ازداد طمعه فصار يدعو أهل النواحي إلى مبايعته والدخول في طاعته، وكاتب الخواص من أهل فاس والدولة وكاتبوه على ما قيل، ثم احتل بأن بعث جماعة وافرة من الحشم وبني عامر شيعته إلى السلطان قدمهم أمامه في صورة هاربين مستجيرين بالسلطان فقبلهم السلطان و أنزلهم على نهر سبو»². هذه الادعاءات باطلة في حق الأمير وقبيلة بني عامر التي هربت من اضطهاد الفرنسيين. وبطبيعة الحال فالأمر يتعلق بشائعات كانت تروجها حاشية الملك التي كانت تخشى أن يفقدها نظام الأمير القائم على المساواة والديمقراطية امتيازاتها، وهذه الأمور هي التي دفعت السلطان إلى تغيير موقفه إزاء الأمير (الذي كان السلطان ما يزال معجبا به ويعتبره بطل الجهاد الذي لا يهزم) وهذا بالرغم من النفوذ الذي كان يتمتع به لدى رعايا السلطان أنفسهم لأنه كان مقتنعا بنزاهة الأمير³، ومع ذلك سيعتقد السلطان المغربي أن الانهيار السياسي والعسكري الذي أصاب مملكته سببه الأمير عبد القادر والمقاومة الجزائرية وقد كان يعتقد أنه لولا الأمير لتركه الفرنسيون وشأنه وأيا ما كان الأمر فإن عبد الرحمن قرر تصفية حسابه لا مع قوات المقاومة الجزائرية فحسب، ولكن أيضا مع القبائل الجزائرية التي وثقت بوعوده

¹ - مسعود طاهر، تاريخ الجزائر، ج 1، الجزائر، 1962، ص 353.

² - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية، القسم الثالث، ج 9، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ب ت، ص 56.

³ - عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير، الجزائر: منشورات دحلب، 2009، ص 182.

بأن يمدّها بالملجأ والحماية¹. وتعرض آلاف المهاجرين الجزائريين بالمغرب على الإثر لسلسلة من المحن على أيدي القوات الحكومية وبعض القبائل الفتاكة الباغية². وعن سبب الإبادة يقول "تشرشل": «وانتشرت الإشاعات بسرعة في جميع أنحاء الدولة المغربية عن استئناف عبد القادر لنشاطه وعن الوميض المؤقت لنجاحه، وخلفت هذه الإشاعات هيجانا لدى السكان المتعصبين وصل صداه إلى حاضرة الملك نفسها، وتشوقت القبائل الجزائرية المهاجرة، التي وضعها السلطان المغربي على بعد ثلاثة أيام من فاس إلى العودة إلى قائدها المحبوب، واتصلت به قبيلة بني عامر وتوسلت إليه أن يساعدها في الانضمام إليه»³.

إن كل هذه العوامل مجتمعة من مكانة الأمير في المغرب وخروج النواحي الشرقية على السلطان ووجود قواعد جزائرية بجوار نهر الملوية ضعفت الأمن والاستقرار على الحدود⁴. ويصف لنا صاحب تحفة الزائر واقعة بني عامر في نواحي فاس: «لما ترك المهاجرون من بني عامر الدائرة ووقع بينهم وبين ابن التهامي خليفة الأمير عليها بدسائس الخليفة السيد محمد البوحميدي وارتحلوا إلى فاس مغاضبين، فأكرم سلطان المغرب نزلهم وأقطعهم أرضا فاستوطنوها ولما رجع الأمير من الجهة الشرقية إلى الدائرة اشترأت نفوسهم إلى الرجوع وأقاموا ينتظرون سنوح الفرصة، فلما تمكن الأمير في أرض الريق وثبت قدمه فيها اعتزموا على الرحلة إلى سيدهم وولي نعمتهم وكتبوا إليه أن يراقبهم في بلاد مكناسة فأجابهم إلى ذلك وارتحل بدائرته إلى كرط قريب من جبل كلعية، ثم سار في نخبة من فرسانه إلى بلاد مكناسة، وكان بنو عامر ارتحلوا مشرقين ففطن بهم جيرانهم

¹ - إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص248.

² - بشير بلّاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1989، ج1، دار المعرفة، 2006، ص 64.

³ - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 239.

⁴ - أعمال ملتقى الأمير عبد القادر 1998، الجزائر: دار الحكمة، 1998، ص 56.

من أهل الوطن فطبروا الخبر إلى سلطانهم فسير¹ في أثرهم جيشا كثيفا من الشراردة عليهم القائد إبراهيم بن أحمد الأكلح ولما نزل بساحتهم أرسلوا إلى رئيسهم يقولون نحن قوم خرجنا من دائرة أميرنا لأمر اقتضى ذلك، والآن أردنا الرجوع إلى إخواننا وأهلنا فلا سبيل لكم إلى منعنا شرعا ولا قانونا، فما كان جوابه إلا أنه أغار عليهم فدافعوه يوما كاملا، ثم كآثرهم الجيش وحشود أهل الوطن وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالساعد فاعتصموا بربوة وجعلوا يقاتلون عن حريمهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة في الأرض، فكلما توجهت إليهم طائفة من الجيش استأصلوها بالرصاص، وكانوا يجمعون موتاهم فينصبونهم أشبارا يلتزمون به، ويقاتلون من خلفه ولما أعى الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم في معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهم بالرماح، وانقطع البارود، فكانوا يقتلون بناتهم ونسائهم بأيديهم فرارا من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسر، ومن بقي منهم من النساء والأولاد أخذهم المراكشيون وباعوهم في أسواقهم بأبخس ثمن². وحسب تشرشل فإن القوة التي أبادت بني عامر كانت تتشكل من 15000 جندي حيث مزقتها وأخذتها على حين غفلة³.

وقبلها كان المغرب قد طالب من قبيلة بني عامر تسليم جيادهم وأنفسهم والتوجه إلى الغرب، ورد شيوخ بني عامر بكل ثقة على هذا الطلب: «لقد جئنا لطلب اللجوء عند مولاي عبد الرحمن وقد منحه لنا، واليوم لم نرتكب أدنى خطأ وهو يريد أن ينقض عهد الضيافة، نزع سلاحنا وجعلنا سجناء، الموت أهون لنا من الخضوع لهذه الأوامر»، ثم سارت القبيلة نحو تازة وفضت الاستسلام، ولكن بعد ذلك نشر الأمير محمد بيانا في جميع أنحاء فاس وضع بمقتضاه مكافأة بمقدار 10 دوكات Ducat مقابل

¹ - محمد باشا بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، سيرته السيفية، الإسكندرية: المطبعة التجارية، غرزي وجاويش، 1903، ص 319.

² - محمد باشا بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، ص 320.

³ - تشارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص ص 239-240.

رأس كل محارب من بني عامر، وأعطى أمرا بأخذ زوجاتهم وأطفالهم، قطعانهم وممتلكاتهم محاطا بـ 12 ألف¹ من العرب والقبائل. دافع بنو عامر عن أنفسهم مدة 3 أيام واستسلموا أخيرا، وكانت هذه المذبحة في بداية سبتمبر 1846². وقد رجع الناجون منهم إلى الجزائر منكسرين ومغلوبين بعضهم برا والآخر بحرا في حالة يرثى لها³. اصطدموا بخبر استسلام الأمير للجيش الغازي ونهاية ملحمة البطولية ويحكى أن الحزن قد خيم على الأهالي في وهران فتعالى البكاء والنحيب أياما وليالي ، ولما اقترح بعض القادة الفرنسيين على الجنرال لاموريسيار الذي حارب جيوش الأمير مدة طويلة منع الناس من البكاء وإبداء مظاهر الحزن ، قال لهم : "دعوهم يبكون فإن عزهم قد ذهب"⁴.

لم يقف الأمير عبد القادر مكتوف الأيدي أمام الخطر الذي كان يحدق بحلفائه التقليديين بنو عامر وإنما سعى بكل الطرق المتاحة من أجل إنقاذهم من بطش السلطان المغربي ومحاولة إرجاعهم إلى الجزائر للالتحاق به، وقد كلف خليفته البوحميدي الولهاسي في محاولة لمنع السلطان المغربي من إبادةهم.

4- محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ بني عامر:

قبل ذبح قبيلة بني عامر من طرف السلطان المغربي بكل وحشية⁵ حاول الأمير الدبلوماسية مع السلطان عبد الرحمن لعله يصل إلى حل سلمي معه يؤدي إلى تفادي الحرب الواسعة بين الطرفين⁶، وقد قرر أن يوجه نداء أخيرا إلى صديقه القديم وحاميه

¹ - ذكر تشرشل أن عدد القوات التي هجمت على بني عامر كانت 15000 وهي أرقام تقريبية، ولعل الذي ضاعف عدد القوات بالنسبة للسلطان المغربي هو المكافأة التي منحها عن رأس كل مقاتل من بني عامر وبالتالي كان هذا حافزا من أجل التحاق العديد من القبائل بهذه القوة طمعا في المكافأة.

² - Camille Rousset, La conquête de l'Algérie 1841- 1857, op.cit., p 158.

³ - إبراهيم لونيسي، محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ قبائل بني عامر، المرجع السابق، ص 31.

⁴ - محمود أبو عياد، "أهم الأحداث في حياة الأمير عبد القادر"، مجلة الثقافة، العدد 75، ماي، جوان 1983، ص 232.

⁵ - شارل نري تشرشل، المصدر السابق، ص 240.

⁶ - أبو القاسم سعد الله، الحكمة الوطنية الجزائرية 1830- 1900، ج 1، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1992، ص 266.

والمعجب به، فأرسل خليفته البوحميدي¹ في مهمة إلى فاس. ولجأ المبعوث إلى أكثر الطرق إقناعاً معددا ذكريات الماضي المجيدة، وطالب بتطبيق أقدس شعائر الكرم باسم جميع علاقات الصداقة والدين²، من أجل العودة إلى التعقل وإلى تحكيم الضمير³، من أجل ألاّ يقوم بتنفيذ المجزرة التي كان يدبرها⁴ ضد قبائل بني عامر⁵ الفارة من البطش الفرنسي لتحتمي بالسلطان المغربي، إلاّ أن هذا المسعى لم يحقق نتيجة بل والأكثر من ذلك فإن السلطات المغربية ألقت القبض على مبعوث الأمير وزجت به في السجن⁶، حيث بقي إلى وفاته⁷ وحسب تشرشل فإن مكوثه في السجن لم يطل حتى مات⁸. واستشهد هذا الفارس وهو يقوم بمهمة جليلة، وفي حصن تازة استشهد أيضا باليوم نفسه خليفة الأمير على المدينة محمود بن عيسى البركاني⁹.

¹ - البوحميدي محمد الولي: اختفى في المغرب في 1847 بعد أن أرسله الأمير إلى السلطان عبد الرحمن من أجل طلب المساعدة، من مواليد 1803 لعائلة مرابطة من منطقة رشقون من قبيلة ولهاصة، تردد على زاوية مازونة وتلقى تعليماً دينياً ودرس التاريخ واللسان في 1834، عينه الأمير خليفة على مقاطعة الجزء الغربي لوهران مع تلمسان، وفي بداية 1840 قام البوحميدي الخبير الإستراتيجي الرفيع والقائد الممتاز بمساعدة قبائل المنطقة، شارك في عدة معارك: المقطع 28 جوان 1835، معركة سيدي يعقوب 25 أفريل 1836، معركة سيدي إبراهيم 22 سبتمبر 1845. انظر:

LacèneKhelil El Berkani, Les insurrections en Algérie (1830- 1900), op.cit., p 98.

² - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 240.

³ - محمد الشريف ساحلي، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية، تعريب: حبيب شنيبي، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2003، ص 172.

⁴ - حسب تشرشل فإن سبب رفض مولاي عبد الرحمن لوساطة البوحميدي كونه أصبح يرى نفسه يومياً محاطاً بصعوبات جديدة، وكانت الحكومة الفرنسية من جهة تضغط عليه، وقد اتصل عبد القادر بالأمر السلطاني «إن على عبد القادر إما أن يستسلم شخصياً إلى السلطان عبد الرحمن وإما أن يعود إلى الصحراء الجزائرية وفي حالة الرفض أو التأخير يزحف الجيش السلطاني ضده». انظر: شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 240.

⁵ - خالد بلعربي، "دور أبو عبد الله البوحميدي الولي في إدارة دولة الأمير عبد القادر"، المجلة التاريخية للدراسات التاريخية والاجتماعية، الجزائر: جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، العدد 6، جوان 2013، ص 16.

⁶ - هناك غموض كبير لف مقبل البوحميدي في المغرب حيث أن أبو القاسم سعد الله ذكر بأن السلطان المغربي بعد استقباله سجنه وأجره على ابتلاع السم ومات في السجن في نهاية 1847. انظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1992، ص 273.

⁷ - إبراهيم لونيبي، محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ قبائل بني عامر من بطش السلطان المغربي سنتي 1846- 1847، المرجع السابق، ص 31.

⁸ - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 240.

⁹ - علي محمد محمّد الصلابي، الأمير عبد القادر الجزائري قائد ربّاني ومجاهد إسلامي، ط 1، دار العزة والكرامة للكتاب، 2015، ص 242.

أما صاحب تحفة الزائر فيصف لنا محاولات الأمير إنقاذ بني عامر من خلال خليفته البوحميدي فيقول: «وفارضه في بعث أحد خلفائه إلى حضرة سلطان مراكش ليعتذر إليه ويستعطف قلبه فأجابه إلى ذلك وعيّن لهذه السفارة خليفته البوحميدي، فسار ومعه الرئيس المذكور إلى فاس فلم يحتفل به السلطان ثم ألقى القبض عليه وبعد أيام قلائل أتلفه بسمّ أكرهه ناظر الحبس على شربه فمزق أمعائه»¹. لقد كانت هذه الأحداث ضربة قاسية للأمير من خلال إظهار عجزه عن حماية ومساعدة شعبه²، لقد كانت هذه الكارثة على كل لسان عربي أو بربري وفي نظر المسلمين فإن بني عامر نالت ما حصل لها بسبب خياناتها المتعددة للأمير، ولم تخلو هذه الفاجعة من العرف العربي المتمثل في الرثاء وإقامة الحداد خاصة من طرف النساء³. إن هذه الفاجعة زادت من معاناة الأمير الذي وبالرغم من عدااء هذه القبائل سابقا له إلا أنّه جاء لملاقاتها ومساعدتها على العودة إلى الدائرة⁴. لقد أعقب هذه المجزرة انتصار لقوات معسكر تازة على عبد القادر، إضافة إلى استئناف تجارة القوافل الصحراوية وساد هدوء في مقاطعة فاس. أما عبد القادر فلم يجد في الريف الدعم الذي يبحث عنه واضطر للوصول إلى الصحراء⁵. ويذكر أن قبيلة بني عامر هي التي أعطت الفرصة لعبد الرحمن لإبادة لها عندما أرادت الالتحاق بعبد القادر حين غادرت الأراضي التي كانت مقيمة بها وسارت من أجل الالتحاق بالأمير. كانت لإبادة هذه القبائل العظيمة انطباع عميق في ذهن عبد القادر حيث وجد نفسه مطاردا من كل ناحية، الجيش المغربي من جهة، والجيش

¹ - محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص ص 320-321.

² - حاولت قبائل بني عامر العودة إلى الجزائر من أجل استرجاع مكانتهم وشعروا بالقلق حيال المصير الذي ينتظرهم في المغرب، وحاولوا الاعتماد على أنفسهم لإيجاد وسائل للعودة لتجنب انتقام ملك المغرب وبمجرد علم عبد القادر بهذا المشروع كتب إلى القبائل بأنها ستكون موضع ترحيب وأن فضل المؤمنين هو نسيانهم لأخطاء الماضي، فأجابه هاشم وبنو عامر، حيث أشارت رسالتهم إلى يوم رحيلهم ومكان التقائهم، وهذه الرسالة عوض أن تصل الأمير سقطت في يد سيدي محمد نجل الإمبراطور الذي كان يقود معسكر تازة، حيث أعطى أوامره للقائد "فراجي" الذي كان على رأس 3000 رجل، والتقى ببني عامر وذبحها دون رحمة. انظر:

- Mme La Ctesse, L'histoire de l'Algérie racontée à la jeunesse, op.cit., p 345.

³ -Ibid., p 346.

⁴ -Camille Rousset, La conquête de l'Algérie 1841- 1857, op.cit., p 151.

⁵ -Mme La Ctesse, op.cit., p 346.

الفرنسي من جهة أخرى¹. وقد وصفت جريدة L'Écho d'Oran هذه المذبحة بالكارثة رغم محاولات عبد القادر لإنقاذ بني عامر وذكرت أنّ بني عامر سيجدون أنفسهم يندبون كل يوم على أراضهم.

¹ -Louis De Baudicourt, La guerre et le gouvernement de l'Algérie, op.cit., p 399.

الفصل الثالث:

بنو عامر بعد العودة من المغرب

الفصل الثالث: بنو عامر بعد العودة من المغرب

أولاً: عوامل التفكك بعد 1845.

- (1) ظروف العودة.
- (2) عراقيل العودة.
- (3) فقدان الأراضي.
- (4) نتائج المأساة.

ثانياً: انعكاسات الهجرة.

- (1) المشكل الديمغرافي.
- (2) ظروف المعيشة.
- (3) التضرر من التشريعات العقارية.
- (4) تعداد بني عامر في 1856.

ثالثاً: توزيع الأراضي بعد العودة.

- (1) الأهمية الإستراتيجية لأراضي بني عامر.
- (2) وصف حالة الأراضي.
- (3) إحصائيات العائدين.
- (4) إعادة توطين القبائل.

رابعاً: تطور بعض فصائل بني عامر بين 1851 و1866.

- (1) أولاد إبراهيم.
- (2) أولاد سليمان.
- (3) أولاد علي.
- (4) الحجز.

أولاً: عوامل التفكك بعد 1845.

بعد إبادة بني عامر من طرف السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن قرروا الرجوع إلى الجزائر لعل ذلك ينسبهم من مآسهم في المغرب، وقد صاحب رجوعهم ظروفًا قاسية وصعبة جداً، ففي الداخل كان سكان المنطقة يعيشون شتى أنواع القمع والمصادرة والتشريد، أما في الخارج فقد كانوا تحت رحمة المغاربة وتحت وقع الحاجة ومرارة الغربة،

1- ظروف العودة:

كان لعودة بني عامر إلى الجزائر آثار كبيرة على نفسيتهم، وقبل ذلك لا زالت آثار معاهدة طنجة بادية في 10 سبتمبر 1844 والتي تعرضت لمصير الأمير في حين تناولت معاهدة لالا مغنية 17 مارس 1845 موضوع الحدود الجزائرية المغربية واعتبار الأمير خارجاً عن القانون¹. إضافة إلى ذلك ضعفت وتقلصت سبل المقاومة واختل ميزان القوى نظراً للتفاوت التجهيزي عدة وعدداً، والسياسة الاستعمارية القمعية والمدمرة التي انتهجها بيجو وأعوانه انطلاقاً من سياسة الأرض المحروقة والغزوات المتتالية والغرامات التي أثقلت كاهلهم². زد على ذلك فقد كان لإبادة بني عامر³ انطباع عميق في ذهن عبد القادر حيث وجد نفسه مطارداً من كل ناحية، الجيش المغربي من جهة، والجيش الفرنسي من جهة أخرى وخسارة قوة كبيرة ممثلة في بني عامر⁴. كل هذه الظروف مجتمعة جعلت من عودتهم صعبة جداً، فقد اضطر العديد من المهزمين منهم إلى الفرار

¹ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 57.

² - عبد القادر زاير، دور خلفاء الأمير عبد القادر في بناء الدولة الجزائرية 1832-1847، المرجع السابق.

³ - لقد كان مقتل البوحميدي على يد السلطان مولاي عبد الرحمن بفاس وقع كبير على الأمير عبد القادر وعلى سير المقاومة، إذ كان يعول عليه كثيراً في إنقاذ قبائل بني عامر، ويصور لنا نفسية الأمير بن عودة المزابي فيقول: «ولما رجع أصحاب البوحميدي المصاحبين له لفاس، أعلموا الأمير فتأسف كثيراً وحصلت له الندامة على إرساله وقال يا ليتني لم أتركه ذهب عند الظالمين النجاس». انظر:

بن عودة المزابي، طلوع سعد السعود، ج2، المصدر السابق، ص 246.

⁴ - Louis De Baudicourt, La guerre et le gouvernement de l'Algérie, op.cit., p 399.

منذ الأسبوع الأول من شهر سبتمبر، وتوافدت الأسر إلى الحدود إلتماساً للأمان، كان ذلك في 07 سبتمبر، وكان عددهم حوالي خمسين عائلة، وفي 18 سبتمبر أفاد "بازان" "Bazaine" قائد لالة مغنية أن العديد من بني عامر قد عادوا وفي 02 أكتوبر عاد 250 شخصاً من النساء والأطفال¹.

لقد وجدت بنو عامر أنفسهم بدون موارد عند عودتها وكل الظروف كانت مهيأة من أجل أن يصبحوا خماسين في أراضيهم التي تركوها، وضيّعوا بالمقابل منذ زمن طويل عقلية البدو الرحل قبل أربعين سنة من انتقالهم إلى المغرب وندموا على المراعي التي تركوها في المكورة²، وفي هذا الوقت كان ليون روش يتولى وظيفة مؤقتة في طنجة مصمماً على مواصلة السياسة الفرنسية، وكان لا يزال هناك في فاس بعض المتبقين من بني عامر³، وفي 25 أكتوبر كتب الحاكم العام الجنرال "Charon" أن 500 من بني عامر لجئوا إلى القنصلية المغربية وطلبوا سفينة إضافية للعودة إلى الجزائر، وكتب الجنرال "Pélissier" إلى الجنرال Charon تقريراً حول هذا الموضوع يبدي من خلاله استيائه من عودة بني عامر، إذ حسب اعتقاده كان يظن أن هذه القبيلة قد دمرت ويخشى أن تعود أكثر عدائية من السابق وقد وصفهم Pélissier بالجائعين الذين يسعون إلى الانتقام بعد أن فقدوا أراضي آبائهم.

إن عودة بني عامر إلى الجزائر حسب الفرنسيين سيشكل خطراً كبيراً عليهم وبالتالي أبدت تخوفاً وتردداً كبيرين. لعب "ليون روش" دوراً كبيراً في إعادة حوالي 500 من بني عامر إلى أوطانهم وصرح بأنه ينفذ فقط الأوامر والقرارات الوزارية، كما ذكر أن هؤلاء العائدين لن يتحصلوا على مساعدات من طرف الحكومة الفرنسية كونهم أصبح

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 68.

² - Ibid., p 72.

³ - Ibid., p 69.

يُنظر إليهم كخونة وتمنى "ليون روش" أن لا تشكل عودة بني عامر إحراجا للسلطات الفرنسية¹.

كان على العائدين أن يدفعوا مقابل مرورهم بحرا إلى الجزائر في قوارب أو أخذ الطريق البري الحدودي وعند الوصول يتم تجميعهم في عين تموشنت بعيدا عن المكرة².

ويظهر جليا أن "ليون روش" كان يحاول أن ينسب لنفسه شرف إنقاذ بني عامر وإرجاعهم إلى الجزائر، ففي مراسلة له إلى الجزائر في 31 أكتوبر 1848 يقول بأنه قد ضحى من أجل إطعام بني عامر وبالرغم من ذلك فقد مات أربعة منهم من الجوع ولذا قرر "ليون روش" إرسالهم في سفينة تجارية يدفعون ثمنها عند وصولهم إلى قبيلتهم. فعلا عاد 325 من بني عامر في سفينة إسبانية نقلتهم إلى وهران وعندما رفض حسب زعمه إرسال 100 من هذه القبيلة ألقوا أنفسهم أمامه قائلين أنه من الأفضل قتلهم على إعادتهم إلى المغاربة الذين سيمنون زوجاتهم ويقتلون ويبيعون أطفالهم³. ولعل قبيلة بني عامر كانت ترى في "ليون روش" بما يتمتع به من نفوذ وسلطة مع الفرنسيين وعلاقته السابقة مع الأمير القدرة على إرجاعهم مهما كانت نتائج هذه العودة، حيث كان على هؤلاء مواجهة بعض المتناقضات المتمثلة في مصادرة أراضيهم والبقاء على قيد الحياة، إضافة إلى العودة الفوضوية والاشتباك مع بعض القبائل التي شغلت أراضيها بعد هجرتها⁴.

لم تكن عودة القبائل التي تم تهجيرها من المغرب بالأمر الهين، فقد شكل هاجسا لدى السلطات الاستعمارية الفرنسية التي رأت في رجوعهم خطرا عليها ، فمن جهة

¹ - يظهر لنا من خلال هذه الظروف الصعبة التي رافقت عودة بني عامر حجم المعاناة والاضطهاد الذي تعرضوا له، فمن السياسة الاستعمارية إلى الهجرة والغربة ومرارتها ثم الإبادة في المغرب وصولا إلى محاولة العودة من جديد إلى الوطن والتي صاحبها عراقيل إدارية وقانونية فرضتها فرنسا. لقد فضلت بنو عامر العودة إلى الجزائر دون علم بما ينتظرهم هناك، على أن يبقوا رهينة في أيدي المغاربة الذين أبادوا معظمهم.

² -Pierre Boyer, op.cit., p 70.

³ -Ibid., p 71.

⁴ -Ibid., p 74.

مشكل الأراضي التي هجروها ومن جهة أخرى مسألة موافقة السلطان المغربي على العودة ، وكذلك طريق العودة، كل ذلك زاد من معاناتهم.

2- عراقيل العودة:

كانت الهجرة الكبرى لبني عامر مأساة حقيقية في تاريخهم، كان من نتائجها خلو المنطقة كاملة من السكان¹، وبذلك شكلت هذه الهجرة مشكلة بالنسبة للفرنسيين حول مأساة عودة المهاجرين من بني عامر، وأول رد فعل كان من "بوجو" الذي وضع شروطا قاسية لعودة بني عامر تمثلت في:

1- أن تكون العودة برا بموافقة السلطان²:

2- لا يعترض المهاجرون العائدون على مصادرة أراضيهم التي تركوها عند هجرتهم وقد سمح لبعض العائلات ذات النفوذ مثل أسرة رئيس أولاد خلفه محمد بن عودة بالعودة، ولكن "بوجو" أخبر الوزير بتغيير نظرتهم لبني عامر حيث أصبحوا غير قادرين ومن الأفضل تركهم في أماكنهم، وإنشاء قرية أوربية في سيدي بلعباس³ الذي من شأنه أن يضمن عودتهم إلى المنطقة على نحو أفضل⁴، على العكس من ذلك كان كل من "لاموريسيار" و"كافينياك" يخشون من محاولة القادمين الجدد

¹ - حنيفة هلايلي، المرجع السابق، ص 05.

² - سارعت الإدارة الاستعمارية إلى إعادة قبائل بني عامر إلى الحدود معتقدين أنها ستكون في صالحها أكثر من بقائها في المغرب وتعصب أتباعها، وكانت الطريق الوحيدة لإنقاذها هي وضعها في أيدي الفرنسيين. انظر:

Louis De Baudicour, La guerre et le gouvernement ..., op.cit., p 401.

³ - يدخل إنشاء مدينة سيدي بلعباس ضمن المستوطنات والمخصصة لعمالة وهران بمقتضى قانون 19 سبتمبر 1848، ويعود تاريخ بداية ظهور هذه المدينة إلى سنة 1843 عندما أوكلت إنجاز مكان استيطاني على الضفة اليمنى لواد مكرة بمحاذاة قبة الولي الصالح سيدي بلعباس لفرق اللقيف الأجنبي، وقد تم تكليف النقيب "برودون" "Prudon" بوضع رسم تخطيطي لشوارع المدينة وأحيائها ومراقبتها الاقتصادية والاجتماعية المختلفة.

انظر: إبراهيم لونيبي، "الاستعمار الاستيطاني في الجزائر خلال القرن التاسع عشر - منطقة سيدي بلعباس نموذجا"، مجلة عصور، عدد 6-7، جوان - ديسمبر 2005، ص 67.

⁴ - Pierre Boyer, op.cit., p 68.

من بني عامر استعادة أراضيهم، إضافة إلى التخوف من الحفاظ على النظام العام مع توقع حدوث مشاكل. وقد كان القنصل العام في طنجة يرى أن العودة برا مستحيلة لأنها ستجعل السلطان يفقد هيئته، في حين أن العودة بحرا ستكون باهظة الثمن، وفتحت مجالا لعودة عائلات مختارة منها وهو ما جعل "بوجو" يعترض على عودة هذه العائلات خاصة بحرا إذ أنه لم يعد بمقدور فرنسا استرجاعهم نظرا لارتفاع تكاليف النقل التي تدفع إلى السفن¹.

ومن ناحية أخرى فقد اضطر العديد من المهزومين إلى الفرار من الأسبوع الأول من شهر سبتمبر 1847 إلى الحدود، وذلك طلبا للأمان، ففي 18 سبتمبر أعلم "بازان" "Bazaine" قائد لالة مغنية أن العديد من قبائل بني عامر قد عادوا ، وفي 02 أكتوبر تواصلت عودتهم بعد إطلاق نسائهم وأطفالهم، وفي 02 أكتوبر عاد حوالي 250 إلى ندرومة، وفي 06 أكتوبر وصل 50 فردا آخر إليها، وحسب القنصل الفرنسي " De Chateau" فقد أحيت هذه المأساة الجدل بين الجزائر وطنجة، إذ أن حوالي 300 فرد من قبيلة بني عامر قدموا إلى القنصلية في طنجة، خوفا على أنفسهم من السلطان المغربي الذي اعتبرهم متمردين، إضافة إلى تخوفهم من ردة الفعل القوية من طرف فرنسا، وقد لعب الجانب الإنساني دورا كبيرا في إرجاع هؤلاء إلى الجزائر على الرغم من تردد السلطات المغربية. وقد تعطلت عودة بني عامر خاصة بعد رحيل الجنرال "بوجو" في 10 سبتمبر 1847، حيث لم تعد الإدارة الفرنسية تهتم لمسألة هامشية كهذه²، ويجد الدوق "دومال" "Duc D'Aumale" أن عودة هؤلاء المهاجرين كانت للاستقرار في أراضيهم، وقد عارض كل من لاموريسيير "Lamoricière" وكافينياك "Cavaignac" عودة هذه القبائل، حيث كانت لديهم مخاوف أخرى وهي مسألة عدد العائدين إلى الوطن، لأن عملية العودة استمرت لمدة عامين متتاليين، حيث أن القنصل الفرنسي في طنجة كان قد تسلم دفعة أولية بقيمة 5000 فرنك ذهبي لإطعام اللاجئين في القنصلية الفرنسية

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 69.

² -Ibid., p 68.

وبلغت قيمة الدعم اليومي للفرد حوالي 24 سنتيم للفرد، وبالتالي كان مشكل آخر هو التكاليف الباهظة التي تكبدها العملية، فبالإضافة إلى الدوافع السياسية التي أعاقَت عودة بني عامر، كانت هناك اعتبارات مالية أعاقَت عودتهم إلى الوطن.¹

نجحت الإدارة الاستعمارية في إرساء اللبنة الأولى لمشروعها الاستيطاني التوسعي بمقتضى قانون 05 جويلية 1830 الذي لا يعترف بعقود الملكية المسجلة قبل 05 جويلية 1830، وإلى جانب هذا القانون هناك قانون 31 أكتوبر 1845 الذي ينص على مصادرة أراضي كل من يقوم بعمل عدائي ضد الفرنسيين أو الأعراش الجزائرية الموالية لهم، وكل من يساعد أعداء الإدارة الفرنسية بشكل مباشر أو غير مباشر،

3- فقدان الأراضي:

أصدر الحاكم العام الجنرال "بوجو" في 18 أفريل 1846 قانونا ينص على مصادرة الأراضي المتروكة بورا بلا سبب، وكذا أراضي الأعراش التي رحل عنها أهلها إلى مناطق أخرى بالمناطق الصحراوية إلا إذا عادوا إليها في حدود شهر واحد فقط من يوم فرارهم، وطلبوا العفو من حاكم العمالة التي يقطنون بها، وبمقتضى هذا القرار قامت السلطات الفرنسية بوضع يدها على مساحات هامة من الأراضي في نواحي وهران وتلمسان وسيدي بلعباس وغيرها.² لقد توجهت سياسة الجنرال "بوجو" إلى تحطيم المقاومة بقوة المنع العسكري بدون شفقة، حيث أن الوسائل الأكثر قساوة للقبائل هي مصادرة أراضيهم³، والهدف الأساسي من هذا القرار كان سياسيا وهو عزل الشعب عن المقاومة التي كان يقودها الأمير عبد القادر، وبالتالي فإن أكبر القبائل والأعراش الجزائرية تضررا من هذا القانون هي قبائل بني عامر التي كانت تسكن منطقة سيدي بلعباس، لقد صادرت السلطات الاستعمارية في الجزائر أراضي قبائل بني عامر، حيث تمكنت في الفترة ما بين

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 69.

² - إبراهيم لونيسي، الاستعمار الاستيطاني في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 69.

³ - سعاد تيرس، السياسة العقارية الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 62.

1845-1853 من وضع يدها على حوالي 9661 هكتار من هذه الأراضي¹، وعند عودة بني عامر إلى الجزائر لم يكونوا موضع ترحيب من طرف السلطات الاستعمارية وذلك ما عكسه مكتبة² "بيليسي" "Pélissier"، حيث تأسف على ترحيل بني عامر من المغرب والتي ظن أنها أبيدت بأكملها في المغرب، وبعودتها على حسب زعمه فإنها ستطالب بأراضي جديدة إذا لم تجد أراضي أجدادها³.

وقد اعتبرت سيدي بلعباس مركزا هاما للتحكم في أراضي بني عامر ولضمان الاتصال بين تلمسان ومعسكر وبين وهران والصحراء، وقد أصدر الجنرال "بوجو" مرسوما يخص الأراضي التي هجرها بنو عامر تم بموجبه إعلان هذه الأراضي ملكا للدولة، وبعده جاء قرار ملكي آخر في 1847 يتضمن إنشاء مدينة عسكرية في المركز الاستيطاني بسيدي بلعباس⁴، وقد حاولت الإدارة الاستعمارية تجميع بني عامر في عين تموشنت حتى تحمي قوافلها بين وهران وتلمسان، ولذلك وحتى يزيد الدعم لحماية هذه القوافل في وهران سمحت لنقل القبائل الصحراوية إلى هذه المناطق.

إن المشكل الحقيقي الذي صادف عودة بني عامر هو كيفية استعادة هذه الأراضي من الاستعمار، قابله هذا الأخير بردع القبائل عن مغادرة أراضيها. وفي 18 أفريل 1846 وقع الحاكم العام مرسوما يقدم أراضي من أجل استقبال المهاجرين، ويعكس هذا القرار موقف الاستعمار من تخلي المهاجرين عن أراضيهم، إذ لم تكن الإدارة الاستعمارية سعيدة بذلك، فهو يمثل خسارة وخطرا، حيث أخلت هذه المناطق من السكان، فهذه القبائل تعتبر همزة وصل بين القوافل التجارية إضافة إلى أنها توفر 10/9

¹ - إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 70.

² - حسب بوير، هذه الرسالة كتبها "بيليسي" في 28 أكتوبر 1848 وقد أبدى فيها وجهة نظره المتعلقة بعودة بني عامر وشرح أهم الأسباب التي دفعت إلى التخوف من عودتهم إلى الجزائر.

- Pierre Boyer, op.cit., p 116.

³ - Ibid., p 116.

⁴ - Léon Adoue, La ville de Sidi-Bel-Abbès, op.cit., pp 44-45.

من وسائل نقل الجيش¹. وقد كانت إدانة القبائل حسب جودة أراضيهم وذكر تقرير لدائرة سيدي بلعباس في أوت 1849 أنه تم التشاور مع الحجز من أجل التوفيق بين مصالحهم ومصالح المستوطنين من خلال تخليهم عن أجزاء من أراضيهم من أجل إقامة طرقات مؤدية إلى سيدي بلعباس ووهران وبعد الانتهاء من تجسيد هذه الخطة تعاد الأراضي إلى المواطنين كاملة الملكية، حيث كان هذا النظام مواتياً نسبياً للحجز²، لقد اقترن انهيار الإطار التقليدي لبني عامر وانخفاض تعدادهم بفقدانهم العديد من الأراضي التي كانوا يملكونها³.

كان لهجرة بني عامر إلى المغرب عواقب مأساوية بدأت منذ الوهلة الأولى لخروجهم من الجزائر، وبالحديث عن النتائج الفورية، فقد تركوا منطقة كبيرة من الأراضي تمتد من طرف البحيرة (السبخة) إلى تلمسان، لا تجد فيها أحد حسب تعبير "لاموريسيار" الذي شبهها بالصحراء

4- نتائج المأساة:

كانت هجرة بني عامر قد طرحت على القيادة الفرنسية مشكلتين خطيرتين، الأولى تتعلق بالأمن بينما كانت فرنسا في حالة حرب مع الأمير⁴، والمشكلة الثانية تتمثل في خلو الأرض من السكان، ما يسمح بتسلل عناصر أخرى إلى هذه الأراضي وبالتالي فقدان السيطرة عليها⁵.

لم تؤثر الإبادة على قبائل بني عامر وحدها وإنما مسّت كل من المغرب وفرنسا والأمير عبد القادر، ففي المغرب ذهب الإمبراطور إلى معاقبة القبائل المتمردة واستعادة

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 64.

² -Ibid., p 75.

³ -Ibid., p 73.

⁴ -Ibid., p 62.

⁵ -Ibid., p 64.

السلطة الإمبريالية على السكان المغاربة، أما فرنسا فقد كان التخوف من عودة بني عامر وكيفية توزيعهم، أما عبد القادر فقد الدعم الذي كان يجده فيهم، واضطر للذهاب إلى الصحراء، وهذا يعني أنه أمام فرنسا وقت طويل على الأقل لا تخشى فيه الأمير، هذه المأساة أحدثت تغييرا كبيرا في الجزائر¹، فمن ناحية الجانب النفسي أصبحت بنو عامر منهارة ومكسورة، في مقابل ذلك ازدهرت القبائل الأخرى، وأصبحت بنو عامر تستأجر أراضي معزولة، فالقبائل المهاجرة أصبحت بدون موارد، فبين 1847 و1848 وعلى الرغم من أن بني عامر أدركوا بأنهم لن يحصلوا على أراضيهم، فإنهم توزعوا بخيامهم في جميع أنحاء الجزائر، إذ طبقت في الفترات الأولى سياسة التجمعات والمحتشدات التي أثبتت نجاعتها في تشتيتهم²، إضافة إلى ذلك فقد تغيرت التركيبة البشرية لهذه القبائل فانصهرت معها قبائل أخرى مصطنعة جاءت عن طريق تجمع بعض القبائل الصغيرة التي اختلفت في التسميات الرسمية أو حتى عن طريق إدخال الخيام إلى قبائل أخرى مثل أولاد ميمون الذين صارت لهم خيام عند أولاد إبراهيم³.

إن سلب الأراضي من القبائل كان عقابا لبني عامر وأولاد سليمان على مشاركتهم في المقاومة إلى جانب الأمير وهجرهم لأراضيهم، حيث أصيبت هذه القبائل بإحباط كبير جراء ذلك⁴، وهو ما دفع بالإدارة الاستعمارية بعد اقتراح من الجنرال "ماكماهون" إلى السيطرة على مساحات شاسعة في كل من سيدي بلعباس وتلمسان وهذا بعد مغادرة بني عامر لها. حيث اقترح إسكان المارونيين المسيحيين من لبنان في هذه المنطقة خاصة في سيدي علي بن يوب وعين الحجر وواد مكرة⁵، وهو من شأنه أن يضيف تركيبة جديدة في هذه المنطقة التي كانت تحت السلطة القبلية لبني عامر، وحسب "عدي الهواري" فقد أدت هذه الاضطرابات إلى انعكاسات على الصعيد الاجتماعي من تفتيت

¹ -Mme La Ctesse, L'histoire de l'Algérie, op.cit., pp 347- 346.

² -Pierre Boyer, op.cit., pp 71- 72.

³ - Ibid., pp 72- 73.

⁴ - سعاد تيرس، السياسة الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 130.

⁵ - إبراهيم لونيسي، الاستعمار الاستيطاني في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 77.

للقبائل وفروعها وانفجار للعائلات حيث أصبح لكل منها تنظيم اجتماعي خاص به، فتنظيم هذا النمط أدى إلى تغيير في التنظيم الاجتماعي¹، إن نتائج هذه المأساة لم تكن آنية فقط وإنما استمرت لعدة سنوات في كنفدرالية بني عامر التي فقدت أراضيها وأصبح أفرادها خماسين عند الفرنسيين وبذلك ضيعوا عقليتهم البدوية والقبلية التي كانوا عليها، إضافة إلى الفجوة الديمغرافية التي أحدثتها هجرتهم وإبادتهم في المغرب².

¹ - الهواري عدي، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسية التفكيك الاقتصادي- الاجتماعي 1830-1960، ترجمة: جوزيف عبد الله، دار الحداثة، ط1، 1983، ص 97.

² -Pierre Boyer, op.cit., p 72.

ثانياً: انعكاسات الهجرة.

قبل وصول الاحتلال الفرنسي إلى القطاع الوهراني، شغلت هذه المنطقة عدّة قبائل مثل العمارنة والحجز وأولاد إبراهيم، الذين ينتمون إلى كنفدرالية بني عامر، أما الحساسنة فقد جيء بهم للاستقرار في المنطقة، وبالرغم من إضعافهم من طرف القبائل الأخرى وعيشتهم البدوية إلا أنّهم شاركوا الأمير عبد القادر في الصراع الذي كان يخوضه مع الفرنسيين،

1- المشكل الديمغرافي:

كانت منطقة القطاع الوهراني في ذلك الوقت مكتظة بالسكان إلى غاية وصول القوات الاستعمارية إليها والهجرة الكبيرة لبني عامر، حيث رافق ذلك إنشاء مدينة سيدي بلعباس في 1848 بموجب القرار الرئاسي في 05 جانفي 1849.¹

ولم يتغير الوضع الديمغرافي رغم رجوع بعض هذه القبائل وعودة الهدوء إلى المنطقة، حتى أصبحت سهول منطقة سيدي بلعباس تبدو فارغة من قبائل بني عامر.² لقد وجدت السلطات الاستعمارية نفسها في مشكل حقيقي فيما يتعلق بالنظام الديمغرافي، إذ حدث اختلال بين القبائل التي هاجرت والتي عادت إلى المنطقة، فحسب "بوير" لم توجد أرقام حقيقية للعائدين وإنما أرقام نسبية وضعتها الدولة بين سبتمبر 1847 وأكتوبر 1848، فترة العودة الكبرى لبني عامر، ومع مقارنة إحصائيات 1843 و1844 بإحصائيات 1851 نجد أنّ عدد الخيام في 1848 كان 4197، وفي 1851 كان 3801، أي بتراجع بحوالي 396 خيمة، ومن الصعب التوفيق بين هذه الأرقام وتلك الخاصة بالسكان، ففي 1844 نجد 24582 شخصا، أمّا في 1851 نجد 28196.³ ومما

¹ -Georges Reutt, La région agricole de Sidi-Bel-Abbès, op.cit., pp 34- 35.

² - مصطفى حجازي، "الوضع الديمغرافي في منطقة سيدي بلعباس 1847-1954"، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، عدد 02، 2015، ص 297.

³ -Pierre Boyer, op.cit., p 72.

يلاحظ من خلال هذه الأرقام التي ذكرها "بويير" فقد كان من المستحيل معرفة التركيبة الدقيقة لهذه القبائل وأفرادها. حسب ليون باستيد Bastide فإن السكان المحليين من الأهالي والذين كانوا تحت الإشراف المباشر للإدارة العسكرية بلغ عددهم 35563 فرداً، من ضمنهم 5091 مقاتل و2063 من الخيالة¹. ونشير إلى أن تجاهل السلطات الاستعمارية إحصاء السكان في هذه المنطقة قبل 1858 كان يهدف الحصول على مبرر لمصادرة أراضي بني عامر وطردهم منها، ويدعم هذا نظرية الطرد التي أشار إليها الباحث "كريم ولد النبية" في كتابه "تاريخ الإدارة الاستعمارية المحلية في الجزائر وهي نظرية الطرد: التي بدأ تطبيقها منذ بداية الاحتلال، حيث طردت قبائل بني عامر عام 1845 في منطقة سيدي بلعباس إلى المغرب الأقصى، بحجة مشاركتها في جيش الأمير عبد القادر، غير أن هذه القبائل رجعت بعد سنتين عندما أصابها القهر والفقر، ولكن الإدارة الاستعمارية كانت قد صادرت أغلب أراضيها، ومنحتها للمستوطنين² في إطار سياسة الاستيطان الرسمي وبحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر ضيعت قبائل بني عامر حوالي اثني عشر ألف هكتار من أراضيها، والتي أقيم عليها أربعة وعشرون مركزاً استيطانياً³.

على أن قبائل منطقة سيدي بلعباس تعرضت منذ العقود الأولى للاحتلال إلى استنزاف بشري، فالتقارير التي حررت في آخر الإمبراطورية الثانية تؤكد تناقص الأعداد وتبين أن الخسائر البشرية الناجمة عن آثار المقاومة الشديدة كانت مرتفعة⁴. لقد شجع الجوع والبؤس الانتشار السريع للأمراض والأوبئة التي كانت أشد فتكاً بالسكان بسبب قلة الغذاء والجفاف فتسبب وباء الكوليرا والتيفيس في وفاة عدد كبير من السكان سنة

¹ -Léon Bastide, Bel Abbès et son arrondissement, op.cit., p 60.

² - انظر الجدول الخاص بتطور سكان سيدي بلعباس في الملحق حسب "ليون باستيد". الملحق: 8

AWO, L. Bastide, Bel-Abbès de nos jours, l'histoire de Bel-Abbès et son arrondissement parue en 1880, B :A 1442.

³ - كريم ولد النبية، تاريخ الإدارة الاستعمارية المحلية في الجزائر 1830-1954 من خلال الوثائق الأرشيفية، الجزائر، كنوز الحكمة، 2019، ص 34.

⁴ - محمد مجاود، أبعاد وآثار الاختراق الفرنسي في منطقة سيدي بلعباس، المرجع السابق، ص 15.

1867، ومما زاد في تدهور الأوضاع ندرة الأمطار، وتعرض المنطقة لموجات البرد القارس، ويبدو أن المجاعة التي ضربت البلاد سنة 1867-1868 كانت أشد قسوة على سكان المنطقة حيث سجل وفاة 319 شخصا سنة 1867 في بلدية المكرة وحدها، كما عرفت منطقة سيدي دحو خلال الشتاء 1876-1868 وفاة 37 شخصا في ليلة واحدة¹. وقد يكون من المفيد هنا الرجوع إلى ما كتبه "مصطفى الأشرف" في كتابه "الجزائر الأمة والمجتمع" حيث يقول في هذا الصدد: «وهكذا، فبعد أن تم الاحتلال، وتركزت دعائم الاستعمار، لم يبق بعد الكارثة سوى فئة قليلة من الشعب ظلت على قيد الحياة، بعدما أبعد نصف السكان. وهذا الشعب يتألف من الفلاحين الذين أفقرتهم الحرب والغرامات الباهظة المفروضة عليه، عقابا لهم على مقاومتهم... وبقي بعد الكارثة أيضا الإقطاعيون الذين لم تمس أموالهم، وظلوا إما على الحياد، أو انحازوا للمعمرين، بل صاروا يتقاسمون مع الملاك الأوروبيين الأراضي التي انتزعت من الفلاحين»². وهكذا يتبين لنا أن هجرة بني عامر إلى المغرب وتعرضهم إلى الإبادة وعودة بعض الفصائل منهم إلى الجزائر، إضافة إلى إدخال فصائل من قبائل عربية في تركيبهم، كلها عوامل ساهمت بشكل كبير في اختلال البنية الديمغرافية لهذه القبيلة ولساكنة المنطقة .

بعد رجوع بني عامر من المغرب ابتداء من 1848، لم يكن وضعها أحسن حالا مما كان عليه في سنوات 1840 و1841 و1842 والتي كانت سنوات أليمة بالنسبة لها. حيث ذهبت قطعانهم وأراضيهم، ومنذ هذه الفترة بقوا يتدرجون بين القبائل المستسلمة والخاضعة للسلطة الفرنسية.

2- ظروف المعيشة:

لقد كان لعملية سلب الأراضي وإلزام القبائل بالضرائب الثقيلة، وتدقق المهاجرين الأوروبيين على المنطقة واستحواذهم على قسم كبير من الأراضي، وصدور

¹ - محمد مجاود، أبعاد وآثار الاختراق الفرنسي في منطقة سيدي بلعباس، المرجع السابق، ص 16.

² - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، الجزائر: دار القصة للنشر، 2007، ص 61.

التشريعات العقارية منذ سنة 1844، انعكاسات خطيرة على الصعيد الاجتماعي، لقد تعرّض سكان المنطقة لاستغلال كبير طيلة فترة الاحتلال، فأصبح الفقر والبؤس والحرمان هي السمات البارزة التي تميز المنطقة¹. ومع نهاية القرن التاسع عشر تحول مستوى حياة الناس من الازدهار النسبي الذي كان يتمثل على الأقل في الاكتفاء الذاتي إلى الفقر الاجتماعي والاقتصادي².

وجدت بنو عامر نفسها بدون موارد، بعد أن كانت تمتلك قطعان من الماشية وتمارس الزراعة، فكل ذلك ضاع مع الهجرة والعودة، إذ أصبحوا خماسين في الأراضي التي كانوا يملكونها، وبالمقابل ضيعوا منذ وقت طويل عقلية البدو الرحل التي كانوا يتمتعون بها³، لكن وبالرغم من ذلك فقد اقتصرُوا على ممارسة نشاط زراعي معاشي يضمن لهم قوت يومهم، إضافة إلى تربية الماعز الذي لا يكلف كثيرا ولكن على الأقل توفر الحليب، هذا عن الفصائل التي هاجرت من بني عامر، أما الفصائل التي لم تهجر مثل الحجز وأولاد إبراهيم⁴ فلم تحافظ على ثروتها فقط وإنما زادت⁵.

وتصف رواية « La vierge de Beni Amer » الظروف المعيشية لهذه القبيلة بعد العودة من مختلف الجوانب العسكرية والاجتماعية والثقافية، فبنو عامر فهموا أن القتال ضدّ فرنسا كان مستحيلا وبالتالي قاموا بوضع أسلحتهم من خلال قلب قادتهم، لكن المحاربين القدامى كانوا تحت مراقبة السلطة الاستعمارية⁶. ومن خلال تحليل هذا

¹ - لم يفضل المستوطنون الأوائل المناخ المعتدل وثرأ التربة ولم يتأقلموا معه، وقد واجهوا عقبات قاسية خاصة مع المناخ (الحرارة في الصيف والبرودة في الشتاء).

AWO. I21/2261. Romaine de Ben Youb Marabout de Sidi Ali Ben Youb, p 03.

² - محمد مجاود، أبعاد وآثار الاختراق الاستعماري الفرنسي في منطقة سيدي بلعباس، ضمن كتاب تاريخ منطقة سيدي بلعباس، ج2، المرجع السابق، ص 15.

³ - حسب "بوير" فإن بني عامر قد ضيعوا عقليتهم البدوية منذ 40 سنة على انتقالهم إلى المغرب، وهو ما يدعم فرضية أن تفكك قبائل بني عامر كان قد بدأ فعلاً مع الفترة العثمانية، من خلال ما عانتها من قمع البايك. Boyer, op.cit., p 72.

⁴ - انظر لاحقا الحجز وأولاد إبراهيم. ص 193 و 203.

⁵ - Pierre Boyer, ibid., p 80.

⁶ - Vincent Huet, La vierge de Béni Amer, op.cit., p 10.

الطرح فإن استسلام مقاتلي بني عامر كان خاضعا للظروف المحيطة بهم إذ أننا سوف نجدهم يواصلون القتال ضد الاستعمار ويتجلى ذلك في دعمهم لمقاومة الشيخ بوعمامة في 1881، حيث كان هذا الأخير حريصاً على إحراز النصر ولا سيما في أولى مجابهته للجيش الفرنسي، حتى تطمئن القبائل لقوة صفه، ولذلك ما فتئ إبان سنوات يرأس القيادة ويحث الناس على الإعداد وإنهاء الأشغال والتزود بمسك الرجال¹.

إن مقاتلي بني عامر كانوا يحملون كرها وازدراء وروحا انتقامية للفرنسيين بسبب إثقال كاهلهم بالضرائب²، ويتجلى ذلك من خلال الشكوك التي وصلت إلى مسامع "الشيخ مصطفى بن عمر"³ من تدمير رؤساء بني عامر حول مطالبتهم منه ببعض الرسوم الرمزية.

ويصور لنا شاعر بني عامر مصطفى بن إبراهيم 1800-1867⁴ ظروف المعيشة لقبائل بني عامر قبل وأثناء وبعد الهجرة، إذ تساعد قصائده في فهم الخصائص السوسiolسانية للكلمات والمعاني الدالة على الحالة الاجتماعية والنفسية للشاعر.

¹- عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية (على ضوء وثائق جديدة)، الجزائر: دار هومة، 2004، ص 172.

يذكر عبد الحميد زوزو في الهامش 02، ص 172، رسالة من بوعمامة إلى قيادة وأعيان بني عامر، لكننا لم نجد نص الرسالة ولا التاريخ الذي أرسلت فيه، لكن يرجح من خلال السياق الذي ذكرت فيه أنها كانت في 1881، ومحاولة بوعمامة دعم صفوفه من خلال استمالة بني عامر إليه.

²- Vincent Huet, op. cit., p 11.

³- وجدنا في أحداث هذه الرواية التاريخية اسم الشيخ مصطفى بن عمر وهو أحد القياد الذين كانوا يجمعون الضرائب، حيث وصف بأنه كان متسلطا على بني عامر، ويكره كل ما هو عربي.

⁴- مصطفى بن إبراهيم (1800-1867): نشأ مصطفى بن إبراهيم في قرية أبي جبهة (بوجبهة)، في ناحية سيدي بلعباس، حوالي سنة 1800، وأبوه ينتهي إلى الولي الصالح سيدي الناصر "سبع الخلفاء"، وكان يعيش في فاتحة الأمر بين ظهري الأحرار النازلين بأفلو، ثم قدم إلى أبي جبهة واستوطن في القرية ليمارس مهنة "درار" (معلم قرآن). شغل العديد من المناصب مثل القضاء، ونسب إليه لقب خليفة ثم بعد ذلك قايد، لعب دوراً كبيراً في قبيلة بني عامر، إذ يعتبر شاعرها ومداحها، له العديد من الأشعار المتعددة الأغراض مثل المدح والهجاء والغزل.

للمزيد، ينظر: عبد القادر عزة، مصطفى بن إبراهيم شاعر بني عامر ومداح القبائل الوهرانية، ENAD، 2011، ص 12-26.

طبعاً وهو فرد من بني عامر- فالمحطات التي مرّ بها من احتلاله مكانة مرموقة ثم دنو منزلته ومختلف الهجرات التي عرفها أثرت عليه¹. ومن الأمثلة على هذه القصائد:

قلبي تفكّر الأوطان والهالة راني مهوّل مانيش في حالي

قلبي تخيل بالوحش تخباله وعلاه باحر وغريب تلغي لي

إنّ ذلك التغير المفاجئ لحالته ووضعه هو الذي جعله في حيرة من أمره وهو ما جعل منه شخصية تمثل تمثيلاً حقيقياً الفترة الزمنية التي عاشت فيها، وبالتالي كانت النموذج الحقيقي للذات التي أنهكتها نوائب الدهر².

وفي قصيدة أخرى يقول:

تيقن الكلام استخبر احي تقصرو سقصيني

الغرب بالكذوب معمر ما ريت فيه ما يعجبني

في الناس ما تصيب مخير انعيد ليك واسمع مني

مهبول من يجيه مهاجر فيه النفاق سوقه مبني³.

هذه الأبيات تعبّر عن واقع مرير عاش فيه بنو عامر، تغيرت فيه بنيته الاجتماعية والاقتصادية جرّاء المعاناة مما لاقوه في المغرب والسياسة الاستعمارية التي طبقت على هذه القبائل وغيّرت من نمط معيشتهم التي ألفوها حسب هذه الأبيات للشاعر:

¹ - عبد الحق الزين، «تجربة مصطفى بن براهيم في الشعر الملحون الجزائري، قراءة سوسيو لسانية لقصيدة القمرى»، مجلة العاصمة، المجلد الثامن، 2016، ص 87.

² - محمد بشير بويجرة، «تجليات الأنا والغبن في الخطاب الشعري الشعبي محاولة في رسم معالم الذات والآخر، "قلبي تفكّر الأوطان" نموذجاً»، إنسانيات، رقم 17- 18 ماي- ديسمبر 2002، ص 76.

³ - عبد القادر عزة، المرجع السابق، ص 237.

أبكي الزمانا بدل الفرحة بالكساد

كرسي البسط ورثوه الا مورانا

أبكي على الدنيا الغرارة والنكاد

بكاتنا ولت ضحكت لعدانا.¹

ظروف المعيشة التي صادفها بنو عامر عند عودتهم إلى الجزائر مضطرين كانت جد قاسية ميّزها البؤس والحرمان والمعاناة من جديد تحت وطأة السياسة الاستعمارية الرامية إلى تفكيك ما تبقى من فصائلهم.

منذ دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر وهو يحاول بكل الطرق والوسائل الاستيلاء على ممتلكات الجزائريين، وخاصة الأراضي لما تمثله هذه الأخيرة من مصدر قوت وشرف بالنسبة للجزائريين، لذا لجأت إلى سنّ ترسانة من القوانين لمصادرة أراضي القبائل حتى تعطي لنفسها الصبغة القانونية في ذلك.

3- التضرّر من التشريعات العقارية:

من أبرز الوسائل التي لجأت إليها السلطات الاستعمارية لمصادرة أراضي الجزائريين استغلال عجز أغلبية القاطنين في هذه الأراضي عن تقديم أوراق الملكية التي تثبت لهم هذا الحق، حيث أصدرت السلطات الفرنسية في أكتوبر 1844 قانونا خاصا بالأوقاف والممتلكات العقارية، وأهم محتوياته أن الأرض غير المستغلة والتي لا تثبت ملكيتها قانونا بعقد مسجل في المصالح العقارية الفرنسية تصبح تابعة لأملاك الدولة مما يخول لها حرية التصرف في هذه الأراضي.² ولا يخفى على أحد أنه ابتداء من يوم 15 أفريل 1845 صدر مرسوم ملكي يقضي بإنشاء حكم مدني في المناطق التي توجد بها

¹ - القادر عزة، المرجع السابق، ص 240.

² - إبراهيم لونيبي، الاستعمار الاستيطاني في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 69.

جاليات أوروبية. كما تقرّر في هذه السنة إنشاء ثلاثة مقاطعات بالجزائر هي: الجزائر، وهران، وقسنطينة وبكلمة الأخرى فإن هذا التنظيم قد جاء لوضع السلطة في يد المعمرين الأوروبيين¹، وهو ما سيسمح لهم لاحقاً بالاستيلاء على أكبر قدر من أراضي القبائل وبطرق قانونية حسب المنظور الكولونيالي. وفي 31 جويلية 1845 صدر مرسوم يسمح للعسكريين بحجز الأراضي الزراعية في حالة حدوث أي نشاط عدائي للوجود الفرنسي كإجراء حربي، إذ نصت المادة 10 منه على مصادرة أملاك الجزائريين الذين:

- اقترفوا أعمالاً عدائية ضدّ الفرنسيين، أو ضدّ القبائل الخاضعة، أو قدّموا مساعدات مباشرة أو غير مباشرة للثائرين ضدّ فرنسا أو أقاموا اتصالات معهم.
- أهملوا أراضيهم والتحقوا بالثوار.
- غادروا منازلهم لمدة تجاوزت ثلاثة أشهر دون إذن من السلطات الاستعمارية².

أمّا مرسوم 19 سبتمبر 1848 فقد قضى في مادته الأولى بمنح اعتماد مالي قدره 50 مليون فرنك لوزارة الحربية لتمكينها من تغطية تكاليف السنوات الأربعة (1848-1851) الخاصة بإنشاء المستعمرات الفلاحية في مناطق الجزائر وكذلك للخدمات ذات المنفعة العامة والمكرسة أساساً لضمان الازدهار والرفاهية للكولون³. ومن جهة أخرى حدّد عدد الكولون المستفيدين من هذا المرسوم بـ 12 ألف مستفيد خلال سنة 1848

¹ - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997.

² - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830-1962)، دكتوراه غير منشورة، إشراف: د. فغورودحو، جامعة وهران، 2007-2008، ص 208.

³ - لجأت السلطات الاستعمارية لكل الطرق من أجل تحقيق رفاهية للكولون على حساب الجزائريين، وقد راهنت على سياسة الاستيطان من أجل تحقيق ذلك، وبالمقابل عمّ الفقر والبؤس في المجتمع الجزائري. وفي ذلك يقول "عدي الهواري": «إنّها التعبير العنيف عن انتقال المجتمع الجزائري من مرحلة كان يشبع فيها الحاجات الأساسية لأبنائه، إلى مرحلة بات معها عاجزا عن تأمين ذلك». راجع: عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي، المرجع السابق، ص 78.

على أن تكون المستعمرات الزراعية الممنوحة من نصيب مواطنين فرنسيين أرباب أسر وعزاب¹.

يذكر "شارل أندري جوليان" أن منطقة الغرب اختيرت لتجسيد مشروع الاستيطان خاصة المنطقة بين مستغانم وهران وبلعباس، ووضعت خطط لتثبيت هذه المستوطنات مثل إقامة 5600 عائلة أوروبية في مساحة تقدر بـ 18000 هـ في ثماني بلديات، ولتجسيد ذلك تم إقرار قانون 16 أفريل 1851، الذي يعطي تسهيلات كبيرة للاستيلاء على الأراضي لصالح المعمرين².

وقد جاء هذا القانون تكميلاً للعمليات المنتهية والمنصوص عليها في أمر 21 جويلية 1846 بشأن تطبيق مصادرة الأراضي بعد الحرب وإلغاء بعض الترتيبات والأوامر والقرارات³. ويتضمن هذا القانون مبدأ حرمة الممتلكات الفردية ويعترف بحق الدولة في عزل ومصادرة أراضي الأهالي المتمردين، وهي محمية من طرف الإدارة الاستعمارية دون تمييز بين مالكيها الأصليين أو الفرنسيين⁴.

وهذا القانون يؤكد أنّ الملكية «حقّ مضمون للجميع⁵ بدون تمييز بين الملاك من الأهالي والملاك الفرنسيين وغيرهم». وينص كذلك على أنّ: «حقوق الملكية وحقوق التمتع العائدة للأفراد والعشائر وبطون العشائر»⁶. ونتيجة لذلك فقد وصل عدد المستوطنين

¹ - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر، دكتوراه، المرجع السابق، ص 210.

² - Charles André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine 1827- 1871, PUF, paris, 1964, pp 240- 241.

³ - ليلي بلقاسم، تطبيق التشريعات العقارية على قبائل منطقة غليزان والصفة اليسرى لواء الشلف وسهل مينال فيما بين 1863- 1900، دكتوراه غير منشورة، إشراف: إبراهيم مهديد، جامعة وهران، 2017/2018، ص 18.

⁴ - Brunel Camille, La question indigène en Algérie, paris : Augustin Challamel édition, 1906, p 171.

⁵ - كان المرسومان المملكان عامي 1844 و1846 مهتمين فقط بتنظيم الأوضاع في الأراضي المدنية، إذ أن هذه المنطقة كانت محدودة، ثم تم استبعاد الأراضي العسكرية التي شملت جميع الأراضي الجزائرية تقريباً، وقد اغتنم المعمرين فرصة مقاومة القبائل للاحتلال وتمردوا عليه للاستيلاء على أراضيها. راجع:

Brunel Camille, La question indigène, op.cit., p 170.

⁶ - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، المرجع السابق، ص 14.

في الجزائر 1851 إلى 131.238 أوروبي منهم 66500 فرنسي¹، وقد ارتفع عدد المستوطنين الأوروبيين في منطقة سيدي بلعباس² من 413 نسمة سنة 1849 إلى 1234 نسمة سنة 1851 ثم إلى 1728 سنة 1852³. وقد عقد مجلس الشيوخ الفرنسي بتاريخ 09 مارس 1863⁴ جلسة لمناقشة مشروع القانون الإمبراطوري الشهير الذي وضعه الجنرال "آلار" "Allard"، ومما جاء في شرح الأسباب الداعية لتقديم المشروع: «لقد وقع على إثر هذه العمليات أمر مهم يستحق التنويه، وهو أن العرب، بعدما آلت أراضيهم إلى الدولة نتيجة تطبيق قرار حصر الملكية، استعاد البعض منهم تلك الأراضي بالشراء من الأوروبيين، وأخذ البعض الآخر منهم يبذلون كل ما في وسعهم لشراء الأراضي التي انتزعت من عشيرتهم. أما الذين لم تتوفر لديهم الإمكانيات المادية للشراء، فقد طلبوا من الأوروبيين أن يسمحوا لهم بالبقاء في أراضيهم كمزارعين»⁵. لقد طبقت فرنسا هذه التشريعات قصد الاستيلاء على أراضي القبائل خاصة المتمردة منها وتحديد ملكيتها وفق قوانين تناسب مقاس الإدارة الفرنسية، ورغم الإجراءات المتخذة لمصادرة الأراضي، واتخاذ قوانين إجرامية جديدة لتقليص ملكية الجزائريين، ومما لا شك فيه أن القوانين العقارية التي وضعت في 1851 و1863 و1865 و1873 و1887 و1897، لا شك أنها فتحت ثغرات كبيرة في ممتلكات الخواص، وممتلكات الشمل، ففي مقاطعة وهران مثلا، كان الملاك الصغار يبيعون للمعمرين قطع الأرض العائدة إليهم بعدما فصلتها السلطات من الشمل⁶. ومما يؤكد اهتمام فرنسا بهذه التشريعات هو تحيينها على حسب طبيعة المعارك مع الجزائريين وعلى حسب ملائمتها مع مصالح المعمرين، ففي خطاب إلى مجلس الشيوخ في 15 فبراير 1894 من طرف السيد "Franck- Cha Veau" يقول فيه: «هناك

¹ - ليلي بلقاسم، التشريعات العقارية على قبائل منطقة غليزان، المرجع السابق، ص 18.

² - أعطينا مثلا عن منطقة سيدي بلعباس لأن معظم أراضي بني عامر كانت محصورة بها.

³ - محمد مجاود، منطقة سيدي بلعباس قرن من الاستيطان، المرجع السابق، ص 94.

⁴ - انظر لاحقا القرار المشيخي وتبعاته.

⁵ - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، المرجع السابق، ص 14.

⁶ - المرجع نفسه، ص 16.

العديد من النصوص التي حاولت تسوية ملكية الأراضي في الجزائر، أما الأنظمة الأكثر تعارضا فقد تم تقييمها لتبنيها أو رفضها¹.

إنّ طبيعة الاستعمار الاستيطاني في الجزائر تفسر مدى كثافة الدراسات الديمغرافية الرسمية التي أجرتها السلطة الفرنسية، حيث تمّ إجراء 21 تعدادا أولها سنة 1856 وآخرها سنة 1962، ولكنه لم يتم،

4- تعداد بني عامر:

لم تهتم الإدارة الاستعمارية في البداية بإحصاء السكان المسلمين إلّا بعد ظهور النظام الرأسمالي الذي أصبح في حاجة إلى أسواق ويد عاملة². والجدير بالذكر إلى أنّ تعداد فصائل بني عامر قد تطور خاصة بعد العودة من المغرب، فقد ذكرنا سابقاً أنّ الجنرال "بوير" قد قدرّ تعداد بني عامر قبل الهجرة ما بين 18000 و20000 فرداً³، إضافة إلى أنّ "دوما" ذكر 7315 خيمة⁴، أمّا "Vincent Huet" فقد ذكر أنّ عدد المغادرين المغادرين كانوا حوالي 25000 فرداً⁵، هذه الأرقام والمعطيات التي يعطي كل منها رقماً إحصائياً لفصائل بني عامر، ولعلّ ذلك يرجع إلى أنّ هذه الأخيرة كانت ومنذ الوهلة الأولى لدخول المستعمر الفرنسي في طليعة القبائل المقاومة للاحتلال بالنسبة للسلطات الاستعمارية، وهو ما يجعلنا نشكّ في جميع هذه الأرقام التي تطرح خاصة إذا كانت من طرف السلطة الاستعمارية نفسها، يقول في هذا السياق الباحث ولد النبية كريم: «وارتبطت مسألة العدد بالإحصاءات، فهل يمكن أن نثق فيها؟ ليس لنا خيار آخر، على

¹ - Cambon Jules, Le gouvernement général de l'Algérie 1891- 1897, paris : librairie H. Champion, 1918, p 96.

² - كريم ولد النبية، الرهانات الديمغرافية، المرجع السابق، ص 67.

³ - Pierre (Boyer), op.cit., p 45.

⁴ - Georges Yver, op.cit., p 15.

⁵ - Vincent (Huet), op.cit., p 16.

العموم ما يهتّمنا منها هو كيف كان العدد فترة الاحتلال¹. والجدول التالي: يوضّح تعداد سكان قبائل بني عامر الشراقة في منطقة سيدي بلعباس سنة 1856:

عدد سكان قبائل بني عامر الشراقة منطقة سيدي بلعباس سنة 1856.²

القبيلة	عدد السكان	ذكور	إناث	أطفال
أولاد علي فاقة	3920	882	1951	1457
أولاد علي تحاتة	3100	902	907	1219
أولاد علي غوالم	3700	1036	1184	1480
أولاد علي مهاجة	3590	856	763	961
الشرفة والقطارنية	3047	863	901	1283
أولاد سليمان المرابطين	3169	1059	907	1203
أولاد سليمان العرب	4179	1061	1310	1808
الحازدج	5002	1570	1567	1961
أولاد إبراهيم	2580	805	773	1002

¹ - كريم ولد النبية، الرهانات الديمغرافية، المرجع السابق، ص 68.

² - مصطفى حجازي، الوضع الديمغرافي في منطقة سيدي بلعباس 1847-1954، مرجع سابق، ص 297.

ثالثاً: توزيع الأراضي بعد العودة.

لا يخفى على أحد الأهمية البالغة التي تكتسبها أراضي بني عامر من جميع النواحي، وهو ما جعل الاستعمار يضعها في أولوياته ويحوّلها إلى مركز استيطاني، فالجولات الأولى لهذه المنطقة والتي كانت حوالي 1843 بقيادة الجنرال "لاموريسيار" جاءت للاستطلاع الميداني بغرض مراقبة بني عامر وإخضاعهم بالقوة.

1- الأهمية الإستراتيجية لأراضي بني عامر:

قام الفرنسيون بالاطلاع عن قرب على أهمية المنطقة إستراتيجياً وعسكرياً وعن إمكاناتها المادية والاقتصادية¹. وفي الواقع اختيرت منطقة سيدي بلعباس لتكون حقلاً لتجارب السياسة الاستيطانية الفرنسية، فبعد احتلال أراضي مكرة ومطاردة سكانها من قبائل بني عامر، شرعت الإدارة الفرنسية في تأسيس مراكز استيطانية بها لتثبيت الأمن والتحكم بعد ذلك في ثرواتها الزراعية². فبنو عامر يشغلون أراضي خصبة وكثيرة الزرع³، فعلى سبيل المثال منطقة تسالة التي تعتبر سهلاً كبيراً ينبت قمحاً جيداً جميل اللون غليظ الحبّ يمكنه وحده أن يزوّد تلمسان بما يحتاجه من حبوب⁴. واعتبر Georges Reut أنه من حسن حظ الفرنسيين قرب منطقة بلعباس من إسبانيا إذ ساهم ذلك في توفير العمال وخاصة المزارعين الذين زادت نسبتهم بشكل كبير بفضل انتعاش الزراعة ونمو التجارة⁵. إضافة إلى الأهمية الاقتصادية لمناطق بني عامر فقد اعتبرت قاعدة خلفية لدعم الأمير ومسرحاً لمقاومة الاحتلال، فبعد الحملة العسكرية التي قادها الجنرال "بيدو" "Bedeaux" إلى منطقة سيدي بلعباس أواخر 1843، وخوفاً من تمرد

¹ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس، المرجع السابق، ص 54.

² - محمد مجاود، منطقة سيدي بلعباس قرن من الاستيطان الاستعماري 1830-1930، المرجع السابق، ص 90-91.

³ - الطيب شنتوف، الجزائر السياسية 1830-1954، المرجع السابق، ص 10.

⁴ - سعيدي شخوم، منطقة تسالة في كتب التاريخ، المرجع السابق، ص 21.

⁵ - Georges Reut, La région agricole..., op.cit., p 35.

هذه القبائل أبقي على قوات بمضارب هذه القبيلة لمنعها من دعم دائرة الأمير عبد القادر، خصوصاً بطن الجعافرة¹ الذين أجبروا على الإقامة بالقرب من المركز العسكري الفرنسي بمنطقة بلعباس، لمنع أي اتصال بينهم وبين الأمير عبد القادر².

وبحكم أن سيدي بلعباس كانت معبراً ضرورياً واستراتيجياً لكل تنقلات الأمير خاصة وأن قبائل بني عامر وأولاد سليمان كانوا الحلفاء الطبيعيين له في مقاومته³ اعتبرت سيدي بلعباس مركزاً هاماً للتحكم في أراضي بني عامر ولضمان الاتصال بين تلمسان ومعسكر من جهة وبين وهران والصحراء⁴، هذه الأخيرة التي كانت تثير رغبة فرنسا لسهولة الاتصال بها لذا اعتبرت عامل تهديد دائم⁵، وهو ما جعل الأمير ومنذ 1837 يقيم في منطقة تسالا والمكرة تنظيماً إدارياً على أساس أغاليك، حيث وضع أراضي تسالا والتي كانت تابعة في عهد بايات وهران إلى أراضي تلمسان، وقام بتشكيل أغاليك الغرابة وأغاليك الشراقة من بني عامر⁶.

إن هاته التحوّلات الجذرية التي فرضها الاحتلال على المنطقة تنم عن مدى أهميتها الكبرى في نظره، فالغابات الكثيفة والسهول الخصبة، والمياه العذبة واليد العاملة (المحلية) سخرت جميعها لإقامة مستوطنات ومراكز سكنية يعيش فيها الأوروبيون ويتمتعون بخيرات المنطقة⁷. وقد ساعد واد المكرة كثيراً في إنشاء الكثير من

¹ - قبيلة الجعافرة: وتنقسم إلى بطنين أساسيين:

جعفر الثوامة: وهي فرع من قبيلة الجعافرة التابعة لقبيلة بني عامر وتنقسم إلى ثلاثة فروع وهي: الثوامة، المحاميد، أولاد سيدي يحيى. جعفر بن جعفر: وتنقسم إلى أولاد داود وأولاد صغير.

انظر الموقع الإلكتروني: قبائل وعروش ولاية سيدي بلعباس وعين تموشنت، مرجع سابق.

² - فارس العيد، علاقات الجزائر بالمغرب الأقصى وتونس 1848-1930، دكتوراه غير منشورة، إشراف: حمداو بن عمر، جامعة وهران، 2016/2017، ص 27.

³ - سعاد تيرس، السياسة العقارية الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 22.

⁴ - Adoué Léon, op.cit., p 44.

⁵ - Larraïn Jean, Heures d'Afrique, op.cit., p 47.

⁶ - Karimouldennebia, histoire et historiographie du tessela, op.cit, pp 215-214.

⁷ - خالد بوهند، الوضع الثقافي وتكون النخبة بمنطقة سيدي بلعباس خلال الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص 29.

القرى حيث تم تخصيص كميات من المياه التي تتدفق منه لتلبية متطلبات المستوطنين، وقد تم توزيع المياه فيه من خلال ضفافه من سيدي علي بن يوب وصولاً إلى سيق مع مراعاة احتياجات التجمعات السكانية الواقعة على حوافه¹.

ونخلص هنا إلى أنّ إستراتيجية المنطقة التي اعتبرت همزة وصل بين وهران وتلمسان ووهران ومعسكر من جهة أخرى والمنطقة الجنوبية جعلتها محطّ أطماع الفرنسيين الذين وجدوا في ذلك فرصة لمراقبة مواطن بني عامر الداعمة للأمير عبد القادر ومصادرة أراضيها وتعميرها لاحقاً بالعنصر الأوروبي.

و بعد العودة الكبيرة لبني عامر من المهجر اعتمدت الإدارة الفرنسية في سياسة توزيع الأراضي ومصادرتها منهم على حسب جودة أراضيهم من جهة ومن جهة أخرى درجة إدانتهم عن الأعمال التي ارتكبوها ضد الفرنسيين ،

2- وصف حالة الأراضي:

يذكر تقرير لدائرة سيدي بلعباس في أوت 1849 أنّه تمّ التوفيق بين مصالح الحجز والاستعمار إذ تم تخليهم عن أراضيهم القديمة والتي لا يمكن استخدام الحيوانات عليها للمشي²، حيث تم مصادرة وحجز أراضيهم الخصبة، ويضيف التقرير أنه من الضروري إعادة هذه الأراضي إلى أصحابها في ملكية كاملة. ويبدو أن القبائل الأكثر تضرراً هي التي سكنت سهول المكرة مثل أولاد إبراهيم والحجز وأولاد زاير وأولاد سيدي العبدلي الذين كانت أراضيهم تتميز بالوعورة، أما أولاد خلفه فلم يكن حالهم أفضل بكثير ولسوء حظهم كانوا في منطقة استيطانية هي عين تموشنت. لقد وجد الاستعمار في هذا التوزيع لدى القبائل فرصة قانونية للاستفادة من هذه الأراضي وفق حاجته³. وفي جوان 1847

¹ -AWO. A 1497. Les produits algériens le liège et les bois, Imprimerie orientale Fontana frères, Alger, 1922, pp 110- 111.

² - نلمس هنا نوعاً من الاستهزاء الحاصل بالجزائريين كون أن الاستعمار صادر الأراضي الخصبة وذات الجودة العالية في المكرة ومنحها للمستوطنين، أما قبائل بني عامر فلم يعودوا يملكون سوى الأراضي الوعرة والتي لا تستطيع حتى الحيوانات المشي عليها.

³ - Boyer Pierre, op.cit., p 75.

تم إرسال النقيب "De Mont Gravier" إلى عين تموشنت لتسوية بعض الخلافات التي وقعت بين بني عامر الغرابة والقبائل المجاورة لها حول مسألة حرث الأراضي¹. إنَّ اهتمام الاستعمار بمسألة الملكية والحدود بين القبائل ومحاولة تسوية الخلافات بينها جاء لتضع الدولة يدها على أكبر المساحات خصوبة وبناء قرى استيطانية عليها. فقد اهتم المارشال "راندون" "Randon" (1852-1855) اهتماما كبيرا بالاستيطان فشجع الهجرة إلى الجزائر وبناء القرى، فبنيت 56 قرية من عام 1853 إلى عام 1859 ولكي يحصل على الأراضي طبق كما فعل أسلافه أسلوب حصر القبائل. وكان لزاما على الجزائريين المالكين لحقوق أراضي العرش التنازل على أراضيهم لصالح الدولة حيث يحصلون في المقابل على اعتراف من الإدارة الاستعمارية بحق ملكية الأراضي فرديا أو جماعيا، ففي عام 1851 إلى 1861 شملت هذه العملية 16 قبيلة و343387 هكتار، منها 61363 آلت إلى الدولة².

وقد مسَّ قانون 16 جوان 1851 غابة مولاي إسماعيل الأميرية الواقعة في أراضي قبيلة الغرابة ببلدية "سان لوسيان"³ والتي قدرت مساحتها آنذاك بـ 12000 هكتار مع العلم أنَّ حدود هذه الغابة قد ثبتت مبكرا وذلك خلال عامي 1846-1847 طبقا للأوامر الواردة في البرقية الوزارية الصادرة بتاريخ 13 أوت 1848، وفي 10 ماي 1848 صودق على مشروع تهيتها. وفي عام 1855 تخلت السلطات الاستعمارية عن 800 هكتار لصالح قبيلة الغرابة بدعوى أن أهالي قبيلة الغرابة قد استقروا فيها بطريقة شرعية وفق قرار وزاري مؤرخ في 14 سبتمبر 1850، كما اقتطعت مساحة 2800 هكتار من غابة مولاي إسماعيل لإنشاء مركز أرزيو والمالح الاستيطانيين⁴. واصل الاستعمار سياسة تقسيم

¹ -Boyer Pierre, op.cit., p 74.

² - أجبرون شارل روبير، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة: عيسى عصفور، ط1، باريس: منشورات عويدات، 1982، ص 50-51.

³ - سان لوسيان حالياً هي بلدية زهانة التي تبعد عن وهران حوالي 30 كلم وتتبع إداريا لمعسكر التي تبعد عنها بحوالي 75 كلم، وبعد الاستقلال حملت اسم الشهيد البطل "أحمد زهانة".

راجع الموقع الإلكتروني: <http://zabana-officiel.webs.com>

⁴ - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر، المرجع السابق، ص 214.

الأراضي الخاصة بالقبائل¹ خاصة تقسيم أراضي العرش، فقد قسمت أراضي كل من أولاد سليمان وأولاد إبراهيم في مارس 1866 وحميان والحساسنة في أفريل من نفس السنة وأراضي الجعافرة والمحاديدي في عام 1868. وقد تم مراعاة مبدأ أهمية الأراضي القريبة من المراكز الاستيطانية والتي تقع على مسافات قريبة من الغابات². ومن جهة أخرى حددت هذه القوانين أراضي القبائل ووزعتها إلى دواوير، وقد بلغ عددها تسعة في بلدية مكرة المختلطة³.

وجدت السلطات الاستعمارية نفسها أمام مشكل العائدين من المغرب من قبائل بني عامر، وقد طرحت مسألة إحصاء العائدين من أجل إعادة توزيعهم على أراضي جديدة، كذلك لمراقبة سلوكهم وحصصهم في مناطق محددة قصد التضييق عليهم في تحركاتهم ومنعهم من إعادة تنظيم أنفسهم.

3- إحصاءات العائدين:

يذكر "بويير" أنّ إحصاءات 1847 سمحت بإعطاء بعض النسب عن قبيلة بني عامر، خاصة فيما يتعلق بالتعداد الذي كانت عليه قبل الهجرة وأثناءها وبعد الرجوع من المغرب، والجدول التالي يوضح ذلك.

¹ - يذكر باستيد أنّه بحلول 1846 صودرت أراضيهم نظراً لغيابهم عنها وبعد عودتهم بين 1848-1850، باع بعضهم أرضه لليهود خفية وشهدت هذه الفترة توسع القرى الاستيطانية على أجود الأراضي وأخصبها في بلعباس سنة 1849. انظر:

Bastide, op.cit., p 62.

² - Ibid., p 87.

³ - محمد مجاود وآخرون، الاختراق الاستعماري الفرنسي في منطقة سيدي بلعباس، المرجع السابق، ص 13.

بنو عامر الغرابة (بالخيام):

خسائر	1851	مهاجرين	1847	1844	
رج	450	14	360	418	أولاد خليفة
34	350	57	226	530	أولاد زاير
51	102	76	71	210	أولاد سيدي عبدلي
رج	180	55	58	130	أولاد ميمون

ويظهر من خلال هذا الجدول أنّ أولاد خليفة وأولاد ميمون لم تتغيّر خيامهم عن العدد الذي كانت عليه وهذا في 1851 وهو ما يشكّل عاملاً إيجابياً لديهم، أمّا أولاد زاير وأولاد سيدي عبدلي فقد تراجعت أعداد خيامهم في نفس السنة نظراً لتعداد الخيام المهاجرة لديهم والذي كان أكبر من أولاد خليفة وأولاد ميمون¹، بالرغم من أنّ أولاد ميمون تم إدخال بعض الخيام الأجنبية عليها تنتمي إلى قبائل أخرى، إضافة إلى ذلك هناك خيام من أولاد إبراهيم عند أولاد ميمون.

أمّا بنو عامر الشراقة فالجدول التالي يظهر مقارنة بين تلك القبائل قبل الهجرة وبعدها بالخيمة².

¹ - Pierre Boyer, op.cit., p 72.

² - Ibid., p 73.

خسائر	1851	مهاجرون %	1847	1844	
رج	1240	0	947	824	أولاد علي
23	478	84	175	634	الحجز
51	213	84	175	442	أولاد إبراهيم
10	596	27	470	664	أولاد سليمان
60	40	100	0	100	أولاد سيدي علي بن يوب
50	50	100	0	100	ذوي عيسى

إنّ هذه الأرقام تبقى نسبيّة ولا تعكس حقيقة العائدين الذين واجهوا صعوبات وعراقيل من قبل المغرب والإدارة الاستعمارية على حدّ سواء للعودة إلى الوطن، فأغلب العائدين عن طريق البحر كانوا من شيوخ القبائل وميسوري الحال، إضافة إلى العائلات الكبيرة حيث تم اختيارهم من طرف السّلطات الاستعمارية للعودة¹.

طرحَت مسألة عودة القبائل التي هاجرت إلى المغرب لدى الإدارة الاستعمارية وما يتبعها من نتائج، خاصة مسألة إعادة توزيع هذه القبائل في أراضي، ومسألة الحدود بين القبائل التي لم تهجر، فكانت مسألة التوطين مهمة من أجل إعادة رسم خريطة القبائل في المنطقة.

¹ - Pierre Boyer, op.cit., p 66.

4- إعادة توطين القبائل:

كانت سياسة فرنسا تقوم على حصر القبائل للاستيلاء على أكبر المساحات من الأراضي وإعطاء تسهيلات¹ عديدة لصالح المعمرين². وقد كان هناك تباين واضح في توطين السكان الأصليين حيث لم تولهم السلطات الاستعمارية أهمية، إذ بدأ استقبال الأعداد الكبيرة من المستوطنين في حين كان أغلب المسلمين قادمين من القبائل المجاورة³.

ومما لا شكّ فيه فقد تركت بنو عامر وراءها أراضي شاسعة وخصبة وضع الاستعمار يده عليها ولكن بعد العودة سيسعون إلى الانتقام حسب "بوير" ممن سلبهم أراضي آبائهم⁴. والإشكالية التي كانت آنذاك هي في أي منطقة ستوطن كنفدرالية بني عامر بعد غيابها خمس سنوات عن أراضيها، حيث أصبحت وحدتها القبلي مكسورة وبالمقابل ازدهرت القبائل التي لم تهجر وغالبا ما زادت من استئجار أراضي مجاورة لمضاربها. أما القبائل المهاجرة فقد وجدت نفسها دون موارد⁵. ولكي نفهم توطين القبائل نرجع إلى ما كتبه "أدوي" "Adoué" إذ يذكر أنّه عند قدوم الفرنسيين إلى منطقة سيدي بلعباس كانوا يتعاملون بشكل أكثر تحديداً مع ثلاث قبائل وهي العمارنة الذين يشغلون الأراضي التي أصبحت بلعباس والحجز الذين تتداخل أراضيهم بمكرة وتسالة وأولاد إبراهيم الذين استقروا في الغرب⁶.

¹ - لتسهيل المهمة أمام المعمرين سنت الإدارة الفرنسية ترسانة من القوانين لتقنين هذه العملية وحصر القبائل.

² - Charles André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, op.cit., p 241.

³ - Rene Lespès, La population d'Oran de 1831 à nos jours son mouvement, ses éléments, sa répartition sur le site, Société anonyme des papeteries et imprimeries, L. Fouqué, Oran, 1935, p 12.

⁴ - Boyer Pierre, op. cit., p 70.

⁵ - Ibid., pp 71- 72.

⁶ - Adoué L., La ville de Sidi Bel Abbès, op.cit., pp 24- 25.

بالإضافة إلى أولاد سليمان وأولاد زاير وأولاد سيدي علي بن يوب¹، كما نجد قبيلة الحساسنة² من سعيدة والتي بقيت مخيمة بالقرب من أراضي أولاد إبراهيم³، وقد ركزت فيما بين 1854-1859⁴ في أراضي تم حجزها من قبيلة الحجز وأولاد إبراهيم وأولاد سليمان⁵.

وبالرغم من الخوف الذي لحق بالإدارة الاستعمارية جراء عودة بني عامر إلى أرض الوطن، إلا أنّ ذلك لم يمنعها من توطئتهم في منطقة الغرب⁶، وقد سمح لبعض العائلات بالذهاب إلى وهران، وهي عائلات تمتلك نفوذا ولها علاقة بفرنسا مثل أسرة الزعيم السابق لأولاد خالفة "محمد بن عودة"⁷.

وفي أكتوبر 1847 تم عقد صفقات مع الشراقة لإعادة تشكيل القبائل المهاجرة والتي نصب خيامها للاستقرار في منطقة سيدي بلعباس، حيث أشرف "لاموريسيار" على هذه العملية بنفسه. فتمّ تجميع الحجز في سيدي حمادوش وتجنبنا لتنقلهم وتشتتهم من جديد تم منعهم من العيش في الخيام، وكان عليهم بناء "قُرْبِي" للاستقرار فيه، وتم توجيه أولاد إبراهيم إلى "الردجم" و"بوعريشة" مع إمكانية التزود بالمياه من "واد صارنو"،

¹ - مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس، المرجع السابق، ص 59.

² - إن وجود الحساسنة في أراضي بني عامر مرتبط بحادثة هيمنة الأتراك على البلاد، فقد ساعد العديد من فرسان الحساسنة باي معسكر في صراعه ضدّ الإسبان وحصلوا بذلك على عدة امتيازات فيما بعد وأصبحوا من قبائل المخزن، وأقاموا بضواحي وهران وعندما أضحت تحت سيطرة الباي 1793 تم إرسالهم إلى ضفاف المكرة لمراقبة تحركات أولاد إبراهيم، خاصة بعدما حاول زعيمهم المدعو: "تهامي" اغتيال الباي، واستمرت مهمتهم وهم مخيمون على حدود أراضي أولاد إبراهيم. راجع:

Adoué L., La ville de Sidi Bel Abbés, op.cit., p 25.

³ - Ibid., p 25.

⁴ - ابتداء من عام 1850 شرع الاحتلال الفرنسي في تركيز القبائل، فعلى سبيل المثال نذكر قبيلة الغرابة في غرب البلاد التي طردت من أراضيها الخصبة الواقعة بين وهران وسيدي بلعباس والمقدرة مساحتها بـ 85000 هكتار لتركز في مساحة أرضية جرداء تقدر بـ 33000 هكتار. انظر: بن داهة عدّة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 212.

⁵ - المرجع نفسه، ص 212.

⁶ - انقسم بنو عامر منذ العهد العثماني إلى مجموعتين: بنو عامر الشراقة والذين نجدهم في إقليم وهران، وبنو عامر الغرابة الذين استقروا في منطقة تلمسان، وقد أبقت فرنسا على هذا الانقسام الذي كان يخدم مصالحها أكثر.

⁷ - Boyer Pierre, op.cit., p 65.

أما الحساسنة فقد ثبتوا في مولاي عبد القادر، ولتشجيعهم على الاستقرار في هذه المناطق تمّ منحهم قروض ومساعدات من القبائل الأخرى، ففي شهر جانفي 1848 تلقت الحجز في هذا الشأن 140 قنطارا من الشعير و75 رأسا من الغنم، أمّا أولاد علي فقد حرثوا 400 هكتار. ولكن المشكلة بقيت في حالة إعادة التوطين النهائي، وقد تمّ الاعتراف في بداية الأمر أنّ القبائل المتضرّرة من حجز أراضيها يمكن لها تأجير هذه الأراضي من خلال رؤساء الدواوير وذلك تجنباً للصراعات بين هذه القبائل.

وفي فبراير 1848 تم إعادة توطين جميع بني عامر الشراقة بهذه الطريقة، وفي جوان 1849 تم تأجير 6130 هكتار إلى القبائل وهذا الرقم هو أعلى بكثير مما يزرعونه. وبعد ذلك بعامين نجد أنّ الحجز امتلكت 1240 هكتاراً أما أولاد إبراهيم 480 هكتار، أولاد سليمان 1304 هكتار، أولاد سيدي علي بن يوب وذوي عيسى 210، الحساسنة 364، والمجموع هو 3598 هكتاراً.

بعد ذلك كان من الضروري على فرنسا تسوية بعض المسائل نظراً لأنّ أراضي القبائل نفسها لم تكن معروفة ولم توجد بعد طريقة للتملك¹.

¹ -Boyer Pierre, op.cit., p 74.

رابعاً: تطور بعض فصائل بني عامر بين (1851-1866)

ذكرنا سابقاً بطولات أولاد إبراهيم وهجومهم على مركز سيدي بلعباس وكيف تعرّضوا بعد ذلك للقمع من طرف السلطات الاستعمارية وما تبع ذلك من هجرتهم إلى المغرب بسبب تسارع تطور الأحداث التي عجلت بقمعهم بسبب قيامهم بمهاجمة مركز بلعباس.

1- أولاد إبراهيم:

سموا كذلك نسبة إلى أولاد إبراهيم المغراوي، في واد مكرة، هو بن مولاي يعقوب الشريف له أولاد يقال لهم أولاد إبراهيم¹.

وحسب تقرير "ارمبورو" فهم من الفرسان النبلاء تركزوا في شرق المكرة وغربها².

ويتصل نسبهم حسب المشرفي لجدهم إبراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد بن رباب بن حامد بن حجوش بن حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن رغبة، من بنو حميد البطن الثالث لبني عامر³. ويقدم لنا "بويير" مقارنة بين قبيلة أولاد إبراهيم والقبائل الأخرى من بني عامر، إذ يصف حالة المعيشة بالأفضل ومردّ ذلك حسب موقعها في سهل المكرة وممارستها للزراعة فيه⁴. ومع هذا كلّ لم تسلم هذه القبيلة من المضايقات الاستعمارية والتي كانت نتيجة النزعة الثورية التي كانت تتمتع بها خاصة بعد فشل الهجوم على مركز سيدي بلعباس⁵ في أواخر جانفي 1845 وكذلك تراجع مقاومة

¹ - الموقع الإلكتروني: صوت الشهيد: <https://lavoixdespartys.wordpress.com>

² - وهران والغرب الجزائري في القرن 18 حسب تقرير ارمبورو، ت: محمد القورصو وميكال دي ايبالزا، الجزائر: المكتبة الوطنية، 1978، ص 86.

³ - R.A., V65, 1924, op.cit., p 205.

⁴ - Pierre Boyer, op.cit., p 79.

⁵ - حسب "M. De Montrond" فإن أولاد إبراهيم تمتعوا بمهابة كبيرة بين القبائل، وقبل تنفيذ هجومهم على مركز سيدي بلعباس كانت معظم فصائل بني عامر تعرف خططهم، ويرجع سبب عدم كشفهم إلى تعاطفهم مع المتآمرين أو خوفاً من الانتقام أو عدم الإيمان بنجاح المؤامرة. ونميل في رأينا إلى الفرضية الأولى، وهي التعاطف مع المهاجمين، والدليل على ذلك هو الولاء الذي كانت تكنه بنو عامر لمقاومة الأمير عبد القادر وتمرداها الدائم على السلطة الاستعمارية.

انظر: M. De Montrond, op.cit., p 349.

الأمير عبد القادر بعد سقوط عاصمته الزمالة سنة 1843 حيث عجل ذلك مغادرة بني عامر أراضيها ومنها أولاد إبراهيم (العمارنة). ولقد استقرت هذه القبائل بمنطقة وجدة على الحدود الجزائرية المغربية¹. كان استقرار أولاد إبراهيم على ضفاف المكرة في سيدي بلعباس حيث كانوا ينصبون خيامهم في وسطها² بحكم امتلاكهم لمساحات زراعية كبيرة، خاصة قبل الهجرة إلى المغرب، في 1845 كانت هذه القبيلة تمتلك 76.683 هكتار ولكن بعد عودتها تقلصت هذه المساحة بشكل كبير، حيث أصبحت لديها 46.091 هكتار وذلك في سنة 1849³، أي أنهم فقدوا حوالي 30.592 هكتار ما يعادل أكثر من 50% من الأراضي التي كانوا يملكونها، وهو ما يبين لنا حجم الخسائر التي لحقت بهم. لكن وبالرغم من ذلك فقد بقيت قبيلة أولاد إبراهيم من القبائل المسيطرة على الأراضي في المنطقة إلى جانب جيرانهم الحجز⁴. ومن خلال الفرضيات التي طرحت حول تطور بني عامر بين 1851 و1866 نلاحظ أن عدد أولاد إبراهيم كان 3801 نسمة يحرقون 2250 هكتار⁵ ولديهم 360 من الخيول والبغال و1469 من الثيران والماعز و12480 من الأغنام و7331 ماعز⁶. لقد شكلت الغنم والماعز مصدرا هاما ومورداً أساسياً في حياة بني عامر وأولاد إبراهيم خاصة، نظراً لأن الماعز يتأقلم مع مختلف البيئات، كما تشكل مصدر ربح لها إلى جانب الخيل والأبقار والبغال، فعلى سبيل المثال لكل خيمة واحدة من 8 أشخاص نجد ما يلي:

¹ - إبراهيم لونيسي، محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ قبائل بني عامر من بطش السلطان المغربي....، المرجع السابق، ص 29.

² - M. De Montrond, op. cit., p 349.

³ - Tabet R.A ; op.cit., p 102.

⁴ - انظر لاحقا العنصر المتعلق بقبيلة الحجز.

⁵ - من خلال الإحصاءات التي ذكرها "بوير" وبمقارنتها مع ما امتلكه أولاد إبراهيم في 1845 و1849 نلاحظ تراجعاً كبيراً في مساحة الأراضي المزروعة، ونحن نعتقد بأن النسبة أكبر بكثير من ذلك كونهم كانوا يمتلكون في 1849 حوالي 46.091 هكتار وبالتالي تبقى هذه الإحصاءات نسبية بالنسبة لـ"بوير" في طرحها ونحن لا نستطيع التسليم بها فتبقى أرقام تقريبية.

⁶ - Pierre Boyer, op.cit., p 82.

- الأبقار: 3

- الأغنام: 26

- الماعز: 15

- الحيوانات الأليفة: 0.7¹

وبمقارنة هذه الإحصاءات مع إحصاء 1851 نجد أنهم كانوا يزرعون 2.2 هكتار ويمتلكون 1.7 من الماشية و6 خرفان و11 ماعز و0.3 من الحيوانات الأليفة حيث تظهر هذه الأرقام تطوراً في المساحة المزروعة وتراجعا في عدد الماعز والماشية².

ينقسم أولا سليمان إلى أولاد سليمان العرب وأولاد و أولاد سليمان المرابطين، تعرضوا للقمع من طرف الاستعمار بسبب مواقفهم ومقاومتهم الشديدة، كانوا من القبائل التي هجرت وتركت مساحات زراعية كبيرة خلفها.

2- أولاد سليمان:

وسموا بأولاد سليمان الكبير نسبة لجدهم سليمان بن إبراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد بن رباب ابن حامد بن حجوش بن حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة³. قدموا من جبال عمور واستقروا في الأراضي التي يشغلها أولاد ميمون، إضافة إلى منطقة تلوين وملغيغ وعلى ضفاف المكرة (واد مبيتوش). ينقسم أولاد سليمان⁴ إلى أولاد سليمان العرب وأولاد سليمان المرابطين الذين ينتمون إلى ثلاثة إخوة: يوب، ميمون، مهاجي. ومن خلال معرفتهم واطلاعهم الواسع على الشريعة الإسلامية اكتسب

¹ -Pierre Boyer, op.cit., p 82.

² - Ibid., p 80.

³ - R.A, V65, 1924, op.cit., p 206.

⁴ - انتقل الرجل الصالح سيدي سليمان إلى قبائل بني عامر بأراضي سفييف وخلف سبعة أولاد (يوسف وعبد الله وعبد الرحمن وعبد العظيم وعبد الجبار وعثمان ومحمد). انظر الموقع الإلكتروني صوت الشهيد، المرجع السابق.

هؤلاء الإخوة قداسة واحتراما¹ من طرف أحفادهم الذين أخذوا اسم مهاجرة، وملكوا بذلك القبيلتين المعروفتين باسم مهاجرة أولاد علي ومهاجرة أولاد سليمان وهذه القبيلة الأخيرة هي أولاد سليمان المرابطين.²

وكغيرهم من فصائل بني عامر تعرضوا للقمع والاضطهاد من طرف السلطات الاستعمارية، ويصف "باستيد" سلوكهم بالسيئ وهو ما عرضهم للعقوبات.³ وفي عام 1845 هاجر 10/1 منهم إلى المغرب للالتحاق بالأمير عبد القادر.⁴ ويرجع "بويير" سبب التحاقهم بالمغرب هو أنهم كانوا دائمي الحذر من الأمير وهو ما جعلهم يتعرضون له بإطلاق النار عليه في سبتمبر 1843 وهو ما جعل الأمير ينفذ غارة ضدهم من أجل تأديبهم وهو ما أثمر حسب "بويير" برجعهم إلى طاعة الأمير والتحاقهم به في المغرب، وتعكس هذه المواقف من أولاد سليمان تمسكهم بتعاليم الدرقاوية التي كانوا وفيين لها منذ أيام الأتراك.⁵

استقبل أولاد سليمان العديد من الفصائل التي قدمت من المغرب ومن أعالي بني شقران ومن الشرق واستقروا في مواطن هذه القبيلة التي تقع مناطق أولاد سليمان 25 كلم شرق بلعباس وتتقاطع في شمال المكرة وفي الوسط من الطريق إلى معسكر ونحو الجنوب من خلال واد ملغير.⁶

¹ - قاد أولاد سليمان مقاومة عنيفة ضد الإسبان وفشلت جميع المحاولات في إخضاعهم. وخلال حكم الباي بوشلاغم طرد أولاد سليمان إلى ضفاف المكرة في أراضي أولاد عبد الله وهي فرقة من بني عامر، وانضم إليهم كل من أولاد علي والحجز واستقروا في ملاتة، وفي عام 1805 بايع أولاد سليمان مع بني عامر عبد القادر الشريف الدرقاوي وأعلنوا خضوعهم له بدون أن يهاجروا إليه كما فعل أولاد إبراهيم.

انظر: Léon Bastide, op.cit., pp 212- 213.

² - Bastide, op. cit., p 212.

³ - يذكر باستيد أن تاريخ أولاد سليمان كتاريخ بني عامر يبقى محيرا بسبب تغير مواقفهم كل مرة، ويسعى مقاومتهم وتمردهم ضد الاستعمار الفرنسي بالسلوك السيئ الذي استوجب عقابهم. وهو ما يعكس النظرة الكولونيالية لدى المؤرخين الفرنسيين الذين يرون في كل شكل من أشكال المقاومة سلوكا سيئا ضد فرنسا وخروجاً عن الطاعة.

Bastide, op. cit., p 213.

⁴ - Ibid., p 213.

⁵ - Pierre Boyer, op.cit., p 60.

⁶ - Bastide, op.cit., p 213.

ونلفت النظر هنا أن اسم قبيلة أولاد سليمان يرتبط بشاعر بني عامر مصطفى بن إبراهيم والذي اشتهرت عائلته زمن هجرة بني عامر إلى المغرب بأن زينت الرجوع إلى الوطن إلى كثير من المهاجرين المنتمين إلى أولاد سليمان ترضية للإرادة الفرنسية¹. فبعد استقرار الشاعر بأبي جبهة البرج مسقط رأسه ولي القضاء، ثم عينته الإدارة الفرنسية في منصب خليفة ثم قائد على فرع أولاد سليمان وكانت تشمل منطقتهم أبي جبهة ووادي المبطوح وتلوين والزفيزف. واستمر حكمه على أولاد سليمان حتى صار حاكما واسع النفوذ عندهم². وقد برزت مكانته بينهم خاصة في عام 1848 عندما حاول رجل يدعى محمد بن عيو من قبيلة الحشم والذي كان يلقب "بوسيف" أن يسلط عليهم ودعاهم إلى العصيان والخروج عن الطاعة، حيث قبض عليه القايد مصطفى بن إبراهيم وسلمه إلى السلطات التي قامت بنفيه³. وقد خلّد الشاعر أولاد سليمان بأبيات شعرية تنم عن مكانة هذه القبيلة لديه:

شاش القلب اشتاق أولاد سليمان	وتوحشت أنا رجالي
للخبرة عولت وكتبت العلوان	راني قادم يا أبطالي
نحضر للوعدة نزور أهل البرهان	نشوف مهاجرة بأنجالي ⁴

وله في قصيدة أخرى عن أولاد سليمان:

نجع أولاد سليمان	مزولين الغبان
م قصدهم ما يهام	صور حصنه رصوص ⁵

¹ - عزة عبد القادر، مصطفى بن إبراهيم شاعر بني عامر...، المرجع السابق، ص 14.

² - المرجع نفسه، ص 16.

³ - Bastide, op.cit., p 213.

⁴ - الأبيات مقتطفة من قصيدة هودج مامة تاق عالي، وحدة 1، عزة عبد القادر، المرجع السابق، ص 179.

⁵ - المرجع نفسه، ص 297.

ولم تشذ السلطات الاستعمارية عن سياستها الرامية إلى تفتيت القبائل العامرية وتقسيمها حتى يتسنى لها الاستيلاء على ما تبقى من أراضي لديها. ففي 15 سبتمبر 1851 تم تقسيم هؤلاء السكان إلى قعدين مع مراعاة الاختلافات والفروقات الموجودة في أصل السكان الذي أسلفنا ذكره. وهذا لم يمنع العرب والمرابطين من البقاء متحدين من أجل مصالحهم. وفي 1866 اقترحت لجنة خاصة تقسيم أولاد سليمان إلى 09 دواوير ولكن بناء على رأى الحاكم العام ووزير الحرب، تم تحديد أراضي هذه القبيلة بموجب مرسوم صادر في 07 مارس 1867 بشكل نهائي والتي بلغت مساحتها 74.659 هكتار و30 آرموزة على الدواوير الأربعة التالية: (بوجمة، واد مبتوش، تلوين، سفيزف)، ويجمع هذا التقسيم الدوار آخذين بطرحه في وديان مكرة وواد مغير التي تقع بين سهل تلوين¹.

والجدول التالي يمثل تعداد وموارد القبيلة في 1866 و1879²:

السنة	التعداد	المنازل	الخيام	الأحصنة البغال	الجمال	العجول	الخراف	الماعز	أراضي مزروعة
1866	1187	01	179	136	02	521	4405	2649	09
1879	1260	03	246	163	.	338	2914	2325	69

ومن خلال هذا الجدول نلاحظ تطورا في جميع موارد أولاد سليمان من حيث الأراضي المزروعة وعدد الخيام، مع تسجيل تراجع ملحوظ في العجول والخراف والماعز مقارنة مع 1866 بسبب تأثرها بالجفاف وتراجع المراعي خلال هذه الفترة.

تعتبر قبائل أولاد علي من القبائل التي استقرت في القطاع الوهراني وخاضت مقاومة عنيفة مع الاستعمار الفرنسي، حيث كانت تدعم المقاومة بالخيالة والراجلين ما

¹-Bastide, op.cit., p 213.

²ibid., p 216.

جعلهم يخضعون للرقابة الفرنسية دائما ،مارسوا الزراعة وتربية المواشي في المنطقة بحكم خبرتهم بها ووفرة الاراضي الخصبة التي كانوا يشغلونها.

3- أولاد علي:

ينتمي أولاد علي إلى جدهم علي الصغير بن اعمر بن إبراهيم بن يعقوب بن معروف كما ذكر المشرفي في المجلة الإفريقية¹، حيث كان لهم بأس وأنافة²، وهم فرع كبير من الكنفدرالية الكبيرة لبني عامر، تم تثبيتهم في شرق تسالا، وتم طردهم من طرف أولاد عبد الله بعد عودة الزيانيين إلى الحكم مع أبو حمو موسى³، وكانوا أهل إعانة شديدة للإسبانيين حتى غزوهم المرة بعد الأخرى على المسلمين بالكرط وغيره⁴، وكان لأولاد علي ما يفوق المئتي (200) فارس من الأعيان وغيرهم⁵، حيث اعتبرت هذه القبيلة من القبائل النبيلة للفرسان، ومقرها بأراضي الضواحي من تامزوغة تحدها شمالا أراضي حميان وجنوبا وادي سيق مع أراضي أولاد سليمان⁶.

وقد أدرجهم المشرفي ضمن القبائل الضالة المتعاونة مع الإسبان، «ثم إنه لم يكن أحد أشد اعتناء وإعانة للإسبانيين بكل ما يحتاجون إليه من التبن والحشيش والحطب والسمن واللبن والعسل والضأن والمعز والبقر والخيول والإبل والبغال والحمير⁷ من

¹ - R.A., V65, 1924, op.cit., p 205.

² - "أنافة" في معجم اللغة العربية المعاصرة: أناف البناء: ارتفع بنى داره فوق جبل منيف. أناف على الأمر: أي أشرف عليه، ويقصد المشرفي بذلك أنهم ذو شأن كبير ومكانة ومقام عالي. انظر: الموقع الإلكتروني: www.almaany.com

³ - وهران والغرب الجزائري في القرن 18م حسب تقرير ارمبورو، المرجع السابق، ص 85.

⁴ - استدلل المشرفي على قوة أولاد علي وإعانتهم للإسبان فقال: «فهم جبار عنيد وظالم شديد فارس شجاع مطيع للكفر وللإسلام مناع يقال له "رايح بن صولة" كانت النار له عولة قيل من صبيح وقيل من أولاد علي وهو الصحيح، وأولاده يقال لهم الصولة أشد بأسا على المسلمين ونكاية للمؤمنين وإعانة للإسبانيين». R.A., op.cit., p 214.

⁵ - Ibid., p 214.

⁶ - سيد أحمد بلبوري، الاحتلال الإسباني الأول بوهران وأثره على قبائل المنطقة من 1429 إلى 1588، رسالة لنيل شهادة في الدراسات المعمقة، إشراف: فخار إبراهيم، جامعة وهران، نوفمبر 1977، ص 41.

⁷ - هذه الموارد التي ذكرها المشرفي تدل على أن قبيلة أولاد علي كانت غنية وتمتلك أعدادا كبيرة من الأراضي والمواشي وهو ما سنقارنه بما ذكره "بويير" عن أولاد علي مع دخول الاحتلال في 1830 و1856 وكيف تراجعت مواردها بسبب السياسة الاستعمارية.

جميع الأعراب الداخلين تحت حكمهم مثل أولاد علي أخزاهم الله ولعنهم وأخلى منهم الأرض وصيرهم حطبا لجهنم وبئس المصير فكانوا لا يقطعون لهم في ذلك من الثمن الكثير»¹.

تم تحديد التقسيم الفردي لهذه القبيلة بموجب المرسوم الصادر في 22 مارس 1865 المنصوص عليه في الفقرتين 1 و2 من المادة 2 من سيناتيس كونسيلت مع مراعاة تقسيم اللجنة الإدارية في 01 ماي 1867 بشأن جميع عمليات ترسيم الحدود².

وقد كانوا ينقسمون على عهد الاستعمار إلى 8 قبائل تستقر معظمها ما بين أولاد سيدي غالم وسيدي معاشو والحجز في الغرب وأولاد سليمان قطارنية في الجنوب وغرابة في شرقهم، ولعلّ أهم أربع فروع³ منهم هي:

- أولاد علي الفواقة: أولاد علي- عين البرد ماخوخ سابقا وسيدي حمادوش (نسبة لجدهم علي الكبير بن عثمان بن سلطان بن وانود بن عبد الله كبير بن... وصولا إلى ... ابن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة).
- أولاد علي التحاتة: القصر، قايد بلعربي (نسبة لجدهم علي الصغير بن اعمر بن إبراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد بن رباب بن حامد بن حجوش بن حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة).
- أولاد علي الغوالم: سيدي غالم، طفراوي، سان مو. وأغليهم اليوم تابع لولاية وهران. كان عددهم في 1867 حوالي 2579 ويملكون أراضي مل: 1177,75 هـ وأراضي جماعية مزروعة 9220 هـ⁴.

¹- عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر...، المرجع السابق، ص 37.

²- AW SBA, Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, année 1868, n°266, p 200.

³- حسب تعداد سكان قبائل بني عامر الشراقة منطقة سيدي بلعباس سنة 1856 جاء تعدادهم كالتالي: أولاد علي فاقة: 3920- أولاد علي تحاتة: 3100- أولاد علي غوالم: 3700- أولاد علي مهاجة: 2590.

انظر: مصطفى حجازي، الوضع الديمغرافي في منطقة سيدي بلعباس، المرجع السابق، ص 297.

⁴- AW SBA, Bulletin officiel année 1868, n°282, op.cit., p 488.

- أولاد علي المهاجة: القعدة¹، زهانة²، كان عددهم في 1867 حوالي 2174 ولديهم 175870 هـ أراضي ملك و6700 هـ أراضي جماعية.

- وقد كان أولاد علي من القبائل التي خاضت المقاومة ضد فرنسا، حيث كانت تدعم صفوف المقاومة بخيالة وراجلين. ومن خلال ما أورده "دوماس" في مراسلاته فإن أولاد علي كانوا تحت قيادة "محمد ولد التامي" آغا بني عامر، حيث بلغ عدد الراجلين عندهم 200 أما الخيالة فكانوا 300³. وذكر "De Martinprey" أنه كان لدى أولاد علي على الضفة اليمنى لتليلات صوامع مليئة بالحبوب حيث أمضت حامية فرنسية نصف يوم⁴ في إفراغ هذه المخازن من الحبوب⁵. ومنذ شهر أكتوبر 1840 استولت قوات المارشال "فالي" "Valée" على أراضي أولاد علي وتعرضوا للغزو والنهب واستولى الفرنسيون على ممتلكاتهم وحيواناتهم الأليفة⁶.

إضافة إلى ذلك فقد خضع أولاد علي إلى الرقابة الفرنسية في جميع تحركاتهم قصد التضييق عليهم ومنعهم من الاتصال بالقبائل الأخرى. وفي مراسلة لـ "دوماس" "Doumas" إلى "Guébenneuc" مؤرخة في 19 أوت 1839 بمعسكر: «يذكر فيها أن الآغا الزين آغا بني عامر أرسل إليه رسالة تفيد بأن 70 خيمة من الدواير قاموا بزيارة إلى أولاد علي وهذا يعبر عن مودة وحب جديد بينهم ولا نخفي عليكم بأننا متخوفون من أن تحذو بقية القبائل حذوهم»⁷. ويظهر جليا من خلال هذه المراسلة التخوف الفرنسي الواضح

¹ - AW SBA, Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, année 1868, n°282, op.cit., p 488.

² - الموقع الإلكتروني: قبائل وعروش ولاية سيدي بلعباس وعين تموشنت: <https://tribusalgerieenes.wordpress.com>.

³ - Georges Yver, Correspondance capitaine Dumas, op.cit., p 616.

⁴ - لم يذكر تاريخ لعملية نهب مخازن حبوب أولاد علي ولكن من خلال سياق هذه المذكرات يرجح أنها كانت عام 1836 بعد معركة في رأس العين بين قوات مصطفى إسماعيل والبوحميدي.

⁵ - De Martinprey, souvenirs d'un officier..., op.cit., p 88.

⁶ - Georges Yver, Ibid., p 120.

⁷ - Georges Yver, Correspondance capitaine Dumas, op.cit., p 524.

من التقارب بين القبائل، كون ذلك لا يخدم الاستعمار الذي كان يراقب بكل حذر تحركات أولاد علي، وقد كان أولاد علي يملكون في 1851 حوالي 43200 هكتار من الأراضي وحالتهم بقيت مختلفة عن القبائل الأخرى إذ أنّ الضرائب التي كانوا يدفعونها هي نتيجة لتجميع هذه القبيلة في 1846 وليس 1851 كالقبائل الأخرى¹. وإذا أخذنا موارد هذه القبيلة بالخيمة في 1856 فإننا نحصي ما يلي:

- المساحة المزروعة: 8 هكتار

- الماشية: 05

- الخراف: 28

- الماعز: 12.5

- الحيوانات الأليفة: 1.1

أما في 1830 فكانت هذه الموارد أكثر من ذلك:

- الماشية: 05

- الأغنام: 30

- الماعز: 14

- الحيوانات الأليفة: 2.8

¹ - Pierre Boyer, op.cit., p 76.

ويرجع "بوير" هذا التناقض إلى الظروف الجغرافية وعدم الاهتمام بالبذور، إضافة إلى ضعف مردودية الأراضي حسب¹. ونلفت النظر هنا إلى تعاملنا الحذر من هذه الأرقام وحتى مع هذه الأطروحة التي ذكرها "بوير" فهي تعكس رأي موظف في الإدارة الاستعمارية محاولا إرجاع سبب تناقض موارد أولاد علي إلى ظروف طبيعية وبشرية دون أن يشير إلى تضرر القبائل من سياسة المصادرة والعقاب الجماعي التي طالتها².

احتل الحجز مناطق واسعة في منطقة المكرة حيث استسلموا لفرنسا وكانوا مع القبائل التي هجرت إلى المغرب، تميزت حياتهم بالترحال وممارسة الرعي، تعرضوا إلى الإبادة في المغرب من طرف السلطان المغربي وبعد عودتهم قام الاستعمار بتفكيكهم كغيرهم من بني عامر إلى دواوير.

4- الحجز:

ينتسبون لجدّهم "حجاز" بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة³، وأراضيهم على مشارف بلعباس لتمتدّ على معظم مناطق تسالة، وفي عام 1842 استسلموا لفرنسا⁴، ويرجع الباحث كريم ولد النبية إلى أن اسم "حجز" هو تصنيف إداري أنشأته المكاتب العربية فيما بعد، لكن الحجز هو واقع اجتماعي محصور في ثلاثة أجزاء في خرائط الهندسة العسكرية للإمبراطورية الثانية، وقد عكست أراضيهم واقعهم القبلي وذلك بسبب الطابع البدوي لعناصرهم⁵، وفي 1845 هاجروا بشكل جماعي إلى المغرب بدون

¹ - Pierre Boyer, op.cit., p 79.

² - بالنسبة للقطاع الوهراني نال الفقر كلا من بوراس، قائد دوار عين تموشنت وعائلة أولاد الزاير بنفس المنطقة، وخاصة عائلة أولاد الزين (أجواد أولاد علي)، وهم فرع رئيس في الاتحاد القبلي لبني عامر وهي العائلة التي اشتهرت بثرائها وملكيّتها الحيّزات والأراضي الشاسعة والثروات الحيوانية المعتبرة.

راجع: إبراهيم مهديد، القطاع الوهراني ما بين 1850 و1919 دراسة حول المجتمع الجزائري، الثقافة والهوية الوطنية، وهران: منشورات دار الأديب، 2006، ص 47.

³ - عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر، المصدر السابق، ص 16.

⁴ - حسب باستيد فإن قبائل بني عامر ومعهم الحجز قد استسلموا لفرنسا في 1842. انظر: Bastide L., op.cit., p 210.

⁵ - Karim ouldennebia, histoire et historiographie du tessela, op.cit, p219.

قتال، باستثناء بعض الدواوير التي لجأت إلى أراضي تسالا¹. وبالرغم من حياة الترحال المتعبة التي عاشوها، وهربوا من الخدمة العسكرية التي أراد الإمبراطور المغربي فرضها عليهم، سعوا للانضمام للأمير عبد القادر، لكنهم تعرضوا للقمع والإبادة من طرف المغاربة عام 1848 وفقدوا معظم ممتلكاتهم². ونظرا لاستقرارهم في سهل المكرة وممارستهم الزراعة فيه اعتبرهم "بوير" أفضل حالا من القبائل الأخرى³. وقد جاء ذكر الحجز في الوثائق الفرنسية في 1838 في مراسلات "دوماس" حيث ذكرهم في شكل: "Azzedj" والثاني في شكل "Aadjezz"⁴. وكغيرهم من فصائل بني عامر لبّوا نداء الجهاد مع الأمير عبد القادر حيث اعتبروا من بين أكثر القبائل التي التحق أفرادها بجيش الأمير تعدادا بحوالي 1400 خيمة⁵. وبعد عودة الحجز من المغرب مع بني عامر مارسوا الزراعة في الأراضي المتبقية لهم⁶، ويتضح ذلك في التقرير الذي سلم إلى الإمبراطور في 25 أفريل 1863 إذ أن الحجز كانوا يملكون 84000 هـ⁷ أراضي ذات جودة عالية وخصوبة كبيرة وبعد مصادرة وحجز أراضيها أصبحت تملك 17590 هـ⁸.

لقد جمع الحجز بين الفروسية وممارسة الزراعة والرعي وفيهم يقول شاعر بني عامر مصطفى بن إبراهيم:

¹ - Karim ouldennebia, histoire et historiographie du tessela, op.cit., p 210.

² - Bastide L., op.cit., p 211.

³ - Boyer Pierre, op. cit., p 79.

⁴ - Yver (G), Correspondance capitaine Doumas, op.cit., pp 139- 616.

⁵ - Tableaux des établissements français dans la régence d'Alger, 1938, Imprimerie Royale, paris, p 293.

⁶ - يذكر باستيد أن العلاقات الفرنسية مع الحجز كانت جيّدة، بعد العودة من المغرب، ونحن نشكّ في ذلك، فمن غير المعقول أن تكون كذلك مع ما عانوه من مآسي الهجرة وتسلب الاستعمار عليهم بمصادرة ممتلكاتهم. انظر: Bastide, op.cit., p 211.

⁷ - Tabet RA, op.cit., p 102.

⁸ - كانت الحجز تمتلك 40000 هـ ذات جودة عالية والتي استخدمت تباعا في توسيع منطقة بلعباس، حيث تم إنشاء (روشي- سيدي إبراهيم- ترامبل- وتشكيل أراضي فرودة- البرايكية- الحجز زرقاء- عين ثريد- عين القيس- وأخيرا جزء من هذه الأراضي للحساسنة.

انظر: Bastide, ibid., p 211.

امحازج العرب فرساتي والزاييري أحرار طيور.¹

وقال عنهم القوال غالم بن مسعود:

أعلي وزد غرب واشمر أهلي محازج العربان

هذوا معيّنين جبابر ما هم شيء إلا رعيان.²

ومن خلال ما ذكره "بوير" حول تطور بني عامر بين 1851 إلى 1866 نلاحظ موارد الحجز بالخيمة:

الحجز: 3650 نسمة³، 455 خيمة لـ 8 كما يلي:

- المساحة المزروعة: 6 هـ

- الماشية: 3

- الأغنام والماعز: 26

وتعتبر موارد الحجز ومعيشتهم أقل من أولاد إبراهيم ومرد ذلك عدم انتظام الضرائب التي كانت عليهم تحمّلها⁴. وتمّ تحديد أراضي قبيلة الحجز بموجب مرسوم صادر في 25 أفريل 1866 بشكل نهائي بمساحة قدرها 17590 هـ و2 آر⁵. وقد قسمت بمرسوم في نفس اليوم بين خمسة دواوير: أولاد رباب- نماشية- العثمانية- أولاد غازي والمحاديدي. في السنوات 1874-1875-1876 تم إنشاء الملكية الفردية في هذه المنطقة

¹ - عزة عبد القادر، مصطفى بن إبراهيم، المرجع السابق، ص 234.

² - المرجع نفسه، ص 311.

³ - كان عدد الحجز في 1856: 5002. انظر: حجازي مصطفى، الوضع الديمغرافي في منطقة سيدي بلعباس، المرجع السابق، ص 227.

⁴ - Boyer Pierre, op.cit., p 82.

⁵ - Bastide, op.cit., p 211.

وفقا لقانون 26 جويلية 1873، وبمجرد إصدار سندات الملكية لم تكن المعاملات مع الأوروبيين مزدهرة.

وفيما يلي وصف لقبيلة الحجز لعام 1866 و1879:

السنة	العدد	المنازل	الخيام	الأحصنة والبغال	الجمال	العجول	الخراف	الماعر	أراضي مزروعة
1866	3650	.	623	406	05	1548	10868	2995	284
1879	3316	26	717	376	.	2168	2168	3168	309

ويمكن القول من خلال تحليل هذا الجدول أن عدد الحجز قد انخفض¹ في 1879 فقد اختفت العديد من مواردهم وأراضيهم، ونلاحظ تراجعاً كبيراً في رؤوس الماشية والماعر ومرد ذلك إلى بداية الاستقرار في بلعباس² وتغير عقلية البدو لديهم، إضافة إلى التغيرات المناخية التي ضربت المنطقة.

¹Bastide, op.cit., p 211.

²- كانوا يتفرعون على عهد الاستعمار إلى 11 قبيلة تستقر كل منها في مناطق مختلفة من بلعباس منهم: الوردية، أولاد رباب، النواحي (أولاد ناجي)، أولاد بن عيجة، المحاميد (أولاد محمد)، نمايشة، قواضي، أولاد الساسي، أولاد بركة. انظر الموقع الإلكتروني: قبائل وعروش ولاية سيدي بلعباس وعين تموشنت، مرجع سابق.

الفصل الرابع:

استمرار التفكك في السياسة الإستعمارية

الفصل الرابع: استمرار التفكك في سياسة نابليون الثالث.

أولاً: سياسة الإمبراطورية الثانية في الجزائر 1832-1870.

- 1- تهجير الأوروبيين والاستيطان.
- 2- محاولة الإدماج الكامل للجزائر.
- 3- تغيير سياسة نابليون بعد 1860.
- 4- تعدد مواقف الإمبراطور تجاه الجزائر.

ثانياً: القرار المشيخي سيناتيس كونسيلت 22 أبريل 1863.

- 1- الأسباب والأهداف.
 - 2- الظروف التي صدر فيها.
 - 3- بنود القرار.
 - 4- صعوبات تطبيق القرار المشيخي.
- ثالثاً: انعكاسات القرار المشيخي على بني عامر.
- 1- تطبيق سيناتيس كونسيلت 1863.
 - 2- التطبيق على الحجز (أنموذجاً).
 - 3- دور سيناتيس كونسيلت في إستقرار بني عامر.
 - 4- تفتيت الملكية الجماعية وتأسيس الدوار.

رابعاً: التفكك النهائي لبني عامر.

- 1- تغير عقلية البدو والتشتت.
- 2- من الرعي إلى الزراعة.
- 3- محو الهوية القبلية.
- 4- المواطن الحديثة لبني عامر.

أولاً: سياسة الإمبراطورية الثانية في الجزائر 1832-1870

راهنّت السلطة الاستعمارية الفرنسية منذ البداية على توطين سكان أجانب في الجزائر من أجل كسب المغامرة الخطيرة التي تورّطت فيها منذ صدور مرسوم إلحاق الجزائر 1834/07/22. وظلّت السياسة الاستعمارية في الجزائر مرتبطة بمدى نجاح الاستيطان، حيث أنّ الجنرال "بيجو" أوّل من جسّد هذه المغامرة الخطيرة بتنفيذه لسياسة السيف والمحراث.

1- تهجير الأوروبيين والاستيطان:

حاول "بيجو" أن يجعل من جنوده المستوطنين الأوائل للجزائر وتحولت أعماله إلى أسطورة استعمارية¹. وفي هذا يقول "أبو القاسم سعد الله": «وأداة هذا الاستعمار في الجزائر هو الجيش طبعاً، تعزّزه إدارة مدنية يقظة وجالية فرنسية من المستوطنين متحمّسة للاستغلال والاندماج والتوسع. وهكذا فإنّ النظام الجمهوري الذي ولد من جديد في فاتح سنة 1848² في فرنسا كان بالنسبة للجزائر يمثل عهداً قديماً من الاضطهاد واللامبالاة بحق الجزائريين في الحرية والاستقلال وهو العهد الذي انطلق سنة 1831 وازدهر منذ 1841 على يد "بوجو"³. وفي شهر سبتمبر 1851 بدأ العهد الإمبراطوري الذي ميّزه نابليون الثالث⁴ حيث ظهرت فكرة فتح مستعمرة الجزائر أمام رأس المال الأوروبي، كما نشطت حركة الهجرة من أوروبا⁵.

¹ - كريم ولد النبية، الرهانات الديمغرافية في منطقة سيدي بلعباس، المرجع السابق، ص 58.

² - تمّ تعبّد طريق الهجرة إلى الجزائر بعد فشل ثورة 1848، وتمّ تهجير المرضى سياسياً، حيث برزت ضرورة ترحيل السكان الذين يتسببون في مصاعب داخلية للدولة ممّا دفع بقادة الثورة إلى التهجير كحلّ ناجع، لأنّهم اعتبروا عمال الورشات العاطلة عن العمل خطراً اجتماعياً على الحكومة، لا بدّ من استنصاله، وتحقيقاً لهذه الغاية صادقت الجمعية الوطنية الفرنسية على مرسوم 19 سبتمبر 1848. انظر:

عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر، المرجع السابق، ص 210.

³ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، ج 1، المرجع السابق، ص 313.

⁴ - كريم ولد النبية، البلدية الاستعمارية في الجزائر 1863-1947، من خلال الوثائق الأرشيفية، ط 1، الجزائر، المثقف للنشر والتوزيع، 2020، ص 12.

⁵ - كريم ولد النبية، الرهانات الديمغرافية، المرجع السابق، ص 58.

وعند إعلان النظام الإمبراطوري في 02 ديسمبر 1859، شرعت حكومة الإمبراطور في تطبيق سياسة استعمارية مشجعة للاستيطان والتوسع الاستعماري بلا هوادة، فنشطت حركة الهجرة لتمتد إلى تشجيع الشركات الاستيطانية، كما ارتفع عدد القرى الاستيطانية خلال فترة سياسة نابليون الثالث الأولى 1851-1857، ليصل إلى ثمانية وستين قرية. واصلت السلطة الاستعمارية في تنفيذ خططها المتعلقة بتوسع الاستعمار من خلال تشجيع الهجرة الأوروبية إلى الجزائر¹.

كان هؤلاء المهاجرون هم من المجرمين والمعارضين لسياسة فرنسا وللنظام الإمبراطوري لتتخلص من مشاكلهم، فنشطت حركة الهجرة بعد ذلك، وتقرر تهجير مائة ألف أوروبي. واعتمد المجلس الوطني الفرنسي خمسين مليون فرنك لإنشاء مراكز ومستعمرات أوروبية استيطانية، وتم تخصيص أراضي للمهاجرين من 2 إلى 20 هكتارا ومنازل وحيوانات وآلات². ومالت حكومة الإمبراطور إلى تطبيق هذه السياسة الاستيطانية بواسطة الرأسماليين الكبار، والشركات الرأسمالية الكبيرة، لأنّ كثيراً من رجال الأعمال، والبنوك، وكبار الرأسماليين خاصة السويسريين، كانت تربطهم صداقات شخصية بالإمبراطور الذي كان يميل أيضاً إلى هذه السياسة حتى لا تتكلف حكومته بتحمل النفقات الباهظة. وممن استفاد من هذه السياسة: المقاول الباريسي "دومونش" الذي منح 2672 هكتارا في تيبازة عام 1854 طرد منها ستة وتسعين عائلة جزائرية لينشئ عليها وحدات سكنية للمهاجرين الأوروبيين. وشركة "جنيف واز" السويسرية التي تحصلت خلال عشر سنوات على 281 ألف هكتار من أجل إنشاء القرى وتهجير الأوروبيين خاصة السويسريين. والشركة العامة الجزائرية التي منحت مائة ألف هكتار عام 1869 لتوطين عشرين ألف عائلة أوروبية مقابل قرض قدمته للدولة بمبلغ مائة مليون فرنك. والشركة العامة للهجرة ومقطع الحديد التي منحت مساحة 25500 هكتار عام 1865 مقابل

¹ - كريم ولد النبية، البلدية الاستعمارية في الجزائر، المرجع السابق، ص 13.

² - يحي بوعزيز، "سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر من خلال أقواله ورسائله 1852-1870"، مجلة الثقافة، العدد 50، مارس/أفريل 1979، ص 16.

إنشاء سد فرقوق قرب المحمدية¹، وشركة جمعية الغابات التي تحصلت على 160 ألف هكتار من الغابات² لتستغلها مدة ستين عاما، فقامت ببيعها إلى ثلاثين معمرًا أوروبًا، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن السلطات الفرنسية كانت تنتزع الأراضي من أصحابها الجزائريين وتهبها للجمعيات والهيئات الدينية المسيحية التي تبيعها بدورها إلى المعمّرين الأوروبيين³.

ولم تتوقف حركة الاستيطان خلال العشرية التي ظهر فيها قانون سيناتيس كونسيلت 1860-1870، فقد ارتفع عدد المستوطنين خلال هذه الفترة من 86000 شخص إلى 118000 شخص، وهذا ما لاحظته أحد الكتّاب الفرنسيين عندما قال: «لا يجب أن نقول بأنّ قانون سيناتيس كونسيلت لم يفعل شيئاً لصالح الاستيطان، ذلك لأنّه سمح للمعمّرين شراء أراضي الملك في كل القطر الجزائري، وقد كانت هذه الأخيرة كثيرة، مما يعني أنّه وفر للمعاملات العقارية رصيدا مهماً»⁴. إذ كانت الامتيازات الغابية الممنوحة للشركات الخاصة تتكاثر، فمثلا أولاد سيدي العبدلي في منطقة تلمسان، حيث كانت هذه القبيلة تعاني من عواقب عزل 1845 وتجميع 1862 حيث سحب منها 5000 هكتار، بما في ذلك 3000 هـ من الأراضي الخصبة جدّا والمناسبة للزراعة، والتي تم التنازل عنها في 1867، وقد أدت الهجرة الإسبانية القوية في هذه المناطق إلى زيادة الطلب على هذه الأراضي من طرف المعمّرين⁵. وهذا يعكس الواقع الاستيطاني الذي انتهجه

¹ - Ex-Série B /Administration générale de l'Algérie :

- A.W.O,série 1B : B /7-événements politiques.

² - في تقرير حول عمليات الاستغلال التعسفي بدوار عين الشرفة (سان لوسيان المختلطة) في 06 ماي 1943 يظهر اختفاء العديد من الغابات والتي تمت إزالتها حيث تعرضت التضاريس لتآكل شديد، فاقترحت مصلحة الغابات الاستمرار في مصادرة الأراضي، ويشير التقرير أنّ الموافقة الودية على هذه المصادرة غير عملية، ومن ناحية أخرى لا يمكن أن تؤدي هذه المصادرة إلى رد فعل من جانب السكان المحرومين من ممتلكاتهم بسبب رغبتهم في بيع الأراضي التي لم يعودوا يجنون منها شيئاً.

- AWO, Rapport n°1091, B : I21/2261.

انظر الملحق رقم 33.

³ - يحي بوعزيز، "سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر من خلال أقواله ورسائله 1852-1870"، المرجع السابق، ص 17.

⁴ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت، المرجع السابق، ص 521.

⁵ - Didier Guignard, Conservatoire ou révolutionnaire, op.cit., p 89.

الإمبراطور، ففي نهاية حكم الإمبراطورية الثانية وبداية عهد الجمهورية الثالثة، عانى الفلاحون من أوضاع مزرية بسبب حدوث المجاعات، وانخفاض المحاصيل الزراعية وتعرضهم لتشريعات عقابية قاسية أدت إلى تحطيم أوضاعهم الاقتصادية مما تسبب في بيع ما تبقى من الأراضي والذهاب إلى المدن أو الخارج¹. وهذه السياسة الاستعمارية الاستيطانية نتج عنها فقدان الجزائريين لأراضيهم وحيواناتهم، وعزلهم عن مناطق الإنتاج الفلاحي والاقتصادي بصفة عامة فتحوّلوا إلى طبقة محرومة².

كان هدف النظام الإمبراطوري في الجزائر تحقيق سياسة الإدماج الكامل للجزائر في فرنسا، والذي أنشأ بمقتضاه دوائر عمالية مدنية، ولم يكتفي بذلك وإنما تعداه إلى إدماج العدالة الإسلامية في العدالة الفرنسية، لكن طموحات الإمبراطور اصطدمت بمعارضة شديدة من طرف المعمرين.

2- محاولة الإدماج الكامل للجزائر:

أعلنت الجمهورية الثانية الجزائر أرضاً فرنسية وميزت في الشمال جزائر متواصلة مع فرنسا وفي الجنوب أقاليم حربية، وفي هذا الجزء الأخير كان المسلمون تحت نظام السيف. وفي الشمال الفرنسيون وحدهم هم الذين عرفوا بداية اندماج سياسي³. وهنا حدث التغير الجذري في وضعية الجزائر، إذ طالب المعمرين بإدماج الجزائر في فرنسا بصفة رسمية وإعطائهم 4 مقاعد في البرلمان الجديد، وبالفعل فقد تمكنوا من القيام بضغط على الحكومة الجديدة وتعيين 4 نواب لكي يمثلوهم في البرلمان الفرنسي، وقد تحصلوا على هذا المكسب السياسي بمقتضى الدستور الجديد الصادر بتاريخ 04 نوفمبر 1848 والذي نصت المادة 109 منه على اعتبار الجزائر أرضاً فرنسية⁴. وباختصار فإن

¹ - محمد بليل، تشريعات الاستعمار الفرنسي، المرجع السابق، ص 365.

² - يحي بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 18.

³ - محفوظ قداش، جزائر الجزائريين، تاريخ الجزائر 1830-1954، ترجمة: محمد المعراجي، منشورات ANEP، 2008، ص ص 172-173.

⁴ - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص 126.

لويس نابليون قد أعطى انطبعا للأوروبيين في الجزائر بأنه يؤيد فكرة إدماج الجزائر في فرنسا. وقد أكد هذه الحقيقة علانية في خطابه المشهور بمدينة بوردو الفرنسية سنة 1852، حيث أعلن بأنه توجد مملكة مواجهة لمدينة مرسيليا ينبغي إدماجها في فرنسا، غير أنه في واقع الأمر كان يخطط للانفراد بالسلطة وإنشاء وزارة خاصة بالشؤون الجزائرية يشرف عليها الأمير جيروم نابليون¹. وادعى الإمبراطور نابليون الثالث أن دور الجيش الفرنسي في الجزائر قد انتهى بعد الاستيلاء على بلاد القبائل سنة 1857². وفي 24 جوان 1858 قرر أن يدمج الجزائر في فرنسا فأعلن عن مرسوم 31 أوت الذي نصّ على إلغاء الحكومة العامة والأمين العام ومجلس الحكومة، وألغى منصب الحاكم العام ليعوضه بمنصب "وزير الجزائر" وخلق وزارة الجزائر والمستعمرات³ التي أشرف عليها ابن عمه "جيروم نابليون"، ومنح لرؤساء المقاطعات والبلديات سلطات واسعة تهدف إلى إدماج الجزائر بفرنسا⁴.

ولما كان من أهداف هذا النظام الجديد تحقيق الإدماج الكامل للجزائر في فرنسا، فقد أنشئت بمقتضاه ستة دوائر عمالية مدنية، وجرت محاولة لإدماج العدالة الإسلامية في العدالة الفرنسية، ولم يبق للسلطات العسكرية بعد هذه الإجراءات سوى منصب القيادة العليا للقوات البرية والبحرية التي أسندت رئاستها إلى "ماكماهون" وكان من المفروض أن تسير الأمور سيراً طبيعياً ولكن الوزير الجديد وجد نفسه في أوضاع غير مرضية، لكونه اختلف مع عمه الإمبراطور حول سياسته بإيطاليا، كما اصطدم

¹ - جريوم نابليون، هو ابن أخ الإمبراطور نابليون الثالث، كان على رأس وزارة الجزائر والمستعمرات التي تشكلت في 24 جوان 1858، اشتهر بالفضائل وحياة الترف. انظر: عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 127. وأيضاً:

حياة سيدي صالح، اللجان البرلمانية الفرنسية وقضايا الجزائريين 1871-1895، الجزائر، دار الهدى، 2012، ص 19.

² - عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 127.

³ - وزارة الجزائر والمستعمرات: تشكلت في 24 جوان 1858 بقيادة جيروم نابليون وحلت في 26 نوفمبر 1860، وتم العودة إلى النظام العسكري من جديد، حيث تم تعيين المارشال "بيليسي" حاكماً عاماً للجزائر. انظر: صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت، المرجع السابق، ص 504.

⁴ - حسين الحاج مزهورة، "مشروع المملكة العربية لنابليون الثالث في الجزائر 1852-1870"، Route éducationnel sociale، science Journal، العدد 07، جانفي 2020، ص 26.

بمعارضة العسكريين بالجزائر لسياسته التي تؤيد بصورة مطلقة اتجاه المعمرين الأوروبيين الذين يرون أن الجزائر فتحت بالقوة، ومن حقهم أن يطردوا الجزائريين من أراضيهم وممتلكاتهم ليستولوا عليها وليتقاسموها¹، حيث كان الهدف الأساسي هو تطوير الاستعمار وسلاحه الإدماج الإداري عن طريق تفكيك المجتمع الجزائري والقضاء على الترابط الموجود بين القبائل المختلفة² بالقضاء على تأثير شيوخها، وخلق الملكية الفردية³. وقد أكد ماكماهون بأن الأمير "جيروم نابليون"، وإن كان قد درس جميع الوسائل الاستعمارية في الأمريكيتين، إلا أنه رغم ذلك لم يحسن فهم المعضلة الجزائرية «ولم يكن يقرأ حسابا للمليونين ونصف من الجزائريين الشجعان الذين عزموا على أن يقاتلوا دفاعاً على استقلالهم ودينهم» وأوضح أن الصحافة المحلية بالجزائر كانت من العوامل التي نفرت الجزائريين من السلطات الفرنسية بما تنشره من سباب وإهانات لهم، وأن الأمير لم يعمل على إيقاف ذلك رغم إلحاح القيادة العسكرية وضباط الشؤون العربية عليه في ذلك⁴.

وبسبب كل هذه المشاكل اغتنم الأمير فرصة ذهابه إلى إيطاليا لعقد قرانه مع ابنة ملك سردينيا، فأعلن من هناك عن تنازله عن منصب وزارة الجزائر والمستعمرات يوم 7 مارس 1859 وخلفه مؤقتاً رومر، إلى أن عين الكونت "شاسلولوبا" بصورة رسمية في مكانه وعوض بنظام الحكومة العامة للجزائر في ديسمبر 1860⁵. لقد كانت وجهة نظر نابليون الثالث تتمثل في دمج الأوروبيين والجزائريين وخلق سلطة محلية ومنفصلة عن الجزائر لأنه من الصعب على مجموعة صغيرة من الأوروبيين أن يسيطروا على الموقف

¹ - يحيى بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 18-19.

² - كان هدف سياسة الإمبراطور جعل من القبيلة الخلية الإدارية القاعدية لتنظيماتها ومع تأسيس المكاتب العربية في النظام العسكري عام 1844، ظل التنظيم الإداري يرتكز على مراقبة سكان فرق القبيلة تحت سلطة مباشرة لضباط هذه المكاتب، فالجيش الفرنسي أدرك منذ البداية أن القبيلة هي الشبكة الأساسية التي كانت وراء قوة المقاومة الشعبية الراضية للاحتلال. انظر:

كريم ولد النبية، البلدية الاستعمارية في الجزائر، المرجع السابق، ص 16.

³ - حسين الحاج مزهورة، مشروع المملكة العربية لنابليون الثالث، المرجع السابق، ص 227.

⁴ - يحيى بوعزيز، سياسة نابليون الثالث اتجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 19.

⁵ - المرجع نفسه، ص 19.

ويتحكموا في زمام الأمور، لكن غلاة الاستعمار بالجزائر تفوقوا على نابليون الثالث وتمكنوا من شن حملة عليه خلاصتها أن نابليون الثالث كان يسعى لقيام مملكة عربية¹ يرأسها أحد أبناء العرب أمثال الأمير عبد القادر، ويضعون حداً للوجود الأوروبي بالجزائر. ونتيجة لهذه الحملة القوية المفعول تمكن الأوروبيون المتواجدون بالجزائر من أن يفرضوا أنفسهم على فرنسا بمجرد سقوط حكومة الإمبراطورية في شهر جويلية من عام 1870².

اتبع "بيليسي" نفس سياسة سلفه "راندون" فيما يخص مصادرة الأراضي لصالح التوسع والاستيطان الاستعماري، ومد الطرق المعبدة، والسكك الحديدية لخدمة مشاريع الأوروبيين الاقتصادية، ومستقبلهم السياسي. وكان في نيته أن يتوسع في تطبيق هذه السياسة إلى أبعد حد، ولكن الإمبراطور كان يفكر في سياسة جديدة تجاه الجزائريين.

3- تغير سياسة نابليون بعد 1860:

بعد زيارته الخاصة للجزائر عام 1860³، اشتهر الإمبراطور بجملة من المحاولات التي تجمع بين إخضاع الجزائريين تحت السيطرة الاستعمارية، وبين الحد من أطماع الغلاة المدنيين الذين أرادوا إبادة المجتمع الجزائري عن طريق القوة⁴، وقد انشغل باله بمشكلة الملكية الشخصية للأراضي بالنسبة للجزائريين بعد أن اشتدت عمليات انتزاعها منهم، واستقر رأيه على ضرورة إقرارهم في الأراضي التي يشغلونها ويستقرون بها، وشرح

¹ - المملكة العربية مصطلح استعمله الإمبراطور نابليون الثالث أول مرة في رسالة وجهها إلى المارشال "بيليسي" بتاريخ 01 نوفمبر 1861، وتعني المملكة العربية سياسة نابليون الثالث في الجزائر بدعم من بعض المتطرفين القاضية بضرورة دمج المجتمع الجزائري في المجتمع الأوروبي بالجزائر عن طريق جملة من الإجراءات الذهنية والمادية للوصول إلى إقامة مجتمع تشاركي. انظر: عبيد مصطفى، "دراسة في رسالة الإمبراطور نابليون الثالث إلى المارشال بيليسي بتاريخ 06 فيفري 1863"، مصادر، المجلد 14، العدد 25، ص 259.

² - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، المرجع السابق، ص 128.

³ - يحي بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 20.

⁴ - مصطفى عبيد، دراسة في رسالة الإمبراطور نابليون الثالث، المرجع السابق، ص ص 256-257.

ذلك في رسالته إلى بيليسي في مطلع فيفري 1863¹ ورد فيها: «إن الجزائر ليست مستعمرة خالصة لكنها مملكة عربية» مما أثار غضب المستوطنين، كما تعصب لها بعض المؤرخين فرأوا وجوب التنديد بهذه السياسة المناهضة للاستيطان². وقد أعاد نابليون في رسالة أخرى إلى الحاكم العام "بيليسي" في 06 فيفري 1863 أمره فيها بوقف مصادرة الأراضي، وإعلان المساواة الكاملة بين الجزائريين والفرنسيين، وبأن فرنسا لم تكن مستعمرة ولكن مملكة عربية، وإعلامهم بأن نابليون كان إمبراطور العرب كما هو إمبراطور الفرنسيين، وجاء فيها: «هذا أيها السيد المارشال الطريق الواجب إتباعه بصراحة لأن الجزائر أكرر ليست مستعمرة، وكلها مملكة عربية للأهالي قبل المعمرين حتى تتساوى حمايتي، وأنا بنفس القدر إمبراطور العرب وإمبراطور الفرنسيين»، وكانت رسالة نابليون الثالث لـ"بيليسي" إدانة حقيقية لأخطاء الماضي³.

وبعد ذلك بحوالي الشهرين صدر عن مجلس الشيوخ "القانون المشيخي" الخاص بالملكية الأهلية ولإجراءات الحصر والذي جاء ردا على التطبيق السلبي لقانون 16 جوان 1851⁴، وتماشيا مع هذه السياسة اقتنع مجلس السيناتيس كونسيلت⁵ بإصدار قرار 22 أبريل 1863 الذي يقضي بتمليك الجزائريين للأراضي التي تحت أيديهم سواء كانت في الأصل ملكا شخصيا لهم، أو مشاعة بين الأعراش⁶. وبعد عرض المشروع على المناقشة

¹ - يحي بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 20.

² - بعد الإعلان عن فكرة المملكة العربية وإلغاء وزارة الجزائر والمستعمرات 1860 بدأت المعارضة تتحرك بشكل كبير حيث وجدت أرضية خصبة للتعبير حيث كانت هذه الأخيرة تدعو إلى عودة النظام المدني، وتشكيل مجلس استعماري، ومن نتائج ذلك تحرك العديد من الأطراف الذي أدى إلى ظهور العرائض والدعاية وغيرها. انظر:

نور الدين أيلال، القانون المشيخي، المرجع السابق، ص 210.

³ - حسين الحاج مزهورة، مشروع المملكة العربية، المرجع السابق، ص 228.

⁴ - نادية طرشون، سياسة نابليون الثالث العربية، المرجع السابق، ص 231.

⁵ - كلمة سيناتيس كونسيلت أصلها لاتيني (Senatus- consulte)، وهي كلمة مشتقة من لفظ (senat) مصطلح يطلق على البرلمان، وهو مشتق من لفظ سناتور (sénature) باللاتينية، ومعناه نائب برلمان، أما (S.C) هي قرارات التي يصدرها السينات (المجلس) الفرنسي لتدعيم وتقوية القانون ويسمى كذلك بالقانون السلطاني أو القرار المشيخي أو أحيانا أخرى الاستشارة البرلمانية. انظر:

كريم ولد النبية، البلدية الاستعمارية في الجزائر، المرجع السابق، ص 12.

⁶ - يحي بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 20.

ظهرت عدة مواقف أثارت جدلاً واسعاً¹ وغير واضح تماماً الدافع الذي حفزه على إتباع هذه السياسة، غير أن كرهه العام لأوروبي الجزائر ورغبته في بعث أمجاد عمه "نابليون الأول"² قد تكون من الأسباب والدوافع لذلك. على أن هذه السياسة جلبت له عداة العسكريين الذين هم الأداة الرئيسية لتنفيذها³ وقد كشف هذا المشروع عن نوايا الإمبراطور نابليون الثالث الذي أيد المشروع كل التأييد⁴ حيث أن تطبيق سيناتيس كونسيلت سمح بإعادة توزيع حديثة للممتلكات⁵.

وبسبب غضب الجميع من الإمبراطور وعدم ارتباطهم به، عزم على زيارة الجزائر مرة أخرى ليطالع بنفسه في عين المكان على الأوضاع والمشاكل، ودامت زيارته لها من 03 ماي إلى 07 جوان 1865 وتنقل في جهات كثيرة منها، ونوع اتصالاته بالشخصيات الأوروبية والجزائرية، حتى يكون لنفسه صورة واضحة عن حقيقة الأوضاع⁶، ولعلّ هذا ما حاول الإمبراطور نابليون الثالث معالجته في رسالته بتاريخ 20 جوان 1865 حيث أعطى تعليمات حكيمة مذكراً بأنه لا يجب أن يغيب عن الأذهان بأن القوانين التي صدرت لتطبق في فرنسا ليست صالحة دوماً للتطبيق في الجزائر⁷. وقد بعث هذه الرسالة إلى "ماكماهون" وانتقد فيها أشياء كثيرة، وأكد أنه: «طبق في الجزائر أكثر من خمسة عشر نظاماً لم ينتج عنها سوى الغموض» ولذلك اقترح تطبيق النظام المدني، وعاد بذلك إلى نظرية المدنيين، وأشار إلى ضرورة الاعتماد على أريحية الجزائريين في التطوير، دون أن يوضح مفهوم هذه الأريحية، غير أنه قال: «إن الجزائر عبارة عن مملكة عربية، ومستعمرة فرنسية، ومعسكر أوروبي» وأكد أنه لا يمكن القضاء على ثلاثة ملايين

¹ - نور الدين أبلال، المرسوم المشيخي 22 أبريل 1863، المرجع السابق، ص 211.

² - نابليون بونابرت: قائد عسكري وسياسي فرنسي بزغ نجمه خلال أحداث الثورة الفرنسية، حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بصفته قنصلاً عاماً ثم بصفته إمبراطوراً في العقد الأول من القرن التاسع عشر.

³ - يحي بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 20.

⁴ - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، المرجع السابق، ص 14.

⁵ - Didier Guignard, op.cit., p 94.

⁶ - يحي بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 21.

⁷ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت 1863، المرجع السابق، ص 517.

من الجزائريين أو رميهم إلى الصحراء كما فعل الأمريكيان بالهنود الحمر. واعترف أن هناك بالجزائر عسكريين «يمكرون بالجزائريين» كما أن مصالح الغابات تضايقهم كثيراً وتمنعهم من قطع ولو «محراث خشبي»، وذكر أن «من أخطاء فرنسا» أنها تطبق بالجزائر قوانين وضعت خصيصاً لفرنسا كقانون الصيد مثلاً وذلك مما جعل الجزائريين يفقدون أملاكهم ويتعرضون إلى الإفلاس¹.

عرفت سياسة الإمبراطور في الجزائر تقلباً شديداً في المواقف وعدم الثبات ، على سياسة واحدة ، إذ كان يغير مواقفه في كل مرة على حسب الظروف والمتغيرات، وبالرغم من محاول الإدماج التي حاول القيام بها فقد سعى إلى إرضاء بعض الجزائريين عن طريق مجموعة من القوانين التي سنّها .

4- تعدّد مواقف الإمبراطور تجاه الجزائر:

تميزت سياسة الإمبراطور نابليون تجاه الجزائر بالتقلب وعدم الاستقرار على نهج معيّن. وإن كانت الميزة الأساسية لهذه السياسة هي محاولة دمج الجزائر بفرنسا، فقد حاول أن يرضي الأهالي الجزائريين ببعض الإجراءات، وفي نفس الوقت حاول إرضاء المستوطنين من خلال تشجيع الاستعمار الرسمي الرأسمالي². تلك هي الأفكار الرئيسية التي وردت في رسالة الإمبراطور نابليون، وهي التي ركز عليها الكتاب الفرنسيون لإظهار وإبراز ما دعوه «بالسياسة العربية للإمبراطور»، غير أن هناك أشياء كثيرة في رسالة الإمبراطور³ وفي إعلانه للجزائريين خلال زيارته للجزائر طالهم بضرورة قبول السيطرة الفرنسية، والخضوع للأمر الواقع الذي اعتبره من «أقدار الله وحكمته ومشيتته الأزلية» وتحداهم بالنحس والشؤم، وحذرهم من مغبة الثورة ضد فرنسا. وفي رسالته إلى "ماكماهون" أوضح كثيراً أهدافه الحقيقية من محاولة استمالة الجزائريين وهي تقوية

¹ - يحي بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص ص 21-22.

² - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت 1863، المرجع السابق، ص 503.

³ - راجع نص الرسالة باللغة الفرنسية المتعلق بخطاب نابليون إلى الجزائريين يوم 05 ماي 1865. يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص

مركز فرنسا، وتوفير الأمن والسلام للجيش الفرنسي، وتدعيمه بالجنود الجزائريين الذين خبرت فرنسا شجاعتهم في حروبها، إضافة إلى خدمة الاقتصاد الفرنسي عن طريق استثمار ثروات الجزائر المحلية. أما هدفه من الاهتمام بالزوايا فليس لفرض تطوير التعليم العربي الإسلامي، وإنما خلق طبقة من «المخبرين والجواسيس» تعتمد عليهم فرنسا في فرض رقابتها السياسية والفكرية، ولم يكتف بذلك فعمل على تدعيم الوجود الكنسي في الجزائر¹. إن الإجراءات المتناقضة للإمبراطور نابليون تجسدت في 22 أفريل 1863 وهو خاص بالملكية العقارية، والثاني في 14 جويلية 1865 اعتبر الجزائريين المتخلين عن أحوالهم الشخصية الإسلامية مواطنين فرنسيين يتمتعون بكامل الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الفرنسيون لكن بطريقة فردية في حين اعتبر الجزائريين غير المتخلين عن أحوالهم الشخصية الإسلامية رعايا محرومين من الحقوق التي يتمتع بها الفرد الفرنسي بحجة أن الجنسية الفرنسية لا تتناسب مع الأحوال الشخصية الإسلامية².

وتكشف اقتراحاته حول التركيز الاستعماري بوضوح أكثر عن حقيقة نواياه ومشاريعه التوسعية الاستعمارية، حيث خصص معظم مناطق الشمال والتل للجاليات الأوروبية والاستيطان الاستعماري في المقاطعات الثلاثة، وذلك يعني تحطيم المجتمع الجزائري وطرده من أراضيه الخصبة إلى قمم الجبال الجرداء، والصحاري القاحلة، وهو أمر يتعارض مع ما قال في صدر الرسالة من استحالة رمي ثلاثة ملايين من الجزائريين إلى الصحراء كما فعل الأمريكيان بالهنود الحمر، وحتى عندما اقترح تخصيص مائة مليون فرنك للتطوير الاقتصادي في الجزائر، وزعمها توزيعا لا يخدم سوى مصالح الجالية الأوروبية فقط ومشاريعها الاقتصادية، ولم يخصص أي مبلغ للجزائريين. وبالإضافة إلى هذا طالب بالاقتصاد في النفقات، وعدم الاهتمام بالأمور الفنية لأن البلاد الجزائرية في نظره حديثة، والغرض المطلوب إنجاز المشاريع بكيفية أكثر بساطة تؤدي إلى تركيز

¹ - يحيى بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 23.

² - المرجع نفسه، ص ص 23-24.

الاستعمار¹. ومن هنا يتبين لنا أن الجزائر كانت مسرحا للعديد من الأنظمة الغير مستقرة وذلك تبعاً لأهواء العسكريين والمدنيين دون استشارة المعنيين بالأمر²، وهذا ما ذكره الإمبراطور في رسالته إلى ماكماهون في 20 جوان 1865، ومما ورد فيها: «أنه طبق في الجزائر أكثر من خمسة عشر نظاما لم ينتج عنها سوى الغموض»³. إن المطلع على سياسة الإمبراطور نابليون الثالث يعتقد أنّها كانت تصبّ في خدمة مصالح الأهالي (الجزائريين) لكنها في الحقيقة لم تكن تخدم سوى المصالح العليا لفرنسا، كما أنّها مليئة بالتناقضات فمن جهة نجد نابليون يشيد بالجنس العربي الذي وصفه بالذكاء والأنفة والشجاعة ومن جهة أخرى نجده ينظر إليه نظرة احتقار واستعلاء ويرى أنه لا يصلح سوى لخدمة الأرض وحرفة الرعي عكس الفرنسي أو الأوروبي الذي يجب أن توكل إليه أنشطة أخرى مثل استغلال الغابات والمناجم ومشاريع الرعي وإدخال الزراعات المتطورة وغيرها من الأنشطة التي تتطلب المهارات التقنية⁴.

وعلى أرض الواقع عمل الإمبراطور على تمكين قادة الجيش من التصدي لمقاومة الجزائريين في بلاد القبائل وفي الجنوب وتدعيمهم من أجل الانتصار على رجال المقاومة الجزائرية. وبذلك حقق رغبة الفئة العسكرية. وبالنسبة للمعمرين فقد ساعدهم على تحطيم مؤسسات الدولة الجزائرية واستبدال تلك المؤسسات بهياكل إدارية جديدة فرنسية سواء في ميدان التسيير الإداري أو القضائي أو المالي⁵.

ونخلص إلى أن سياسة نابليون الثالث لم تكن لتختلف عن سياسة من سبقه على رأس الدولة الفرنسية وهذا ما لاحظته الأستاذ عبد الله العروي حيث قال بأن الفرق بين نابليون الثالث وغيره هو أنه كان أقرب إلى منطق الرأسمالية المتطورة على النمط

¹ - يعي بوعزيز، سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر، المرجع السابق، ص 23.

² - كريم ولد النبية، تاريخ الإدارة الاستعمارية المحلية في الجزائر، المرجع السابق، ص 109.

³ - المرجع نفسه، ص 110.

⁴ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت 1863، المرجع السابق، ص 505.

⁵ - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، المرجع السابق، ص 129.

الأمريكي¹. وفي الأيام الأخيرة من حكم لويس نابليون، بدأ المعمرون الأوروبيون يفرضون أنفسهم على الساحة الجزائرية، وقد شعر الإمبراطور بضعفه أمام المستوطنين الأوروبيين بالجزائر وحاول إرضائهم عن طريق إصدار مرسوم يوم 31 ماي 1870 بحيث يتحرر رؤساء العمالات الثلاثة في الجزائر من القيود المفروضة عليهم من طرف السلطات العسكرية، وفي يوم 11 جوان 1870 أصدر الإمبراطور مرسوما آخر يسمح للمستوطنين الفرنسيين بإجراء الانتخابات في المناطق المدنية واختيار الأعضاء الذين يمثلونهم في المجالس العامة، وقد أثارت هذه التنازلات للمعمرين غضب الجيش والحاكم العام "ماكماهون" الذي استقال من منصبه، لكن انهيار الإمبراطورية كان بمثابة النهاية للصراع بين المعمرين والحكومة الفرنسية².

¹ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت 1863، المرجع السابق، ص 510.

² - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، المرجع السابق، ص 137.

ثانيا: القرار المشيخي سيناتيس كونسيلت 22 أفريل 1863.

جاء قانون سيناتيس كونسيلت في 22 أفريل 1863 كتشريع عقاري سنّته الإدارة الاستعمارية لتنظيم الملكية العقارية واستكمال ما بدّأته من سياسة نزع الملكية الخاصة بالقبائل، لما تمثل الأرض من مكانة لدى المجتمع القبلي، والذي ستنعكس نتائجه على البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للجزائريين.

1- الأسباب والأهداف:

وجد الاستعمار الفرنسي في القرار المشيخي (1863) الذي أباح للجزائريين بيع ممتلكاتهم الأسلوب المنهجي لتفكيك العائلة الجزائرية المسلمة المحافظة، وأفقدتها شخصيتها، وضرب عاداتها وتقاليدها المستمدة من روح الدين الإسلامي ومن التراث الحضاري الجزائري العريق¹. لم يكن هدف فرنسا الاستيلاء على الأراضي الزراعية وتشكيل الملكية الفردية فحسب، بل كذلك تفتيت القبائل وتأسيس الدوار²، إضافة لذلك وضع هذا القرار لأخذ الثأر من القبيلة لدورها في المقاومة المسلحة، والدليل على ذلك الشروط التي أرفقت لتطبيق المرسوم والتي أدّت إلى زوال الملكية الجماعية وحل محلّها الملكية الفردية³. ويذكر "باستيد" في هذا الصدد أنّ قانون سيناتيس كونسيلت 22 أفريل 1863 جاء من أجل تنظيم الأراضي الزراعية وتقسيمها إلى أربعة أصناف (أراضي تابعة للدولة- أراضي مشاعة- أراضي العرش- أراضي الملك)⁴. ومن هنا يتبين أنّ القرار المشيخي 1863 كان له هدف مزدوج سياسي ومالي، لأنّ فرنسا الأراضي تقتضي إخضاعها

¹ - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1862، دكتوراه، المرجع السابق، ص 309.

² - محمد دادة، السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر 1852-1870، دكتوراه غير منشورة، إشراف: فغورودحو، جامعة وهران، 2002/2003، ص 196.

³ - فاطمة حباش، المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870) تيارت- سعيدة- جيرفيل- البيض نماذجاً، دكتوراه غير منشورة، إشراف: بن نعيمة عبد المجيد، جامعة وهران، 2013/2014، ص 328.

⁴ - Bastide L., op.cit., p 87.

للنظام الضرائبي الفرنسي لغرض خلق ميزانية استعمارية. إن مرامي الإمبراطور آنذاك كانت تهدف من خلال هذا القرار إلى تحقيق ثلاث غايات:

- الغاية الأولى: طمأنة الجزائريين الذين شعروا بالخطر يهددهم من جراء عمليات اغتصاب الأراضي وتجميع سكان الأرياف في مساحات معينة¹

- الغاية الثانية: الاعتراف بحق الملكية للجزائريين، وإمكانية إحداث ملكية فردية للعرب تدريجيا- أي الجزائريين².

- الغاية الثالثة: إن المادة 06 من القرار المشيخي 22 أفريل 1863 قد رفعت الحظر الذي كان مضروبا على الصفقات العقارية بين الجزائريين والأوروبيين بمقتضى المادة 14 من قانون 16 جوان 1851 الأمر الذي سمح للكولون بشراء أراضي زراعية تقع وسط تراب القبائل، إلا أنّ هذه المادة تنص على أنّ الملكية الفردية التي يقرر صاحبها وضعها تحت تصرف أعضاء الدوار لا يمكنها أن تلحق به إلا بمقتضى عقد فردي مسجل³. وهكذا كان لا بدّ من تقسيم الأراضي لتحقيق الغرض الأساسي من قرار السناتوس كونسيلت، وهو إحلال الملكية الفردية مكان الملكية الجماعية، وهذا لم يكن ممكنا دون تفتيت القبائل وتكوين الدواوير. إلا أنّ هذه المرحلة من تكوين الدواوير لم تكن سوى مرحلة انتقالية، حيث كان الهدف المطلوب والمعلن هو تأسيس البلديات الخاصة بالمسلمين الجزائريين⁴.

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار القرار المشيخي 1863 أخطر سلاح وجّه لضرب البنية الاجتماعية للشعب الجزائري، وأقوى أداة وضعت بين أيدي الكولون، لأنّه أتاح

¹ - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 217.

² - المرجع نفسه، ص 218.

³ - نفسه، ص 219.

⁴ - محمد دادة، السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر 1852-1870، ص 251.

لهم المجال للحصول على المزيد من الأراضي والتي عن طريقها سيكسبون القوة والنفوذ والأمن والنجاح¹.

و منذ أن وطأت أقدام فرنسا الجزائر راھنت على المستوطنين من أجل استكمال عملية الاحتلال، ولم يتسنى لها ذلك إلا بتوفير الأوعية العقارية التي كانت لها الملاذ البارز لتشجيع الهجرة الأوروبية إلى الجزائر والعمل على استقرار أكبر عدد من المستوطنين مع توفير الأرض لهم، وبسقوط الجمهورية الفرنسية الثانية خلفتها الإمبراطورية الثانية بزعامة الإمبراطور نابليون الثالث، أوائل سنة 1852.

2- الظروف التي صدر فيها:

تميزت سياسة الإمبراطور تجاه الجزائر بالتقلب وعدم الاستقرار على نهج معين، غير أن أهم خطوة إدماجية قام بها الإمبراطور نابليون الثالث هي بإنشاء وزارة الجزائر والمستعمرات (1858-1860) التي عملت بدورها على تشجيع الاستيطان الأوروبي ومع ذلك لقيت معارضة شديدة من طرف العسكريين وضباط المكاتب العربية، الذين حاولوا إقناع الإمبراطور نابليون بمساوئ هذه السياسة، الشيء الذي جعله يقرر القيام بأول زيارة له إلى الجزائر سنة 1860 بهدف الاطلاع على أوضاع المستعمرة، وبعد هذه الزيارة مباشرة أقدم نابليون على إلغاء وزارة الجزائر والمستعمرات يوم 26 نوفمبر 1860 وتعيين "بيليسي"² "Pélissier" حاكما عاما على الجزائر، ومنذ زيارته الأولى إلى الجزائر سنة 1860 انشغل الإمبراطور نابليون بمسألة الملكية العقارية في الجزائر حيث سمحت له هذه

¹ - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 310.

² - بيليسي Amable Jean-Jacques Pellissier (1794-1864): مارشال وسياسي فرنسي ظهرت خدماته في الحملة الفرنسية على الجزائر 02 أكتوبر 1830 كضابط في جوقه الشرف ثم عاد إلى فرنسا لغاية 1839، وعاد مرة أخرى إلى الجزائر برتبة عقيد ومكث بها 16 سنة، في 1845 أباد قبيلة أولاد رياح بالظهرة حرقاً، وفي 1860 عين حاكما عاما على الجزائر إلى غاية وفاته في 22 ماي 1864. للمزيد راجع:

كريمة حرشوش، جرائم الجنرالات الفرنسيين ضد مقاومة الأمير عبد القادر في الجزائر من خلال أدبياتهم 1832-1847 (نماذج)، ماجستير غير منشورة، إشراف: صم منور، جامعة وهران، ص 185.

الزيارة بالاطلاع على حقيقة الوضع والتأكد من مختلف عمليات السلب والنهب التي طالت الجزائريين في أعزّ ما يملكون وهو الأرض¹.

وفي الرسالة التي بعث بها الإمبراطور نابليون إلى المارشال "بيليسي" في 06 فبراير 1863، والتي حدّد فيها الخطوط العريضة للسياسة التي يريد انتهاجها، أكّد على ضرورة تعزيز ملكية الأرض لدى أصحابها الأصليين، وجعل القبائل المالكة للأرض تحت تصرّفها لاستغلالها والاستفادة منها، مذكّراً بالالتزامات والتعهدات التي قطعتها الحكومة الفرنسية على نفسها عند غزو الجزائر²، إضافة إلى طمأنة مالكي الأرض بأحقّيتهم بها والسماح لهم بالبيع والاقتراض وتسهيل المعاملات مع الأوروبيين³.

إنّ المطلّع على مضمون هذه الرسالة قد يبدو له للوهلة الأولى بأن سياسة الإمبراطور نابليون الثالث قد كانت تصب في خدمة مصالح الأهالي، لكنّها في الحقيقة لم تكن تخدم سوى المصالح العليا لفرنسا⁴، لقد حاول نابليون إرضاء الجزائريين بالوجود الاستعماري حيث خاطب الحاكم العام قائلاً: «يجب إقناع العرب بأننا لم نأت إلى الجزائر لقمعهم وسلبهم ولكن لجلب الحضارة ومنافعها لهم... فالجزائر ليست مستعمرة وإنما هي مملكة عربية»⁵. ونزولاً عند رغبة الإمبراطور بشأن الإصلاحات التي يجب إدخالها على النظام العقاري بالجزائر تمّ إعداد مشروع سيناتيس كونسيلت في مطلع شهر مارس 1863، وبعد اطلاع مجلس الحكومة الفرنسي عليه، تم عرضه على مجلس الشيوخ في التاسع من نفس الشهر مرفقاً بعرض لأسباب ودوافع إصداره⁶. إنّ الظرف

¹ - صالح حيمر، "قانون سيناتيس كونسيلت 1863 حول الملكية العقارية في الجزائر: قراءة تاريخية"، مجلة عصور الجديدة، المجلد 11، العدد 02، ص ص 503-504.

² - لا يخفى على أحد أن فرنسا خلال حملتها على الجزائر خاطبت السكان بأنّها جاءت لتأديب الداي حسين الذي أهان شرف فرنسا، وأنّ الجزائريين سيتمتعون بكامل حقوقهم وتعمدت باحترام هويتهم ومعتقدهم، إلّا أنّها ضربت كل ذلك عرض الحائط، والسياسة الاستعمارية الفرنسية القائمة على استغلال الأرض والإنسان لخير دليل على ذلك.

³ - Brunel Camille, La question indigène en Algérie, op.cit., pp 172- 173.

⁴ - إبراهيم لونيبي، القضايا الوطنية في جريدة المبشر (1847-1870)، ماجستير، جامعة الجزائر، 1993-1994، ص 100.

⁵ - Charles André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine (1827- 1871), op.cit., pp 424- 425.

⁶ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت 1863، المرجع السابق، ص 505.

الذي جاء فيه هذا القانون جعله يستكمل ما بدأته الإدارة الاستعمارية في محاولة للقضاء على القبيلة حيث ظلت القبائل قادرة على الاستثمار والاستغلال بالرغم من تعرضها للمصادرات إذ حتى ذلك الحين لم يصب النظام الاقتصادي المحلي بشكل جوهري إلا بعد أن تسنى للاستعمار مجيء الوقت المناسب للقضاء على هذا النظام الفلاحي الصناعي، الذي كانت تمثل فيه القبيلة خطراً على عملية الاستيطان. صرح الجنرال "آلار" (Allard)، رئيس مجلس الدولة أمام مجلس الشيوخ قائلاً: «لم يعد يعيب على بال الحكومة أن منحى سياستها يجب أن يركز بشكل عام على تخليص القبائل من تأثير الزعماء، وعلى تفتيت القبيلة»¹.

وعندما حرصت بعض القبائل على غلق أراضيها في وجه العنصر الأوروبي، فإن الإمبراطور الفرنسي دعا الحكومة إلى العمل على الحد من نفوذ زعماء القبائل وإضعافهم لاعتقاده أن الجزائر بلد تعيش فيه القبائل وفق نظام أبوي شبيه بذلك النظام الذي ساد القبائل الإسرائيلية في العهود القديمة، أو النظام العشائري الذي عرفته بلاد اسكتلندا والذي كانت تحكمه تعاليم الدين. ولما كان زعماء القبائل أصحاب نفوذ، فإن فرنسا حملتهم مسؤولية الأحداث التي تسببت فيها القبائل². وتجدر الإشارة هنا إلى ما تعرضت له قبيلة بني عامر جرّاء التشريعات العقارية السابقة خاصة بعد عودتها الكبرى من المغرب، وهنا نطرح تساؤلاً يتعلّق بما مدى تأثير قانون سيناتيس كونسيلت 1863 على بني عامر خاصة مسألة الملكية العقارية.

شكل قانون سيناتيس كونسيلت الصادر في 22 أفريل 1863 محطة تحول في بارزة في السياسة العقارية في الجزائر، وهذا نظراً للنتائج والتبعات التي انجرت عنه والتي تأثر بها المجتمع الجزائري اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، جاء مضمون هذا القانون لينظم الأراضي والممتلكات التابعة للقبائل وإعطائها صبغة قانونية.

¹ - محمد دادة، السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر 1852-1870، المرجع السابق، ص 177.

² - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 221.

3- مضمونه:

أحدث قانون سيناتيس كونسيلت 1863 تغييرين ملحوظين هما:

- في الحالة السابقة للممتلكات المحلية تتحول إلى حق الملكية الجماعية لصالح القبائل¹.

- تقسيم الأراضي الجماعية بين مختلف الدواوير، حيث أن القبيلة تحتفظ بأراضيها وحق استغلالها ما لم يتم إدماج أرضها في الدوار².

أقرّ سيناتيس كونسيلت بتحديد الأراضي من قبل موظفي الإدارة، حيث تم تقسيم القبيلة إلى دوار ويمثل الدوار البلدية الأصلية³.

وقد قام كذلك القرار المشيخي بتحديد الأراضي على النحو التالي: (1) أراضي الدولة- (2) أراضي الملك- (3) أراضي العرش- (4) أراضي الدوار المشتركة⁴. والمتأمل للمادة الأولى من سيناتيس كونسيلت يدرك أنّها جاءت لتدعيم تصريحات الإمبراطور السابقة والتي حاول من خلالها طمأنة الجزائريين بتوفير الراحة والازدهار لهم، حيث نصّت هذه المادة على أن الملكيات الأرضية بحوزة القبائل في الجزائر، والتي ظلوا يتمتعون بها بشكل دائم وتقليدي مهما كانت الصفة تعتبر ملكية مثبتة قانوناً⁵.

ويمكن تلخيص ما جاء في فصول سيناتيس كونسيلت السبع فيما يلي:

- الفصل الأول: القبائل الجزائرية مالكة للأراضي التي تنتفع بها بصفة دائمة وتقليدية مهما كان بينة ذلك.

¹ -Brunel Camille, La question indigène en Algérie, op.cit., p 173.

² - Ibid., p 174.

³ - Ibid., p 175.

⁴ - Ibid., p 176.

⁵ - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 217.

تثبت كل أعمال التقسيم وغيرها التي تمت في السابق بين الدولة والأهالي فيما يتعلق بملكية الأرض.

- الفصل الثاني: نص على كيفية تطبيقه حيث ينص على (تحديد منطقة القبائل، تقسيم أراضي القبائل بين مختلف الدواوير في كل قبيلة في منطقة التل الجزائري وأراضي فلاحية أخرى مع الاحتفاظ بالأراضي التي يجب أن تبقى كأماكن بلدية، تأسيس الملكية الفردية بين أعضاء هذه الدواوير)¹.

- الفصل الثالث: (1) أشكال تحديد مناطق القبائل (2) أشكال وشروط تقسيمها بين الدواوير والتصرف في الأملاك الخاصة بالدواوير (3) الأشكال والشروط التي يتم في إطارها تأسيس الملكية الفردية وطريقة إصدار عقود الملكية).

- الفصل الرابع: تبقى القبائل المقيمة بهذه الأراضي ملزمة بدفع ما عليها من ضرائب ورسوم تجاه الدولة.

- الفصل الخامس: يحتفظ بحقوق الدولة في ملكية أراضي البايلك وحقوق الأفراد في أراضي الملك، كما يحتفظ بالدومين العام بالإضافة إلى دومين الدولة خاصة فيما يتعلق بالغابات.

- الفصل السادس: لا يمكن التصرف في الأراضي التي ستقسم على أعضاء الدواوير إلا بعد صدور عقود الملكية الفردية.

¹ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت 1863، المرجع السابق، ص 506.

- الفصل السابع: الإبقاء على الأحكام القانونية الأخرى التي جاء بها قانون 16 جوان 1850، خاصة فيما يتعلق بنزع الملكية لغرض المصلحة العامة وإجراءات الحجز¹.

وهكذا كان لا بدّ من تقسيم الأراضي لتحقيق الغرض الأساسي من قرار سيناتيس كونسيلت، وهو إحلال الملكية الفردية مكان الملكية الجماعية، وهذا لم يكن ممكناً بدون تفتيت القبائل، وتكوين الدواوير². ولوحظ بدء عملية ترسيم الحدود بين قبائل العرش والقبائل المالكة، ومنذ صدور القرار المشيخي بدأت السلطة العسكرية في تشكيل محيط القبائل³. وخلافا لهذه الأساليب يظهر سيناتيس كونسيلت كإجراء للحفاظ على سياسة نابليون الثالث المعروفة باسم المملكة العربية، حيث تظهر هذه السياسة سخية⁴ نسبيا في ذلك الوقت برفضها على وجه الخصوص رغبات المعمرين المطالبة بتنازلات مجانية أو تسهيلات أكبر في شراء أراضي السكان الأصليين. وفي الواقع فإن مشروع الاستعمار الاستيطاني الريفي والاستيعاب الإداري لم يثبت نفسه بشكل كامل إلا بعد سقوط الإمبراطورية الثانية⁵ واستقطاب المواطنين لصالحهم حيث تم تنفيذ بعد ذلك الأطر التشريعية وبالتالي خصصت الدولة الفرنسية ما يلزم للاستيلاء على الأراضي⁶.

¹ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت 1863، المرجع السابق، ص 507.

² - محمد دادة، السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر، المرجع السابق، ص 147.

³ - Brunel Camille, La question indigène, op.cit., p 176.

⁴ - لقد كان لقانون سيناتيس كونسيلت 1863 أهداف معلنة وخفية كغيره من ترسانة القوانين التي سنّها الإدارة الاستعمارية، حيث تمثلت أهدافه المعلنة في وضع حدّ للمتاعب التي كان يعاني منها الجزائريون وتحديد ملكية الأرض، ووضع يدها على العقار لتسييره. أمّا الخفية فتمثلت في تحقيق الأمن والاستقرار وتفتيت القبيلة وإحلال الملكية الفردية محل الملكية الجماعية. انظر:

صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت، المرجع السابق، ص 507-508.

⁵ - سقطت الإمبراطورية الفرنسية الثانية في 04 سبتمبر 1870 بعد هزيمة فرنسا في معركة سيدان لصالح بروسيا بقيادة المستشار بيسمارك.

⁶ - Guignard Didier, « Conservatoire ou révolutionnaire? le sénatus-consulte de 1863 appliqué au régime foncier d'Algérie », *Revue d'histoire du XIXe siècle*, n°41, 2010, p 81.

لقد اصطدم تجسيد القرار المشيخي على أرض الواقع بجملة من الصعوبات والعراقيل، منها رغبة المعمرين في الحصول على المزيد من الأراضي وطرد المالكين الشرعيين لها وتحويلهم إلى عمال في أراضي كانوا يملكونها سابقا، إضافة إلى الانتقادات التي طالته من طرف السياسيين ورجال القانون.

4- صعوبات تطبيق القرار المشيخي:

تم البدء في تطبيق هذا القانون التشريعي في منطقة سيدي بلعباس بعد مدة وجيزة من إصداره، وقد جاء من أجل تهدئة القبائل التي كانت محاصرة في مناطق محددة وإعادة ملكية الأراضي التي كانوا يتمتعون بها في الإطار التقليدي السابق ومهما كانت الصفة التي يحوزون عليها¹.

هدف سيناتيس كونسيلت بمجرد اعتماده إلى تعديل القوانين العقارية بشكل جذري ومن أجل فهم ذلك أكثر من الضروري المقارنة بالقوانين العقارية للمتروبول وفي الواقع، حتى إذا كانت الأراضي المزروعة القبلية هي تحت تصرف الأسرة ونظام الوراثة المكرس بموجب العادات المحلية والتشريع الإسلامي، فإن المسؤولين الفرنسيين وبحكم الدعاية يعاملونهم على أساس تركيب المجتمع². إن موضوع الملكية في الجزائر أثار جدلا كبيرا خاصة حول أصل سيناتيس كونسيلت والذي هو مستمد من قوانين الملكية الجماعية في فرنسا منذ منتصف القرن الثامن عشر وهو ما ذهب إليه Guignard "Didier حيث يرى أن التشريع العقاري سيناتيس كونسيلت مستمد من التقديس الحاصل - لدى ثوار 1789-1793- للملكية الفردية، فهو حسب تشريع ثوري ضمنوا من خلاله لقمة الفقراء والقضاء على الإقطاع³. إذن المتأمل للجذور التاريخية لهذا القرار

¹ -Girauld Arthur, Principe de colonisation coloniale, paris 1924, p 385.

² -Guignard Didier, op.cit., p 82.

³ -Ibid., p 82.

يدرك جيداً أنّ فرنسا حاولت نقل تجربتها العقارية إلى الجزائر¹ طبعاً ناسية أو متناسية الاختلاف الحاصل بين المجتمعين الجزائري والفرنسي من حيث العادات والتقاليد والديانة. إضافة إلى وجود عنصر آخر يلعب دوراً في أيّ معادلة حاصلة في الجزائر وهو الكولون، ومع أنّهم ظلوا يحتفظون بحقهم في الاستفادة من قانون 1851 الذي يبيح لهم التعامل مع الدواوير، ويسمح لهم بحق انتزاع الملكيات من أصحابها عن طريق المزاد العلني، أو بأمر قضائي أو بالقوة، إلاّ أنّهم جزعوا لهذا القرار وتنكروا له²، ولم تلق هذه السياسة تأييداً من قبلهم حيث أكثروا من شكاويهم واحتجاجاتهم³.

لم يحدث نابليون الثالث تغييراً في هذا القرار سوى القليل، لقد كان من مؤيدي تحديث الريف، ومدافعاً عن المبدأ الليبرالي المتعلق بالملكية الفردية. إنّ سيناتيس كونسيلت 1863 في الجزائر هو ثمرة القوانين العقارية للمتروبول والتي حولت الصراع إلى فرنسي فرنسي مع قضايا الأراضي الجزائرية التي حرضت فيما بعد الكولون ضد العسكريين، فقد كانت أهدافهم في نهاية المطاف هي إدخال الملكية الفردية بموجب القانون الفرنسي في كل مكان للسّماح للمستوطنين الأوروبيين بالاختلاط بالجزائريين في محاولة لتحديث الريف، وهذا هو سبب الجدل القائم بسبب هذا القانون⁴. لقد أثارت سياسية الإمبراطور معارضة شديدة من طرف المستوطنين، الذين طالبوا بضرورة إلغاء تلك الإجراءات التي اتخذتها حكومة الإمبراطورية الثانية والتي أوقفت الاستيطان الصغير لصالح الشركات المالية الكبرى، والسياسة التي قيل عنها أيضاً أنّها أفادت الأهالي على حساب المستوطنين الأوروبيين (المحرومين من كل حرية) ولقد حمل هؤلاء الإمبراطورية الثانية مسؤولية تأخر التمثيل السياسي الذي يمكنه تحقيق الوحدة بين البلد الأم

¹ - حرص نابليون الأول على وضع نهاية لعملية تقسيم الأراضي في 1804 وحرص في نفس الوقت على تنظيم تلك الأراضي التي تم شغلها، وتأجير المتبقية. ومع نهاية عهده اضطرت البلديات إلى بيعها لتمويل حرب (1813-1815) وسار خلفائه على نهجه بحذر ولكن

بتصميم أكبر على وضع حد للملكية الجماعية. انظر: Guignard Didier, op.cit., p 83.

² - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 217.

³ - محمد دادة، السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر، المرجع السابق، ص 179.

⁴ - Guignard Didier, op.cit., p 83.

وفرنسا الجديدة¹. على أن تطبيق سيناتيس كونسيلت واجهته عقبات كبيرة، إذ يبدأ المفوضون بجرد قائمة أراضي القبائل من خلال سرد أي تغييرات حول حيازة هذه الأراضي منذ الاحتلال ثم يتصرفون وفقا لهذا التغيير من خلال تحديد أراضي القبائل، والدوار، أو إعادة تشكيلها أو إنشائها بالكامل من قبلهم لتحديد فيما بعد الوحدات الإدارية والتي تقسم أخيرا إلى مجموعات مع بعض الممتلكات. وقد أعطى تطبيق سيناتيس كونسيلت توضيحا أكثر من خلال سجلات مسح الأراضي، وفي مذكرة مقدمة من طرف مدير الشؤون المدنية في الحكومة، أنه في 1858 (من أصل 14 مليون هكتار والتي تشكل منطقة التل الجزائري، لم يتمكن الطبغرافيون من جمع إلا 1500000 هكتار، وإذا ظل الأمر عليه بخدمة (93 مساحا) فسيستغرق الأمر 35 عاما أخرى لإجراء مسح على مساحة 12500000 هكتار².

ولم تكن الصعوبة أمام المستوطنين الحصول على الأراضي، بل كانت الرغبة في شراء الأراضي اللازمة لهم، وطرد المالكين الحقيقيين من أراضيهم، وتحويلهم إلى مزارعين لفائدة القطاع الزراعي الاستعماري³. وقد حاول هؤلاء المستوطنين خصوم العسكريين إلى جانب المعارضين العرب التكيف مع الواقع تجنباً لمزيد من الثورات، وحماية للموارد القائمة على المحاصيل والثروة الحيوانية⁴.

لم يسلم هذا المرسوم من الانتقادات التي أبداه رجال القانون والمحامون، فخلال مناقشة اللجنة الإدارية في جلستها سنة 1893، حذر جلان وهما مدير المصالح المالية في الحكومة العامة بالجزائر وهو السيد "مالي" المحامي والسيد "مارسان" من المخاطر المحتملة التي قد تنعكس على عملية إلغاء حقوق التصرف في أراضي الأعراس، فاعتبر الأول عدم قابلية هذا النوع من الأراضي للتصرف مجرد ضمان ظرفي، وعدم

¹ - نادية طرشون، "سياسة نابليون الثالث العربية"، مجلة دراسات وأبحاث، العدد 26، مارس 2017، السنة التاسعة، ص 231.

² - Guignard Didier, op.cit., p 86.

³ - محمد دادة، السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر، المرجع السابق، ص 178.

⁴ - Guignard Didier, op.cit., p 84.

تبصير وغفلة من المشرع الذي سنّ مرسوم 1863، واعتبرها في نفس الوقت اغتصاب ونهب، بينما راح الثاني مؤكداً بأنّ التحوّل السريع من الملكية الجماعية إلى الملكية الفردية سيطرّح أزمة عقارية خطيرة¹.

هناك مسألة أخرى مهمة ساهمت في عرقلة تطبيق القرار المشيخي وهي ارتفاع بعض التكاليف المرتبطة بعمليات الترسيم أو اللجوء القانوني الذي يكون من مسؤولية القبائل أو الدواوير أو الأفراد، بشرط احترام الصيغ القانونية، وفي حالة تجاهلها يتم اللجوء إلى سياسة الردع، وقد اضطر الجزائريون إلى الاعتماد على مندوبي الجماعة أو الكاتب العام، أو المحامين الفرنسيين. وفي ظلّ هذه الظروف لم يكن من الممكن تطبيق سيناتيس كونسيلت - ليس بسبب الاختلالات الحاصلة بين النص وتطبيقه- ولكن في الواقع لأنّ الإصلاح مدروس منذ البداية كثورة للتغيير، كتحويل الأرض والهياكل الاجتماعية والإدارية في المدن التي بدأت فيها الثورة الفرنسية.

إنّ مشروع سيناتيس سعى قبل كلّ شيء إلى كسر النفوذ القبلي في الجزائر²، وهكذا وعلى الرغم من أنّه تعرّض لنقد قاسٍ من جانب دعاة الاستعمار، فإنّه تحقق في حماية وتثبيت الملكية الجزائرية، وأحدث تطبيقه آثاراً عكسية³ على الجزائريين الذين تم تحطيم كيان القبيلة لديهم، واستبداله بالوحدة الإدارية الصغيرة وهو الدوار.

¹ - نور الدين أيلال، "المرسوم المشيخي 22 أبريل 1863 في الجزائر والمواقف المختلفة منه"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 6، رقم 01، ص 215.

² - Guignard Didier, op.cit., p 85.

³ - محمد دادة، السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر، المرجع السابق، ص 194.

ثالثاً: انعكاسات القرار المشيخي على بني عامر.

راعت السلطات الاستعمارية في تطبيق القرار المشيخي مصالحها العليا خاصة دعم الاستيطان الأوروبي بكل الوسائل، وتحطيم النسيج الاجتماعي للمجتمع الجزائري القائم على النظام القبلي. ومن هذا المنطلق كان يتم اختيار القبائل المعنية بعمليات سيناتيس كونسيلت تماشياً مع هاتين الغايتين.

1- تطبيق سيناتيس كونسيلت 1863.

لقد صدر أول مرسوم إمبراطوري يحدد القبائل التي ستخضع لتحديد أراضي القبائل وتقسيم هذه الأراضي على الدواوير يوم 12 أوت 1863، وقد تضمن تحديد 32 قبيلة على مستوى القطر الجزائري منها 10 قبائل في مقاطعة الجزائر، 11 قبيلة في مقاطعة وهران، 11 قبيلة في مقاطعة قسنطينة، وهذا من مجموع 1200 قبيلة جزائرية معنية بالعملية، وقد تمت العمليات الأولى ببطء نظراً للصعوبات التي واجهتها¹.

وللعلم فقد رافق تطبيق القرار المشيخي عمليات حجز ومصادرة منها على سبيل المثال 108 هكتار في دائرة مستغانم وحجز قطع أرضية متفاوتة المساحة في 24 قبيلة من دائرة تلمسان، أما أكبر عملية حجز للأراضي الزراعية خلال عام 1863 فقد شهدتها كل من دائرة معسكر وسعيدة ووهران وسيدي بلعباس². كما تم سلب المزيد من أراضي الجزائريين في منطقة سيدي بلعباس أثناء تنفيذ هذا المرسوم، ومن أبرز الأراضي التي تعرضت إلى التفكيك والتفتيت بفعل المرسوم هي أراضي أولاد سليمان وأولاد إبراهيم وحميان والحساسنة وهذا بهدف إضعاف سكان تلك المناطق وبالتالي يصبحون مسلمين ولا يشكلون أي خطر على المعمرين³. لقد تمّ تقسيم القبائل إلى دواوير وتحديد الملكية الفردية في كل دوار بتفتيت الملكية الجماعية لأولاد سليمان وأولاد إبراهيم بتاريخ 09

¹ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت 1863، المرجع السابق، ص 514.

² - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 218.

³ - إبراهيم لونيسي، الاستعمار الاستيطاني في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 70.

مارس 1866 وقبيلة حميان بتاريخ 13 أفريل 1866 ثم الحساسنة بتاريخ 26 جوان 1866، أما قبيلة أولاد علي فقد تمّ تقسيم أراضيهم وتشكلت فيها مجموعة من الدواوير، وتم توزيع الأراضي بما يتناسب ووسائل استغلالهم لها، وبقيت الأرض القاحلة غير مقسمة لتشكّل جزأين أحدهما الأراضي المشتركة والآخر يشمل الأراضي الصالحة، وقد قُلِّصت مساحة أولاد علي إلى 39603 هـ و64 آر، هذه الأراضي التي شغلها 9541 نسمة¹.

ومن الطبيعي أن تكون الأراضي القريبة من المراكز الاستيطانية وعددها في منطقة سيدي بلعباس 24 مركزا استيطانيا².

وإلى غاية تاريخ 19 ديسمبر 1870 مسّ تطبيق هذا القانون 402 قبيلة تشغل مساحة قدرها 6.973.469 هكتار، أما "لارشي" "Larcher" فقد ذكر بأنّه تمّ تحديد مساحة قدرها 6.883.811 هكتار، تضم 372 قبيلة، يسكنها 1.037.066 شخص، تمّ تقسيمها إلى 667 دوار، وقد تمّ تصنيف هذه الأراضي على النحو التالي: 2.840.591 هكتار ضمن فئة ملك، 1.523.013 هكتار ضمن فئة عرش، 1.336.492 هكتار صنّفت أراضي بلدية، 180.643 هكتار صنّفت ضمن أملاك الدومين العام فيما عاد 1.003.072 هكتار إلى دومين الدولة، في حين بقيت 321 قبيلة تنتظر التطبيق على مساحة قدرها نحو 6 ملايين هكتار³. وقد تضاعفت ملكية الأراضي أربع مرات بين عامي 1871 و1920⁴ لتغطي حوالي ربع الأراضي المزروعة (2.3 مليون هكتار) والملكية الخاصة للدولة⁵ ازدادت

¹ -AW SBA, BO 1868, n°282, p 483.

² -كريم ولد النبية، دوار برقش (منطقة سيدي بلعباس)، كتاب تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1954، المرجع السابق، ص 116.

³ -صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت 1863، المرجع السابق، ص 517.

⁴ -تجاوزت الملكية الأوروبية عام 1864: 567000 هكتار. انظر:

Guignard Didier, Conservatoire ou révolutionnaire, op.cit., p 81.

⁵ -كان مجال الدولة 364000 هكتار في 1851، لكن بعد تطبيق سيناتيس كونسيلت بين (1864 و 1870) توسعت هذه المساحات. انظر:

- Guignard Didier, op.cit., p 81.

في نفس الوقت إلى أكثر من 5 ملايين هكتار¹. ونظرا لعوامل الاضطراب التي رافقت قانون سيناتيس كونسيلت خاصة فيما يتعلق في تقسيم حقوق الأراضي، تم تقييم هذه الإصلاحات خاصة بعد 1864 و1870 لمعرفة الآثار الناجمة عن تطبيقه بشكل أكثر دقة داخل قبيلة الحجز بالقرب من سيدي بلعباس في القطاع الوهراني²، إذ أنّ عاملا آخر لعب دوراً لصالح الملاك، ألا وهو الطبيعة غير المستقرة للأراضي الفلاحية خاصة فيما يتعلق بتأجير القبائل للأراضي في كل مرة، فتطبيق القرار المشيخي على قبيلة الحجز يشير إلى أنّ هذه الأخيرة اضطرت إلى تغيير أراضيها حتى ثلاث مرات في مواجهة عمليات النقل منها من طرف الاستعمار³.

إن قانون سيناتيس كونسيلت قد أحدث قطيعة مع النظم العقارية السابقة إذ أنه مَحى الجماعة التي تمثل القبيلة وأصبحت هذه الأخيرة تحت الوصاية المباشرة لإدارة الاحتلال فيما يتعلق بالنظام العرفي السائد داخلها خاصة المنازعات وتسوية الخلافات.

وبالرغم من أنّه قد أبدى نوعاً من الليونة تجاه القبائل حيث حاول طمأنتهم بتثبيت الملكية الفردية لهم، إلّا أنّه زاد من معاناة القبائل، ففي إقليم وهران تقلصت مساحة قبيلة بني عامر من 120000 هكتار إلى 80000 هكتار، يعني الثلث، ومن 80000 هكتار تم احتجاز 20000 هكتار لخلق مراكز استيطانية، وبذلك فقدت قبيلة بني عامر نصف ممتلكاتها⁴.

إن تطبيق سيناتيس كونسيلت على القبائل جعلها تتأثر به، إذ غير الكثير من النظم التي كانت سارية عندها قبل الشروع في تطبيقه، ولنا مثال في قبيلة الحجز التي

¹ - Guignard Didier, op.cit., p 81.

² - Ibid., p 82.

³ - Boyer Pierre, op.cit., p 81.

⁴ - عدة بن داهمة، الخلفيات الحقيقية للتشريعات العقارية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1870)، الملتقى الوطني الأول حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 147.

وصل الاستعمار إلى أراضيها باكراً، إذ جعلت الإدارة الاستعمارية هذه المناطق ذات أولوية في تطبيق التشريع العقاري عليها، حيث تأثرت قبيلة الحجز بشكل خاص.

2- التطبيق على قبيلة الحجز (نموذجاً):

لقد كانت هذه القبيلة مثل العديد من القبائل تمارس زراعة الحبوب وتربية الأغنام، وكانت تحركاتها موسمية¹، ولم يكن ممكناً القيام بزراعة الحبوب وتربية الماشية، بالحد الذي كانت تتيحه معارف ذلك العصر التقنية إلا في إطار النظام القبلي، القائم على ملكية الجماعة للأرض، وذلك لأنّ هذين النشاطين يتطلبان مجالات واسعة²، كانت مساحة أراضيها تبلغ تقريباً 46000 هكتار وقد كانت القبيلة مأهولة بـ 20 دواراً حوالي 1840 وهي عبارة عن مجموعة من الخيام ذات تجمع بين 4000 و 5000 شخص، ووصف قائد التقسيم الإمكانات الزراعية لهذه المنطقة في عام 1849 بعد وضع خطط الاستعمار، حيث ميز أربعة³ مناطق متوازية، متساوية تقريباً في المساحة، المنطقة الأولى في الشمال تشمل القمم والمنحدرات السريعة للجبال، تتميز بكونها صالحة للزراعة، وتشمل المنطقة الثانية جنوب المنطقة الأولى وهي عبارة عن هضبة، صالحة للزراعة على العموم، تتميز بوفرة المياه فيها، المنطقة الثالثة هي أيضاً عبارة عن هضبة تقع أسفل المنطقة السابقة وهي تشكل وادي صارنو، صالحة للزراعة متوفرة المياه، المنطقة الرابعة بين وادي صارنو ومكرة وهي الأقرب إلى سيدي بلعباس، وهي أقل خصوبة، واعتبرت هذه الأرض ملكاً بعد ذلك في سيناتيس كونسيلت⁴. عرف أفراد القبيلة ممتلكاتهم وحقوقهم التقليدية فكل قطعة أرض لها حدود طبيعية أو تحدها تحوطات

¹ -Guignard Didier, op.cit., p 91.

² - عدي الهواري، المرجع السابق، ص 16.

³ -Guignard Didier, op.cit., p 91.

⁴ - يذكر "بوير" أن أراضي قبيلة الحجز بعد قانون سيناتيس كونسيلت وصلت إلى 45000 هـ بعد أن كانت 35000 في 1851، وهو ما يشكل ارتفاعاً في نسبة استغلال الأراضي. انظر:

Boyer Pierre, op.cit., p 76.

البصل البري أو الدوم، كانت الأراضي الزراعية الجماعية في قانون سيناتيس كونسيلت مناسبة بشكل واضح لكل عائلة من القبيلة خاصة فيما يتعلق بحق التمتع¹.

لقد كانت عواقب سيناتيس كونسيلت وخيمة على قبيلة الحجز، إذ تحولت الملكية من جماعية إلى فردية وهذا ما أدى إلى تحريض الأسر وأربابها ضد مندوبي الدواوير الذين اعتبروا بمثابة مديرين جدد خلفاً لشيخ القبيلة المعين من طرف الإدارة الاستعمارية، وهنا نتذكر ذكرى هذه القبيلة التي شاركت الأمير عبد القادر في جهاده ضد الفرنسيين، واضطر معظمهم للهجرة نحو المغرب، وخلال غيابهم الذي دام تقريباً ثلاث سنوات تم مصادرة أراضيهم من قبل السلطات الاستعمارية، وتم تسليم أكثر من نصفها إلى المستوطنين. وعندما سمح للحجز بالعودة كان ذلك مقابل دفع رسوم إيجار لهذه الأراضي² التي جمعوا حولها في سيدي حمادوش، ومن أجل منعهم من التشتت تم منعهم من العيش في الخيام³، إذ كانت طبيعتهم غير مستقرة فيما يتعلق بتأجير الأراضي، وأشار تقرير لـ"إسماعيل عربان" يتعلق بتطبيق سيناتيس كونسيلت على الحجز أنه كان على بعض الفصائل تغيير أراضيها حتى ثلاث مرات قبل عمليات النقل المتتالية لأراضيها إلى الأوروبيين⁴، حيث سمح تطبيقه برفع الحجز عن هذه القبيلة ومعه إنهاء حقوق الإيجار، بالإضافة إلى أن الرفع ينطبق على المساحات المشغولة بالفعل (450 هكتار) من الأراضي المزروعة ذات الجودة العالية والتي تمت مصادرتها من قبيلة الحجز لبناء مركز استيطان أوروبي كما ذكرنا سابقاً، وبالتالي فإن ترسيم المساحات المستصلحة بين أراضي الرعي أو الأراضي المزروعة يعتبر تقليداً مخترعاً في هذا القانون⁵. لقد ازدادت الهشاشة الهيكلية في

¹ -Guignard Didier, op.cit., p 92.

² - Ibid., p 93.

³ -Boyer Pierre, op.cit., p 74.

⁴ -Ibid., p 81.

⁵ - ساهم الاستعمار إلى حد كبير في تثبيت السكان وإصاقهم بالرقعة الجغرافية، والحد من حركة القبائل، ومنع مرورها بأمكن محددة، وتخصيص مجالات جغرافية خاصة بكل قبيلة تحدها عن بقية القبائل المجاورة (مراع، أراضي فلاحية)، كان على التقسيمات أن تتم، من خلال الأخذ بعين الاعتبار ليس فقط التضامات أو التكافلات الخاصة بالقبائل نفسها، ولكن من خلال معايير جغرافية أساساً. انظر: منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 117.

النظام القبلي لدى الحجز بشكل كبير بين 1840 و 1860 بسبب مشاركتهم في الحرب وقضية دفع إيجار الأراضي في كل سنة وسيطرة الأوروبيين على أفضل وأجود أنواع الأراضي مثل السهول¹.

ولم يقف الاستيلاء على الأراضي وتفتيت ملكيتها على الهضاب الخصبة والسهول وإنما تعداه إلى الجبال والمرتفعات في تسالة التي كانت مخصصة في السابق للرعي، إن تطبيق سيناتيس كونسيلت سمح بإعادة توزيع حديثة للممتلكات واستغلال الأراضي ضمن فضاء قبلي تم تقويضه من خلال تسريع تفكك التضامن المحلي بغياب الخيام المتنقلة وتنظيم تحركات القبيلة في الطرق وكيفية تقاسم المياه. هذه الاستخدامات تتغير وفق معطيات أهمها التحالف بين الأسر والتطور الديمغرافي وحالة المحاصيل والثروة الحيوانية. هذه التطبيقات للقانون المشيخي جعلت ممثلي القبيلة مقتنعين حسب الإدارة الاستعمارية بأن ذلك في مصلحة أفرادها، بالرغم مما رافقها من خلاف حول ترسيم للحدود والنزاع على الأراضي². إن العواقب الملموسة للقرار المشيخي على قبيلة الحجز جعلتهم يغيرون نظرتهم له كما أشار رئيس المكتب العربي بعد أن استقبلوا هذا الاصطلاح في البداية بترحيب، إلا أنه ومنذ عام 1866 حصلت الإدارة الاستعمارية على 500 هكتار من منحدرات جبل تسالة، وتم نشر حراسة الغابة في هذه المواقع لمنع قطعانهم من الرعي فيها، وهو ما أدخلهم في الاستسلام الطوعي، هذه المساحة الخصبة التي استولى عليها المواطنون الأوروبيون³.

ذكرنا سابقاً أنّ قانون سيناتيس كونسيلت الصادر عام 1863 قد أحدث تغييرين ملحوظين في المجال العقاري وهو تحويل حق الملكية الجماعية لصالح القبائل التي تنتفع بها بصفة دائمة وتقليدية مهما كان سند ذلك، وتقسيم الأراضي الجماعية بين مختلف الدواوير إذ أن القبيلة تحتفظ بأراضيها وحق استغلالها.

¹ -Guignard Didier, op.cit., p 93.

² -Ibid., p 94.

³ -Ibid., p 95.

3- دور سيناتيس كونسيلت في إنصاف بني عامر:

بعد شهر تقريبا من صدور سناتيس كونسيلت صدر مرسوم 23 ماي 1863، وهو مرسوم تنظيمي حول كيفية تطبيق سيناتيس كونسيلت 22 أفريل 1863 الخاص بتأسيس الملكية بالمناطق التي يتمتع بها العرب. ويشير الباحث بليل محمد إلى أنّ هذا القرار له فائدة اقتصادية وسياسية من الدرجة الأولى إذ أنّ الغرض منه هو تحديد وتوضيح الطابع الخاص أو الجماعي للملكية الأهلية وفصل الأراضي التابعة للدولة (الدومين) والأراضي التي ستوزع على الدواوير من أجل رعي الأغنام¹. وإن كان هذا القرار يعتبر أهم الوسائل الأقوى لهدم المجتمع الجزائري، فإنّ المشرع الفرنسي لم يكفيه ذلك، بل وبالعكس في نظره إلى أنّ الفلاح الجزائري سوف يشعر عند الإجراءات التطبيقية لهذا القرار بأنّ حقوقه مضمونة وتحظى بالحماية بحد الأسلحة الفرنسية، وفي ذلك إشارة واضحة إلى إباحة استعمال القوة لغرض فرض القوانين الفرنسية². وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ سيناتيس كونسيلت حاول تخفيف قوانين العقار، إذ أنّها جاءت مكّلة لقوانين 1844 و1846³.

وبهذا القرار تكون الحكومة الفرنسية قد تخلت عن حق تصرفها في أراضي العرش⁴ وعبرت صراحة عن استرجاع حقها في السيطرة على أراضي قبائل المخزن ولمثل هذه الأسباب اعتبر الكولون هذا الإجراء سخاء غير مناسب ووصفوه بأنّه تخلّ للدولة عن حقوقها⁵.

وحسب "Didier Guignard" كان سيناتيس كونسيلت هو المحاولة الأخيرة لحماية ممتلكات السكان الأصليين (الأهالي) وهي القراءة التي قدمها العديد من المؤرخين، فقد

¹ - محمد بليل، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساتها على الجزائريين بين 1881 و1914، المرجع السابق، ص 154.

² - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 221.

³ - شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، المرجع السابق، ص 89.

⁴ - A.W.O, Sous série I B N°4482, I19, Rapport, présenter par M., Administrateur De La Commune Mixte de Mekerra.

⁵ - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 218.

لاحظ "آلان سانت ماري" "Alain Saine-Marie" أنه سمح بتوسيع نطاق الدولة ولم يحسن حالة الفلاحين الجزائريين ولم يطمئنهم للمستقبل القادم على الرغم من أن فرنسا كانت تبحث قبل كل شيء إلى تثبيت الملكية للأهالي. ويرى "آني راي قولدزيغر" "Annie Rey-Goldzeiguer" أنه مع تعداد الأشكال الجديدة لتجميع الأراضي في تطبيق سيناتيس كونسيلت فإن المسؤولية عنها تقع على أولئك الذين خانوا إرادة المشرع¹ وهو ما عجل بالقيام بتقييم له بين 1864 و1870 داخل قبيلة الحجز بالقرب من سيدي بلعباس². حيث أنه تم إلغاء الحجز على هذه القبيلة وتحديد أراضيها بموجب مرسوم صادر في 25 أبريل 1866 بشكل نهائي بمساحة قدرها 17.590 هكتار و2³ آر³. ويذكر "بويير" "Boyer" أنه مع نهاية 1869 تم الانتهاء من ترسيم حدود أراضي قبائل بني عامر والجدول التالي الذي وضعه يوضح ذلك⁴:

¹ - يقصد بالذين خالفوا إرادة المشرع وهم الكولون الذين عارضوا القرار كونه لا يخدم مصالحهم الشخصية خاصة فيما يتعلق بالاستيلاء على المزيد من الأراضي، إذ أن سيناتيس كونسيلت قد أوقف ولو بشكل مؤقت الظلم الواقع على القبائل.

² - Guignard Didier, conservatoire ou révolutionnaire, op.cit., pp 81- 82.

³ - Bastide (L), Bel Abbes..., op.cit., p 211.

⁴ - Boyer Pierre, op.cit., p 78.

القبيلة	منطقة تقييم 1851 (هـ)	منطقة تقييم سيناتيس كونسيلت	إقليم متبقي (هـ)	إقليم سحب (هـ)
أولاد علي	43200	46091	39627	6463
الحجز	35000	45000	18306	26694
أولاد إبراهيم	54000	78683	40091	38592
أولاد سليمان	82000	88189	74659	13530
أولاد سيدي علي بن يوب	؟	30148	27466	2952
أولاد خالفة	17000	31519	26372	5147
أولاد زاير	19000	46388	46388	0
أولاد ميمون	14000	37063	36475	588
أولاد سيدي عبدلي	13000	13316	10018	3298

نلاحظ من خلال هذا الجدول تطوراً ملحوظاً في مساحة الأراضي من 1851 إلى سيناتيس كونسيلت، إذ توسعت أراضي قبائل بني عامر بنسبة كبيرة، وحسب "بوير" فإن المكاتب العربية قد حرصت على الحفاظ على ما يكفي من الأراضي لهذه القبائل لتمكينهم من العيش اللائق¹. ونلفت النظر هنا إلى هذه المسألة وهي مسألة التنظير الاستعماري التي يقوم بها "بوير"، فلا عجب من أن يطرح هذه الوجهة والتي تقضي بأن الإدارة الاستعمارية قد وزعت الأراضي على بني عامر وزادت من ملكيتهم من 1851 إلى 1863 وينسى أو يتناسى أن أصل هذه الأراضي هي للجزائريين، وفي حقيقة الأمر أن قانون

¹ - Boyer Pierre, op.cit., p 78.

سيناتيس كونسيلت لم يؤد إلى تحسين وضعية الجزائريين، بل زاد من تعاستهم، حيث ظلت أملاكهم عرضة للسلب والاعتصاب من طرف المعمرين والشركات الرأسمالية الكبرى، فقد ترتب عن تطبيقه تفتيت أراضي العرش¹ حيث مكن الأوروبيين من اكتساب المزيد من الأراضي الزراعية وذلك عندما سمح بشراء أراضي الملك الجماعية، ولم يضع في وجههم عقبات تمنعهم من توسيع مستعمراتهم كما أنه لم يمنع سلطة الاحتلال من مصادرة أراضي جديدة للصالح العام كإنشاء المدن والقرى أو الضيعات². لقد تم توقيف تطبيق القرار المشيخي في 19 ديسمبر 1870 ولكن ليس حفاظا على ممتلكات القبائل بل بسبب التعقيدات التي واجهت التطبيق الميداني له وفي مقدمتها النفقات الخاصة بلجان تحديد أراضي القبائل³، وبسبب سقوط النظام الإمبراطوري ومجيء الجمهورية الثالثة⁴. حقيقة قانون سيناتيس كونسيلت أوقف مؤقتاً نزيف الأراضي كما ذكر "بوير" لكنه قسمها إلى دوار إداري، ويمكن أن يكون هذا هو آخر تفتيت للقبائل والذي سيجعلها تفقد حتى اسمها القبلي⁵.

وحتى تضرب المجتمع الجزائري في الصميم سعت الإدارة الاستعمارية إلى تفكيك الركيزة الأساسية للمجتمع الجزائري المتمثل في النظام القبلي، حيث عملت على تفتيته وفق المنظور الفرنسي وقامت بتوزيعه على ما اصطلح على تسميته لاحقا بالدوار، هذه الوحدة الإدارية الصغيرة التي ستجمع شتات القبائل وتغير نظمها وأعرافها .

¹ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت، المرجع السابق، ص 520.

² - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 220.

³ - علي عبود، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض 1830-1899، القطاع الوهراني نموذجاً، أطروحة ماجستير، إشراف: موفق محمد، جامعة وهران، 2013-2014، ص 96.

⁴ - محمد بليل، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر، المرجع السابق، ص 157.

⁵ - Boyer, op.cit., p 82.

4- تفتيت الملكية الجماعية وتأسيس الدوار:

تم تحطيم القبيلة ككيان سياسي إلى دواوير¹، بواسطة قانون السيناتيس كونسيلت 22 أفريل 1863 الخاص بالملكية². وقد أوجد هذا القانون تنظيمات جديدة لهيكل المجتمع الجزائري وفقه، الذي تم على أساسه تفكيك البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري³، هذا التنظيم الإداري الفريد من نوعه في تاريخ المستعمرات الفرنسية يعتبر الأداة التي أعطت الإمكانية للإدارة الاستعمارية للوصول إلى قلب النظام الاجتماعي القبلي الذي يعتبر الدرع الواقي والحصن المتين ضدّ تغلغل النظام الاستعماري وتوسّعه في أرض الجزائر⁴. وفي هذا الصدد عرّف الجنرال "آلار" الدوار بأنّه تلك المجموعات القبلية التي اختلفت عن بعضها الآخر في التسمية، وهي في رأيه تمثل البلدية (commune). أمّا "كازابينكا"، فقد عرّف الدوار بأنه البلدية التي لها إدارتها الخاصة، ومزارعها وإمكاناتها المشتركة. أمّا "ماكماهون" من جهته فقد اعتبر الدوار، وهو بصدد الحديث عن مجالس الجماعة، بأنّه بذرة البلدية العربية كما فهمه قانون سيناتيس كونسيلت، حيث يمكن لها أن تشمل عدة دواوير⁵. فالدوار إذن من اختراع الاستعمار الفرنسي عندما تم إصدار السيناتوس كونسيلت 22 أفريل 1863 حيث كان هدفه الرئيسي القضاء على نظام القبيلة وتأسيس تنظيم محلي جديد باسم "الدوار" = بلدية تقليداً للوحدة البلدية الفرنسية التي لها شخصيتها المدنية والإدارية⁶.

¹ - الدواوير جمع دوار، أي المدشر، وهو أقل من القرية. انظر:

عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر، المصدر السابق، هامش 05، ص 13.

² - ليليتية، "تطور البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال القرن التاسع عشر"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد 17،

ديسمبر 2014، ص 141.

³ - إبراهيم لونيبي، الاستعمار الاستيطاني في الجزائر، المرجع السابق، ص 70.

⁴ - سعاد تيرس، السياسة العقارية الاستعمارية، المرجع السابق، ص 65.

⁵ - محمد دادة، السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر، المرجع السابق، ص 194-195.

⁶ - كريم ولد النبية، دوار برقش، المرجع السابق، ص 113.

ويرجع عدي الهواري إلى أن تكوين الدوار كان ينشد هدفين هما: تكوين الملكية الفردية وتشكيل الدوار على قاعدة بقايا القبائل المفككة. يعبر الهدف الأول عن إرادة الانتقال بالمجتمع الجزائري، ما قبل الرأسمالي أو اللارأسمالي بالأحرى، إلى القابلية الاقتصادية والحقوقية للمجتمع الرأسمالي. أما منعطفات هذه التحولات التي قلبت الجزائر فقد تمثلت بإزالة العقوبات القانونية لتسهيل عمليات البيع والشراء. أما الهدف الثاني، فله، مثل الأول، عدّة وجوه. فبعد أن خلقت الملكية الفردية وانفصل الفرد عن القبيلة، استلزم الأمر إعادة تجميع عدد من الأفراد المتحررين من الروابط الجماعية في إطار ما - أرضي وإداري- هذا الإطار هو الدوار¹، وهو دائرة لحد ما إدارية، شكلها قرار مجلس الأعيان الذي استهدفت عملياته تفتيت القبائل لإزالة الحواجز أمام بيع وشراء الأراضي². وعليه فإن الدوار إنتاج تاريخي لتدهور اجتماعي عاشته الجزائر طول القرن التاسع عشر، ورغم أن الكلمة محلية إلا أنّ المستعمر أعطى لها مفهوما فلسفيا في شكل وحدة إدارية واجتماعية بل سياسية³.

لقد أدخل القرار المشيخي تغييرات كبيرة على القبائل، ففي مقاطعة وهران على سبيل المثال، قبيلة أولاد إبراهيم⁴ في دائرة سيدي بلعباس، حيث تم دمج تسعة فرق من أولاد سعيد في ثلاثة دواوير، وإليههم أضيف أهل شارب الريح، أما أولاد نسيغ (سته فرق) تم دمجهم في 15 دوار، وفي سنة 1866 أصبح سكان هذه الفرق ضمن دوار أولاد

¹ - ذكر الباحث كريم ولد النبية أنّه في سنة 1937 كان عدد الدواوير 1100 دوار في 78 بلدية مختلطة، يضاف إليها 400 دوارا في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة أي مجموعة 1800 دوارا في كامل تراب شمال الجزائر. انظر:

كريم ولد النبية، دوار برقش، المرجع السابق، ص 118.

² - الهواري عدي، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكير الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، المرجع السابق، ص ص78-79.

³ - كريم ولد النبية، دوار برقش، المرجع السابق، ص 114.

⁴ - تأسس دوار ترينيات بموجب مرسوم 09 مارس 1867 سكنه يكون من قبيلة أولاد إبراهيم العمارنة، ودوار مسار بنفس المرسوم على مساحة 26129. انظر:

محمد مجاود، أبعاد وأثار الاختراق الاستعماري الفرنسي....، المرجع السابق، ص 13.

نسيغ والفراقيق¹. أما قبيلة أولاد سليمان² فقد تم تحديد أراضيها بموجب مرسوم صادر في 07 مارس 1867، حيث بلغت مساحتها 74.659 هكتار و30 آر مشكلة الدواوير الأربعة التالية: (بوجهة، واد مبتوش- تلوين- سفيزف)³. لكن الإنجاز الأكبر حسب الإدارة الاستعمارية حدث في دوار تلموني (قبيلة الحساسنة) على مساحة 7355 هكتار، مقسمة إلى 677 قطعة أرض، منسوبة إلى 412 مالكا⁴ بمرسوم 26 جوان 1867.

وكذلك تأسس دوار تيفيلاس بمرسوم 22 أبريل 1868 على مساحة 27466 هكتار سكانه من بكون قبيلة أولاد علي بن يوب. إلى جانب دوار حميان على الحدود المتاخمة لبلدية عين تموشنت المختلطة⁵، ومواصلة لهذه العمليات جاء قانون 28 أبريل 1887 الذي نصّ على استكمال عمليات الترسيم للقبائل الجزائرية والتوزيع المنصوص عليها في الفصل 2 من القرار المشيخي بتاريخ 22 أبريل 1863⁶.

¹ - علي عبود، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 96.

² - تأسس دوار تلوين بمرسوم 1867 على مساحة 21295 سكانه من بطون قبيلة أولاد سليمان. انظر:

- محمد مجاود، أبعاد وآثار الاختراق الاستعماري الفرنسي....، المرجع السابق، ص 13.

³ - Bastide (L), op.cit., p 213.

⁴ - Guignard Didier, op.cit., p 86.

⁵ - محمد مجاود، أبعاد وآثار الاختراق الاستعماري الفرنسي....، المرجع السابق، ص 13.

⁶ - L'Écho de Tiaret, 4^{ème} année, n°146, dimanche 11 septembre 1910.

وفيما يلي جدول لعينات من القبائل التي تم حصر نطاق تواجدها¹:

اسم الدوار	القبيلة والموقع	المساحة	المرسوم	ملاحظة
مهديد	الحجز- س. بلعباس	5905هـ	1866/04/25	تم تقسيم الدوار إلى قسمين
العمارنة	أولاد إبراهيم- سيدي بلعباس	1651هـ	1867/03/09	
أغلّال	أولاد زاير- 12 كلم جنوب شرق عين تموشنت	13500هـ	1867/06/26	1320 جزائري تم بناء مركز أغلال
سيدي دحو	أولاد زاير، 27 كلم جنوب شرق عين تموشنت	13484هـ	1867/06/26	1258 جزائري و22 فرنسي
سيدي غالم	أولاد علي، زهانة 12 كلم ج.غ. تليلات	12654هـ	1867/12/21	
أولاد ميمون	أولاد ميمون	36475هـ	1868/01/15	2511 جزائري

ويذكر ولد النبية كريم تأسيس دوار كومين برقش بمرسوم نوفمبر 1867 شمال شرق مدينة سيدي بلعباس مع دوار حميان، وتذكر وثائق الإدارة الاستعمارية حدث طرد سكان أولاد زاير شمال غرب برقش وتوطين مكانهم 160 فرنسا (17 عائلة) في مساحة قدرها 150هـ سنة 1879 ولعلّها قرية غاستوندومارغ (قرية برقش حاليا)².

¹ - علي عبود، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 98-99.

² - كريم ولد النبية، دوار برقش، المرجع السابق، ص 117.

وخلاصة القول، فإنّه انطلاقاً من هذا القرار، أصبح كل دوار يعرف حدوده وامتداد أراضيه¹. وفي الحقيقة، أنّ مفهوم الدوار، كما صوّره منظّرو الاستعمار، لم يكن متداولاً إلّا في الكتابات الاستعمارية التي حاولت أن تقدم هذا المفهوم بمثابة حقيقة وجدت على الدوام في حين، كما وضحه سيناتيس كونسيلت، فقد كان من صنع الاستعمار².

¹ - عدة بن داهة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، المرجع السابق، ص 219.

² - محمد دادة، السياسة الاستيطانية، المرجع السابق، ص 196.

رابعاً: التفكك النهائي لبني عامر.

اعتبرت قبائل بني عامر من القبائل البدوية التي كانت تمارس الزراعة والرعي والترحال الدائم بحثاً عن الكلأ، حيث عكست معيشتهم وعاداته وتقاليده ذلك، لكن الأمر اختلف مع الاحتلال الفرنسي الذي عمل على إتمام ما بدأه العثمانيون من تفكيك لهذه القبائل حيث وجدت بنو عامر نفسها في وضع مختلف عما كانت عليه سابقاً تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي الذي ضاعته معه هويتها القبلية .

1- تغير عقلية البدو والتشتت:

يذكر "بوير" أنّ قبائل بني عامر التي كانت تسيطر على القطاع الوهراني تعتبر من البدو الرحل مثل القبائل الأخرى، ففي فصل الشتاء ينزحون إلى الصحراء¹، حيث أن عيشتهم البدوية هي في الخيمة². ومنذ الغزو الفرنسي حدث تكيف مع الوضع الحاصل، لكن هذا التكيف كان أقل مما كان عليه الوضع الفرنسي، فالتفكك والانحيار بالنسبة لبني عامر بدأ مع الأتراك، إذ أن البدو القدامى سيتغيرون كلياً، بالرغم من أن روحهم القتالية هي وراثية³، يعرفون بقوة الهجوم، شجاعتهم أسطورية في الحروب، ويتصفون بالشرف⁴. هذه العقلية ستتغير تدريجياً إن استثنينا منها طبعا الشرف الذي بقي صفة متجذرة في الفرد المسلم مهما كان انتمائه القبلي، لقد زعزعت القوانين العقارية الاستعمارية المتبلورة سنة بعد سنة حياة السكان المسلمين بشكل خطير، حيث نتج عنها آثار متلاحقة أدت إلى تفكيك النسيج الاجتماعي القبلي المبني على أسس القرابة وعلاقة التضامن بين أفرادها⁵. ومن هذا المنطلق، فإن المستعمر قام بهذا التغيير في تعميم

¹ - Boyer Pierre, op.cit., p 46.

² - Georges Reutt, La région agricole, op.cit., pp 34- 35.

³ - Boyer Pierre, op.cit., p 83.

⁴ - Tabet R. A., Histoire d'Algérie, op.cit., p 54.

⁵ - محمد مجاود، أبعاد وأثار الاختراق الاستعماري الفرنسي، المرجع السابق، ص 13.

الوحدات الإدارية (الدواوير) من أجل توسيع أراضي الاستيطان¹ كما ذكرنا سابقا، وعموما فإن انتزاع الملكية بالمناطق التلية وتخومها إلى الهضاب قد شكل عقبة أمام القبائل البدوية، بسبب تكوين الملكية الفردية وجعل أراضي أخرى تحت حماية الدومين كالغابات، وهي كلها أراضي مشاعة سابقا، كانت مقصدا للقبائل البدوية، ولم تكتف الإدارة الاستعمارية بإيجاد ملكية جديدة، بل قيّدت البدوي بقيود تنظيمية²، جعلته لاحقا يعاني الجوع والفقر، وخاصة بعد سيناتيس كونسيلت 1863 ضربت المجاعة الجزائر، صار العرب يموتون بالجملة وأصبحت الخيام التي كانت من قبل ملتحمة مبعثرة³.

وطبيعي أن يؤثر هذا الوضع على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للقبائل، بحيث تناقصت عدد قطعانهم، وتراجعت العلاقات داخل القبيلة، وأصبحت هذه الأخيرة ذات مرجع شكلي آيلة إلى الزوال والاندثار بابتعاد فروعها من بعضها البعض، وحلت محلها كقوة أساسية العائلة، وامتد تأثيرها السلبي إذ تراجعت حياة البدولدى القبائل، وتحول البعض منهم إلى الحياة الحضرية، والاستقرار الدائم في ظروف صعبة، بالإقامة في مساكن "القربي" قرب المراكز الاستيطانية، ويشغلون كيد عاملة في المشاريع الاستعمارية⁴. إن التحولات الاجتماعية للجزائريين في الريف، حسب "أوغستين بيرك" هي شكل من الانحطاط حيث يقول: «الانتقال من نمط الحياة والسكن المتنقل بالخيام إلى نمط حياة الاستقرار هو في حقيقة الأمر انحطاط وتراجع اجتماعي عنيف مسّ البدو

¹ - محمد دادة، السياسة الاستيطانية، المرجع السابق، ص 250.

² - عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكير الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، المرجع السابق، ص 106-107.

³ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت، المرجع السابق، ص 520.

⁴ - فاطمة حباش، المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870) تيارت- سعيدة- جيرفيل- البيض نماذجاً، المرجع السابق، ص 329.

الرحل». وفي الحقيقة تراجع الخيمة لم يكن نتيجة لتطور اقتصادي وإنما بسبب سياسة التفجير التي أدت إلى هلاك وضياح حرفة الرعي¹.

وهذا ما حدث لبني عامر الذين وجدوا أنفسهم بدون موارد وأصبحوا خمّاسين لدى المعمرين وبالمقابل ضيعوا منذ وقت طويل عقلية البدو الرحل، أي قبل انتقالهم إلى المغرب². فعلى سبيل المثال أقام "قايد علي" - الذي عينه الجنرال "لاموريسيار" - عرساً، وتمّ الاتفاق على الزواج في قبيلته وفق الطريقة العربية لكن بعد مباركته في كنيسة القديس فيليب في وهران³، وهو أمر دخيل على الرجل البدوي الذي بدأت معالم قبيلته بالأفول، ففي 1856 كان أولاد علي يعيشون تحت الخيام بأغلبية كبيرة (124 خيمة) إضافة إلى 200 سكن ثابت، وهذه الأرقام لا تعني أن بني عامر قد حافظت على مهنتها في الحياة البدوية، إذ لم تكن قطعانها من الحيوانات كافية لهذا النوع من الحياة (130 جمل- 500 حصان- 900 بغل). وبالتالي هذه الحالة تعكس لتأسيس عناصر بدوية جديدة تقليدية وفيّة للقربي وللمنزل المبني في الدوار⁴، وفي ذلك يقول عدي الهواري: «أدى كلّ ذلك إلى التأثير بشدة على أنماط حياة سكان الجزائر. كان على هؤلاء السكان الذين تعرضوا للإقامة في أماكن محصورة، أن يثبتوا في مكان واحد إن كانوا من البدو أو نصف البدو، وأن يضيق الخناق عليهم إن كانوا حضريين، وكانوا مجبرين، من جراء ذلك، على إجراء تغيير في نمط معيشتهم آخذين بعين الاعتبار الأوضاع الجديدة. سنعمل على استخلاص اتجاه عام يجري على حساب الخصوصيات المحلية، بيد أن هذا الاتجاه يكون أشده في السهول العليا والسهوب، عند نصف البدو، ذلك لأنّ هؤلاء، بخلاف أبناء الجبل، قد غيّروا نمط حياتهم، بمعنى انتقلوا من الحياة البدوية إلى الحياة الحضرية»⁵.

¹ - كريم ولد النبية، البلدية الاستعمارية في الجزائر 1863-1947، المرجع السابق، ص ص 174-175.

² - Boyer Pierre, op.cit., p 72.

³ - Berthet A., La femme de Kaid, op.cit., p 116.

⁴ - Boyer Pierre, op.cit., p 78.

⁵ - عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، المرجع السابق، ص 96.

وتجدر الإشارة هنا إلى تغير عقلية البدو والتفكك لدى بني عامر قد بدأ منذ مدة طويلة، كما سبق ذكره، لكن التغير الكبير الحاصل كان بعد العودة الكبرى من المغرب 1849، إذ وجدوا أنفسهم أمام عوامل جديدة، عادوا مدمرين، مخربة بيوتهم، بدون أراضي، وكان عليهم العيش مع قادة جدد من اختيار الإدارة الفرنسية، يضاف إلى ذلك النزاعات القبلية التي مسّت الكنفدرالية في كلّ مرة، بسبب الخلاف حول الأراضي، كل ذلك أدى إلى الانقسام الاجتماعي وخلق طبقة جديدة من بائسين وأثرياء ومالكين جدد¹.

لقد لعب الاستعمار الفرنسي دوراً هاماً في القضاء على الهوية والثقافة في الجزائر، وبالتالي القضاء على التنظيم التقليدي القبلي والعشائري إبان فترة تواجده².

كان الاقتصاد الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي يرتكز أساساً على ازدواجية النشاط المتمثلة في ممارسة زراعة الحبوب وحرفة الرعي في إطار التنظيم القبلي على أساس الملكية الجماعية للأرض ضمن مساحات أرضية واسعة. وممارسة الازدواجية في النشاط الزراعي (التكاملي) كانت أكثر من ضرورية لدى سكان الجبال والسهول - في المناطق الشمالية- على حد سواء، أما سكان الهضاب العليا، فكانوا يمارسون النشاط الرعوي بشكل شبه مطلق.

2- من الرعي إلى الزراعة:

تشير بعض الكتابات أن ثلثي (3/2) الجزائريين كانوا يمارسون حرفة الرعي كمصدر عيش لحياتهم فقطعان الماشية ولا سيما الماعز، كانت توفر لهم الحليب الذي يشكل غذائهم الرئيسي، أما الأغنام فكانت تمدهم بالصوف المحوّلة إلى ملابس ومنها البرنوس، ومن شعر الماعز وأصواف الأغنام كانت تنسج الخيم التي تأويهم، ومن هنا نفهم قيمة الأغنام والماعز في حياة المجتمع الجزائري³. لقد رافقت هذه الازدواجية (الرعي

¹ - Boyer Pierre, op.cit., p 73.

² - منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي مقارنة أنثروبولوجية، المرجع السابق ص 112.

³ - عدة بن داهة، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، المرجع السابق، ص 306.

والزراعة) قبائل بني عامر منذ بدايات استقرارها في الجزائر، مع تفاوت في كلّ مرة للحرفيين وعلى حسب الظروف الطبيعية والسياسية، حيث يذكر "بوير" أنّ هذه القبائل امتلكت قطعانا ضخمة، وهذا بسبب قلة زراعة الأراضي، وتربية المواشي في المراعي على نطاق واسع، حيث لم تكن زراعتهم نقدية¹ نظراً لقلّة المناطق المزروعة حيث كانت تسلم منها 10/1 للبايلك خلال العهد العثماني، أما في العهد الاستعماري فقد استطاع "لاموريسيار" مصادرة 1000 رأس غنم من البدو الرحل² التابعين لأولاد خليفة³.

ويعود ذلك إلى كون منطقة سيدي بلعباس عبارة عن سهول وتلال متواصلة مع بعضها البعض، وهؤلاء البدو الرحل الذين يعيشون فيها يغيرون مواقعهم وفقاً للمواسم أو احتياجات قطعانهم⁴ وذكر "دوما" أنّ المنطقة التي يستقر بها بنو عامر هي مزروعة بعناية وهي جد خصبة، تناسب أن تكون مستوطنة⁵، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على إتقان بني عامر للزراعة، عكس ما يروج له الفرنسيون أنّهم بدو رحل يعيشون في الخيم. إنّ استقرار بني عامر في القطاع الوهراني، وملاحقة "لاموريسيار" لهم جعلهم يلجئون إلى تخزين⁶ القمح الخاص بهم كونهم كانوا يبحثون عن تأمين الغذاء الخاص بهم⁷. وأيضا كان أولاد علي على الضفة اليمنى لواد تليلات صوامع مليئة بالحبوب، إذ

¹ - الزراعة النقدية هي التي تقوم على زراعة الكروم، حيث حول المعمرون العديد من الأراضي لهذه الزراعة وفي المقابل كان أكثر من ثلثي السكان الجزائريين يعيشون في مرحلة الاقتصاد المعيشي.

راجع: شارل روبر أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، المرجع السابق، ص 129.

² - يذكر "بوير" أنّ قبائل بني عامر التي استقرت في سهل ملاتة كانت تعيش حياة البدو الرحل، وتمتلك الكثير من الماشية، إضافة إلى أنّها تعيش في الخيمة وتخوض غمار الحروب. انظر:

- Boyer Pierre, op.cit., p 56.

³ - Ibid., p 78.

⁴ - Congrès d'Oran 1888, Oran et l'Algérie en 1887, op.cit., p 235.

⁵ - Yver (D), op.cit., p 15.

⁶ - كان بنو عامر يخبثون القمح الخاص بهم في المطمورة التي هي عبارة عن حظيرة أسفلها موسع تخزين فيها الحبوب. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، الموقع: arabict.com

⁷ - Les illustrations du XIXe siècle, op.cit., p 46.

تطلب الأمر من حامية فرنسية نصف يوم لإفراغ هذا المخزون¹. وكتب "دوما" في 1839: «بنو عامر أصحاب بلاد شاسعة تقطعها وديان خصبة، يكرسون أنفسهم كثيرا للزراعة، وهم أغنياء جدا بالحبوب والقطعان من جميع الأنواع»². إنَّ هذا التنوع الحاصل يرجع إلى النظام الاقتصادي الراسخ لدى بني عامر قبل مجيء الاحتلال فممتلكاتهم كانت تخضع للنظام التقليدي المبني على الحدود الطبيعية للأراضي، إذ كانت الأراضي تزرع جماعيا. وممتلكات القبيلة بأكملها تتناسب مع طريقة معيشة العائلات خاصة فيما يتعلق بحق الانتفاع، لكن هذه الممتلكات تراجعت خاصة بعد الهجرة إلى المغرب، ولنا مثال في الحجز وأولاد إبراهيم الذين فقدوا أغلب قطعانهم لكن بقي في رصيدهم قطعان الماعز التي كانت أكثر من الماشية بسبب قلة تكلفة تربيته³. إذن فبنو عامر هم في الأصل مزارعون فرضت عليهم الظروف المتعلقة بمصادرة الأراضي اللجوء إلى تربية المواشي، ففي 1851 كانت الأراضي المزروعة لدى الحجز تقدر بـ 1240 هـ ليرتفع⁴ هذا الرقم في 1856 إلى 15500 هكتار⁵.

وهكذا فبعد أن كانوا ملاكاً وأصحاب للأرض تحولوا إلى مزارعين فيها. وفي هذا الصدد يقول مصطفى الأشرف: «لقد وقع على أثر هذه العمليات أمر مهم يستحق التنويه، وهو أنَّ العرب، بعدما آلت أراضيهم إلى الدولة نتيجة تطبيق قرار حصر الملكية، استعاد البعض منهم تلك الأراضي بالشراء من الأوروبيين، وأخذ البعض الآخر منهم يبذلون كل ما في وسعهم لشراء الأراضي التي انتزعت من عشيرتهم، أمَّا الذين لم تتوفر

¹ - De Martinprey, Souvenir d'un officier d'état major, op.cit., p 87.

² - Yver (D), op.cit., pp 634- 635.

³ - Boyer Pierre, op.cit., p 80.

⁴ - اعتبر القائد العام لوهران هذا الارتفاع مفاجئا، ليرد عليه الكولونيل المكلف بتقسيم بلعباس في 14 جوان 1857: «لا يسعنا تفسير هذه الأرقام إلا على أنَّها تجمع الأراضي المزروعة مع أراضي المراعي، وهذا لا يعني تحسنا في معيشتهم كون هذه الأراضي هي ملك للدولة بسبب مصادرتها». انظر: Boyer Pierre, op.cit., p 81.

⁵ - Boyer Pierre, op.cit., p 81.

لديهم الإمكانيات المادية للشراء فقد طلبوا من الأوروبيين أن يسمحوا لهم بالبقاء في أراضيهم كمزارعين»¹.

وعبر "بوير" عن ذلك بقوله: «إنَّ الإمبراطورية الثانية التي توقدها شعلة فانتازيا المملكة العربية تقدر في الواقع المحو النهائي لبني عامر، هؤلاء الفلاحين الذين يحاولون الحفاظ على قطع أراضيهم من نهم الدولة، هؤلاء المزارعين العمال الذين سوف يسلكون طريق المزارع الأوروبية»². لقد كان لهذا القانون عواقب وخيمة أدت إلى تدمير مناطق بني عامر وبالرغم من أنَّهم استعادوا التمتع بأراضيهم جزئيا إلا أنَّهم كانوا يكونون العداء للمزارعين الفرنسيين ، عداء يشبه عداء الراعي للحراثة، لكنهم سرعان ما اعتادوا على وجودهم حيث بدأ التقارب ينعكس على نمط حياتهم³، لكن ذلك لم يمنع من التسلط الحاصل عليهم خاصة من طرف القياد الذين كانوا يعاملونهم بدون شفقة ولا رحمة، إضافة إلى سلبهم ممتلكاتهم بدون حق وهذا ما تعرّض له بلعربي عبد القادر من دوار تلوين الذي وقع ضحية لعملية احتيالية من طرف قائد دواره قدّم على إثرها شكوى لدى السلطات الفرنسية⁴.

حيث كان هؤلاء القياد يمثلون أبشع أنواع الإقطاعية الإدارية والزراعية⁵. إنَّ التحوّل إلى الاستقرار دفعهم لممارسة الزراعة خاصة في سهل المكرة⁶، كما شهدت الأراضي المخصصة للرعي تناقصا في قطعان الماشية⁷ بفعل خطة الاستيطان التي استطاعت بفضلها سلب أراضي القبائل والقضاء على حرفة الرعي، ومن ثمّ توسيع

¹ - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، المرجع السابق، ص 14.

² - Boyer Pierre, op.cit., p 82.

³ - Georges Reutt, op.cit., p 36.

⁴ -AWO, I21/2261, Affaires musulmanes le 12 jan. 1942.

الملحق رقم 26.

⁵ - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، المرجع السابق، ص 61.

⁶ - Georges Reutt, op.cit., p 36.

⁷ - محمد مجاود، أبعاد وآثار الاختراق الاستعماري، المرجع السابق، ص 13.

الاستيطان الأوروبي بالمنطقة، وتبع ذلك تحويل اقتصادهم من اقتصاد استهلاكي إلى اقتصاد تجاري موجّه إلى التصدير يتحكم فيه المعمّرون.¹ وبالرغم من ذلك لم يسلم العمال والمزارعون في منطقة سيدي بلعباس من التضييق والمتابعات وقد تحوّلوا فعلاً إلى خمّاسين لدى الأوروبيين.²

إنّ هذا التحوّل في نمط الحياة لهو تحوّل خطير أثر على مختلف الجوانب في الحياة العامرية، إذ فرض عليهم التخلي عن أراضيهم، ليصبحوا مزارعين موسميّين لدى المعمّرين، خاصة إذا عرفنا القيمة الحقيقية للأرض لدى الفلاح الذي يتخذ طابعه الخاص من علاقته بالأرض، ويعتبر حتى أعماق لاوعيه أن الكرامة في الأرض، إنّها مورده وورقه.³ لقد أدت الاضطرابات في أنماط هؤلاء إلى انعكاسات على الصعيد الاجتماعي. إنّ تفتيت القبائل وفروعها، وانفجار العائلات الموسعة هما أول هذه الانعكاسات الاجتماعية.⁴

كانت القوانين التي سنتها فرنسا ترمي بشكل مباشر إلى هدم البنية الاقتصادية والاجتماعية للشعب الجزائري، لأنّها كرّست عملية تمزيق الجماعة التي ألفها المجتمع الجزائري منذ آلاف السنين، والتي ازدادت تماسكا وترابطا في إطار النظام العشائري القبائلي وهو ما سعت فرنسا إلى تحقيقه بحك أن الهوية القبلية تمثل أصالة المجتمع الجزائري وركيزته وبالتالي فضرب الهوية هو بمثابة القضاء على الجزائريين جميع.

3- محو الهوية القبلية:

عندما عين بيجو حاكما فرنسيا في الجزائر عام 1841 عمل على تشجيع استعمار الأرض وتسليمها للمستوطنين، مما أدّى إلى تحطيم الوضع القبلي، كما أنّه عمل في

¹ - محمد مجاود، أبعاد وآثار الاختراق الاستعماري، المرجع السابق، ص 12.

² - الملحق رقم: 25 AWO, I21/2261, contre D N°45, Oran, le 29 janvier 1942.

³ - منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 120.

⁴ - عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، المرجع السابق، ص 97.

الأربعينات من القرن التاسع عشر على تحديد بعض الأراضي كملكية فردية للمستوطنين، واستمرت سياسة الاستعمار الرسمي، التي تشرف عليها مباشرة الإدارة الاستعمارية، إلى أن جاء عهد نابليون الثالث 1851 وعمل على تشجيع الاستعمار الحر عن طريق الأفراد والشركات¹. ولفهم التأثيرات الشديدة التي جرت في بنية القبيلة، يجب تناول تطور القبيلة في ثلاث مراحل أساسية: كانت القبيلة حتى سنة 1863 تمثل وحدة إدارية تخضع للعسكريين، وخلال فترة ما بين 1863 و1868 بدأت عملية تفتيت القبائل وتشكيل الدواوير، أما المرحلة الأخيرة، وهي تبدأ من 1868، فقد تجمعت فيها الدواوير في بلديات²، على أن الفكرة التي تقوم بضرورة تفتيت القبائل بدأت قبل عام 1863، فقد كانت القبيلة بالنسبة للاستعمار هي الإطار لكل الانتفاضات الشعبية، كما كانت تشكل خطراً عمومياً، ومن جانب آخر كانت القبيلة تملك حق الملكية الجماعية في الأراضي التي تستغلها وهذا ما كان يعرقل تطور الاستيطان الذي اعتمد بالدرجة الأولى على سلب أراضي القبائل³.

وفي هذا الصدد يقول عدي الهواري: «ولكن السمة الأساسية في هذا التنظيم الاجتماعي ليست إلا القبيلة، ولا الحياة الرعوية⁴. بل هذا النظام العقاري الخاص جداً الذي يتحدد، في النهاية، بضرورة الإنتاج الاجتماعي. لا يعني ذلك أن الملكية الخاصة لم تكن موجودة، لقد وجدت فعلاً، ودليلنا على ذلك أملاك الحبوس التي تغذيها الهبات والأراضي التي تصبح بلا وريث بعد موت صاحبها. إن المشروع الاستعماري هو الذي أشاع

¹ - عبد المالك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي- المغرب العربي- فلسطين- الخليج العربي، دراسة تاريخية مقارنة، عالم المعرفة، يناير 1978، ص 19.

² - محمد دادة، السياسة الاستيطانية، المرجع السابق، ص 247.

³ - المرجع نفسه، ص 249.

⁴ - ANOM - Département d'Oran/Personnel et Administration gle.

3G/4G/6G/Organisation ADM, voyages officielles(napoléon III). 5G/5-ADM locale, rapports divers 1861-187

فكرة عدم وجود الملكية الخاصة في الجزائر، من أجل أن يضم إلى أملاك الدولة المستعمرة أكبر قسم من الأراضي»¹.

وظلت القبائل بمعظمها قادرة على الاستثمار والاستغلال بالرغم من تعرضها للمصادرات، إذ حتى ذلك الحين لم يصب النظام الاقتصادي المحلي بشكل جوهري إلا بعد أن تسنى للاستعمار أنه جاء الوقت المناسب للقضاء على هذا النظام الفلاحي الجماعي، الذي كانت تمثل فيه القبيلة خطراً على عملية الاستيطان، ولم يغب على بال الحكومة أن منحي سياستها يجب أن يركز بشكل عام على تخليص القبائل من تأثير الزعماء وعلى تفتيت وحدة القبيلة². وجد نابليون الثالث إلى جانبه مجموعة من الرجال ساندوه وآزروه في قناعاته، ومن هنا بدأت المشاريع تتجه نحو التقرب من الأهالي، وتقريب هؤلاء إلى الفرنسيين أو حتى السعي إلى إدماجهم ليس فقط من خلال الإدماج الإداري والتنظيمي، ولكن حتى من خلال الإدماج العقلي وإدماج الأفراد³. وعندما حرصت بعض القبائل على غلق أراضيها في وجه العنصر الأوروبي، فإنّ الإمبراطور الفرنسي دعا الحكومة إلى العمل على الحدّ من نفوذ زعماء القبائل وإضعافهم لاعتقاده أنّ الجزائر بلد تعيش فيه القبائل وفق نظام أبوي شبيه بذلك النظام الذي ساد القبائل الإسرائيلية في العهود القديمة⁴. فالقبيلة البدوية العربية أو قبائل البربر كما كتب "قوتيه" هي فوج مولود تتأقلم مع الفوضى بسهولة وقيمتها العسكرية تكمن في قادتها الذين يلعبون الأدوار القيادية فيها، إن لم تكن سلطتهم على الأقل هي سبب وجودهم⁵.

إنّ المشروع الفرنسي كان تقسيم القبائل إلى دواوير حيث شكل ذلك خطوة حاسمة نحو تفكيك المجتمع الجزائري. هذا وتجدر الإشارة إلى أن هذه الوحدات الجديدة

¹ - عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، المرجع السابق، ص 19.

² - محمد دادة، السياسة الاستيطانية، المرجع السابق، ص 177.

³ - نادية طرشون، سياسة نابليون الثالث العربية، المرجع السابق، ص 231.

⁴ - عدة بن داهة، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكير الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، المرجع السابق، ص 221.

⁵ - Boyer Pierre, op.cit., p 83.

كانت السلطات الاستعمارية تمنح لها أسماء مستمدة من المواقع الجغرافية على عكس الأسماء السابقة التي كانت تحمل دلالات تاريخية مملوءة بالمشاعر، كما أنّ ممثلي هذه الوحدات الجديدة كثيراً ما كان يتم اختيارهم من بين الأشخاص الأقل سمعة والأكثر قابلية للولاء لفرنسا¹.

وأصبح الدوار هو نقطة انطلاق لبلدية أهلية مستقبلاً، وأصبحت تضم جماعة صغيرة جديدة هي التي تسير هذه البلدية وهي ليست الجماعة التقليدية المنبثقة عن العرش². ولا يوجد شيء تقليدي في هذا التجمع الذي يعين أعضائه من طرف الإدارة³، فكل هذه الحركة الاجتماعية لدى القبائل كانت تتم كلها تحت مراقبة المكاتب العربية ومتابعة السلطة المحلية لكل دائرة⁴، حيث اختفت لدى القبائل تسمياتها السابقة عن طريق إدخال خيام تنتهي إلى قبائل أخرى إليها مثلما حدث مع أولاد ميمون⁵، وبالتالي حدوث الانصهار داخلها مما يؤدي إلى ضياع هويتها وتفتت وضعها العائلي مثلما حدث أيضاً للحجز، هذا الضياع للوحدة العرقية لبني عامر أدى إلى تغيير كلي في نمط الحياة لديها، إضافة إلى تخفيف صلة القرابة لديها بين مختلف العائلات مثل أولاد عبد الله وقيزة والجعافرة⁶ بفرض عناصر الحداثة الفرنسية عليها من خلال محاولة تغليب العنصر الأوروبي على حساب القبائل بتقديم ضمانات لهم⁷.

إنّ ضياع الهوية القبلية لدى بني عامر قد بدأ مع الإسبان والأتراك ليستمر مع الاستعمار الفرنسي، خاصة بعد الهجرة الكبرى إلى المغرب والعودة التي جعلت هذه

¹ - صالح حيمر، قانون سيناتيس كونسيلت، المرجع السابق، ص 509.

² - محمد نواور، المشروع الفرنسي الاستيطاني بالجزائر بلدية تازا نموذجاً (Trolard Taza) برج الأمير عبد القادر 1838-1962، أطروحة ماجستير، إشراف: موفقس محمد، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2014-2015، ص 35.

³ - Guignard Didier, op.cit., p 85.

⁴ - فاطمة حياش، المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870) تيارت- سعيدة- جيفريل- البيض نماذجاً، المرجع السابق، ص 326.

⁵ - Boyer Pierre, op.cit., p 73.

⁶ - Ibid., p 48.

⁷ - Guignard Didier, op.cit., p 86.

الوحدة مكسورة بفعل ضياع الأراضي والتشتت¹، ناهيك عن تحوّل الكثير منها إلى مستأجر للأرض بعد أن كان مالكاً لها، وما تبع ذلك من تأثير نفسي واجتماعي² واقتصادي على بني عامر. ولا يجب أن ننسى التفكك الذي مورس عليهم عبر مختلف المعارك التي شاركوا فيها أو كانت أراضيهم مسرحاً لها³. فبتفكيك القبيلة تكون فرنسا قد حققت بعدا سياسيا عن طريق سدّها للطريق في وجه الطبقة القديمة المسيطرة⁴، وتحويل سلطتها الجماعية إلى سلطة الوحدات الإدارية الصغيرة التي تشرف عليها مباشرة حتى يتسنى لها المحو النهائي لعناصر الهوية القبلية⁵ لبني عامر.

لم يكن استقرار بنو عامر في مواطنهم الحالية وليد الصدفة، وإنما حدث ذلك نتيجة تأثير عوامل طبيعية واقتصادية وتاريخية، إذ بقي استقرارهم في المنطقة الغربية للوطن منذ منتصف القرن 14م، وبقوا فيها حتى بعد رجوعهم من المغرب واستقروا بعد سيناتيس كونسيلت في دواوير بعد تفتيت الملكية الجماعية.

4- المواطن الحديثة لبني عامر:

نظراً لحياة البدو التي عاشوها سابقا، فقد كان من الصعب تحديد مناطقهم، فقد نقل الباحث "بلبوري سيد احمد" عن الوالي العام بوهران "فاليجو" قوله: «... إنّه من الصعب تحديد مناطق القبائل لتعاطي الأغلبية منها الحياة البدوية الترحالية...»⁶.

¹ - تشتت بني عامر بدأ مع الأتراك والاسبان وتواصل مع الفرنسيين عن طريق ترسانة القوانين التي حولت القبيلة وحصرتها في الدوار أو البلدية.

² - La voix indigène, N°409, Algérie, 29/061937.

³ - عوقب بنو عامر في العديد من المرات بسبب رفعهم لواء المقاومة ، كانت العقوبة الكبيرة بالنسبة لهم هي مصادرة أراضيهم والتي تمثل شرفهم وكيانهم.

⁴ - عدة بن داهة، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960ن المرجع السابق، ص 307.

⁵ - حسب "بوير" فإن الاتحاد الكنفدرالي لبني عامر بدأ يفقد مكانته بسبب تخلي الأمير عنهم في المغرب (طبعا هذه هي النظرية الاستعمارية) وبسبب سلطان المغرب الذي ضيق الخناق عليهم. والفرنسيون من جهة أخرى، كلها عوامل جعلتهم يخسرون هويتهم الخاصة، ليس ذلك فحسب وإنما يخسرون حتى ذكرياتهم الممتدة إلى قرون المجد التي عاشوها. انظر:

Boyer Pierre, op.cit., p 83.

⁶ - سيد أحمد بلبوري، الاحتلال الإسباني الأول لوهران وأثره على قبائل المنطقة، المرجع السابق، ص 34.

والجدير بالذكر كما أسلفنا سابقاً حول مسألة الظروف السياسية والتاريخية التي أثرت على مواقف بني عامر، ومدى مولاتها أو معاداتها للسلطة الحاكمة في الجزائر بداية بالاحتلال الإسباني والتواجد العثماني، وصولاً إلى الاحتلال الفرنسي والدخول في طاعة الأمير، كلّها حددت المناطق التي يتركز بها بنو عامر، فعلى سبيل المثال نجد أولاد عبد الله بوادي الثلاثاء في ملاتة¹، أولاد خالفة بأراضي جبل هيدور² وغرب وهران حتى وادي يسر بتلمسان، وأولاد زاير بجبال تسالة³، وأولاد علي بجبال سيرات في الجهة الأخرى من وادي سيق⁴، وأولاد الميمون بثنية القصبة وادي تلمسان حيث تحدها شرقاً تسالة وجنوب السلسلة الجبلية تانيرة، أما أولاد إبراهيم بوادي مكرة حتى سيدي إبراهيم تحدها غرباً سلسلة تانيرة وشمالاً أراضي أولاد الميمون⁵. وتعتبر هذه الأراضي التي ذكرناها تابعة في العهد الاستعماري إلى عمالة وهران فبنو عامر هم ما بين مدينتي وهران وتلمسان⁶، وخاصة منطقة سيدي بلعباس التي كانت مكتظة بهذه القبائل إلى غاية وصول القوات الاستعمارية إليها، والهجرة الكبيرة لبني عامر⁷.

ويؤكد هذا "دوما" في مراسلاته إذ يقول أنّ بني عامر أغاليك مستقلة تقع في الشمال من البحر المتوسط ويحدها جنوباً الصحراء ومن الغرب ولهامة والغاسول وبعض المناطق في تلمسان ووهران⁸.

وتتوزع القبائل العامرية على مستوى منطقة سيدي بلعباس على النحو التالي:

¹ - ملاتة (عين تموشنت).

² - هيدور: هو جبل مطل على وهران.

³ - تسالة: ويقصد بها هنا المناطق الواقعة في منطقة بلعباس.

⁴ - سيد أحمد بلبوري، الاحتلال الإسباني الأوّل لوهران وأثره على قبائل المنطقة، المرجع السابق، ص 16.

⁵ - المرجع نفسه، ص 17.

⁶ - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، الجزائر: دار الأمة، 2009، ص 338.

⁷ - Georges Reutt, La région agricole, op.cit., pp 34- 35.

⁸ - Georges Yver, correspondance capitaine Doumas, op.cit., p 15.

- العمارنة "Les Amarnas" (وهي أربع فرق: الحنايشة، أولاد مالك، أولاد بن عيسى، أولاد بلاحة) ويمثلون السكان الأصليين للمدينة وهي فرقة من قبيلة أولاد إبراهيم كانت تقيم بالمكان الذي قامت على أنقاضه وتأسست فوقه المدينة الاستعمارية الجديدة (سيدي بلعباس).
- أولاد إبراهيم: إضافة إلى العمارنة كان موطنهم بالقرب من سيدي بلعباس¹ في المكرة² وهي تتموقع على بعد 15 كلم جنوب غرب سيدي بلعباس، تحدها شمالا قبيلة الحجز، شرقا أولاد سليمان العرب، جنوبا قبيلة الجعافرة وسيدي علي بن يوب، غربا أولاد زاير. يفصل أولاد إبراهيم عن الحجز وأولاد سليمان العرب المراكز الاستيطانية التي تحيط بسيدي بلعباس ومعسكرات قبائل الحساسنة وأولاد خليفة، حميان والعمارنة³. ومناطقهم هي مسار، سيدي خالد، سيدي لحسن وبوخانيفيس إلى غاية سيدي يعقوب، أي المناطق الجنوبية الغربية للمدينة⁴.
- الحجز: على بعد 20 كلم شمال غرب سيدي بلعباس، يحدها شمالا قبيلة الدواير، تسالة والغوالم، شرقا أولاد علي الفاقة وأولاد سليمان المرابطين والعرب، جنوبا قبيلة أولاد إبراهيم، غربا أولاد زاير. يفصل الحجز عن أولاد إبراهيم وأولاد سليمان المراكز الاستيطانية التي تحيط بسيدي بلعباس⁵ إضافة إلى تجمعات سكنية لقبيلة الحساسنة والعمارنة وينقسمون إلى 09 فروع و16 دوار⁶.

¹ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 58.

² - تقع مواطنها في المكرة. انظر: Georges Yver, op.cit., p 616.

³ - مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، المرجع السابق، ص 48.

⁴ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 58.

⁵ - يحدد دوماس موقعها بالمكرة. Georges Yver, Ibid., p 616.

⁶ - مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، المرجع السابق، ص 47.

ومنطقتهم حاليا هي المحاديد، سيدي حمادوش، عين تريد وتسالة وفروعهم هي أولاد رباب، النمامشة، العثمانية، أولاد غازي والمحاديد¹.

- أولاد سليمان: منطقتهم واد مبطوح، بلدية مكرة، ترامبل، تلوين، سفيزف، بوجبة². وهم ينقسمون كما ذكرنا سابقا إلى أولاد سليمان العرب وأولاد سليمان المرابطين.

• ينقسم أولاد سليمان المرابطين إلى 10 فروع و15 دوار على النحو التالي:

- أولاد علي بني عامر (دوار أولاد علي بن عامر- دوار أولاد بوعادي).
- أولاد سيدي البشير (دوار أولاد سيدي البشير- دوار أولاد بن زينب).
- أولاد سيدي بوراس (دوار أولاد سيدي بوراس- دوار أولاد سيدي المصطفى).
- دور سيدي حامد (دوار أولاد بن عربية- دوار سيدي أحمد العمارنة- دوار العبايسة).
- الخماملة (دوار الخماملة).
- الشوارف (دوار الشوارف).
- الزلامطة (دوار الزلامطة).
- الرفافسة (دوار الرفافسة).
- أولاد سيدي الهاشي (دوار الهاشي).
- أولاد سيدي سحنون (دوار أولاد سيدي سحنون)³.

¹ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، ص 58.

² -Revue Africaine 1898, V42, pp 18- 19.

³ - مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، المرجع السابق، ص 45.

- أولاد سليمان العرب: وهم 11 فرعاً و15 دوار موزعين كالآتي:
 - أولاد داوود (قرية بوجابة- دوار أولاد داوود- دوار الفاقة- دوار التحاتة).
 - أولاد بوعزة (دوار أولاد الطيب- دوار أولاد محي الدين).
 - أولاد بوحمار- أولاد بنت عمار- الفتايحة- أولاد العيد- القواذيب- العمور- أولاد العرب- أولاد العيدوني- أولاد سيدي بلاحة¹.
- أولاد علي: وينقسمون إلى عدة أقسام:
 - أولاد علي الفواقة: مواطنهم أولاد علي، عين البرد (ماخوخ سابقاً)² وسيدي حمادوش.
 - أولاد علي التحاتة: القصر، قايد بلعربي (بودانس).
 - أولاد علي الغوالم: سيدي غالم- طفراوي- سان مور.
 - أولاد علي المهاجة: القعدة وزهانة³.
- أولاد عبد الله: نسبة لجدهم عبد الله التالي بن سغير ابن عامر بن إبراهيم بن يعقوب بن معروف⁴، وموطنهم واد برقش وهم أقرب إلى عين تموشنت⁵، فقد تمّ

¹ مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، المرجع السابق، ص 46.

² ماخوخ: ذكر الباحث عبد القادر حلوش أنّه عين البرد حالياً، أمّا في طلوع سعد السعود، ذكر المحقق يحي بوعزيز أنّه جبل يقع جنوب وهران على الحافة الجنوبية لسهل ملاتة وسبخة وهران الكبيرة، وتقع قرية الطافراوي في سفحه المالي على بعد حوالي خمسة أو ستة كلم، وقد أسست قرية وبلدية جديدة بعد الاستقلال أطلق عليها سيدي غانم، واسم جبل ماخوخ لا يعرفه الناس حالياً، وهذا يدل على عدم التدقيق في تحديد الأمكنة، وكان ذلك مصدراً للأخطاء التي يقع فيها الناقلون والناسخون والمحققون. انظر:

بن عودة المازري، طلوع سعد السعود، ج 1، المصدر السابق، هامش (1)، ص 84.

³ عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 59.

⁴ - R.A, v 65, 1924, op.cit., p 208.

⁵ ذكر المشرفي أن مسكنهم كان بوادي الثلاثاء من ملاتة ولهم عدد كثير يبلغون الستين دوار، وكانوا ذو بطش شديد وجولان بالأرض.

انظر: R.A., v 65, op.cit., p 213.

طردهم من تاسالة في عهد الباي بوشلاغم من طرف أولاد سليمان والحجز وبمساعدة أولاد علي فاضطرت إلى الاستقرار بملاطة¹.

● أولاد سيدي علي بن يوب وذوي عيسى²: على بعد 50 كلم من سيدي بلعباس يحدها شمالا قبيلة أولاد إبراهيم، شرقا الجعافرة والمحاميد، جنوبا أولاد بالغ، غربا أولاد ميمون، وتنقسم إلى فرعين و05 دواوير موزعين كالآتي:

- المرباطين (دوار أولاد العربي- دوار أولاد بن يوب).
- العرب (دوار أولاد سليمان- دوار ذوي عيسى- دوار أولاد علي)³ ومنطقتهم شانزي (سيدي علي بن يوب) والشيطوان (تفيلاس)، وينتسب ذوي عيسى إلى جدهم ذوي عيسى بن حميد بن عامر بن زغبة. وفي نهاية القرن 14 تولى هؤلاء عن منطقتهم لصالح مرباط قدم من المغرب هو سيدي علي بن يوب، ثم قام أبناءه من بعده بطردهم بمساعدة الإسبان ولم يعودوا لأراضيهم إلا في عهد الباي إبراهيم حوالي 1770 الذي أعاد إسكانهم⁴ المنطقة⁵.
- الجعافرة: تقع على بعد 100 كلم من مدينة سيدي بلعباس في تلاغ⁶ يحدها شمالا أولاد سليمان العرب، شرقا بني منيارين الفاقة، جنوبا وغربا الجعافرة وثوامة والمحاميد⁷، وتنقسم إلى:

¹ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 59.

² - كانت أراضي سيدي علي بن يوب تحت سيطرة ذوي عيسى وبعد قدوم سيدي علي بن يوب من الساقية الحمراء، وقد ادعى أبناءه أنه المالك الحقيقي للأرض مما أدى بذوي عيسى لطرده فأتجه نحو الإسبان لمساعدته وفعلا غادرت ذوي عيسى المنطقة وتفرقت في كل قبائل بني عامر. انظر: مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، المرجع السابق، ص 52.

³ - المرجع نفسه، ص 52.

⁴ - قام الباي إبراهيم بجمع بعضهم ومنحهم منطقة الأمطار التي يملكونها حاليا، خلال حكم الأتراك والأمير عبد القادر كانوا تحت قيادة آغا بني عامر. انظر: مصطفى حجازي، المرجع نفسه، هامش ص 52.

⁵ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 59-60.

⁶ - Revue Africaine 1898, op.cit., pp 18- 19.

⁷ - مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، المرجع السابق، ص 57.

- جعفر الثوامة والمحاميد، وهي فرع من قبيلة الجعافرة وتنقسم إلى 3 فروع: الثوامة، المحاميد، وأولاد سيدي يحي المنحدر من مرابط استقر بالمنطقة منذ القرن 15، كانت هذه الفرق الثلاث تشكل دوارا واحدا بناء على مرسوم 1868/10/31 هو تاوريرة.
- جعفر بن جعفر: تنقسم إلى أولاد داود وأولاد صغير، وتشكل إلى جانب الثوامة والمحاميد قبيلة الجعافرة، واستقرت هذه القبيلة في منطقة تنيرة وواد سفيون منذ القرن 14 م¹، وفي سنة 1852 تم إلحاق جعفر بن جعفر بتقسيم سيدي بلعباس مما أدى إلى ظهور بعض الصعوبات في ترسيم الحدود والتي تمت من خلال تطبيق سيناتيس كونسيلت، حيث أصبحت أراضيهم مساحتها 73,603 هـ و 46 آر، وعدد سكانهم 1.917 ويملكون 175 حصانا و 111 جملا، 771 أبقار و 9504 كباش و 5784 ماعز، وقد تم تقسيم القبيلة إلى عدة دواوير².
- أولاد بالغ: على بعد 100 كلم من سيدي بلعباس، يحدها شمالا أولاد سيدي علي بن يوب وبني ماطر أولاد عمران وأولاد عطية، شرقا الجعافرة والمحاميد، جنوبا مراعي بني ماطر، غربا قبائل أنقاد وبني صميل³، ومنطقتهم مزاورو، تاجمونت، موكلة، الضاية، تلاغ ورأس الماء. ويعود نسبهم إلى جدّهم بالغ بن شافع بن عامر بن زغبة الهلالي، ويرجع استقرارهم بالمنطقة منذ القرن 14 م ولهم ثلاثة فروع:
 - 1- أولاد سيدي علي بن خراج وهم القادة الأوائل للمنطقة ثم انتقلت الزعامة إلى أولاد بالغ بعد انهزامهم.
 - 2- أولاد سيدي الشيخ، وهم إخوة لأولاد سيدي الشيخ بالبيض.

¹ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 60.

² - AW SBA, Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, année 1868, n°274, p312.

³ - مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، المرجع السابق، ص 53.

3- أولاد بالغ والمعروفون عند العامة بزناة¹.

ويحدد "دوما" منطقة أولاد بالغ في تلاغ².

- أولاد سيدي خليفة: على بعد 30 كلم من سيدي بلعباس، تتواجد على أراضي أولاد سليمان³. وذكر "دوما" مواطنها في سيدي بن عدة، وسيدي علي بوحمود بعين تموشنت⁴. إنّ المتأمل لتوزيع قبائل بني عامر سيلاحظ أنّ أغلب قبائل بني عامر بقيت في الأراضي التي قدمت إليها منذ دخولها إلى الجزائر، مثل وهران وبلعباس وتموشنت ومعسكر وتلمسان، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على الارتباط الوثيق بالأرض، وما تمثله من مكانة كبيرة لدى بني عامر، لكن هذا لا يمنع من انتشارها في منطقة الشرق الجزائري والجنوب الغربي خاصة بمتيجة لتداخل عوامل زمانية ومكانية مثل الاستقرار الأول في المنطقة إضافة إلى ثوراتها الدائمة التي كانت تخوضها ضدّ العثمانيين تارة ودخولها في المخزن تارة أخرى ما انجرّ عنه توزيعها حسب ولائها للسلطة الحاكمة، وصولاً إلى الاحتلال الإسباني والفرنسي الذي ضيّق الخناق عليها في مواطنها وجعلها تحت المراقبة ما أرغمها على الهجرة في العديد من المرات، كل هذه العوامل مجتمعة حددت الإطار الجغرافي لبني عامر.

¹ - عبد القادر حلوش، قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847، المرجع السابق، ص 60.

² - Georges Yver, op.cit., p 616.

³ - مصطفى حجازي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، المرجع السابق، ص 56.

⁴ - Georges Yver, op.cit., p 616.

خاتمة

خاتمة

وصف العديد من المؤرخين قبائل بني عامر بعدد الأوصاف مثل الشجاعة والكرم والقوة والبطولة وحب الجهاد في سبيل الله كلها خصال حميدة وجدناها عندهم خاصة إذا تعلق الأمر بالدفاع عن الجزائر وعن أراضيهم وشرفهم، لكنهم بالمقابل ألصقوا بها صفة الخيانة وموالات الكفار والتي لاحقتهم وأصبحت وسم عار عليهم، وبني العديد من المؤرخين أحكامهم المسبقة عليها من خلال وصف المشرفي في كتابه، بالرغم من أن هذه الأحكام لم تشمل جميع قبائل بني عامر وإنما بعض فصائلها التي تحالفت مضطرة مع الاسبان، لكنها وجدت تهمة الخيانة تلاحقها عبر فترات تاريخية لاحقة، أما الأوصاف التي نعتمهم بها الأوربيون فإنها لم تخرج عن نطاق النظرة الكولونيالية التي حاولت نفي وجود هذا الكيان ووصفه بالهمجية والتوحش خدمة للنظرة الامبريالية الرامية إلى احتقار الأهالي كما كانت تسميهم وتغيب دورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهو ما لمسناه عند هؤلاء المؤرخين الذين لا يعدون أن يكونوا منظرين للاستعمار وممجدين له فقط وذلك على حساب السكان الأصليين للبلد.

لقد كان لبني عامر دور كبير في الدفاع عن الجزائر منذ هجرتها إليها، بداية من الدولة الزيانية التي ساعدتها في دحض الخطر المريني وهو ما أكسبها مهابة ومكانة كبيرة لدى ملوك بني عبد الواد تمثلت في إقطاعهم منطقة تسالا، حيث كانت هذه القبائل بمثابة حصن منيع ضد القبائل الأخرى، ومنه نلاحظ أن الاستفادة كانت مشتركة، بنو عامر الذين تحصلوا على أجود الأراضي وأخصبها والدولة الزيانية التي كسبت حلفاء أقوياء وقفوا إلى جانبها ووظفتهم في حمايتها. وقد استمر دفاعهم عن الجزائر مع الأتراك العثمانيين، وصولا إلى الوقوف في وجه المستعمر الفرنسي عند احتلاله للجزائر.

تعددت أسباب خضوعهم للإسبان والتي كانت نتاج ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية أحاطت بهم، فالإسبان بدؤوا في استخدام البارود والمدافع نتيجة استفادتهم من الثورة الصناعية في أوروبا والتطور الحاصل فيها، في حين كانت قبائل بنو عامر لا تزال تملك سوى الأسلحة التقليدية والأحصنة فقط، إذن فالمعركة بينهم وبين الإسبان غير متكافئة وهي انتحار بالنسبة لهم إن صح هذا التعبير، إضافة إلى رغبتهم في الحفاظ امتيازاتهم التي كانت موجودة قبل وصول الإسبان فقد كانوا أسيادا في أراضيهم ولهم من قطعان الماشية والخيول ما يتفاخرون به أمام مختلف القبائل، كذلك كان لزاما عليهم بيع منتوجاتهم الزراعية في أسواق وهران التي كانت تحت السيطرة الإسبانية، وبالتالي فخضوعهم للإسبان لم يكن موالة وكفرا بقدر ما كان خوفا على أنفسهم وطمعا في الحفاظ على أراضيهم وممتلكاتهم من نهب الإسبان الذين عاثوا في المنطقة فسادا وخرابا.

إن انهيار هذه القبيلة بدأ مع قمع السلطة العثمانية (بايلك الغرب) لهم وإخضاعهم بالقوة حيث تأرجحت هذه الفصائل بين الخضوع للأتراك والقتال ضدهم أحيانا أخرى وهو ما يقودنا إلى العلاقة التي كانت تجمعهم ببايات المنطقة، والملاحظ أن الأتراك كانت لهم مظالم كثيرة ضد هذه القبائل في محاولة لإخضاعها بالقوة وطردها من أراضيها إضافة إلى الضرائب الباهظة التي كانت تفرض عليهم في كل مرة وترهق كاهلهم بها، يضاف إلى ذلك تفكيك وحدتهم القبلية بإدخال عناصر دخيلة عليهم واذابة البربر واندماجهم معهم، هذا الاضطهاد العثماني دفعهم للولاء للطريقة الدرقاوية روحيا وأصبحوا أتباعا مخلصين لها وتبنوا هذه الطريقة المرابطية حيث تجسد ذلك في مشاركتهم في ثورتها منذ 1802 بقيادة الشريف الدرقاوي ودخلوا بذلك في صراع مع الأتراك العثمانيين لم ينته إلا بإخماد هذه الانتفاضة مما أدى إلى هجرتهم إلى المغرب خوفا من قمع السلطة العثمانية لهم، فكانت هذه هجرتهم الأولى إلى المغرب، والذي أصبح دار هجرة بالنسبة لهم نظرا لصلة الأخوة التي تجمعهم به وتداخل الحدود معه كونهم وجدوا فيه دار الأمان وهروبا من اضطهاد الأتراك وملاحقتهم لهم..

وعند دخول الاحتلال الفرنسي للجزائر لعبت بنو عامر دورا كبيرا في مقاومته والتصدي له، وهو ما تجلّى فعلا في أنها كانت من بين القبائل السبّاقة التي لبّت نداء الجهاد تحت راية الأمير عبد القادر وبايعته على السمع والطاعة في نوفمبر 1832، وأصبحوا من جند الأمير المخلصين له حيث حضوا بمكانة مرموقة لديه إذ كان يعتمد عليه ويعتبرهم حلفائه الذين يساند عليهم، بالرغم من خروجهم عن طاعته في العديد من المرات ورفضهم دفع الزكاة خاصة بعد معاهدة ديميشال 24 فبراير 1834 حيث اعتبروا خروجهم هذا شرعيا بحكم انتهاء القتال مع الفرنسيين، إلا أنهم كانوا يعودون ويلبّون دعواته، فخروجهم عنه كان ظرفيا، ساهمت فيه عديد العوامل منها تحريض الشيخ بلغوماري شواف لنقاد الأمير عبد القادر ضدهم وإيقاع الدسائس بينهم وبينه. خاض بنو عامر تقريبا أغلب المعارك التي قادها الأمير ودعموه بالجنود المشاة والفرسان، وشاركوا في تأديب القبائل الخارجة عن الطاعة وعملوا على إرجاعها إلى لواء المقاومة.

وبما أنهم قاوموا مع الأمير عبد القادر ووقفوا في وجه الفرنسيين تجرعوا ويلات السياسة الاستعمارية الفرنسية التي كانت تهدف إلى معاقبتهم من جهة ومن جهة أخرى عزلهم عن مقاومة الأمير ومنعهم من تقديم العون له، فقد بدأت في التوسع في أراضيهم بقيادة المارشال كلوزيل منذ 1835 في محاولة منه لإخضاعهم من خلال العمل بالمبدأ القاضي بأن القبائل التي ترفض الاعتراف بسيادة فرنسا تعتبر قبائل معادية، وبذلك تم فرض ضرائب باهظة عليهم ومنعهم من التجول في الأراضي الخاضعة لفرنسا وتعدى الأمر إلى محاولة فرض الوصاية عليهم خاصة في جرائم القتل والسرقة والعقوبات وهو ما أظهرته لنا مراسلات "دوماس" قنصل فرنسا لدى الأمير ،

أصبحت المواجهة بين بني عامر والسلطات الاستعمارية الفرنسية مباشرة خاصة بعد إقامة حامية في بلعباس في 1843 بقيادة لامورسيير، وكان الهدف منها توسيع رقعة الاحتلال وتثبيتته على الأرض، ليتطور الأمر بعد ذلك إلى بناء مدينة جديدة في 1847 على أراضي بني عامر بغية تضيق الخناق عليها ومراقبة تحركاتها ومصادرة أراضيها الخصبة

ومحاولة التهدة في المنطقة التي كانت تعرف اشتداد مقاومة الأمير عبد القادر بها، إضافة إلى تشجيع الهجرة الأوروبية على هذه الأراضي التي أصبحت ملكية أوروبية بمقتضى القوانين الفرنسية الجائرة والتي حاولت إعطاء الصبغة القانونية لمصادرتها لأملك بني عامر، إن بناء مدينة سيدي بلعباس وبداية تعميرها غيرت من موازين القوى لصالح الفرنسيين الذين وجدوا في المنطقة مكانا مناسباً لإسكان أكبر عدد من الأوروبيين، وتغليب هؤلاء على العنصر المحلي، وقد كان رد الفعل عنيفاً لساكنة هذه المنطقة ويعكسه هجوم أولاد إبراهيم على مركز بلعباس في نهاية يناير 1945 والذي حمل صبغة الطريقة الدرقاوية في تعبير صريح عن رفض الفرنسيين في المنطقة، وقد أبان رد الفعل الفرنسي على هذا الهجوم عن الهمجية والوحشية التي مارسها الفرنسيون ضد قبيلة أولاد إبراهيم ومعاقبة قادة الهجوم بقطع رؤوسهم أمام الملاء في وهران في محاولة لترهيب وكسر شوكة المقاومة.

بعد تراجع مقاومة الأمير عبد القادر وتضرر بني عامر من العقوبات الجماعية المسلطة عليهم من طرف فرنسا هاجروا إلى المغرب مضطرين، أملاً في الالتحاق بالأمير بعد ذلك وقد تعددت أسباب هجرتهم والتي كانت فرار من الواقع الاستعماري ورفض العيش تحت سلطة الكافر، إضافة إلى التضييق عليهم بعد مصادرة الأراضي والأملاك ونهب الثروات وأراضي العرش ومنع أي نشاط رعوي، يضاف إلى كل هذا الدور الذي لعبه البوحميدي الولهاصي في تحريضهم على الهجرة وإعلان العصيان ضد الخليفة ابن التهامي، وعقب استقرارهم في المغرب وبعد أن منحهم السلطان المغربي الأمان صدموا بإبادة جماعية من طرف هذا الأخير الذي رأى فيهم تهديداً لعرشه، وبالرغم من محاولة الأمير عبد القادر إنقاذهم من هذه المذبحة إلا أن كل مساعيه فشلت وتلقى بذلك ضربة أخرى موجعة مست حلفائه المخلصين له بنو عامر.

بعد العودة الكبرى من المغرب استمر التفكك في السياسة الاستعمارية، حيث أحدثت عودتهم مشكلاً بالنسبة لفرنسا والتي انقسمت بين مؤيد ومعارض لعودتهم إلى

الجزائر، ولم تكن عودتهم سهلة بل صاحبها صعوبات وعراقيل كبيرة، كان هذا المشكل ديموغرافيا حيث حدث اختلال بين السكان الأصليين والأوروبيين الذين خلفوهم على أراضيهم، إضافة إلى الظروف المعيشية الصعبة التي عاشوها، فبعد أن كانوا ملاكا وأسيادا على أراضيهم تحولوا إلى عمال وخماسين في هذه الأراضي، كل هذا اختلط مع مرارة الهجرة والغربة والإبادة والعودة وفقدان الأراضي جراء التشريعات العقارية.

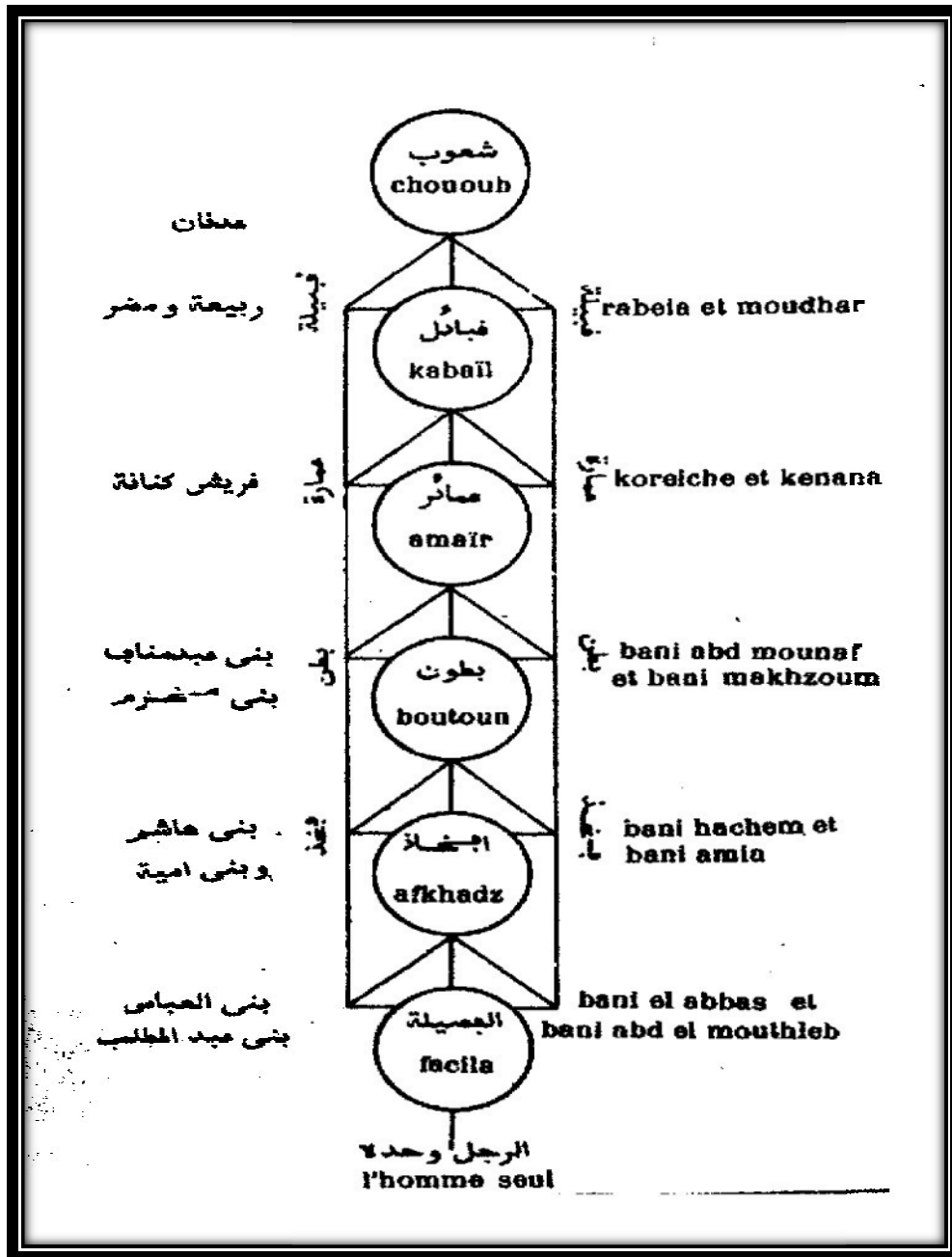
إن الأهمية الإستراتيجية لأراضي بني عامر، ووقوعها همزة وصل بين وهران ومعسكر وتلمسان جعل السلطات الاستعمارية تعيد توطينهم وفق مصلحتها قصد ضمان حماية المستوطنين الأوروبيين من جهة، ومن جهة أخرى الاستفادة منهم كعمال واستغلالهم في أعمال الزراعة إضافة إلى تزود الجيش الفرنسي بالمتونة على طول هذه المناطق وهو ما ساعده في الصمود في العديد من المرات أمام ضربات المقاومة..

إن تفكك بنو عامر بدأ مع الأتراك واستمر في سياسة الإمبراطور الفرنسي، فقانون السيناتيس كونسيلت الذي جاء في ظروف صعبة كانت تعيشها هذه القبائل، خفف قليلا عليها من مصادرة الأراضي، لكنه بالمقابل غير عقلية البدو وشتتها بتأسيس الوحدة الإدارية الدوار، الذي محا الهوية القبلية لها، وحولها إلى قبائل مستقرة تمارس الزراعة وفق النمط الأوروبي، وألغى بذلك مكانة شيخ القبيلة والأعراف التي كانت تحكمها، إضافة إلى القضاء على التكافل الاجتماعي داخل القبيلة بتفتيت الملكية الجماعية وتحويلها إلى فردية مما أدى إلى التفكيك النهائي للوحدة القبلية لبني عامر.

ملاحق

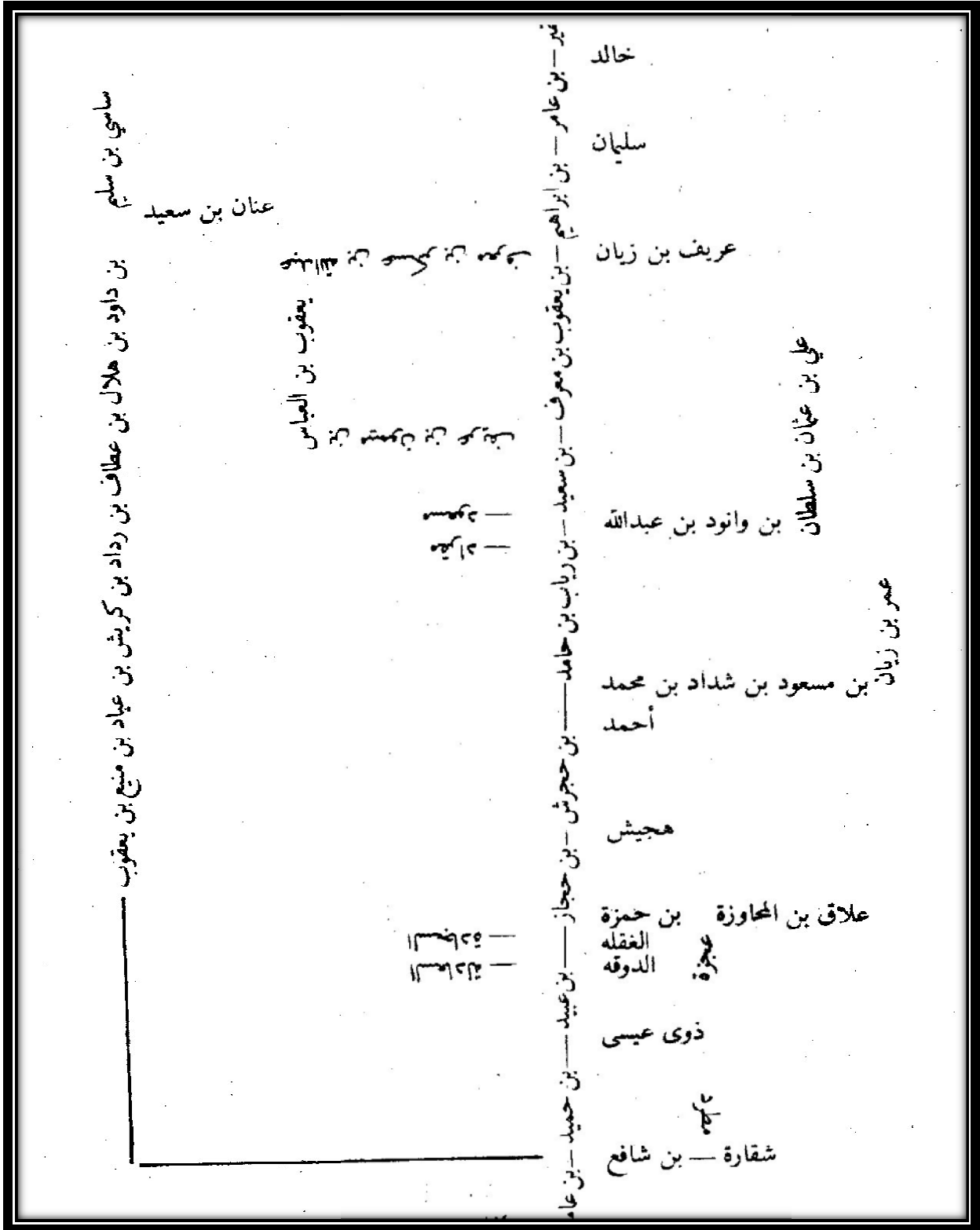
ملحق

الملحق رقم 01: تقسيم العرب للقبائل¹



¹ - Elie Tabet, ethnologie arabe.

الملحق رقم 02: بطون بني عامر¹



¹ - ابن خلدون، ج 6، ص 74.

الملحق رقم 04: خدمة بنو عامر في مخزن الباي العثماني¹

mes et chevaux. Le matin, avant le départ, au moment où le bey ou le *kralifat* montait à cheval, on lui conduisait la *gada*.

Le bey se réservait pour ses rayas les deux puissantes tribus des *Beni-Amer* et des *Medjehar*. Les *Nedjouh* qui forment la tribu des *Beni-Amer* sont les suivantes :

<i>Oulad-Krelfat.</i>	اولاد خلعة
<i>Oulad-el-Mimoun.</i>	اولاد الميمون
<i>Oulad-Abd-Allah.</i>	اولاد عبد الله
<i>Oulad-Soliman.</i>	اولاد سليمان
<i>Oulad-Ali.</i>	اولاد علي
<i>Oulad-Dzoïr.</i>	اولاد زابر
<i>Oulad-Zedj.</i>	اولاد زج

Les *Medjehar* sont divisés en

<i>Oulad-bou-Kamel.</i>	اولاد بكميل
<i>Oulad-Malef.</i>	اولاد ملوف
<i>Grefersats.</i>	غبرات
<i>Oulad-Ainas.</i>	اولاد ايناس
<i>Oulad-Chaffu.</i>	اولاد شفة

C'était le *kralifat-el-koursi* (remplaçant du siège), celui qui tenait par sa charge la place du bey absent, qui était chargé, le plus généralement, de la rentrée des impôts dans ces deux tribus. Ces impôts consistaient pour chaque tribu dans

- La *lezma* en argent (8,000 rials).
- Des chevaux de bât (12).
- Des chevaux de *gada* (4).
- Des moutons et de l'orge, indépendamment de la *zacam* et de l'*achour*.
- Du beurre salé (80 tass ou 2,400 livres d'Alger).

Quelquesfois, le bey déléguait pour cette mission, très-ambitionnée parce qu'ils y faisaient de grands bénéfices,

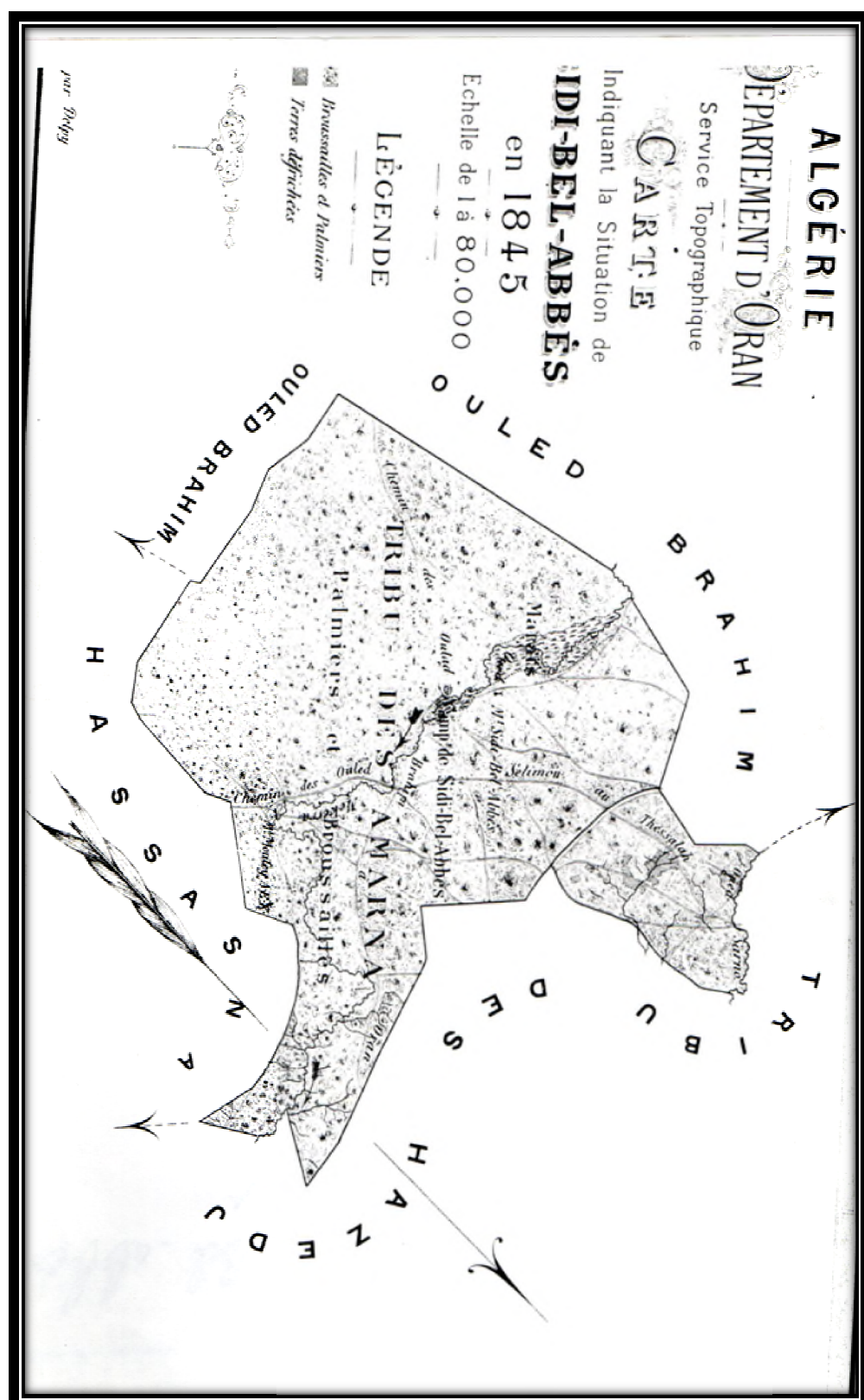
¹ -walsinester hazy, de la domination turque.

الملحق رقم 06: توزيع السكان بالجزائر أوائل القرن التاسع عشر¹



¹ - ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر خلال الفترة العثمانية.

ملحق رقم 07: خريطة سيدي بلعباس في 1845.¹



¹ - Léo bastide, bel abbés et son arrondissement.

الملحق رقم 08: تطور سكان سيدي بلعباس (1849-1901).¹

État de la Situation Successive de la Population de la Commune de Sidi-Bel-Abbès									
Années	Population Municipale		Population comptée à part	TOTAL GÉNÉRAL de la population	Répartition de la Population Municipale				REMARQUES
	Agglomérée	Totale			Français ou naturalisés	Israélites (citoyens français depuis 1872)	Sujets français musulmans	Etrangers	
1849	516	516							
1852	1.728	1.728							Arrêté du 4 Avril 1852
1857	3.282	4.408							Arrêté du 9 Avril 1857
1861		5.583	382	5.583	1.052	607	582	2.960	Arrêté du 7 Mars 1861
1866	4.128	6.332		6.332	1.753	915	1.230	2.434	
1872	4.573	7.876	25		2.214		1.330	4.323	
1876	10.708	11.992	1.935	13.927	2.344	410	1.510	7.728	Avec Palissy et Prudon
1881	13.288	15.346	1.404	16.840	2.311	804	3.215	9.406	Avec Palissy
1886	16.807	18.554	3.041	21.895	3.682	576	3.477	11.119	id.
1891	18.516	20.149	42	20.191	4.262	1.525	3.709	10.653	id.
1896	21.483	23.278	3.609	26.887	6.950	420	1.939	10.969	
1901	24.265	25.739	162	25.901	6.484	813	5.908	12.534	

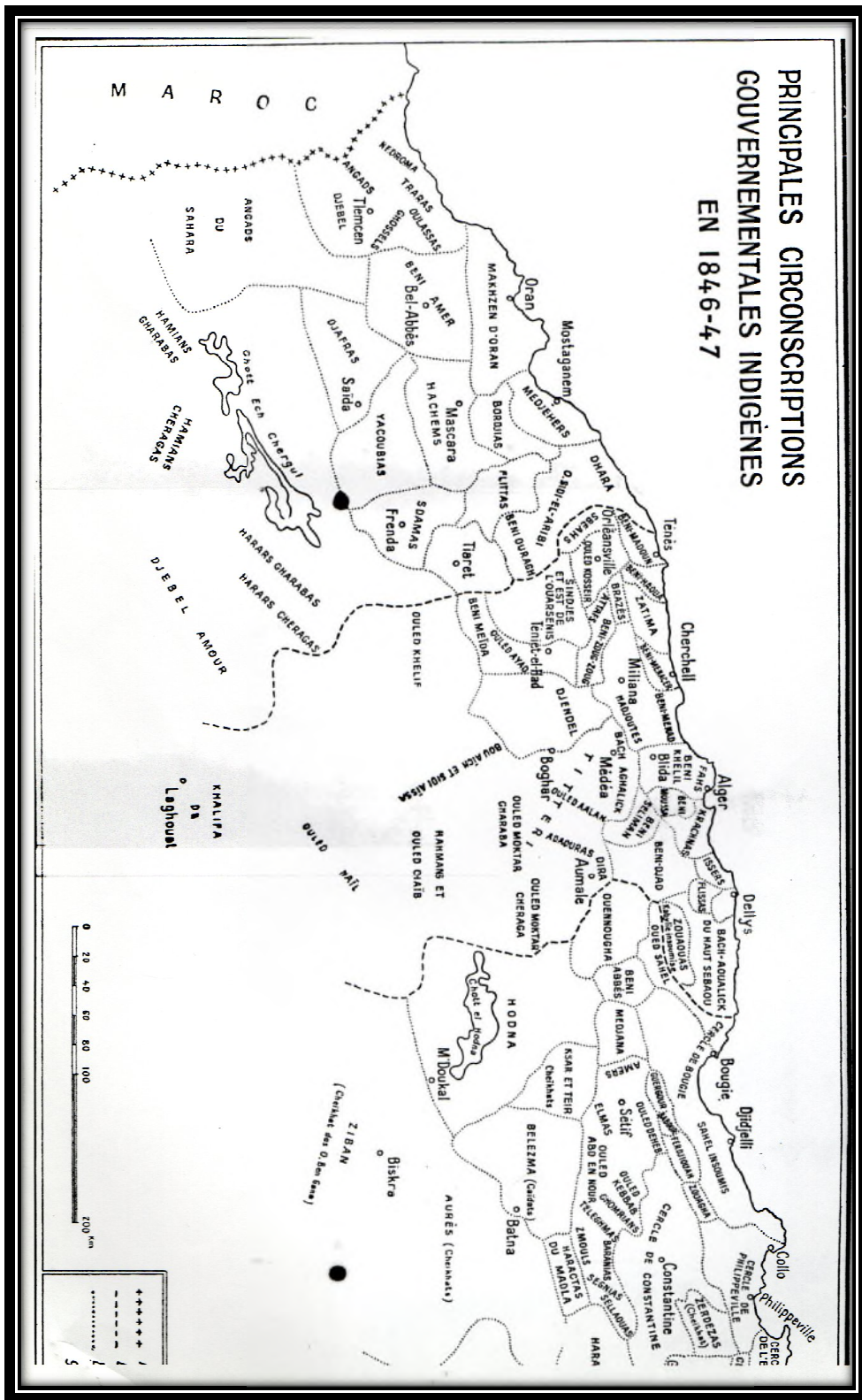
¹ - Léo bastide, bel abbés de nos jours, AWO. B : A 1442.

الملحق رقم 09: مقاطعة وهران في 1847.¹



¹ - Charles André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine.

الملحق رقم 10: خريطة توزيع القبائل في الشمال الجزائري (1846-1847).¹



¹ - Roger Germain, la politique indigène de Bugeaud.

الملحق رقم 11: خريطة القطاع الوهراني في 1884.¹



¹ - Source gallia.bnf.fr.

الملحق رقم 13: تعداد جيش بني عامر تحت قيادة الأغا محمد ولد التامي¹

*Gouvernement de Sidi Bou Hamidy, califa du Gharb :
depuis les frontières du Maroc jusqu'à la Sefizaif.
Cinq subdivisions principales.*

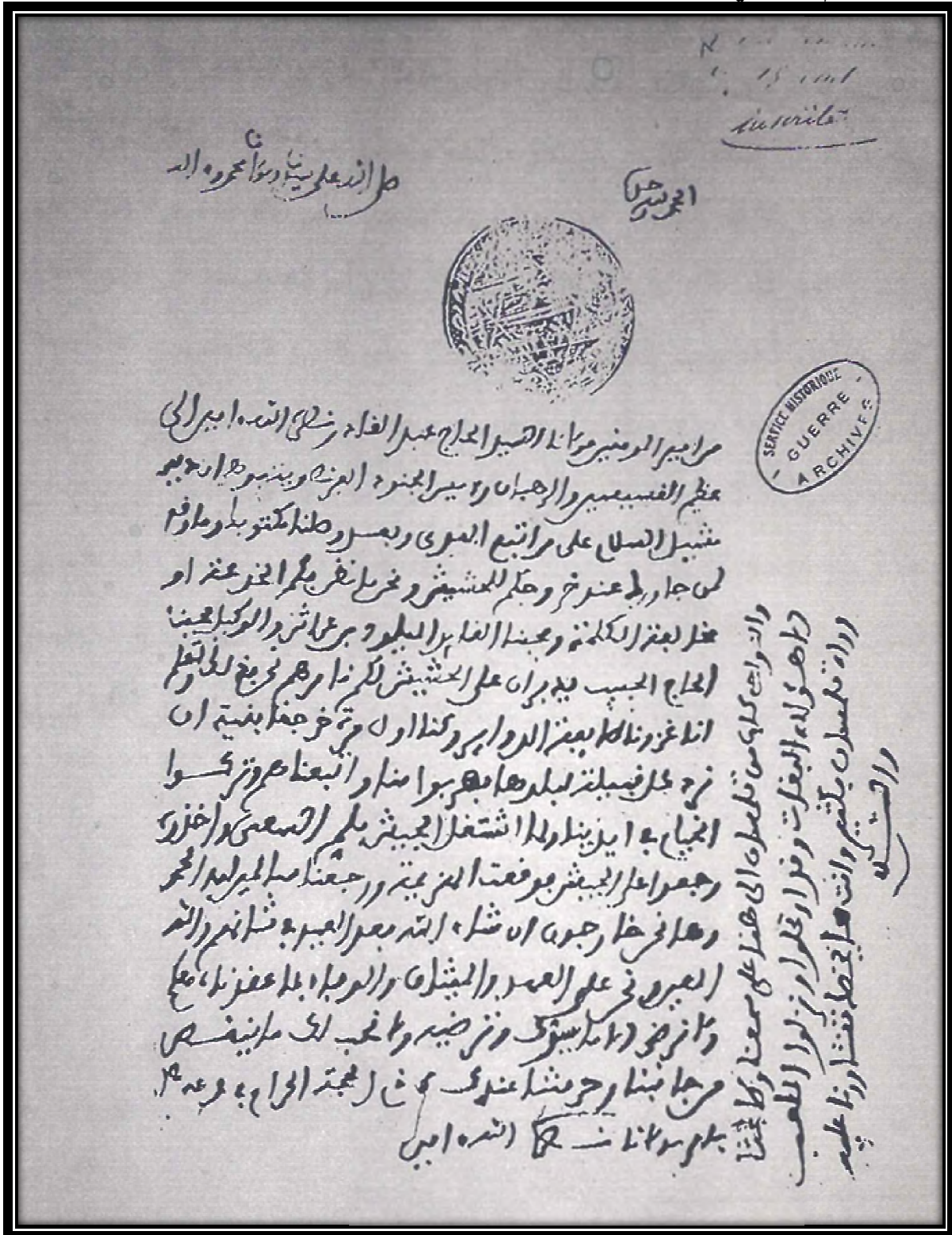
Commandement de Mohammed ould Tamy,
aga des Beni Ameer.

NOMS DES TRIBUS		FORCES	
		à pied	à cheval
Beni Ameer	Oulad Zair (1).....	300	500
	Oulad Qrallah (2).....	150	400
	Oulad Aly.....	200	300
	Oulad Sidi Labdely (3).....	50	80
	Oulad Brahim (4).....	85	100
	Oulad Sidi Ghranem.....	30	80
	Oulad Abdallah.....	80	100
	Oulad Sidi Hamet ben Ioussouf (5).....	20	30
	El Aâdjazz (6).....	125	250
	Neméina (7).....	125	250
	Oulad Selyman (8).....	200	400
	Oulad Mimoun (9).....	90	200
	Oulad Sidi ben Youb (10).....	30	50
	Oulad Sidi Maâchou.....	10	20
	Guétarnia (11).....	500	60
	Zaouia mta Abd el-Kader ben Zian.....	500	60
	Oulad Gebarras (12).....	15	30
	Oulad Sidi Mesaoud (13).....	»	20
	Oulad Sidi Qraled (14).....	50	50
	Beni Mattar (15).....	»	500
	Oulad Balagr (16).....	»	150
		2.610	3.660

- (1) Ouled Zeïr [Aïn Temouchent. M.].
 (2) Ouled Khalfa [D. C. Sidi bou Adda. Sidi Ali bou Hamoud. — Aïn Temouchent. M.].
 (3) Ouled Sidi Abdeli [Pont de l'Isser. P. E.].
 (4) D. C. Ouled Brahim [Mekerra. M.].
 (5) Ouled Sidi Ahmed ben Youcef. tribu occupant la rive droite de l'Isser, au S. des Ouled Sidi Abdeli.
 (6) Ouled Hazedj [Mekerra. M.].
 (7) Nemaïcha [Tessala. P. E.].
 (8) Ouled Sliman [Mekerra. M.].
 (9) Ouled Mimoun [Aïn Fezza. M.].
 (10) Ouled Sidi ben Youb [Mekerra. M.].
 (11) Cheurfa el-Guétarnia [Saint Lucien. M.].
 (12) Djebarra [Rio Salado. P. E.].
 (13) Ouled Sidi Messoud [Châbet el-Leham. P. E.].
 (14) Ouled Sidi Khaled [Mekerra. M.].
 (15) D. C. Beni Mattar [Yakoubia. M.].
 (16) D. C. Ouled Belagh [Telagh. M.].

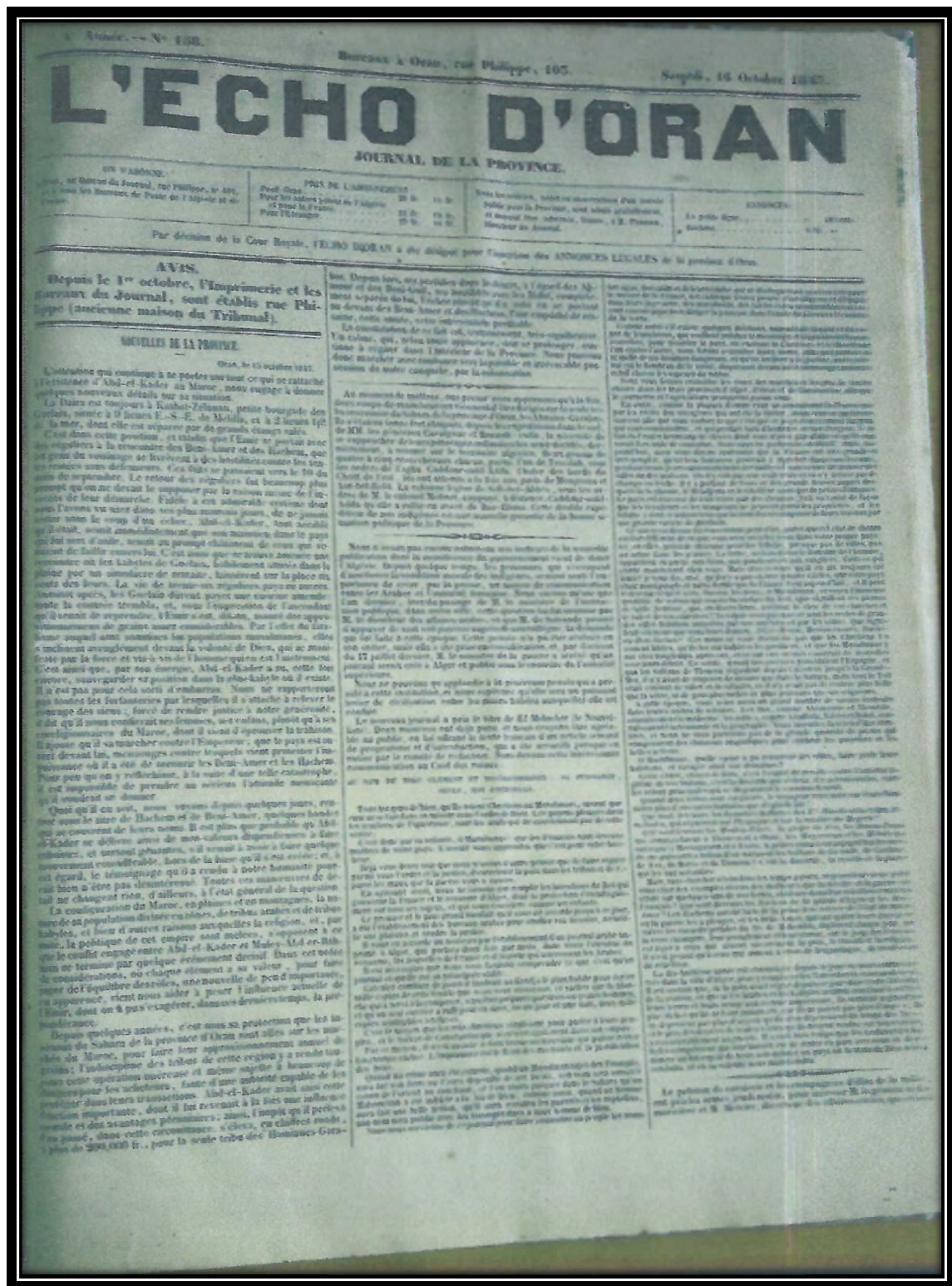
¹ - Gorges yver, correspondance capitaine Dumas..

الملحق رقم 15: مراسلة الأمير دي ميتشال يخبره بأن خروجه كان ضد الدواير لمنعهم من الهجوم على بني عامر.¹



¹ - عبد الحميد زوزو، مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميتشال.

الملحق رقم 16: وصف الحالة النفسية لبني عامر بعد مذبحة المغرب.

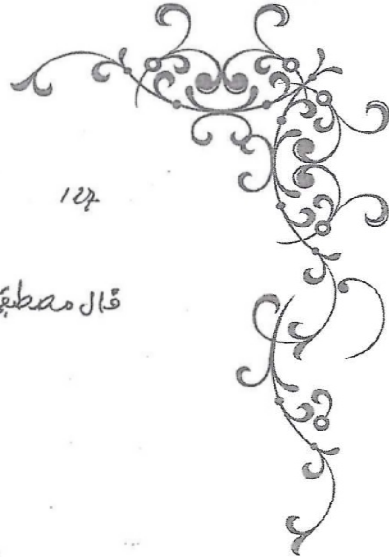


الملحق رقم 17: صورة تظهر ملاحقة قبائل بني عامر¹.



¹ - Arsene Bertheuil, l'Algérie française, tome1, Paris, 1836..

الملحق رقم 18: قصيدة سرج يا فارس اللطام¹.



124

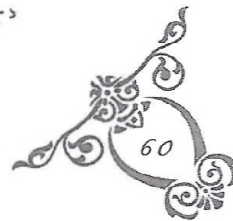
قال مصطفى بن ابراهيم رحمه الله
القسم الاول: من قصائده قبل الهجرة

سرج يا فارس اللطام

الهدية الاولى

سرج يا فارس اللطام * للبهجاء ربح يا خليلي
شظف منابلا مقام * للزهراروخ عيد رسلي
توصل مرحوبة الحزام * في وهران ساكنة غزالي
الازرق شلواح اللجام * تحومل صيد جاي بالي
5 فرسان البحر كان عام * اذا سكنته الرج بحجلي
يدوي مر لظة القدام * طبع القومان والشمالي
فيل الا ينفجى الظلام * اسري مناوبات سالي
تشر به كيسان المدام * تحملا تلقي انت رجالي
لخونتي عيد السلام * بلفاسر والحبيب وعلي
10 واذا سالوك بالتمام * مثل البشير والمكالي
تستمر على بن البسام * دحمان والزائدة هبالي

سرج يا فارس اللطام * للزهراروخ عيد رسلي
شظف منابلا مقام * للبهجاء ربح يا خليلي
اذا ملكه كان ملك النصيم سرج * من الصبراء (4-)
دجمان مجاور الهلالي * قبل ان يتعاجلي (5-)
و تسلم (6-)
دجمان (7-)
عند (8-)
11 - (9)



60

¹ - عزة عبد القادر، مصطفى بن ابراهيم شاعر بني عامر ومداخ القبائل الوهرانية.

الملحق رقم 20: تقرير حول المدعو درقاوي بخراج وتصنيفه كشخص خطير من تلاح¹.

Département d'Oran
-:-
Arrondissement
de Sidi-bel-Abbès
-:-
COMMUNE MIXTE
du TELAGH
-:-
N° 662
Sûreté Publique
-:-
A.S. du nommé
Derknaoui Bekerradj
-:-

-1-
Telagha, le 6 Février 1936

L'Administrateur de la Commune Mixte du Telagha
à Monsieur le SOUS-PRÉFET
à SIDI-BEL-ABBÈS

Par notification des 7 et 15 Janvier écoulé N°s
137 et 309 vous avez bien voulu me transmettre la copie
d'un compte rendu du chef de la brigade de Gendarmerie du
Telagha relatif au nommé Derknaoui Bekerradj Ould Isoudour,
signalé comme dangereux pour la sécurité et se demandant de
procéder à une enquête et éventuellement, à la constitution
du dossier réglementaire prévu par la loi du 15 Juillet
1914 en vue de la mise en surveillance spéciale de cet in-
digné.

En réponse, j'ai l'honneur de vous rendre compte
que les renseignements recueillis sur le nommé Derknaoui
Bekerradj sont les suivants :

Il a subi une condamnation à un an de prison pour
vol de grains en 1927.

Employé comme gardien des jardins pour un groupe
de 13 colons de Rochambeau, il donne satisfaction à ces
derniers pour la façon dont il s'acquitte de sa tâche, mais
par contre provoque les protestations des autres colons qui
l'accusent - assez vaguement du reste - de maraude.

Il se dit victime de dénonciations calomnieuses
de la part de ses coreligionnaires et se montre notamment
arrogant vis-à-vis des agents des différents services
de la police locale, cette dernière le tenant comme suspect
en raison de son ancienne condamnation d'une part et de
ses liens de parenté avec un voleur en profession de la
région, d'autre part.

Qu'il deteste les autorités, c'est là un fait
acquis.

Les Gendarmes BILLET et MAS et le garde SALAZAR
ayant eu à intervenir contre lui pour coups et blessures
volontaires sur la personne de la nommée MAZLA بنت Douiri
il a, par écrit, accusé les gendarmes d'avoir, au cours de
l'enquête, eu la tête chez la plaignante et le garde champêtre
d'avoir eu des relations intimes avec cette dernière.

Il ne reconnaît pas au garde champêtre le droit
d'interroger quand il y a enquête pour vol et répond cou-
ramment à cet agent "ce que j'ai fait ne te regarde pas."

Il a fréquemment à la bouche l'expression "Mau-
dits soient les roumis".

¹- AWO. I21/ 2261.

الملحق رقم 21: أمر بالتحري عن المدعو حسين بوشناق من واد آمبار¹.

PRÉFECTURE D'ORAN REPUBLIQUE FRANÇAISE

DIVISION Affaires Indigènes
N° 5114

Oran, le 9 avril 1935

Etat d'esprit des indigènes

Le Préfet du Département d'Oran
à Monsieur le Commandant la 19ème
Légion de Gendarmerie

ORAN

Le 20 mars dernier, sous le N°832/3 vous m'avez transmis un rapport de M. Le Commandant de la section de Gendarmerie de Sidi-Bel-Abbès, en date du 19 du même mois, N°1914, concernant le nommé BOUCHENAK Houcine, demeurant à Oued-Imbert, qui aurait tenu des propos hostiles à la France.

J'ai l'honneur de vous prier de m'adresser tous renseignements complémentaires que vous pourriez faire recueillir sur cet indigène et son activité au point de vue ordre public et surêté nationale. Faire rechercher où il habitait précédemment./

Pour Le Préfet
LE PRÉFET DU DÉPARTEMENT D'ORAN

Handwritten signature: *nauf*

Handwritten date: 21/4/35

Vertical text on the left: Haute, Oran. - 21 9 35

¹- AWO. BI21/ 2261.

الملحق رقم 22: التضيق على العمال والمزارعين في سيدي بلعباس¹.

PRÉFECTURE D'ORAN
CENTRE D'INFORMATION
ET D'ÉTUDES

Oran, le 29 Janvier 1942

RESEIGNEMENTS

N° 45

A/S. DE LA SURVEILLANCE EN DU CONTRÔLE DES OUINS :

Un informateur sérieux rapporte que les indigènes de la région du SIG commentent avec animation le bruit suivant :

- Dans la région de SIDI-BEL-ABBES - MEMOTER-LACOURBE, les services de gendarmerie, dresseraient des procès verbaux aux khannas et ouvriers agricoles qui sont chaussés de boumamel (chaussures rustiques et montantes, faites avec des bandes de peau de vache ou de chèvre, et attachées avec de l'alfe ou du palmier et utilisées par les fellahs).

Or, actuellement par suite de la pénurie de chaussures on rencontre de plus en plus les campagnards chaussés de cette façon.

Si ce bruit est fondé, il serait peut-être bon d'attirer l'attention des Services de la Gendarmerie, sur les répercussions que peuvent avoir de telles verbalisations, sur l'état d'esprit des indigènes.

Destinataires : M. le Préfet (A.M.)
O.I.E. ORAN
M. le Commandant GOURDES (O.I.E. ORAN)

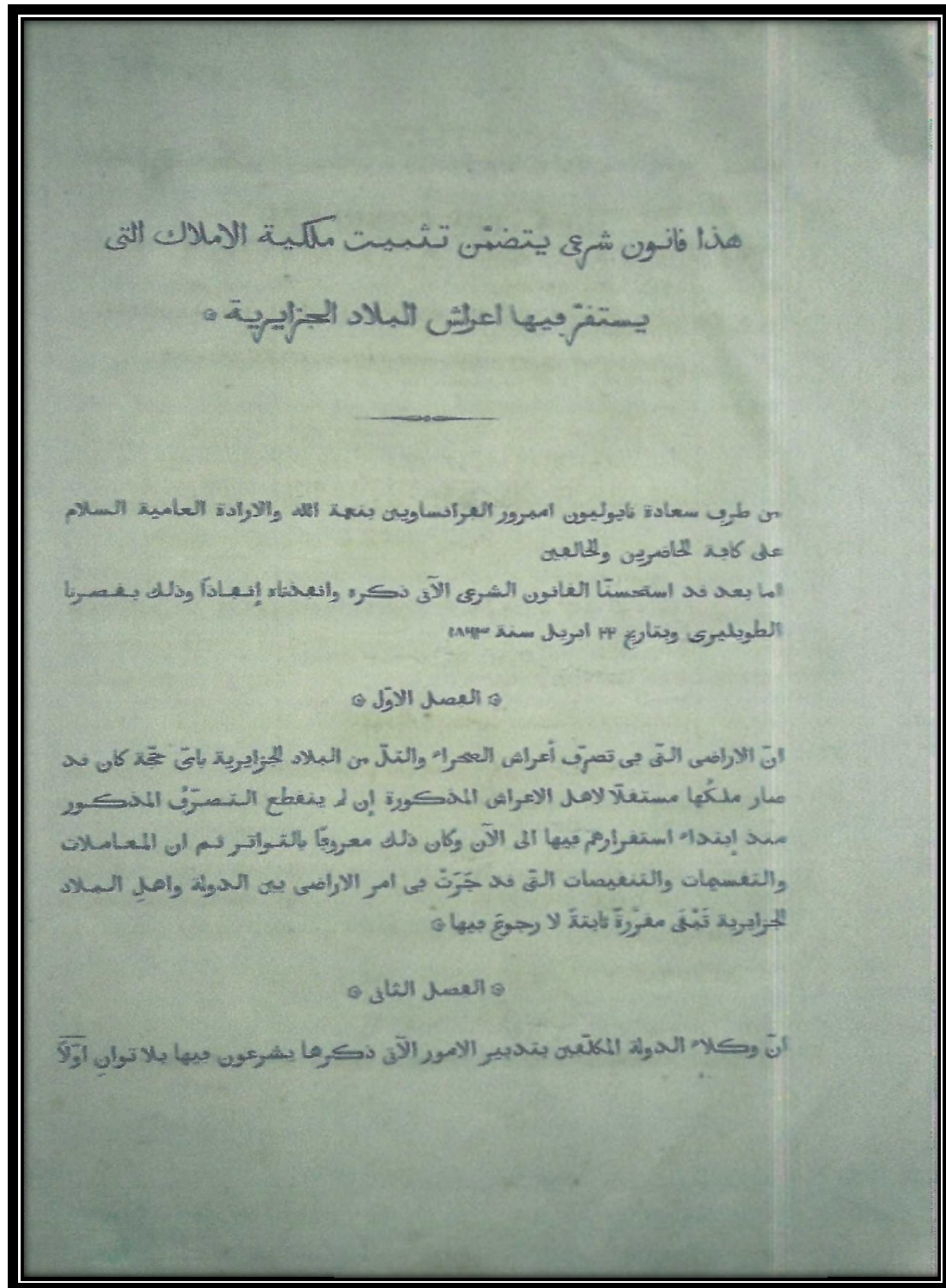
¹- AWO. I21/ 2261.

الملحق رقم 23: تقرير حول شكوى من طرف بلعربي عبد القادر من دوار تلوين وتعرضه لعملية احتيالية من طرف قائد دواره¹.

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL
DE L'ALGERIE
DIRECTION
des
AFFAIRES MUSULMANES
Alger, le 12 JAN 1942
3^e BUREAU - 5000
LE GOUVERNEUR GÉNÉRAL DE L'ALGERIE
PREFECTURE D'ORAN
à Monsieur le PRÉFET (A.M.)
CABINET DU PRÉFET
ORAN
15 JAN 1942
Objet: Requêtes diverses - plainte d'un prisonnier
de guerre originaire du douar Tiliouine (Com
mune Mixte de LA MEKERRA.)
J'ai l'honneur de vous adresser, sous ce pli
une lettre aux termes de laquelle le prisonnier
de guerre BEL LARBI ABDEL KADER, originaire du
douar Tiliouine, actuellement interné à CHARLEVILLE,
se plaint d'avoir été frustré d'une propriété
appartenant à sa mère, à la suite d'une manœuvre
frauduleuse du Caïd de son douar.
Je vous serais obligé de bien vouloir me
faire parvenir, avec votre avis, toutes préci-
sions utiles sur les faits signalés par BEL LAR-
BI./.
La Mekerra M.
Tiliouine ou Beloum
Le Directeur des Affaires Musulmanes

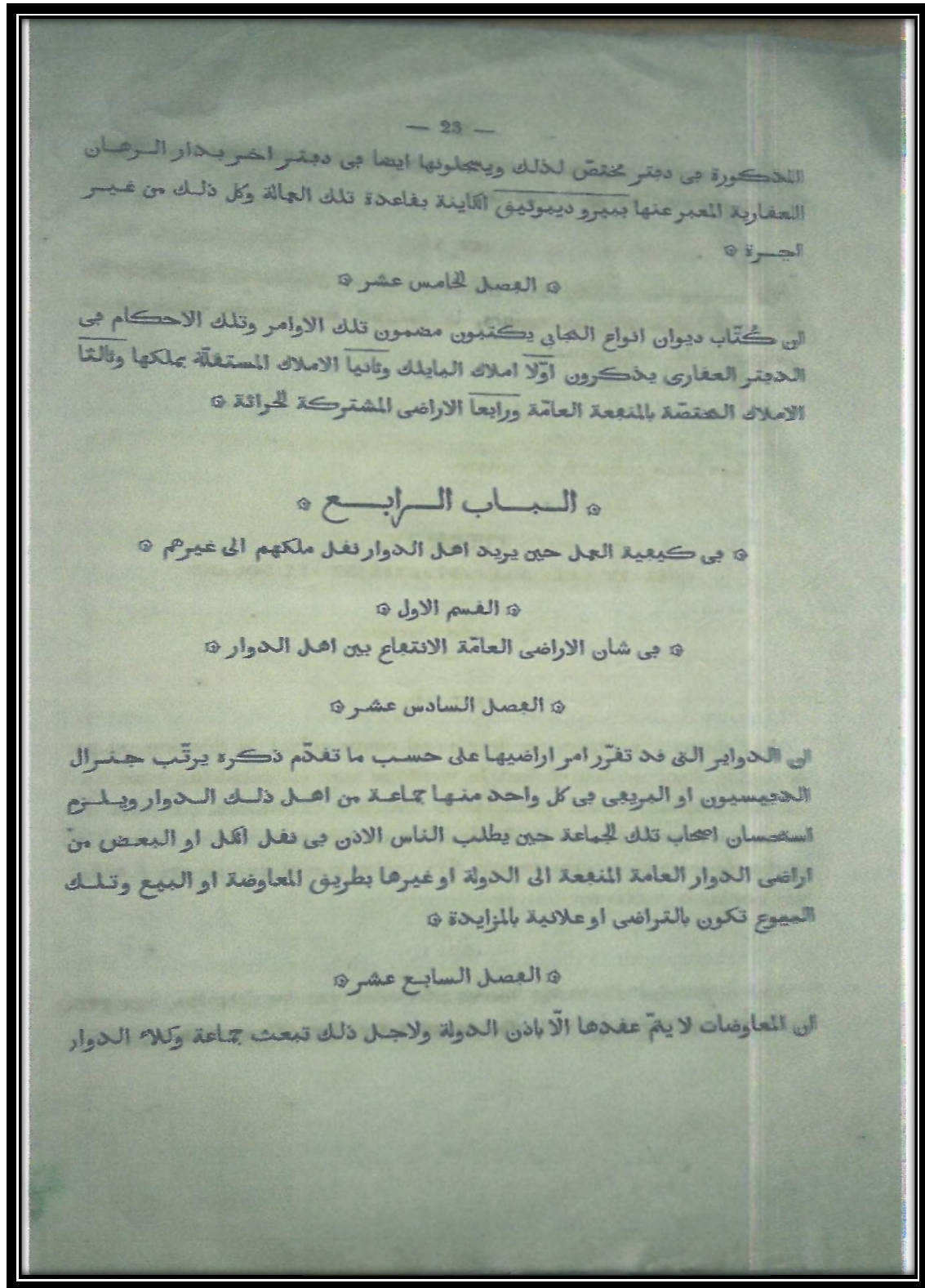
¹ - AWO. I21/ 2261.

الملحق رقم 24: بعض بنود سيناتيس كونسيلت¹.



¹ - AWO. B 368, constitution de la propriété en Algérie dans les territoires occupés par les arabes.

الملحق رقم 25: بعض بنود سيناتيس كونسيلت¹.



¹ - AWO. B 368, constitution de la propriété.

الملحق رقم 26: تطبيق سيناتيس كونسيلت على قبائل الصحراء (الشرقية)¹.



¹l'écho de Tiaret, 11 septembre 1910.

الملحق رقم 27: حالة أراضي الدومين بعد سيناتيس كونسيلت 1864-1870¹.

90

DIDIER GUIGNARD

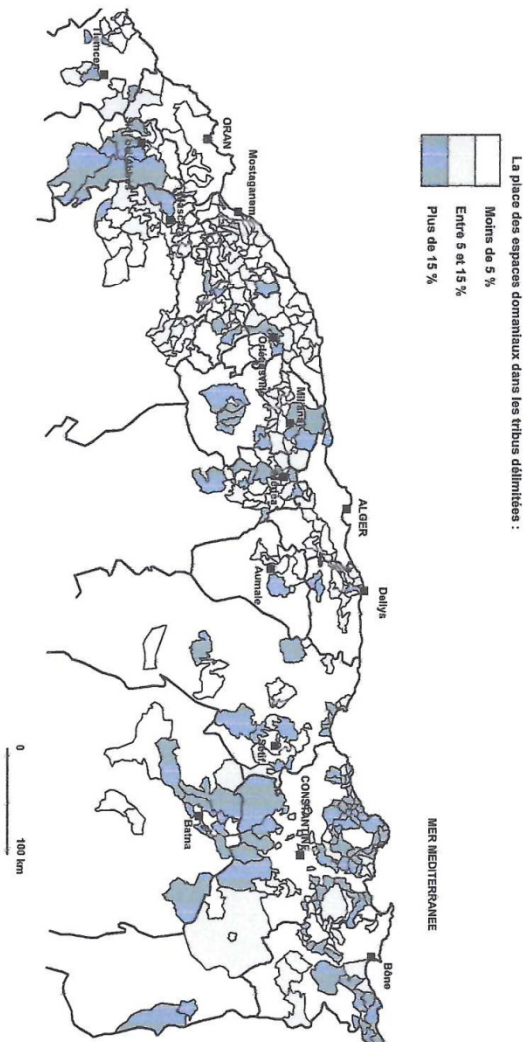


Fig. 3 – Le sénatus-consulte et la constitution du Domaine de l'État (1864-1870)
Source : Bulletin Officiel du Gouvernement Général de l'Algérie

¹-Didier GUIGNARD, conservatoire ou révolutionnaire ?, Revue d'histoire du XIXe siècle.

الملحق رقم 28: القبائل التي تم تحديد حدودها خلال عمليات سيناتيس كونسيلت¹.

Le paradoxe des émigrants indésirables pendant la monarchie de Juillet

87

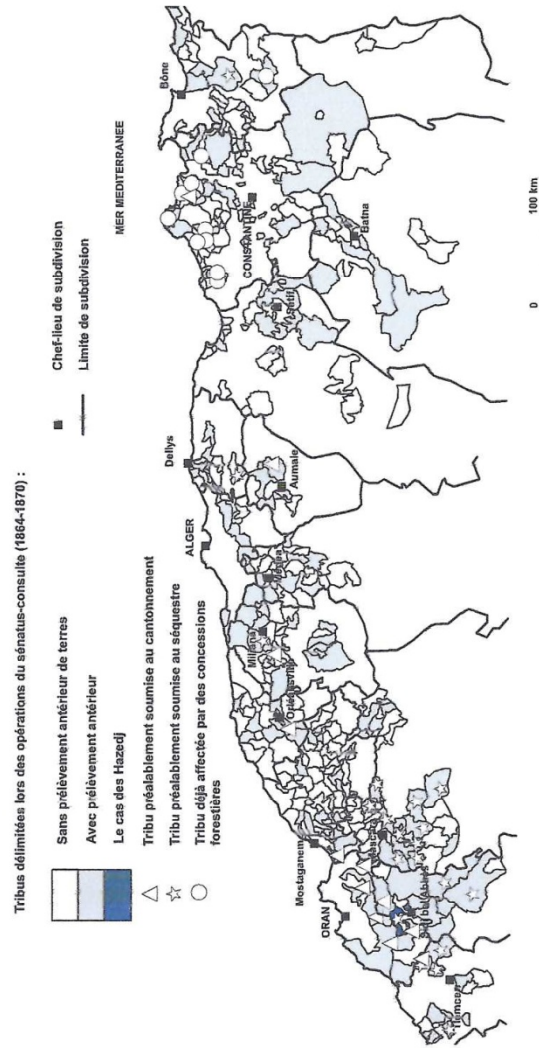
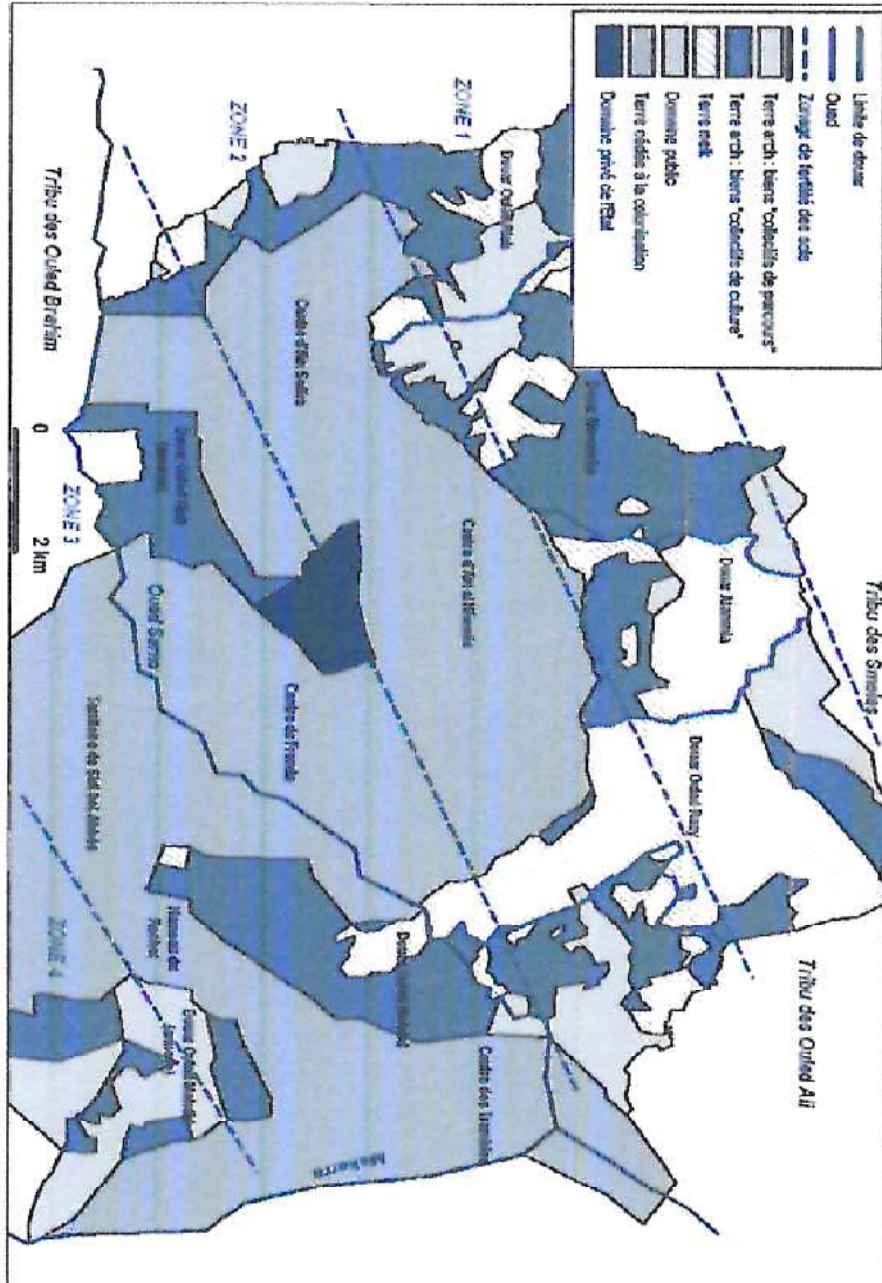


Fig. 2 - Tribus soumises aux opérations du sénatus-consulte (1864-1870)

Sources : Arch. nat. Outre-mer, C/41 (fonds de carte); Robert Estoublon et Alphonse Lefébure, *Code de l'Algérie annoté*, Alger, Jourdan, 1896, p. 280-288 (liste des tribus)

¹ - Didier GUIGNARD, op cit.

الملحق رقم 29: تطبيق سيناتيس كونسيلت على قبيلة الحجز¹.



¹ - Didier GUIGNARD, op cit.

الملحق رقم 30: تقرير حول عمليات الاستغلال التعسفي بدوار عين الشرفة (سان لوسيان المختلطة)¹.

REPUBLIQUE FRANCAISE
MINISTRE DES COLONIES
ALGERIE
CABINET DU PREFET
7 MAI 1943
Alger, le 5 MAI 1943

L'AMBASSADEUR DE FRANCE,
M. le Gouverneur Général de l'Algérie
à Monsieur le Préfet d'Oran

OBJET : Douar Ain Cheurfas (St. Lucien Mixte) -

Le Conservateur des Eaux et Forêts à Oran a signalé à différentes reprises les défrichements et exploitations abusives poursuivies dans les boisements particuliers du douar Ain Cheurfas (C.M. de St. Lucien). Sur plusieurs milliers d'hectares on assiste à la disparition de l'état boisé et les conséquences ordinaires du déboisement se font sentir; les terres sont soumises à une érosion intense, entraînées vers le barrage des Cheurfas dont elles comblent rapidement le bassin tandis que les terrains de culture disparaissent à l'amont.

Le service forestier, afin de remédier à la situation, propose de poursuivre l'expropriation de 4.500 hectares de terrains dans le but de permettre l'application intégrale des défenses prévues par la loi Forestière algérienne pour les terrains soumis au régime spécial. Il fait remarquer qu'une acquisition amiable est impraticable en raison de l'état d'indivision des propriétés et que d'autre part une expropriation ne saurait entraîner de réaction de la part des populations dépossédées car celles-ci ont en général dans la région le désir de vendre des terres qui ne leur rapportent rien.

Un pareil état d'esprit paraît à priori anormal si on se rappelle les incidents auxquels ont donné lieu dans d'autres régions d'Algérie où les terrains étaient aussi peu productifs les expropriations poursuivies par l'Administration des Eaux et Forêts.

Cette affaire a été adressée à M. le Gouverneur Général (P. a. 3) Saint. Lucien. Vous voudrez bien en saisir le Ministre de l'Intérieur et lui faire connaître la suite. Tout à votre dévouement, Conservateur des Eaux et Forêts.

Oran, le 17 MAI 1943
à P. a.

PRÉFECTURE D'ORAN
N° 3579

¹-AWO. I21/ 2261.

بیلیو غرافیا

بيبليوغرافيا

القسم الأول: مصادر البحث.

أولاً: الوثائق الأرشيفية المطبوعة.

- Bulletin hebdomadaire des services des renseignements généraux.
- Bulletin Officiel des Actes du Gouvernement, B.O.A.G (1855-1857).
- Bulletin Officiel du Gouvernement Général B.O.G.G (1861-1926).
- Bulletin officiel du ministère de la guerre. G.G.A.
- Bulletin officiel du ministère de L'intérieur.-Bulletin des lois.
- Décrets et Arrêtés. Lois .Concernant les reformes indigènes. G.G.A. Imp. Orientale. Fontana a frères. 1919.
- Documents de Ministère de la Guerre. Algérie "Organisation des indigènes". Documents divers. 9ème année
- Exposé de la Situation Générale de l'Algérie, présenté par G.G.A, Alger, années (1927-1929-1931-1938- 1946).
- GGA. Recueil des actes du gouvernement de l'Algérie (1830-1854). Imprimerie du Gouvernement. Alger. 1856.
- GGA. Tableau de la situation des établissements Français dan l'Algérie 1864. Imprimerie Impériale. Paris. M. Dccc. LXVI.PP07-08.
- GGA. Tableau de la situation des établissements Français dans L'Algérie 1845. Imperial. Paris. PP 77-78.
- GGA. Tableau de la situation des établissements Français dans L'Algérie 1852-1854. Imprimerie Impériale. Paris. MDccc. PP 93-94-95.
- Journal Officiel (Les débats parlementaires).
- Journal Officiel de L'Algérie.
- Journal Officiel de La R. Française J.O.R.F.
- Les Documents Algériens, série Politique et Institution .Service d'information du Cabinet du G.G.A, Imprimerie: société nationale des entreprises de presse, 6 avenue Pasteur, Alger.1947-1954

- Les Procès – verbaux des délibérations des conseils généraux d'Oran (2 vol. annuel par département). 1875-1961.
- P.V des délibérations des délégations financières :Colons – nom- Indigènes
- Recueil des actes administratifs de la préfecture D'Oran. (R.A.A. de la délégation générale "juin 1958 – juillet 1962 ").
- Recueil des actes Administratives de la préfecture, 1860-1881,1882.
- Recueil des Actes du Gouvernement de l'Algérie, RAGA (1830-1854).
- Réformes indigènes, Lois, décrets et arrêtés concernant les réformes indigènes de 1919.Alger impr/off/GGA,1919.
- Réformes indigènes, rapport de la commission chargée d'établir un programme de reformes politique Sociales Et économiques en faveur des musulmans français d'Algérie, Alger imprimerie officielle, GGA, T1et tome 2,1944.
- Répertoires Statistiques /Communes De L'Algérie. Année 1887 et 190236.

DOCUMENTS STATISTIQUES.

- A.S.A, Annuaire statistique de l'Algérie Année 1930, Imprimerie E. PFISTER, G.G.A, Alger 1931.
- A.S.A, Annuaire statistique de l'Algérie, Imprimerie Minerva, Alger , 1936.
- A.S.A, Annuaire statistique de l'Algérie, Nouvelle série, 4eme Volume, Ancienne imprimerie, V. Heintz, G.G.A, Alger, 1951.
- A.S.A, Annuaire statistique de l'Algérie, Nouvelle Série, Troisième Volume, Ancienne Imprimerie V. Heintnz, G.G.A, Alger, 1950.
- A.S.A, Tableaux de l'économie, Tiré surpresse de l'imprimerie Baconier, G.G.A, Alger, 1958.
- Société géographique et d'archéologie, La Province d'Oran frondée en 1878, tome XLIV, imprimerie typographique et lithographique, Oran .
- Statistiques Générales de l'Algérie, Année ; 1906-1911,Puis Annuaire - Statistique de l'Algérie,A.S.A. Direction générale des Finances, ---Services statistiques générale. Année ; 1926,1936,1948,1954.

ثانيا: الوثائق الأرشيفية المحفوظة.

أ - الوثائق الأرشيفية في الجزائر:

1- مصلحة أرشيف ولاية وهران:

- Centre d'archives de la wilaya d'Oran- AWO.

Ex-Série B /Administration générale de l'Algérie :

A.W.O, série 1B :

B /7-événements politiques,

B /7-pouvoirs disciplinaires.1881-1928.

- AWO. S/ SérieB : I21/2261.
- AWO, BI21/2261, affaires indigenes n°5114.
- AWO, Rapport n°1091, B : I21/2261.

EX/ Série I : Affaires Musulmanes 1837-1961 :

- Série I 1 : Dossier 2260
- Le centre d'info et d'étude. Organisation politique et Administration de l'Algérie.
- A.W.O, Sous série I, B N°2261, C.I.E, Oran, N°01 de Décembre 1939.
- A.W.O, Sous série I,B N°2261, Dossier presse, L'Entente du 04 Septembre 1939.
- A.W.O, Sous série I11, B N°4480, Commissariat à la coordination des affaires Musulmans, N°02, Alger, 21/06/1943.
- A.W.O, Sous série I B N°4482, I19, Rapport, présenter par M., Administrateur De La Commune Mixte de Mekerra.
 - AW SBA, BO 1868, n°282.
 - AWO, I21/2261, Affaires musulmanes le 12 jan. 1942.
 - AWO, I21/2261, contre D N°4S, Oran, le 29 janvier 1942.
 -

2- أرشيف ولاية في مكتبة الولاية سيدي بلعباس:

- AW SBA, Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, année 1868, n°266.
- AW SBA, Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, année 1868, n°282.
- AW SBA, Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, année 1868, n°274.
- Note Historique et Statistique de la ville de SBA 1887, 11 p.
- Les P.V de réunion du Conseil municipal
- Rapport /Bilan sous préfecture de Sidi Bel Abbés n° 19, 11 février 1935.

3- المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية:

- منشورات المركز لجميع فعاليات الملتقيات الوطنية.
- وثائق تاريخ الجزائر المعاصر - المنشورة في المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية .
- مكتبة المركز - وثائق وصور في تاريخ الحركة الوطنية والثورة (1830-1962).

ب- الوثائق الأرشيفية في فرنسا:

1- أرشيف أكس بروفانس.

ANOM - Département d'Oran/Personnel et Administration gle.

- 3G/4G/6G/Organisation ADM, voyages officielles (napoléon III).
- 5G/5-ADM locale, rapports divers 1861-187.

ANOM - Département d'Oran/

- A.N.O.M, G.G.A, Série B, 343B d'Oran, de la diffusion à Bel-abbés d'un trac du Septembre 1941.
- A.N.O.M, G.G.A, Série B, 343B d'Oran, Note de recherche, 1938-1948.
- A.N.O.M, G.G.A, Série B, 343B d'Oran, Demande de souscription.

Département d'Oran/ Série H.

- A.N.O.M, G.G.A, Série H, 12 H 16, Schéma de l'organisation administrative.

ثالثا: الصحافة الكولونيالية.

- L'Echo d'Oran (1898-1903).
- جريدة يومية ذات نشر واسع جدًا. وهي التعبير الصادق للسلطة الاستعمارية في الجزائر، وبدرجة خاصة البرجوازية الكولونيالية.
- L'écho d'Oran, 16 Octobre 1847.
- La voix indigène, N°409, Algérie, 29/06/1937.
- Le progrès de Bel-Abbes, 19^{ème} Année, N°1515, 13/10/1900.
- L'Etoile Algérienne, N°09, 04 juillet 1948, BI21/2261.

القسم الثاني: مراجع البحث

أولاً: المراجع باللغة العربية.

أ- المصادر باللغة العربية.

1. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، ج1، تقديم: عبد الله محمد الدرويش، ط1، دمشق، داريعرب، 2004.

2. ابن منظور أبو الفضل محمد جمال الدين، لسان العرب، ج11، بيروت: دار صادر،

د ت.

3. أبي راس محمد بن أحمد الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق: محمد غالم، ج1، وهران: منشورات CRASC.
4. أبي راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تقديم وتحقيق: محمد غالم، وهران: منشورات CRASC، 2005.
5. بن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان لابن الأحمر، تقديم وتحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، ط1، 2001.
6. بن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، ج6، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000.
7. بن خلدون يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق: عبد الحميد حاجيات، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، 1980.
8. الراشدي أحمد بن سحنون ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق: الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر، 2015.
9. الزياني محمد بن يوسف ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ب ت،
10. محمد باشا بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، سيرته السيفية، الإسكندرية: المطبعة التجارية، غرزوزي وجاويش، 1903.
11. المزاري بن عودة ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ب.ت.

12. المزاري بن عودة ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج2، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ب.ت.

13. مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

14. المشرقي عبد القادر الجزائري، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، ت. وتقديم: محمد بن عبد الكريم، بيروت: دار مكتبة الحياة، ب.ت.

15. الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية، القسم الثالث، ج9، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ب ت،

16. الناصري أبو العباس أحمد بن خالد ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج7، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، ب.ت،

ب- المقالات باللغة العربية:

1. "بنو عامر بين الإشبان والأتراك"، مجلة أضواء تاريخية، مديرية المجاهدين، سيدي بلعباس، عدد 02، 1998.

2. "بنو عامر ومقاومة الاحتلال الفرنسي" أضواء تاريخية، مديرية المجاهدين، سيدي بلعباس، عدد 03، 2000.

3. أبو عياد محمود، "أهم الأحداث في حياة الأمير عبد القادر"، مجلة الثقافة، العدد 75، ماي، جوان 1983.

4. أيكلمان ديل، "الانتماء القبلي في وقتنا الراهن التداعيات والتحولات"، مجلة عمران، العدد 19، 2017.
5. أيلال نور الدين، "المرسوم المشيخي 22 أبريل 1863 في الجزائر والمواقف المختلفة منه"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 6، رقم 01.
6. بشير بويجرة محمد، «تجليات الأنا والغبن في الخطاب الشعري الشعبي محاولة في رسم معالم الذات والآخر، "قلبي تفكر الأوطان" نموذجاً»، مجلة إنسانيات، رقم 17-18 ماي- ديسمبر 2002.
7. بلعربي خلد، دور أبو عبد الله البوحميدي الولهاسي في إدارة دولة الأمير عبد القادر، المجلة التاريخية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد 6، جوان 2013.
8. بن داهة عدة، الخلفيات الحقيقية للتشريعات العقارية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1870)، الملتقى الوطني الأول حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.
9. بوعزيز يحيى، "سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر من خلال أقواله ورسائله 1852-1870"، مجلة الثقافة، العدد 50، مارس/أفريل 1979.
10. الترالي محمد، "القبيلة الصحراوية قراءة في النشأة والتطور"، مدارات تاريخية، المجلد 2، العدد الخامس، مارس 2020.
11. تيتة ليلي، "تطور البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال القرن التاسع عشر"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد 17، ديسمبر 2014.
12. حجازي مصطفى، "الوضع الديمغرافي في منطقة سيدي بلعباس 1847-1954"، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، عدد 02، 2015.

13. حلوش عبد القادر، "قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة 1830-1847"، منشورات الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1945، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، 2005.
14. حليم عبد الجليل، "البدو والسلطة السياسية"، الثقافة، العدد 79، فبراير 1984، الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة.
15. حمودي عبد الله، "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية، خطوة في طريق تأسيس خطاب أنثروبولوجي مستقل"، عمران، العدد 19، 2007.
16. حيمر صالح، "قانون سيناتيس كونسيلت 1863 حول الملكية العقارية في الجزائر: قراءة تاريخية"، مجلة عصور الجديدة، المجلد 11، العدد 02.
17. الزين عبد الحق، «تجربة مصطفى بن براهيم في الشعر الملحون الجزائري، قراءة سوسيولسانية لقصيدة القمري»، مجلة العاصمة، المجلد الثامن، 2016.
18. سعيدوني ناصر الدين، "ثورة ابن الأحرش بين التمرد والانتفاضة"، مجلة الثقافة، عدد 78، الجزائر 1983.
19. شلبي ربيعة، مزري عبد القادر، "السلطة والقبيلة من خلال كتاب المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون"، الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، عدد 06، ديسمبر 2017.
20. طرشون نادية، "سياسة نابليون الثالث العربية"، مجلة دراسات وأبحاث، العدد 26، مارس 2017، السنة التاسعة.
21. عبيد مصطفى، "دراسة في رسالة الإمبراطور نابليون الثالث إلى المارشال بيليسي بتاريخ 06 فيفري 1863"، مصادر، المجلد 14، العدد 25.

22. عميري الطاهر، بنية الريق والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، ضمن كتاب التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، أعمال الملتقى الدولي للتاريخ يومي 23-24 نيسان (أفريل) 2001، الجزائر: دار الهدى.
23. قبايلي هوارى، حركة الهجرة بين الجزائر وفرنسا 1830-1962، مجلة المرافق للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، عدد رقم 05 ديسمبر 2010.
24. لونيسي إبراهيم، الاستعمار الاستيطاني في الجزائر خلال القرن التاسع عشر - منطقة سيدي بلعباس نموذجا-، مجلة عصور، عدد 6-7، جوان-ديسمبر 2005.
25. مجبري سلمة، مجبري حسان، "تاريخ القبيلة في الجزائر مفهوم خلدوني"، مجلة تاريخ العلوم، العدد الخامس..
26. مزهورة حسين الحاج، "مشروع المملكة العربية لنابليون الثالث في الجزائر 1852-1870"، جريدة التربية، العدد 07، جانفي 2020.
27. مكحلي محمد، "إشكالية القبيلة في الدراسات الاجتماعية المغرب العربي أنموذجا"، مجلة آفاق فكرية، العدد 01 ديسمبر-جانفي 2014.
28. مهديد إبراهيم، "الأرستقراطية التقليدية الوهرانية خلال القرن 19م والرأسمالية الاستعمارية: إشكالية الاندماج الاجتماعي"، إنسانيات، عدد 4، 1998.
29. مونسي حبيب: "بنو هلال: المسيرة والتاريخ"، الملتقى الوطني الأول للكتابة تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية، نوفمبر 2001، جامعة سيدي بلعباس.
30. ولد النبيلة (كريم)- : «بلدية مكرة المختلطة- سيدي بلعباس 1874-1956»، تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال المرحلة الاستعمارية، مكتبة الرشاد للطباعة، الجزائر، 2003.

31. ولد النبية (كريم) «لقيام في نظام الإدارة الاستعمارية، التواطؤ، التعسف والخيانة - 1867-1962»، مجلة القرطاس للدراسات الخضارية والفكرية، العدد الثاني، جانفي 2015، مخبر الدراسات الخضارية، جامعة تلمسان.
32. ولد النبية (كريم) -تيرش (محمد): « استمرار تسلط الضرائب العربية على قبائل عمالة وهران 1830-1918 »، مجلة عصور جديدة/مصنفة ج /مخبر: ج، ت، ج ISSN:2170-1636 - جامعة. وهران، المجلد 10، ردمد 1636، عدد الأول 1، (مارس) 1441هـ/2020.
33. ولد النبية (كريم): «- دوار برقش -منطقة سيدي بلعباس-»، مكتبة الرشاد ط/ب/ت، الجزائر، 2005
34. ولد النبية (كريم): « قرية بضربين -النموذج الاستعماري للسكن الاجتماعي للجزائريين»، المجلة التاريخية المغربية، تونس، السنة الخامسة والثلاثون، العدد 131، ماي/2008/1428.
35. ولد النبية (كريم): «الرهانات الديموغرافية في الجزائر- منطقة سيدي بلعباس 1830-1954»، ج2، ط/ب/ت، الجزائر، 2005.
36. ولد النبية (كريم): «انتخابات الهيئة الثانية للمجالس البلدية-سيدي بلعباس 1912»، المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية /مخبر تاريخ الجزائر- في الحديث والمعاصر، العدد 3/ سنة 2011.
37. ولد النبية (كريم):- «سياسة الإخضاع وقوانين الأنديجينا من خلال أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر»، - مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية / ISSN 2170-0370 دورية محكمة تصدرها جامعة الوادي -، العدد 2/ديسمبر 2011.

ثانيا: الكتب باللغة العربية.

أ- الكتب المتخصصة:

1. البلادي (عائق بن غيت)، معجم القبائل العربية (المتفقة اسما المختلفة نسباً أو دياراً)، ج 1-2، ط 1، دار النفائس، لبنان، 2002.
2. بن حسن محمد، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس: دار الرياح الأربع، 1986.
3. بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1997.
4. بوطالب عبد القادر، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير-، الجزائر: منشورات دحلب، 2009.
5. بوطالب محمد نجيب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، ط 1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002.
6. التميمي عبد المالك خلف، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي- المغرب العربي- فلسطين- الخليج العربي، دراسة تاريخية مقارنة، عالم المعرفة، يناير 1978.
7. الجوهري محمد، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية انجليزي، عربي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010.
8. الجيلالي عبد الرحمن بن محمد ، تاريخ الجزائر العام، ج 3 و ج 5، دار الأمة، ب ت.
9. الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج 1، الجزائر: دار الأمة، 2009.
10. حرب أديب، التاريخ السياسي والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808- 1847، ج 2، الجزائر: دار الرائد للكتاب، ط 3، 2005.

11. خالدي عبد الرحمن، الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، دار هومة، ب.ت.
12. الدراجي بوزياني، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، الجزائر: مؤسسة بوزياني للنشر، 2013.
13. دودو أبو العيد، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، المؤسسة الوطنية للكتاب، ب.ت.
14. زوزو عبد الحميد، محطات في تاريخ الجزائر، دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية (على ضوء وثائق جديدة)، الجزائر: دار هومة، 2004.
15. زوزو عبد الحميد، مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشال ووثائق خاصة بتاريخ الجزائر في عهد الأمير، الجزائر: دار هومة، 2003.
16. سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، ج1-، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992.
17. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج4، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.
18. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج7، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.
19. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، (1500-1830)، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998.
20. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، 1830-1945، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.

21. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، 1830-1954، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.
22. سيدي صالح حياة، اللجان البرلمانية الفرنسية وقضايا الجزائريين 1871-1895، الجزائر، دار الهدى، 2012.
23. الصلابي علي محمد ، الأمير عبد القادر الجزائري قائد ربّاني ومجاهد إسلامي، ط1، دار العزة والكرامة للكتاب، 2015.
24. ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات الجزائر-المغرب الأقصى-موريتانيا-السودان، ج10، القاهرة: دار المعارف، ب.ت.
25. عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي، دار الأملية للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
26. عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر بن علي المشرقي المتوفي 1895، حياته وآثاره، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011.
27. عبد الله أبي عبد الله، تاريخ الموارنة ومسيحي الشرق عبر العصور، ج1، مكتبة المهتدين، ط1، 1997.
28. العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.
29. عزة عبد القادر، مصطفى بن إبراهيم شاعر بني عامر ومдах القبائل الوهرانية، تلمسان: موفم للنشر، 2011.
30. العسيلي بسام، مشاهير قادة العالم (المارشال بيجو 1784-1849)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ب.ت.

31. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي قراءة في فرادة الرمز والريادة، الجزائر: دار القدس العربي للنشر والتوزيع، 2011.
32. العلوي إسماعيل مولاي عبد الحميد، تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، ج1، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1985.
33. الغدامي عبد الله محمد، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، ط2، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2009.
34. فكاير عبد القادر، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/1505-1792م)، الجزائر: دار هومة، 2012.
35. الفيلاي عبد العزيز، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج5، القاهرة: شركة ناس للطباعة، ط1، 2006.
36. قنان جمال، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1987.
37. منور العربي، تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، الجزائر، دار المعرفة، 2006.
38. مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ج1، بيروت: العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط1، 1992.
39. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، 1980.

ب- الكتب العامة:

1. أباضة نزار، الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر، دمشق، 1994.
2. بليل محمد، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساتها على الجزائريين بين 1881 و1914، الجزائر: وزارة الثقافة، 2013.
3. بوعزيزي، مدينة وهران عبر التاريخ، الجزائر: دار البصائر، 2009.
4. بيومي مهران محمد، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، صر الدين ب ت.
5. سعيدوني ناصر الدين، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2000.
6. سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم ومؤرخين ورحالة جغرافيين، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999.
7. الشريف محمد، سجل الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية، تعريب: حبيب شنيبي، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2003.
8. طاهر مسعود، تاريخ الجزائر، ج1، الجزائر، 1962.
9. مجاود محمد وآخرون، أبعاد وآثار الاختراق الاستعماري الفرنسي في منطقة سيدي بلعباس، ضمن كتاب تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962، ج2، الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، 2005.
10. مرقومة منصور، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي مقارنة أنثروبولوجية، ط1، بيروت: دار الروافد الثقافية، 2015.

11. مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

12. مهديد إبراهيم، القطاع الوهراني ما بين 1850 و1919 دراسة حول المجتمع الجزائري، الثقافة والهوية الوطنية، وهران: منشورات دار الأديب، 2006.

13. ولد النبية (كريم) - البلدية الاستعمارية المحلية في الجزائر 1863-1947 - من خلال الوثائق الأرشيفية، دار النشر المثقف- باتنة/بليدة، الجزائر، 2020 .

14. ولد النبية (كريم) - تاريخ الإدارة الاستعمارية المحلية في الجزائر 1830-1954 - من خلال الوثائق الأرشيفية، دار النشر كنوز الحكمة- بن عكنون ، الجزائر، 2019

ت- الكتب المترجمة:

1. أ. ف. دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، دار هومة، ب ت.

2. أجيرون شارل روبير، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة: عيسى عصفور، ط1، باريس: منشورات عويدات، 1982.

3. أدريان بير بروجير، مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838)، تر: أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2005.

4. الأشرف مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2007.

5. أندريه برنيان، أندري نوسي، ايف لاکوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: اسطمبولي رابح والمنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984.

6. برونو إيثين، عبد القادر الجزائري، ترجمة: ميشيل خوري، لبنان: دار عطية للنشر، ط1، 1997.
7. بنسالم ليليا، كلينر ارنست وآخرون، الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، تر: عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، ط1، المغرب: دار توبقال للنشر، 1988.
8. الترغيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالي، ترجمة: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية، ط1، 1989.
9. تشرشل شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، تونس: الدار التونسية للنشر، 1974.
10. دينكت ميتشيل، معجم علم الاجتماع، تر. ومراجعة: إحسان محمد الحسن، ط2، بيروت: دار الطليعة، 1986.
11. شنتوف الطيب، الجزائر السياسية 1830-1954، ترجمة: خليل أوزاينية، ديوان المطبوعات الجامعية، 2017.
12. عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي 1830-1960، ت: جوزيف عبد الله، ط1، دار الحداثة، 1983.
13. عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسية التفكيك الاقتصادي- الاجتماعي 1830-1960، ترجمة: جوزيف عبد الله، دار الحداثة، ط1، 1983.
14. غورفيتش جورج، الأطر الاجتماعية للمعرفة، تر: خليل أحمد خليل، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1981.
15. قداش محفوظ، جزائر الجزائريين، تاريخ الجزائر 1830-1954، ترجمة: محمد المعراجي، منشورات ANEP، 2008.

16. المدني أحمد توفيق، كتاب هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956.

17. الوزان بن محمد الفاسي (الحسن)، وصف إفريقيا، ت: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج1، دار الغرب الإسلامي، ب.ت.

18. وهران والغرب الجزائري في القرن 18 حسب تقرير ارمبورو، تر: محمد القورصو وميكال دي ايبالزا، الجزائر: المكتبة الوطنية، 1978.

19. يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر، ت. وتقديم: أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 1997.

ثالثا: الكتب باللغة الأجنبية.

1- المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

أ- المراجع باللغة الأجنبية:

1. AGERON (Charles Robert). Histoire de l'Algérie contemporaine (1871-1954). Tome 2. Paris. PUF, 1979.
2. AGERON (Charles Robert). L'Algerie Algérienne. De napoléon 3 a de gaulle. La bibliothèque arabe sindibeed. Paris. 1980.
3. AGERON (Ch-Robert,), Les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919, tome 1 et 2 ,puf,paris,1968,(1296 p).
4. BERTEUIL Arsène, L'Algérie française, histoire- mœurs- coutumes- industrie- agriculture, tome second, Paris : Dentu librairie éditeur, 1856.
5. BERTHET A., La femme du Kaid épisode des guerres d'Afrique 1837- 1848, Mare Barboue imprimeurs, 1890.

6. Brunel Camille, La question indigène en Algérie, paris : Augustin Challamel édition, 1906.
7. Cambon Jules, Le gouvernement général de l'Algérie 1891- 1897, paris : librairie H. Champion, 1918.
8. Camille Rousset, La conquête de l'Algérie 1841- 1857 ; tome second, paris, Plon-nourrit, 1904.
9. Charles André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine 1827- 1871, PUF, paris, 1964.
10. De Gramen (H.D), Histoire d'Algérie sous la domination turque (1515- 1830), paris, Ernest Leroux.
11. De Martinprey, Souvenirs d'un officier d'Etat major 1830- 1847, paris, Maison Quantin, 1886.
12. Didier (L), Histoire d'Oran, période de 1510 à 1550, imprimerie Jeanne d'Oran, 1927.
13. Élie Tabet, Ethnologie arabe, Note sur l'organisation des tribus et l'ethnologie des noms propres, Oran, imprimerie de l'Association ouvrière, 1862.
14. Emile Keller, Le général De Lamoricière sa vie militaire politique et religieuse, tome 1, paris, René Haton, 1879.
15. Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840 , 1841, 1842, présentée par ordre du gouvernement, paris imprimerie impériale.
16. George Yver, correspondance capitaine Dumas consul à Mascara (1837- 1839), Alger, Adolphe Jourdan, 1912.
17. GIRAULT (Arthur) : Principes de colonisation et de législations coloniale, 3^opartie, AFR/Nord – Algérie P : 42-425 – 4^o éd, paris, 1921.

18. I. Derrien, Les français à Oran depuis 1830 jusqu'à nos jours, première partie, imprimerie J. Nicot, 1886.
19. Jean Lorrain, Heures d'Afrique, paris : Eugène Fasquelle, éditeur, 1899.
20. JULIEN (Charles-andré), Histoire de l'Algérie contemporaine, tome 1 : la conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871, Ed. P.U.F., 1979,
21. L. Bastide, Bel-Abbès et son arrondissement, Oran, typographie et lithographie, AD. Perrier, 1880.
22. La céne Khelil et Berkani, Les insurrections en Algérie (1830- 1900), Dahlab, 2^{ème} sem,2018.
23. Léon Adoue, La ville de Sidi-Bel-Abbès, histoire- légende- anecdotes, Sidi-Bel-Abbès, René Roidot, 1927.
24. Léon roches, Trente-deux ans à travers l'Islam (1832- 1864), tome premier, Algérie Abd-El-Kader, paris, imprimerie de l'institut, 1884.
25. Les illustrations du XLX siècle, deuxième série, paris, librairie Bloud et Barral.
26. Louis De Baudicour, La guerre et le gouvernement, paris, Sagnier et Bray, 1853.
27. Louis Rinn, Le royaume d'Algérie sous le dernier dey, typographie Gourdan, Alger, 1900.
28. M. A. De France, Les prisonniers d'Abd-El- Kader, cinq mois de captivité chez les arabes, deuxième édition, paris, Des essart et cle, 1837.
29. M. DE MNOTROND, Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830 à 1847, tome 2, paris : Imprimerie de E. Marc-Avrel, 1847.
30. MARTIN (Claude) ,Histoire de l'Algérie française 1830-1960,Paris,Edition des 4 filsRaymon ,1963 , 510 Pages

31. Mme La Ctess, L’histoire de l’Algérie racontée à la jeunesse, source Gallica, BNF, Fr.
32. Octave Teissier, Algérie, géographie, histoire, statistique, description des villes, villages et hameaux, organisation des tribus, nomenclature des Khalifaliks, Aghaliks et Kaïdats, Paris, Hachette et ce, 1864.
33. Oran et l’Algérie en 1887, Notice historique, scientifique et économiques, Oran, Paul Perrier, 1888.
34. OULDENNEBA (Karim) : HISTIOIRE et HISTORIOGRAPHIE – Tessala (Astacilis) Sidi-Ali Benyoub (Sévèriana) et Robba d’Ala Miliaria, Un pan de l’histoire de la région de sba. Edition Dar Quods, Oran-Algérie, 2021.
35. Pélissier De Reynaud, annales algériennes, tome troisième, Librairie militaire, Paris, 1854.
36. Pierre Montagnon, La conquête de l’Algérie 1830- 1870, paris, Pygmalion Gérard Watelet.
37. Procès verbaux et rapports de la commission nommée par le roi le 07 juillet 1833, paris, de l’imprimerie Royale, 1834.
38. Redouane Ainad Tabet, TayebNehari, Histoire d’Algérie Sidi-Bel-Abbés, de la colonisation à la guerre de libération en zone 5, wilaya V (1830- 1962), Alger, ENAG édition, 1999.
39. Rene Les pés, La population d’Oran de 1831 à nos jours son mouvement, ses éléments, sa répartition sur le site, Société anonyme des papeteries et imprimeries, L. Fouqué, Oran, 1935.
40. Répertoire alphabétique des tribus et douars de l’Algérie, S.P
41. Reutt Georges, La région agricole de Sidi Bel Abbes, direction des services agricoles des départements d’Oran, 1931.

42. Robert Tinthoin, Colonisation et évolution des genres de vie dans la région ouest d'Oran de 1830 à 1885, étude de géographie et d'histoire coloniales.
43. Rozet et Carette, Algérie, paris, Firmin Didot frères éditeur, 1850.
- 44.-SOUALAH (Mohamed). La Société indigène de l'Afrique du Nord. 3eme Partie. Alger (S.D).
45. Vincent Huet, Au pays arabe la virge des Beni-Amer, paris, A-L. Guyot, éditeur.
46. Walsin Esterhuzy, De la domination turque dans l'ancienne régence d'Algérie, librairie Charles Gosselin, paris, 1840.

ب- المقالات باللغة الأجنبية:

1. AGERON (Charles-Robert) « Fiscalité française et contribuables musulmans dans le Constantinois» In revue d'histoire et de civilisation du Maghreb (RHCM) , Alger , 1970 , N°9 .
2. AGERON (Charles-Robert). "Le premier vote l'Algérie musulmane. Les élections du collège musulman Algérien en 1919-1920". In revue Histoire et civilisation du Maghreb. N8. Jav 1970.
3. ALAUDE (Jacques). La question indigène de l'Afrique du Nord. (Son équivoque une maladie de la pensée politique française). 1863-1912.In Extrait de la Grande Revue. N des 10 février 10 Mars 1913. Paris.
4. Ben Hounet Yazid, « La tribu comme champ social semi-autonome », études essais, 2010.
5. Berque Jacques, « Droit des terres et intégration sociale au Maghreb », cahiers internationaux de sociologie, vol. 25 juillet- décembre 1958.
6. Boyer Pierre, « Historique des Beni Amer d'Oranie des origines au senatus consulte », revue de l'occident musulman et la méditerranée, n°24.

7. EMERIT. Marcel : La politique économique et sociale des bureaux arabes.
In Document Algérien. N 29. 10/08/1954.
8. Georges Yver, « Les Maronites et l'Algérie », *Revue Africaine*, 3^e et 4 trimestres, 1920
9. Guignard Didier, « Conservatoire ou révolutionnaire ? le sénatus-consulte de 1863 appliqué au régime foncier d'Algérie », Revue d'histoire du XIX^e siècle, n°41, 2010.
10. Montanos, Mers El-Kebir, *Revue Africaine*, volume 09, 1865.« Reue d'histoire moderne et contemporaine », tome 1, juillet-septembre 1954, Presses Universitaires, France.
11. OULDENNEBIA (Karim) : « Chrestomathie Arabe d'orientalistes Français en Algérie – Le Cas de Sylvestre De Sacy et Jacques Bresnier », In revue Maghrébine des études Historiques, Tunis, n°141, Avril 2011.
12. OULDENNEBIA (Karim) : « Histoire de L'état civil des Algériens – Patronymie et Acculturation », In revue Maghrébine des études Historiques et Sociales /édité par le Labo Algérie moderne et cont, UDL Sidi-Bel-Abbès, n°01/ Sept 2009.
13. OULDENNEBIA (Karim) : « Histoire du Tessala dans la longue Duree : du II^eme siècle jusqu'au début du XX^eme siècle », In revue OÛSSOUR / Académique review by Historical research « Sources and Biographies », University Oran 1.ISSN 1112-4237, n° 30-31 July-December2016.
14. OULDENNEBIA (Karim) : « La redoute Sidi-Bel-Abbès : Cinq années avant la fondation de la ville 1843-1849», In revue OUSSOUR Al-JADIDA / Académique revue by History Algéria Laboratory, University Oran 1.Issue – ISSN 2170-1636, n° 24-25 Summer-Autumn (October) 2016.
15. OULDENNEBIA (Karim) : « Les déportés de la région de Sidi-Bel-Abbès vers la Nouvelle Calédonie. [1864-1867] », In revue Maghrébine des études

- Historiques et Sociales /édité par le Labo Algérie moderne et cont.,UDL, El-Kounouz, n°07 /ISSN 2170-0060 Décembre 2013.
- 16.OULDENNEBIA (Karim) : « Lois Foncières et état civil en Algérie Coloniale », In revue Maghrébine des études Historiques /TUNIS - Tunisie, n°137, Mars 2010, Tunis .
- 17.OULDENNEBIA (Karim) : Histoire de Sidi-Bel-Abbès, Anomalies de deux Communes Coloniales, In histoire de région de Sidi-Bel-Abbès durant la période coloniale 1830-1962, Algérie, 2005.
- 18.OULDENNEBIA (Karim) :« AIN-TEMOUCHENT, Une commune coloniale ».In revue El-Hiwar El-Fikrie, Publication du laboratoire des études historiques et philosophiques, Constantine, n°07/avril2005.
- 19.Revue Africaine 1898, V42,
- 20.Revue Africaine, volume 65, 1924,
- 21.VIARD. (P.E). Sociaux et politiques en Algérie. Extrait de In revue questions Nord-Africaines . 4^{ème} année .N.11-15 Avril 1938.
22. ZENATI (R). " le problème Algérien vu par un indigène" in renseignements coloniaux et doc supplément de l'Afrique Française. Suite et fin. N6-Juin 1938.

رابعاً: الرسائل الجامعية.

أ- أطروحات الدكتوراه

1. بن داهة عدة، ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830-1962)، دكتوراه غير منشورة، إشراف: د. فغور دحو، جامعة وهران، 2007-2008.

2. بن صحرّوي كمال، أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري في أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، 2013.
3. حباش فاطمة، المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870)، تيارت، سعيدة، جيرفيل، البيض، نماذجا، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، 2013-2014.
4. حجازي مصطفى، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف: مجاود محمد، قسم التاريخ، جامعة الجيلالي ليابس- سيدي بلعباس، 2011/2012.
5. دادة محمد، "السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر 1852-1870"، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2003.
6. دباب بومدين، بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18- دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية، دكتوراه غير منشورة، إشراف: محمد مجاود، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس 2016-2017.
7. فافي صلاح الدين، القبيلة والمجال الحضري علاقات التفاعل والصراع، دكتوراه غير منشورة، قسم علم الاجتماع والديمقراطية، جامعة باتنة 1، 2015، 2016.
8. قوراري عيسى، قبيلة حميان من القرن 5-8هـ/ 11 إلى 14 ميلادي، دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2005/2006.
9. ولد النبيلة كريم ، بلدية عين تيموشنت المختلطة - الاستيطان والنظام الإداري المحلي في الجزائر ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر ، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية 1999-2000

10. ولد النبية كريم، الجزائريون والإدارة المحلية الاستعمارية/عمالة وهران-1866-

1947، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ حديث/معاصر. قسم التاريخ – كلية

الآداب - جامعة جيلالي ليابس، 2007/2006.

- DJERBAL Daho. Processus de colonisation et évolution de la propriété dans les plaines intérieures de l'Oranie. (Subdivision de Mascara et de sidi-bel-Abbes-1850-1920. Thèse de 3cycle en histoire .Paris. VII.sd.

الفهرس

الفهرس

كلمة شكر

إهداء

المختصرات

1 مقدمة

19 مدخل

20 أولاً: مفهوم القبيلة

20 1- مفاهيم عامة

26 2- القبيلة في كتابات ابن خلدون

29 3- القبيلة في شمال إفريقيا

35 ثانياً: أسس النظام القبلي

35 1- العصبية القبلية

38 2- أهمية النسب في القبيلة

42 3- البناء القبلي

45 ثالثاً: التركيبة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لبني عامر

45 1- اقتصادياً

48 2- اجتماعياً

52 3- ثقافياً

الفصل الأول:

57

قبائل بني عامر عشية الاحتلال

58 أولاً: وصف قبائل بني عامر

58 1- بنو عامر في كتابات ابن خلدون

62 2- بنو عامر في كتابات المشرفي

66 3- بنو عامر في كتابات بن عودة المزاري

70 4- بنو عامر عند الرحالة الأوروبيين

75	ثانياً: المعارك ضد الإسبان ومع الأتراك.....
75	1- دور بني عامر في الدفاع عن الجزائر.....
78	2- المقاومة مع الأتراك العثمانيين.....
81	3- سبب موالة الإسبان في وهران.....
84	4- الموقف من موالة الإسبان.....
87	ثالثاً: مظاهر انهيار وتفكك بني عامر.....
87	1- قمع السلطة العثمانية (بايلك الغرب).....
90	2- السيطرة الإسبانية على بني عامر.....
92	3- اضطهاد سلاطين المغرب لبني عامر.....
93	4- موقف المغرب من بني عامر.....
96	رابعاً: الولاء للدرقاوية والهجرة الأولى إلى المغرب 1805-1809.....
96	1- الولاء للدرقاوية.....
98	2- المشاركة في ثورة الدرقاوية.....
101	3- الهجرة الأولى إلى المغرب 1805-1809.....
103	4- الشيخ محي الدين وبنو عامر.....
106	الفصل الثاني
106	المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر (1832-1847)
107	أولاً: مبايعة الأمير عبد القادر.....
107	1- الدخول تحت طاعة الأمير.....
110	2- مكانة بني عامر لدى الأمير.....
114	3- رفض دفع الضرائب والخروج عن الطاعة.....
118	4- تحريض لنقاد ضد بني عامر.....
120	ثانياً: دور بني عامر في مقاومة الأمير عبد القادر.....
120	1- تعداد قبيلة بني عامر.....
124	2- المعارك مع الأمير.....
126	3- المشاركة في تأديب القبائل الخارجة عن الطاعة.....
128	4- المعاناة من السياسة الاستعمارية.....

134	ثالثاً: تجسيد الاستيطان على أراضي بني عامر.....
134	1- بناء مركز استيطاني على أراضي بني عامر.....
137	2- الهجوم على مركز سيدي بلعباس.....
140	3- قمع أولاد إبراهيم.....
142	4- التعمير الأوروبي للمنطقة منذ 1848.....
147	رابعاً: قبائل بني عامر في المغرب 1845-1848.....
147	1- أسباب النزوح إلى المغرب.....
150	2- القبائل التي لم تهجر.....
151	3- إبادة قبائل بني عامر في المغرب.....
156	4- محاولة الأمير عبد القادر إنقاذ بني عامر.....
160	الفصل الثالث:
160	بنو عامر بعد العودة من المغرب
161	أولاً: عوامل التفكك بعد 1845.....
161	1- ظروف العودة.....
164	2- عراقيل العودة.....
166	3- فقدان الأراضي.....
168	4- نتائج المأساة.....
171	ثانياً: انعكاسات الهجرة.....
171	1- المشكل الديمغرافي.....
173	2- ظروف المعيشة.....
177	3- التضرر من التشريعات العقارية.....
181	4- تعداد بني عامر.....
183	ثالثاً: توزيع الأراضي بعد العودة.....
183	1- الأهمية الإستراتيجية لأراضي بني عامر.....
185	2- وصف حالة الأراضي.....
187	3- إحصاءات العائدين.....
190	4- إعادة توطين القبائل.....

193	رابعاً: تطور بعض فصائل بني عامر بين 1851 و1866.....
193	1- أولاد إبراهيم.....
195	2- أولاد سليمان.....
199	3- أولاد علي.....
203	4- الحجز.....
207	الفصل الرابع:
207	استمرار التفكك في سياسة نابوليون الثالث.
208	أولاً: سياسة الإمبراطورية الثانية في الجزائر 1832-1870.....
208	1- تهجير الأوروبيين والاستيطان.....
211	2- محاولة الإدماج الكامل للجزائر.....
214	3- تغير سياسة نابليون بعد 1860.....
217	4- تعدد مواقف الإمبراطور تجاه الجزائر.....
221	ثانياً: القرار المشيخي سيناتيس كونسيلت 22 أفريل 1863.....
221	1- الأسباب والأهداف.....
223	2- الظروف التي صدر فيها.....
226	3- مضمونه.....
229	4- صعوبات تطبيق القرار المشيخي.....
223	ثالثاً: انعكاسات القرار المشيخي على بني عامر.....
223	1- تطبيق سيناتيس كونسيلت 1863.....
236	2- التطبيق على الحجز (نموذجاً).....
239	3- دور سيناتيس كونسيلت في إنصاف بني عامر.....
243	4- تفتيت الملكية الجماعية وتأسيس الدوار.....
248	رابعاً: التفكك النهائي لبني عامر.....
248	1- تغير عقلية البدو والتشتت.....
251	2- من الرعي إلى الزراعة.....
255	3- محو الهوية القبلية.....
259	4- المواطن الحديثة لبني عامر.....

268	خاتمة
274	ملاحق
305	ببليوغرافيا
333	الفهرس

الملخص:

يعتبر تاريخ قبيلة بني عامر في الجزائر من المواضيع الشائكة التي تناولها الباحثون والمؤرخون، والتي لا يزال مجال البحث فيها خصبا، وتأتي دراستنا هذه المتعلقة بقبائل بني عامر في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية لإزالة اللبس والغموض عن مختلف الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لهذه القبائل بجكم التحولات والتفاعلات التي عاشتها بدءا بجذورها التاريخية المرتبطة بتأثير الظروف التي عايشتها على مواقفها، ووصولاً إلى الدور الذي لعبته منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر منذ 1830 والدور الذي لعبته في مقاومته تحت لواء الأمير عبد القادر، حيث أدى ذلك إلى تهجيرها وتعرضها للإبادة في المغرب، وبعد رجوعها تعرضت للتفكيك مع سيناتيس كونسيلت الذي غير هويتها القبلية واستبدلها بالوحدة الإدارية المعروفة بالدوار.

الكلمات المفتاحية: القبيلة، الهوية القبلية، بنو عامر، كنفدرالية، فصائل، إبادة، تفكيك، التشريعات العقارية، سناتيس كونسيلت، الدوار.

Abstract:

The history of the Bani-amer tribe in Algeria is one of the complicated issues that researchers and historians have dealt with, and which is still important field of research, Our study on the tribes of Bani-amer in Algeria during the colonial period comes to remove the confusion and ambiguity about the various social, political and economic aspects of these tribes, with the bulk of the transformations and interactions that they have lived, starting with their historical roots related to the influence of the conditions they lived through on their positions, and up to the role they played since the French occupation of Algeria since 1830. And the role that it played in its resistance under the banner of Prince Abdul Qadir, As this led to her displacement and extermination in Morocco, and after her return she was subjected dis assembled with Senatis Consult, who changed her tribal identity and replaced it with the administrative unit known as douar.

Key words: tribe, tribal identity, Banu-Amer, confederation, factions, extermination, dismantling, real estate legislation, Presbyterian decision, douar

Résumé :

Il est considéré que l'histoire de la tribu béni ameur son parmi les sujet épineux que les chercheurs et historiens son à l'heure actuelle toujours en train d'éclaircir, nos recherches concernant cette tribu en Algérie pendant la période coloniale demeurent encore floues et confuses sur divers volets à savoir :social ,politique, et économique, l'impact qu'a joué la présence coloniale sur cette tribu depuis 1830 et son rôle sur la résistance menée par l'autorité de l'émir abdelkader, à savoir une délocalisation au Maroc et une tentative d'extermination , après le retour de cette tribu sur ses terre d'origines, cette même tribu a été divisé par sénatus consulte qui a modifié l'identité tribale et transformé l'unité administrative par la constitution de douar.

Mot clés : tribu, identité tribale, beni-ameur, confédération, factions, l'extermination, démantèlement, législation immobilière, sénatus consulte, douar.